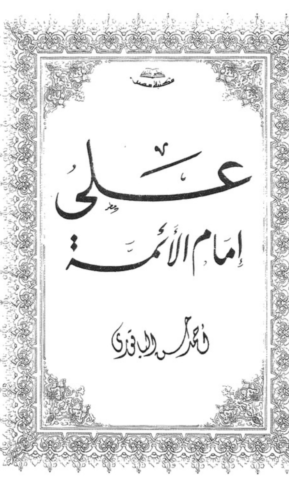


مكتبة مصر

علي

إمام الأئمة

أحمد حسن الباقوري

مطبوعات مكتبة مصر



تأليف

أحمد حسن الباقوري

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء الكتاب

إلى رحاب أبي الحسنين إمام الأئمة على بن أبي طالب ، ثم إلى كل مسلم يعتز بأبطال الجهاد فى سبيل الله ، أهدى هذا الكتاب .

ومما تقرُّ به أعين هؤلاء وتنشرح له صدورهم ، أن أجمل لهم سيرة الإمام — كرم الله وجهه — فى قصيدة كنا نتغنى بها فى الثلاثينيات ، ونحن ندرس علوم البلاغة والأدب على أيدى صفوة من شيوخ الأزهر وأساتذة الأدب العربى .

وكان قد نظم هذه القصيدة العصماء الشيخ محمد عبد المطلب الأستاذ بمدرسة دار العلوم .

ولعل مما يسعد الأدباء والمتأدبين أن يعرفوا أن هذه القصيدة سماها ناظمها « علوية عبد المطلب » ، على مثال « عمرية حافظ » وأنها لا تكاد توجد إلا عند أقرباء الشاعر العربى الصميم ، قرابة عرق أو قرابة علم وأدب .

وقد كنت أوثر أن أخرج للناس هذه القصيدة مصحوبة بشرح ضاف لحقائقها ومجازاتها ، ثم مزدانة بسيرة الشيخ الجليل فى علمه الواسع وأدبه الرفيع وسيرته العطرة فى وفائه لعرقه العربى وثقافته الإسلامية ، وعزوفه عما كان يهيم به أمثاله من التزلّف إلى كل ذى جاه على شدة حاجته إلى معونة أولئك الذين يستطيعون المنح والمنع حين تعنو لهم الوجوه وتتخاضع لسلطانهم الرقاب ، ولكن أبى الله إلا أن يزدان بها صدر هذا الكتاب الذى أرجو أن يكون خالصا لله وسبيلا إلى السعادة بمرضاة آل البيت النبوى الكريم ، والله من وراء القصد وهو — سبحانه — حسبنا ونعم الوكيل .

وإليك هذه القصيدة التى هى معوان — أى معوان — على الإلمام بسيرة الإمام رضى الله عنه وأرضاه :

تَبَصَّرْ هل ترى إلا عليًّا ... إذا ذُكِرَ الهدى — ذاك الغُلامَا
غلامٌ آثر الإسلام دينا ... ولمَّا يَعْدُ أن بلغ الفطاما
إذ الروحُ الأمين أتى بدينٍ ... يردُّ إلى هُدَى الحق الأناما
فكهلٌ فى جهالته تولَّى ... وشيخٌ فى ضلالته تعامَى
وآخرُ لا يبينُ له جوابٌ ... أطاع الصمت واجتنبَ الكلاما
ولجَّت فى عمايتها قريشٌ ... تصارحهُ العداوةَ والخِصَامَا
وجاشت بين أضلعها قلوبٌ ... على الإسلام تلتهبُ احتداما
فما فعل الفتى والشرُّ تَغْلى ... مراجله وتهتزمُ اهتزاما
مضى كالسَّيْفِ لم يعقد إزاراً ... على ريبٍ ولم يشدد حزاما
يروح على مجامعهم ويغدو ... كشبلِ الليث يعترمُ اعتراما
صغيرُ السن يخطرُ فى إباءٍ ... فلا ضيماً يخاف ولا ملاما
وما زالت به الأيامُ ترقَى ... على درج النُّهَى عاما فعاما
وقد جَمع الحِجَا والدين فيه ... خلائقَ تجمعُ الخيرَ العظاما
ولن ينسى النبيُّ له صنيعاً ... عشيَّةَ ودَّعَ البيتَ الحراما
وفى أم القرى خلّ أخاه ... تسجَّى فى حظيرته وناما
ولم يأبه عليٌّ للمنايا ... ولم تُقْلق بجفنيه مناما
تخلَّف عنه كى يقضى حقوقاً ... على خير الورى كانت لزاما
وما صهرُ النبى إذا تنادَوْا ... كمن يدعو رَبيعة أو هِشاما
ومن تُهدَى البتول له عروساً ... بنى فى النجم بيتاً لا يُسامَى

بأمر الله زفُّوها إليه   عشية راح يخطبها وَسَامَا
كأنى بالملائك إذ تدلت   بصحن البيت تَزْدَحم ازدحاما
فلو كُشِفَ الحجابُ رأيت فيه   جنودَ الله تنتظم انتظاما
أطافوا بالحظيرة فى جلال   صفوفا حول فاطمةٍ قياما
تَفيضُ على مِنصتها وقاراً   وتكسو حسنَ طلعتها وِسَامَا
فلا يَحْزنُ خديجة أن تولَّت   ولم تبلغ بجلوتها مراما
تولّاها الذى ولّى أباها   رسالته وزوَّجها الإماما
قرانٌ زاده الإسلام يُمْناً   وشملٌ زاده الحبُّ التئاما
فإن تك خيرَ من عقدت إزاراً   وأكرمَ من تلثَّمت اللِّثامَا
فما شغلته عن خوض المنايا   إذا التطمت زواخرها التطاما
فسائل عنه فى أُحُدَ العوالى   وقد حَلَكَ العَجاجُ بها وآما
وسائل يوم خيبر عن على   تجد فيها مآثره جساما
إذ الراياتُ فى جهد عليها   تعاصىْ الفتح وانبهم انبهاما

* * *

دع الحوماتِ عنك فتى المغازى   ومن سلَّ السيوفَ بها وشاما
وسل أهل السلام تجد علياً   أمامَ الناسِ يبتدر السلاما
حوى علم النبوةِ فى فؤادٍ   طما بالعلم زخّاراً فطاما
سقاه الحقُّ أفواقَ المعانى   وهيَّمهُ به حُباً فهاما
وزوده اليقينُ به فكانت   أفاويقُ اليقينِ له قِواما
فكم أجرى على المحراب دمعاً   لخوف الله ينسجمُ انسجاما
إذا ما قام فى المحراب قامت   له زُمَرُ الملائكةِ احتراما

صلاةُ الليل يجعلهــا سَحُــوراً إذا ما في الغـداةِ نوى الصيامــا
رأينا في الكهولة منه شيخــاً هوى المجدَ اشتمـالًا واعتمامـا
فما للدهرِ لم يعرف حقوقــاً له شيخاً ولــم يُنكـر ظِلامــا
أَلا تبَّت يدٌ بالغــــــدر ثارت تَمُدُّ إلى أبــي حسنٍ حُسامــا
لو ان السيــف كان له خيــارٌ لعــرَّد عنــه وانثَلَــم انثلامــا
ولكــن الــــقضاء جرى برُزءٍ له انحلّت عرى الصبر انفصامـا
فبعدًا لابن مُلجِــمَ يوم يأتــي يجر بردغة الخَيْــلِ اللجامــا
به فجــع المدينــة والمصلَّــى وزلـزل بطـن مكَّــة والمقامــا
ولـولا الغـدر لم يرفــع جبينــا لهيبتــه ولا نظــــرا أسامــا
نعىٰ الناعي أبا حسنٍ فمــالت رواسي الأرض تندك انهدامــا
بروحــي غُرَّةٌ يجــرى عليهــا دم أزكـى من المسك اشتمامـا
جبيــنٌ زاده بالمــــوت نوراً لقـــاء الله فأتَلَــــقَ ابتسامــــا
بنفسي إذ يجــود بخيــر نفسٍ تخاف على الحنيفة أن تُضامـا
مضىٰ زَيْنُ الصحَابَةِ في سبيــلٍ إلــى ملأٍ بجيرتــه استهامــــا
إلــى دار السلام مضى علــيٌّ وجـاور في منازلهــا السلامــا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، حمدا يستبقى لأهل الإيمان أفاويق النعماء ، ويستدفع عنهم أهاويل البلاء .

والصلاة والسلام على سيد ولد آدم محمد عبد الله ورسوله خاتم الأنبياء والمرسلين ، صلى الله عليه وآله وصحبه وعلى جميع إخوته من الأنبياء والمرسلين .

رغبت إلىّ — أعزك الله — أن أخرج للناس عن الإمام على — كرم الله وجهه — كتابا يتجهم الغالين(١) فيه ، ويزدرى القالين(٢) له ، ويذكر أولئك وهؤلاء بما يرويه الثقات عن رسول الله من قوله لعلى يلفته إلى قابل تكتنفه شدائد لا يصبر على لأوائها إلا المجاهدون الصادقون :

« يهلك فيك يا على اثنان : محب غال ، ومبغض قال » .

وما كان رسول الله صلوات الله عليه ليرمى بالكلام على عواهنه ، فإذ قد أنذر بالهلاك الغلاة والقلاة فقد كان حقا على المسلم أن ينصح لإخوته من أهل الإسلام ، بلزوم القصد ، وإيثار التوسط بين الإفراط والتفريط أداء للأمانة التى وضعها الله تعالى فى أعناق القادرين وأمرهم بأدائها ، أمرا لا يحتمل التأويل : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا ﴾ (٣).

(١) الغالين : من جاوزوا حد الاعتدال فى حب الإمام على كرم الله وجهه .
(٢) القالين : من أبغضوا — أشد البغض — عليًّا كرَّم الله وجهه .
(٣) النساء ٥٨

ولست أكتمك — حفظك الله — أننى ظللت أمدا طويلا ، نهبى حيرة تؤرق ليلى وتزعج نهارى ، خشية أن أكون سلكت طريقا خفى المعالم واحتملت أمانة ثقيلة التبعات .

ولكنى استعنت الله — ضارعا إليه — جل ثناؤه أن يقيمنا على حاق الطريق ، عائذين به من العجب بما نحسن ، ومن التكلف لما لا نحسن ، وهو سبحانه أعظم مأمول وأكرم مسئول ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير .

إمام الأئمة « كرم الله وجهه »

أحسب أنك متطلع إلى معرفة البواعث على تسمية هذا الكتاب بهذا الاسم الشريف « على إمام الأئمة » .

فإذا كنت حريصا على ذلك ، فاعلم — أعزك الله — أن ها هنا أمرين لا بد من وقفتين حيالهما وسوف يفضيان بك إلى اجتلاء هذه الدواعي شامخة المعالم خافقة الأعلام .

وأولى الوقفتين ، حول اختصاص الإمام من بين الصحابة بكلمة « كرم الله وجهه » ، حتى إنك لو سمعت هذه الكلمة مترددة فى حديث مجلس أو مستعلنة فى صحائف كتاب ، لانصرف ذهنك إلى الإمام على بن أبى طالب دون سواه من عباد الله أجمعين .. ذلك أن الإمام بحكم نشأته فى بيت النبوة — لم يسجد لصنم قط ، ومن حق الوجه المصون من ذل السجود للأصنام أن يقترن اسمه بتكريم وجهه ، إما إخبارا عنه وإما دعاءً له . وربما زكى هذا المعنى فى نفسك أن تتمثل شخصه الكريم وقد اعتنق الإسلام وسنه لم تجاوز عشرة أعوام ، ثم صلى مع رسول الله فى بيته وفى غير بيته كما يروى ذلك الحافظ النسائى عن أسد بن وداعة أن رجلا يدعى « عفيفا » قال : جئت فى الجاهلية إلى مكة أبتاع لأهلى من ثيابها وعطرها ، فأتيت العباس بن عبد المطلب فجلست عنده حيث أنظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس فى السماء فارتفعت وذهبت ، إذ جاء شاب فرمى ببصره إلى السماء ثم قام مستقبل القبلة ، ثم لم ألبث إلا يسيرا حتى جاءت امرأة فقامت خلف الشاب والغلام ، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة ، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة ، فسجد الشاب فسجد الغلام والمرأة . فقلت : يا عباس ،

أمر عظيم . قال العباس : أمر عظيم ، أتدرى من هذا الشاب ؟ إنه ابن أخى محمد بن عبد الله . أتدرى من هذا الغلام ؟ إنه على ابن أخى أبى طالب . أتدرى من هذه المرأة ؟ إنها خديجة بنت خويلد زوجة محمد ، وقد أخبرنى محمد أن ربه رب السماء والأرض ، وأنه أمره بهذا الدين الذى هو عليه ، ولا — والله ما على الأرض كلها أحد على هذا الدين سوى هؤلاء الثلاثة .

فإذا قد صح بهذه الأخبار الموثوقة أن الإمام لم يسجد لصنم بل كان يعبد الله راكعا ساجدا ، فقد صح ما ذهبت إليه الأمة الإسلامية سلفا وخلفا من أن الإمام أحق أصحاب رسول الله بتكريم وجهه كلما تحدث عنه متحدث فى ناد أو كتب عنه كاتب فى صحيفة أو مجلة أو كتاب .

هذا .. وأما الوقفة الثانية ، فإنها تنظر إلى اعتباره — كرم الله وجهه — إمام الأئمة . وجملة القول فى هذا المعنى أن أهل الدين فى الأرض ، ذات الطول والعرض ، معنيون بدرس سيرته وأهل بيته ، وقد أجمعوا على نِسْبَةِ الفضل إليه نسبة تستند إلى أوثق وثائق التاريخ . فإذا نظر الناظر إلى منزلته بين أهل الإسلام فإنه سيجده شيخ أئمة المسلمين على اختلاف المذاهب والمشارب ، فهم يتجاذبونه تجاذب المعتز به ، ويتنافسون فى الأخذ عنه والاعتزاء إليه مهما اختلفت بهم طرائق التفكير فى آفاق العلوم والفنون .

سمات الرجال مفاتيح تراجمهم

غير خفى على البصراء باللغة العربية الشريفة أن سمات الشيء كاشفة عنه ودالة عليه ، وغير خفى أيضا على البصراء بتراجم الرجال أن السمات تنتظم الأنساب والصفات ، فكلاهما معوان على تجلية الموصوف تجلية لا لبس فيها ولا غموض . ومن هنا نرى كتّاب السيرة النبوية الشريفة يبدءون بسرد نسب رسول الله ، ثم يتبعون نسبه الزكى صفة خَلقِه الشريف وخُلقِه العظيم ، فإذا هو ملء العيون جلالة وملء القلوب مودة . وكأنهم يرون شخصه الشريف بغير حجاب فى قيامه وقعوده ، وركوعه وسجوده ، وحديثه إلى أصحابه واستماعه إليهم ، وما إلى ذلك من كل ما يحرص على العلم به أولياؤه وأعداؤه على سواء .

ولست تقول غير مقول إذا ذكرت أن الذين كتبوا سيرة رسول الله على هذا النحو الشريف من سرد نسبه والإلمام بصفته ، إنما آثروا القدوة به فى حديث له إلى أصحابه يصف فيه لهم موسى وعيسى وإبراهيم عليهم جميعا أفضل الصلاة وأزكى السلام .. ذلك أنه قال لأصحابه : « لقد أريت ليلة أسرى بى — موسى — فإذا هو ضرب من الرجال أسمر كأنه من أزد شنوءة ، ورأيت عيسى بن مريم فإذا رجل أبيض مبطن كأنه السيف وكأنما خرج من ديماس ، ورأيت إبراهيم فإذا أشبه الناس به صاحبكم ، يعنى نفسه صلى الله عليه وسلم .

شرف البُنُوّة من شرف الأُبُوّة

غير ذي حاجة إلى بيان أن الإمام كرم الله وجهه له فى شرف العروبة موضع كريـــم ، ولـــه من أدب الإسلام حظ عظيـــم . ولست ترتاب ــ رحمك الله ــ فى أنه إذا اجتمع أدب الإسلام إلى شرف العروبة فتلك هى الغاية التى يكون الظافر بها ملَكًا يمشى على قدمين فى دنيا الناس .

وقد يتجهم بعض المنتسبين إلى العلم هذه الكلمة التى تضفى على الأمة العربية فى جاهليتها شرفا يقابل أدب الإسلام . وربما استند هذا البعض إلى أن تلك الأمة كانت أسيرة للخرافات والأوهام ، فهم فى مجال العقائد عبدة أصنام ، وفى مجال السلوك أسرى أوهام .. يأكلون الميتة والدم ، ويقتلون أولادهم من الفقر أو خشية الفقر ، ويدسون بناتهم تحت التراب أحياءً دون أن تصرفهم عن هذه القسوة عاطفة من أبوة ، أو نازعة من إنسانية ، إلى رذائل كثيرة لا يحصرها العد ، ولا يطمع فى تجليتها بيان .

فكيف يسوغ للمنصف أن يسوى بين الأمة العربية فى صورتها هذه وبينها فى صورتها التى يقول الله تعالى فيها ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾(١) .

وأحسب أنك ــ غفر الله لك ــ قد غلوت فى مقالتك هذه غلوا تعديت به حدود الاعتدال ، وكدت تلتحق ــ من حيث لا تريد ــ بالشعوبيين الذين يتعصبون على الأمة العربية لقومياتهم الجاهلية ، وإلا فإن ها هنا أمرين يردان عليك رأيك الظلوم .

أحدهما : أن الرذائل الاجتماعية فى الأمة العربية الجاهلية إنما هى فضائل تطرفت فانقلبت إلى رذائل .

---

(١) آل عمران ١١٠

وثانيهما: أن فى تدبر القرآن والتأمل فى السيرة واستعراض أقوال السلف الصالح ، ما يعلو بالأمة العربية الجاهلية إلى أفق رفيع من مكارم الأخلاق .

وإليك ما يشير إليه القرآن لمن يتدبرونه ، ثم ما تشير إليه السيرة ، ثم ما تضمنته أقوال السلف الصالح مما يضع الأمة العربية الجاهلية موضع تشريف وتكريم .

فأما القرآن ، فقول الله من سورة الزخرف : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾(١) . ثم اضمم إلى هذه الآية من سورة الزخرف الآية من سورة الأنبياء : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٢) .

وقد تسأل — أعزك الله — عما انتظمته الآيتان مما تقوم به الحجة على أن للعرب فى الجاهلية أخلاقا شريفة يورثها الآباء والأجداد .. الأبناء والأحفاد .

وجواب سؤالك هذا مرتبط بكلمة « الذكر » فى الآيتين ، ذلك أن الذكر يشير إلى الشرف وحسن الأحدوثة بين العالمين على ما يقول شارح القاموس : إن الذكر يجئ بمعنى الشرف ، وبه فسر قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾(٣) . يعنى أن القرآن شرف لك يا محمد ولقومك من العرب . وكذلك ورد الذكر فى القرآن كما فى قوله تعالى خطابا لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾(٤) السورة . فإن المراد برفع ذكره تشريفة وإبعاد صيته فى العالمين بخير ما يقترن به بعد الصيت ونباهة الشأن . وما كان الله تعالى ليرفع من ذكر خسيس قط .

---

(١) الزخرف ٤٣ (٢) الأنبياء ١٠

(٣) الزخرف ٤٤ (٤) الشرح ١ — ٦

هذا ما يتعلق بالقرآن الكريم من تشريف الله لتلك الأمة المجيدة ، وأما ما يتعلق بالسنة الشريفة فحديث يرويه الإمام السهيلي في روضه ، خلاصته أن رسول الله كان يعرض نفسه على القبائل في أسواق العرب ، وذات يوم خرج إلى منى ومعه أبو بكر وعلى رضى الله عنهما . واستعرض أبو بكر مجالس القوم فإذا مجلس عليه السكينة والوقار ، فتقدم فسلم ثم قال : ممن القوم ؟ .. قالوا : من شيبان بن ثعلبة . فقال أبو بكر لرسول الله : بأبي أنت وأمي ، هؤلاء غرر في قومهم ، وفيهم مفروق بن عمرو وهانئ بن قبيصة والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك ، وكان مفروق قد غلب على القوم جمالا ولسانا وكانت له غديرتان(١) تسقطان على تريبتيه(٢) ، وكان أدنى القوم مجلسا من أبي بكر فسأله : كيف العدد فيكم ؟ فأجابه مفروق : إنا لنزيد على ألف ولن تغلب ألف من قلة . فسأله أبو بكر أيضا : كيف المنعة فيكم ؟ .

فأجابه : علينا الجهد ولكل قوم جد(٣) . فسأله أبو بكر : كيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟ . فأجابه : إنا لأشد ما نكون غضبا حين نلقى ، وأشد ما نكون لقاء حين نَغْضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله يديلنا(٤) مرة ويديل علينا أخرى ، ولعلك أخو قريش . فقال أبو بكر : أوَقد بلغكم أنه رسول الله ، ها هو ذا . قال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك . ثم توجه بالخطاب إلى رسول الله : ما الذى تدعو إليه يا أخا قريش ؟ فتقدمَ رسول الله فقال — صلوات الله عليه : (أدعو إلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، وأني رسول الله ، ثم أدعوكم إلى أن تؤوونى وتنصرونى ، فإن قريشا ظاهرت على أمر الله

---

(١) ضفيرتان .
(٢) عظمتى صدره . ترقوتيه .
(٣) الحظ والنصيب .
(٤) ينصرنا .

وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغنى الحميد) . فقال مفروق : وإلام تدعو أيضا يا أخا قريش ؟ فتلا عليهم رسول الله الآيات من آخر سورة الأنعام : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(١) . فلما فرغ رسول الله من تلاوة الآيات قال له مفروق : وإلام تدعو أيضا يا أخا قريش ؟ . فتلا رسول الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(٢) . فقال مفروق : دَعَوْتَ — والله — يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولو لم يكن الذى تدعو إليه دينا لكان فى أخلاق الرجال حسنا ، ولقد أفك — والله — قوم كذبوك وظاهروا عليك .

ولم يشأ مفروق أن يستبد برأيه فأحب أن يَشركه فى الكلام هانئ بن قبيصة فقال : إن فى مجلسنا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا فلنسمع قوله . فقال هانئ : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وإنى أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ، إنما هو زلة فى الرأى وقلة نظر فى العاقبة ، وإنما تكون الزلة مع العجلة . ثم إن من ورائنا قوما نكره أن نعقد عليهم عقدا دون أن نعرف رأيهم ونسمع قولهم ، فلنرجع إليهم ولترجع أنت يا أخا قريش فننظر وتنظر . وقد أحب هانئ أن يشركه فى الرأى المثنى بن

---

(١) الأنعام ١٥١ — ١٥٢ (٢) النحل ٩٠

حارثة صاحب الحرب ، فقال المثنى : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة فى تركنا ديننا واتباعنا إياك فى مجلس جلسته إلينا ليس له أول يعرف ولا آخر يوصف . ونحن نزلنا بين أنهار كسرى ومياه العرب ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثا ولا نؤوى محدثا ، وإن الأمر الذى تدعو إليه — يا أخا قريش — هو — مما تكرهه الملوك . فإن .. أحببت أن نُؤْوِيَكَ وننصرك مما يلى مياه العرب ، فعلنا . فقال رسول الله ﷺ — : « ما أسأتم فى الرد بل أفصحتم بالصدق ، ولكن دين الله لا ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه . ثم نهض صلوات الله عليه فأخذ بيد أبى بكر قائلا : (أية أخلاق فى الجاهلية هذه الأخلاق ، ما أشرفها ! بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض وبها يتحاجزون فيما بينهم) .

هذا وأما المأثور عن الأسلاف الموثوقين فكلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حيث يقول : « إنى لأعلم متى تهلك العرب : إذا ساقه من تَرَك الجاهلية فلم يأخذ بأخلاقها ، وساقه من أدركه الإسلام فلم يقذه[١] الورع » .. فقد عدل أبو حفص عمر خلق الجاهلية بورع الإسلام ، وذلك تكريم لأخلاق العرب فى الجاهلية لا تخفى معالمه على البصراء بحر الكلام .

وخليق بك بعد هذا الذى ذكرنا لك أن تضع نصب عينيك أمرين لا ندحة لك عن تمثلهما فى مجال الحديث عن الإمام كرم الله وجهه :

أحدهما : أن للأمة العربية فى جاهليتها أخلاقا شريفة لا يجهلها إلا جهول ولا يجحدها إلا جحود . **وثانيهما** : أن أوفر الناس حظا من تلك

(١) الوقذ : الضرب على مواضع يشتد عليها وهى المرفق وطرف المنكب والركبة والكعب ، وربما تجوزت العرب بهذه الكلمة فقالت وقذته العبادة ووقذته كلمة سمعها من صديقه .

الأخلاق الشريفة هم سادة الأمم وكبراؤها وأهل الأحساب فيها ، وهؤلاء في الأمة العربية هم الذين ينتهون بهاشم في قريش ويبتدئون بكنانة في ولد إسماعيل ، على ما جاء ذلك في الحديث النبوى الشريف : (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى بنى هاشم من قريش واصطفانى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار) .

وليس يغيب عنك أن الإمام هو ابن عم رسول الله فكل شرف فى رسول الله — ﷺ — من هذا الجانب — هو شرف للإمام على كرم الله وجهه ، وما من شك فى أن الأبناء والأحفاد يرثون عن الأجداد والآباء صفاتهم الخلقية والنفسية ، كما يرثون عنهم أوصافهم الجسمانية الظاهرة .

وبتمثلك هذه المعانى وفقهك إياها يبدو لك على غاية الوضوح أن الإمام — كرم الله وجهه — له فى شرف العروبة مقام كريم وله من أدب الإسلام حظٌّ عظيم .

وإذ قد أفضى بنا تداعى المعانى إلى هذه المرحلة من الحديث ، فإن من الحق الذى لا يمل الاقتضاء ، أن نذكر لك نسب الإمام كرم الله وجهه من قبل أبيه وأمه ، وسوف يفضى بك النظر الصحيح إلى الإيمان البصير بأن البيت الهاشمى الذى نشأ فيه هو أشرف بيوتات قريش ، وأن قريشا سليلة ورع دينى عريق ، وحِسّ حضارى دقيق . فأما الورع الدينى العريق فمرده إلى قانون الوراثة الذى لا يختلف الناس عليه ، إذ كان له سند صحيح يؤيده العلم ولا ينكره الدين .

وأما الحِسّ الحضارى الدقيق فمرده إلى الأب الأعلى إبراهيم الذى تزوج بهاجر فأولدها إسماعيل بن إبراهيم . وليس بخفى على أهل العلم أن إبراهيم سليل حضارة بابلية عريقة ، وأن هاجر سليلة حضارة مصرية أعرق ، وسنة

الحياة جارية على أن الوارث أبويه يورث أولاده ، فإذ قد ورثت قريش عن إبراهيم وهاجر الوجدان الدينى العريق والحس الحضارى الدقيق ، فليس بمستنكر أن تورث قريش سلائلها من الرجال والنساء ذلك الوجدان الدينى وذلك الحس الحضارى .

وكذلك جمع الله تعالى لعلى رضى الله عنه بين الوجدان الدينى العريق والحس الحضارى الدقيق ، إذ كان أبو طالب وسطا فى بنى هاشم غير مجهول القدر ، ولا مجحود الفضل فى كفالته محمدا وحمايته إياه رسولا يبلغ رسالة الله إلى العالمين ، تحقيقا لدعوة أبويه إبراهيم وإسماعيل فى قول الله تعالى من سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمِ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(١) .

---

(١) البقرة ١٢٧ — ١٢٩

نسب الإمام كرم الله وجهه

أسلفنا لك أن الأمة العربية سليلة أبوين نشأتهما بيئتان عريقتان فى الحضارة والدين وهما : إبراهيم وهاجر عليهما السلام .

ولئن كان إبراهيم العربى الكلدانى قد نشأته حضارة عريقة فى وادى دجلة والفرات ، لقد نشأت هاجر العربية المصرية حضارة أبين عراقة فى وادى النيل .

ولعلك لا تزال تذكر أن الوراثة قانون تلقاه أهل العلم والمعرفة ، بالإذعان له والنزول على حكمه فى الأوصاف الجسمانية الظاهرة والأوصاف الوجدانية الباطنة على سواء . وقد كان طبيعيا أن ترث الأمة العربية عن أبويها إبراهيم وهاجر ما كانا يمتازان به من الوجدان الدينى العريق والحس الحضارى الدقيق .

وإن من الحق علينا لك أن نُذكرك — أعزك الله — بأن الإمام كرم الله وجهه ، قد ورث عن أبويه الأدنين أبى طالب وفاطمة ما يؤيد وراثته عن أبويه الأعلين إبراهيم وهاجر — رضى الله عنهم أجمعين .

وأحسب أنك تطمح إلى الإلمام بسيرة أبى طالب والد الإمام ، ثم إلى الإلمام بسيرة فاطمة أمه عليهما رحمة الله .

أبو طالب والد الإمام

هو شيخ بنى هاشم أبو طالب بن عبد المطلب العم الشقيق لرسول الله ﷺ ، وقد كفل ابن أخيه محمدا بوصية من أبيه عبد المطلب بن هاشم فأنفذ الرجل وصاة أبيه فى كفالة محمد ورعايته صغيرا ، ثم فى حياطته ملازما له فى الحل والترحال ، ثم فى تزويجه بخديجة بنت خويلد وإصداقها من ماله الخاص . فلما اختارت عناية الله محمدا — ﷺ — رسولا إلى العالمين ، كان أبو طالب نصيرا له يدافع عنه أعداءه ويشجعه على إبلاغ رسالة ربه ، باذلا فى سبيل حمايته والانتصار له والاعتزاز به مالا يبذله إلا مثل أبى طالب فى اعتزازه بحسبه وعزوفه عما يشين أصحاب المروءات . وقد أعد الرجل من نفسه عزْمةً صادقة صارمة تستجيب للملهوف وتغيث المستغيث إذا فزع إليه كل من أرهقَتْهُ مطالب العيش وأثقلت كاهله هموم الحياة . ولقد كان وجود أبى طالب فى نصرة رسول الله ضرورة من ضرورات الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، إذ كان سندا للدعوة المحمدية لا بد منه لقيامها ومضيها إلى غايتها بين جهل الجاهلين وتربص المتربصين . ذلك أن من سنن الاجتماع البشرى ألا ينتصر رجل ولا مبدأ ولا دين ما لم يستند إلى عصبية مهيبة يخشاها العدو ويطمئن إليها الصديق .. وما كان لكبار الهمم إذا كثر ما لهم وعظم جاههم أن يحطوا عن كواهلهم الشعور بأثقال التكاليف التى تحرضهم على الانتصار للمبادئ السليمة والمذاهب القويمة .. ذلك بأنهم لو فعلوا هذا لتركوا

الجهد كله لسواد الناس والمستضعفين منهم ، فعجزت الدعوات عن بلوغ غايتها من إصلاح شئون المجتمع الإنسانى ، وذلك هو الخسران المبين .

ولست تجهل أن أحرار العقول يرون فى الانتصار للخير والحق والجمال انتصارا لأنفسهم ، من حيث كانوا مسئولين مثل الناس أو قَبْل الناس ، لأنهم أقدر على الدفاع وأقوى على الإعانة وأصبر على المكاره والخطوب . وأبو طالب لم يفته أن يعرف للواجب الذى نيط به حقه عليه ، ولم يثقله العبء الذى ألقاه هو على نفسه بحكم المروءة العربية أو بحكم الانتصار للبيت الهاشمى الكريم ، فراح ينتصر لرسول الله ويؤيده ويخاصم الناس جميعا فيه . لم تأخذه العزة بالإثم كما أخذت غيره من الكبراء الذين ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل .

ومما يستلفت انتباه الناظر فى سيرة أبى طالب ، ما ذكره صاحب السيرة الحلبية من أن أبا طالب كان كأبيه عبد المطلب ، فكلاهما حرم على نفسه الخمر فى الجاهلية على شدة إيثار العرب لها وحبهم إياها وتغنيهم بها فى حَمْلها شاربها على الشجاعة والجود ، اللذين هما من أعظم مكارم الأخلاق . والذى يتمثل عليا فى نشأته هذه ، لا يرتاب فى أنه كرم الله وجهه قد ورث عن أبيه أبى طالب أشرف ما يرث الولد الكريم عن الوالد العظيم .

وقد تسأل — أعزك الله — عن السبب الذى دعا أبا طالب إلى حماية محمد ودفاعه عنه . أكان ذلك استجابة لنداء عصبية قبلية ، أم كان

استجابة لنداء فطرة سوية تأنف من عبادة الأصنام ، وسائر ما كانت عليه الأمة العربية فى جاهليتها من وأد البنات وقتل الأولاد وما إلى ذلك مما لا يليق بالكبار ؟ .

وجواب سؤالك هذا — فى مبلغ علمى — يقتضينا وقفة حول مذاهب العرب الدينية فى جاهليتهم . وخلاصة هذه الوقفة أن العرب كانوا ذوى مذاهب دينية شتى :

فمنهم من كانوا يعبدون الأصنام زاعمين أنها شركاء لله ، يدلك على ذلك صيغة التلبية التى آثروها لأنفسهم وفيها يقولون :

« لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك . إلا شريكا تملكه وما ملك » .

ومنهم من كانوا يعبدون الأصنام دون أن يجعلوها آلهة ، وإنما يعبدونها لكى تقربهم إلى الله وتمهد بين أيديهم السبل إلى الظفر بمرضاته عز وجل . يدلك على ذلك المعنى الآية من سورة الزمر ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾(١) .

ومنهم من كانوا يعتقدون التناسخ وتنقل الأرواح فى الأجساد ، فيزعمون — كما فى اللسان — أن روح الميت يصير طائرا يسمونه الصدى ، ويعتقدون أنه يصيح صياحا يتشاءمون به وربما زعموا أن الناقة

---

(١) الزمر ٣

إذا سمعت صوت الصدى فزعت فرمت براكبها فدقت عنقه . وفى هذا المعنى يذكرون أن توبة بن الحُمَيِّر كان مفتونا بليلى الأخيلية ، فلما مات مرت ليلى على قبره راكبة ناقتها فسلمت عليه ، فخرج إليها من قبره طائر يصيح صياحا أفزع الناقة فرمت بليلى فدقت عنقها . وكان ذلك تصديقا لشعر توبة فيها :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت   على ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا[1]   إليها صدى من جانب القبر صائح

فقد نفى الإسلام زقاء الصدى فيما نفى من أوابد العرب فى الجاهلية . وجاء الحديث الشريف يقول : (لا هامة ولا صفر) .. فالهامة هى البومة التى يتشاءم الناس بها ، أو هى ذلك الطائر المزعوم الذى يخرج من رأس الميت .

وخير العرب فى الجاهلية المتألهون أهل الورع والتحرج من القبائح ، وهم كثيرون لا يعرف منهم أسماء ذات شأن فى دنيا الفضل والفضلاء إلا عبد المطلب بن هاشم وابناه : عبد الله ، والد سيدنا رسول الله — ﷺ — ، وأبو طالب ، والد الإمام على كرّم الله وجهه .

وغنى عن البيان أن فضائل أبى طالب تنتظم معانى شريفة تقوم على تحرجه من القبائح ، وانتصاره لرسول الله فى مواجهة مشركى قريش مواجهة تجعله يفقد وجاهته فيهم ويخسر منزلته الرفيعة بينهم ، وربما كلفته بذل حياته دفاعا عن محمد وانتصارا له بما يمكنه من الدعوة إلى الإسلام ، الذى لم يكن له فى قريش نصير .

(١) زقا : صاح .

والذى يتأمل هذه الحقائق على ضوء المقاييس الاجتماعية الموروثة ، لا يسعه أن يرى أبا طالب رجلا مشركا كسائر المشركين . ذلك أن الإنسان بحكم الفطرة الإنسانية لا يتزل عن منصبه أو جاهه أو حياته ، إلا إذا كان له عن كل ذلك عِوَضٌ يكافئ الوجاهة والثروة والحياة . ولذلك رأى بعض أهل العلم أن أبا طالب — فى بذله هذا البذل الشريف من أجل رسول الله — لا يمكن أن يكون كسائر الآحاد فى قريش ، فأوحى إليهم قياسهم الأشباه والنظائر أن يعتبروا أبا طالب مؤمنا فى أعماق نفسه بدعوة ابن أخيه ، وإن كتم إيمانه فأصبح مثله كمثل سائر المشركين .

وربما احتجوا لرأيهم هذا بأن ملة أبى العرب إبراهيم كانت قد بقيت منها بقايا أخذ بها كبار الهمم وأهل العزائم ولم تكن ملة إبراهيم إلا قائمة على التوحيد ، فإذا انضم إلى ذلك ، أن كتمان الإيمان من شأنه أن يخفف من عداوة قريش لأبى طالب ، فإن ذلك قد يدعو بعض أهل العلم إلى اعتبار أبى طالب مؤمنا بالدعوة المحمدية وإنما كتم إيمانه لكى تمتهد له السبيل إلى حماية محمد فى دعوته إلى الله ، وإلا فإن من أهل العصبية فى قريش ؛ عبد الرحمن بن عوف وقد عالن القوم بإسلامه ولكنه لم يُغن عن رسول الله شيئا ، بل لم يغن عن نفسه شيئاً .

وباجتماع هذه المعانى مضموما بعضها إلى بعض ، رأى بعض الباحثين ، أن أبا طالب كان مؤمنا يكتم إيمانه لكى يتمكن بهذا الكتمان من حماية محمد عليه الصلاة والسلام .

غير أن هؤلاء السادة — فى تصورهم أبا طالب مؤمنا — قد ركبوا طريق العاطفة التى نأت بهم عن تدبر الآية الشريفة : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .

فقد روى الإمام مسلم حول هذه الآية عن سعيد بن المُسَيّب عن أبيه ، قال : لما حضرت الوفاة أبا طالب ، جاءه رسول الله — ﷺ — فوجد عنده أبا جهل وأحد بنى المغيرة ، فقال رسول الله : (يا عم ، قل لا إلٰه إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله) . فقال أبو جهل والمغيرى : أترغب يا أبا طالب عن ملة عبد المطلب ؟ . ولم يزل رسول الله — ﷺ — يردد كلمته لأبى طالب حتى قال — آخر ما كلمهم — : أنا على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا إلٰه إلا الله .

يقول أهل العلم هؤلاء : إن أشراف العرب كانوا يكرهون سوء الأحدوثة من بعدهم ، وقد عاش أبو طالب بين قريش فلو أنه أعلن إسلامه لقال العرب المشركون بعد وفاته : إنه كان منافقا . والنفاق أمر بغيض تذل به الجباه وتتخاضع له الرقاب فلم يشأ أبو طالب أن يخلّف من بعده حديثا يتنقصه ويرميه بأسوأ أخلاق الإنسان الكبير . ولو اننا افترضنا أن أبا طالب كان مع رسول الله — ﷺ — وحده دون صاحبيه المشركَيْن ، لَمَا كان أمرا بعيدا عن المعقول المقبول ، أن يستجيب أبو طالب لدعوة محمد ، وأن يقول « لا إلٰه إلا الله » . وهذه الفروض مهما تكن مقبولة أو غير مقبولة ؛ فإنها لا تتأبّى على المعقول الذى يجرى مثله كثيرا فى دنيا الناس .

والذين يتمثلون أبا طالب — فى شدة حَدَبه على ابن أخيه ، ومصابرته الشدائد فى الانتصار له — لا يستبعدون فرضا يتوسلون به إلى تقرير الإيمان لأبى طالب . والله تعالى أعلم بما كان وبما يكون وهو سبحانه حسبنا ونعم الوكيل .

وليس ينبغى لك — حفظك الله — أن تنكر قيمة كتمان الإيمان فى تأييد الدعوة فتزعم أن أبا طالب لم يكن له أن يكتم إيمانه ، بل كان عليه أن يجاهر به استنادا إلى عصبيته فى قومه . فإذ قد كتم إيمانه فذلك دليل على أنه كان كسائر

مشركي قومه يجحد رسالة الإسلام . ولئن كان قد انتصر لابن أخيه محمد ؛ لقد كان ذلك الانتصار صادرا عن حميّة جاهلية استجاب بها نداء العصبية القبلية القُرشية .

ونضرب لك مثلا ترى به أن أبا طالب كان عليه أن يكتم إيمانه بالرسالة المحمدية ابتغاء مصلحة تلكم الرسالة ، ونزولا على حكم المنطق الفطرى السليم الذى امتاز به عباقرة العرب وزعماء القبائل فى الجزيرة العربية ، التى نشأت أهليها على استجلاء أغوار النفس من وراء ستر رقيق . ذلك أن إسلام أبى طالب لم يكن ليفضُل إسلام عبد الرحمن بن عوف وأمثاله من ذوى العصبيات القوية فى قريش ، فقد أعلن هؤلاء إسلامهم ولكنهم لم يُغنوا عن رسول الله شيئا .

فإذا تمثلت هذا المعنى رأيت أن أبا طالب الذى يكتم إيمانه ويدين بدين قومه ، هو أنفع لمحمد رسول الله من أبى طالب الذى يجاهر قومه باعتناقه الإسلام . وهذا هو الذى دعا بعض الباحثين إلى اعتبار أبى طالب من أهل الإيمان بالدعوة المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام .

هذا .. وأما أمه رضى الله عنها فإنها فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ، وهى أول هاشمية وَلدت لهاشمى ، فقد وَلدت له طالبا وعقيلا وجعفرا ثم عليا أصغر الأبناء .

وقد أسلمت رضى الله عنها بعد عشر من المسلمين ، وكان رسول الله يكرمها ويعظمها ويدعوها أمى . وقد أوصت إليه حين حضرتها الوفاة فقبل وصيتها وألبسها قميصه كفنا لها وصلى عليها ، ثم نزل معها فى اللحد عرفانا ليدها عنده وفضلها عليه حين أواه عمه معها فى بيته ، وما كان صلوات الله عليه ليضيع عنده الجميل وهو الذى يقول : (من صنع إليكم معروفا فكافئوه ، فإن لم تجدوا فادعوا له) . وما كان رسول الله

ليأمر بالجميل دون أن يأتمر هو به ، وآية ذلك ما كان يحدث به الثقات من أن قريشا أصابتها — ذات عام — أزمة وقحط ، فدعا رسول الله حمزة والعباس ثم اقترح عليهما أن يحمل معهما ثقل أبى طالب فى تلك السنة العجفاء ، ثم مضى ثلاثتهم إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم . فرغب إليهم أن يتركوا له عقيلا ويأخذوا من شاءوا بعد ذلك ، فأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفرا ، وأخذ محمد — ﷺ — عليا ، فكان علىّ فى حجر رسول الله منذ كان عمره ست سنين ، وكان ما يسدى إليه النبى من إحسانه إليه وشفقته عليه وبره وحسن تربيته ، مكافأة ومعارضة لصنيع أبى طالب حين مات عبد المطلب ، وجعل محمدا فى حجر أبى طالب .

وليس يرتاب البصراء بشئون الاجتماع فى أن الإمام رضى الله عنه قد جمع الله له بين شرفين لم يجتمعا لأحد سواه فى دنيا العروبة ودنيا الإسلام ، فهو بحكم نسبه له فى الأمة العربية المجيدة موضعٌ كريم ، ثم هو بحكم نشأته الشريفة فى بيت النبوة له حظ فى مكارم الأخلاق عظيم .

أما ، وقد بلغ بنا تداعى المعانى إلى هذه الغاية من الحديث ، فقد آن لنا أن نتجاوز الإجمال إلى تفصيل يكون معوانا على توضيح مبهم ، أو تجلية غامض ، أو تكميل ما يحتاج إلى تكميل ، فذلك حق لمن يقرأ لنا لا يسوغ الإغضاء عنه ، ولا يليق المطل فيه .

وأول ما نبدأ به من مناقبه كرم الله وجهه ، أن نلفت الغيارى على منزلته الشريفة فى تاريخ الإسلام ، إلى أن فضائله قد بلغت من العظم والجلال وسعة الانتشار مبلغا يسمح معه التصدى لحصرها ، فتلك غاية

لا يتغياها بصير بأقدار الرجال ، حريص على أمانة التاريخ .

وما زالت الإحاطة بمناقب الكبار أمرا يتأبى على رائديه مهما خيل إليهم أنه — منهم — على طرف الثمام .

وشاهد الصدق على صحة هذا المعنى كلمة حق لأديب فيلسوف يخاطب شريفا من بنى العباس ، فيقول له : « لقد رأيتنى فيما أتعاطى من وصف فضلك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر والقمر الزاهر ، فأيقنت أنى حيث انتهى بى القول منسوب إلى العجز مقصر عن الغاية ، فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك ، ووكلت الإخبار عنك إلى علم الناس بك ، علما لا يرقى إليه غبار المعارك بين عدو حاقد وولى حميم .

فهذه الكلمة — على جمال مبناها وجلال معناها — لو كانت لها قدرة على أن تختار أحق الناس بها ، لما جاوزت الإمام إلى سواه ممن تعتز بهم الأمم ويشرف بالحديث عنهم التاريخ .

إن أحدا من أهل العلم لا يجهل منزلة الإمام فى كل ما تقتضيه الإمامة من معرفة واسعة وعلم غزير ، فهو رأس الفضائل وينبوعها وسابق مضمارها ، فكل من نبغ فى علم أو معرفة فمنه أخذ وله اقتفى وعلى مثاله احتذى . وقد عرفت أن العلم الإلهى هو أشرف العلوم ، والذين تحدثوا فى هذا العلم حديث الأئمة إنما أخذوا عنه وانتهوا إليه . ومن شاء تفصيلا لهذا الإجمال ، فإن الأشاعرة من أهل السنة ينتمون إلى أبى الحسن على بن أبى بشر الأشعرى الذى هو تلميذ لأبى على الجبائى ، فإن أنت جاوزت علم الكلام القائم على النظر والاستدلال إلى علم الفقه القائم على سلوك المسلم فى العبادات

والمعاملات ، فإنك سترى الإمام كرم الله وجهه أصل هذا العلم وأساسه ، فكل فقيه فى الإسلام مستفيد منه وعيال عليه . فأما أصحاب أبى حنيفة محمد وأبو يوسف فقد أخذوا عن أبى حنيفة ، والشافعى قرأ على محمد بن الحسن ففقهه راجع إلى أبى حنيفة ، والإمام أحمد بن حنبل قرأ على الشافعى راجع أيضا إلى أبى حنيفة ، ثم إن أبا حنيفة نفسه قرأ على جعفر الصادق ، وقرأ جعفر على أبيه محمد الباقر ، وقرأ الباقر على علىّ زين العابدين وهو ابن الحسين ، والحسين بن على رضى الله عنهم أجمعين . ومالك بن أنس إمام المدينة المنورة قرأ على ربيعة الرأى ، وقرأ ربيعة على عكرمة ، وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس ، وقرأ ابن عباس على الإمام على . فالإمام رضى الله عنه شيخ الفقه السنى : أبى حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، وابن حنبل ، ثم هو أيضا شيخ فقهاء الشيعة .

وليس يخفى عليك أن ثمة رجالا أعظم منزلة وأرفع قدرا من هؤلاء الأئمة ، وهم أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد كانوا يرجعون إلى الإمام رضى الله عنه ويأخذون برأيه ، ثقة به واطمئنانا إلى علمه الذى أكرمه الله به فى الإلمام بشئون الدنيا وشئون الدين .

وليس يغيب عن البصراء بالتشريع الإسلامى ما يرويه الإمام ابن القيم عن مسروق من قوله : « شاممت أصحاب محمد — ﷺ — فوجدت علمهم ينتهى إلى ستة : علىّ ، عبد الله ، عمر ، زيد بن ثابت ، أبى الدرداء ، أُبى بن كعب ، ثم شاممت هؤلاء الستة فوجدت علمهم ينتهى إلى علىّ » .

وقد كان عمر يرجع إلى الإمام فى كثير من المسائل التى تشكل عليه وعلى غيره من الصحابة ، حتى كان يقول : « لولا علىّ لهلك عمر » ..

ثم يقول : « لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو حسن » . وقد نهى رضى الله عنه أن يفتى أحد فى المسجد وعلى حاضر .

وبالتأمل فى هذه المعانى يعرف أهل الإنصاف أن الفقه قد انتهى إليه ، حتى لقد كان يروى العامة والخاصة قول رسول الله — ﷺ — : (أقضاكم على) . ومعروف أن القضاء هو الفقه ، فعلى إذن أفقههم أجمعين .. ولما بعثه رسول الله إلى اليمن قاضيا دعا له : (اللهم اهد قلبه وثبت لسانه) . يقول الإمام كرم الله وجهه : إننى بعد هذه الدعوة من رسول الله ما شككت فى قضاء بين اثنين قط .

وقبل أن نلج بك باب التفصيلات التشريعية ، نذكر لك ما قرره الثقات من أن أصحاب رسول الله — ﷺ — كانوا أمام النص القرآنى طائفتين : طائفة تستصحب المصلحة مع النص ، وطائفة أخرى تتقيد بالنص ما امتهدت إليه سبيل .

وليس يخفى عليك اجتهاد أمير المؤمنين عمر فى عام الرمادة ، فقد رأى رضى الله عنه أن يعفى السارق من قطع يده نظرا منه إلى أن فى المجاعة التى تهدد كيان الأمة العربية كلها ما يسوغ له وقف العمل بالنص فى الآية الشريفة : ﴿ والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ واللهُ عزيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١) .

وكذلك كان يرى منع أبى سفيان وسائر المؤلفة قلوبهم سهمهم الذى جعله الله لهم فى الآية الشريفة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(٢) .. ولم يسعْ أبا بكر — رضى الله

(١) المائدة ٣٨ (٢) التوبة ٦٠

عنه — إلا أن يكتب لهم بسهمهم ثم دفع بالكتاب إليهم وقد وجهه إلى عمر . فلما قرأ عمر الكتاب رمى به فى وجه أبى سفيان وأصحابه قائلا لهم : « إنما كان ذلك فى التأنأة أول الإسلام قبل أن يقوى ويعز ، فأما الآن فإن قبلتم الإسلام وإلا فالسيف بيننا وبينكم » .

ولم يسَعْ القوم أن يواجهوا عمر فى هذا الموقف العصيب ، فتركوه إلى أبى بكر يشكونه إليه . وقد كان أبو بكر ممن يأخذون بالنص شأنه فى ذلك شأن الإمام — كرم الله وجهه . فلما قابلهم أبو بكر قالوا له : « ما ندرى أيكما الخليفة أنت أم عمر ؟ .. فقال أبو بكر كلمته التى يرويها التاريخ خاشعا أمام الكبار من رجال الإسلام : « تسألون أينا الخليفة أنا أم عمر ؟ ألا فاعلموا أن الخليفة عمر إن شاء » .

وإليك صورة أخرى تستصحب المصلحة فى مقام التشريع ، خلاصتها أن الإمام له أن يقطع بعض الرعية من أرض بيت المال أرضا ذات خراج ، ثم يسقط الخراج عمن يقطعهم على أن يجعل عليهم ضريبة يسيرة عوضا عن الخراج . وقد أخذ بهذا النظام كل من عمر وعثمان — رضى الله عنهما — فأقطع كل منهما من شاء ممن يعيشون فى دولة الإسلام ، غير أن ثمة فرقا بين الذين أقطعهم عمر والذين أقطعهم عثمان . ذلك أن الذين أقطعهم عمر كانوا أهل غناء فى الحرب وآثار مشهودة فى الجهاد . وأما الذين أقطعهم عثمان فقد كانوا من ذوى قرباه وأهل مودته .. وهنا كان للإمام — كرم الله وجهه — موقف ذكره العلامة ابن أبى الحديد حيث قال : إن الإمام خطب فى اليوم التالى لبيعته بالمدينة فقال : « ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فإنه مردود فى بيت المال . ولو أنى وجدته قد تزوج به النساء وفرق فى البلدان لرددته إلى حاله فإن الحق القديم لا يبطله شىء وفى العدل سعة ، ومن ضاق عنه الحق فالجور عنه

أضيق » . ثم أمر بعد ذلك برد كل ما وجد فى دار عثمان من مال وسلاح وإبل ، وكذلك أمر بأن ترتجع الأموال التى أجاز بها عثمان حيثما وجدت ، ولكنه خشى أن تتحكم فى القوم نزوة الانتقام فأمر بالكف عن جميع أموال عثمان التى وجدت فى داره وغير داره ، شأن الكبار الذين يحرصون على الحق أن يشوبه الباطل فيوهن سلطانه ، ويترك الناس حيارى تصرفهم الأهواء وتحجبهم عن الحقائق الشبهات .

ومعروف عند أهل العلم أن أحكام الإمام وفتاويه انتشرت انتشارا واسعا ، بيد أن الذين تشيعوا له — رضى الله عنه — أفسدوا كثيرا من علمه وتقولوا عليه ما لم يقل ولذلك انصرف أصحاب الحديث عن الثقة بكل ما ينقل عنه ، فهم لا يعتمدون من حديثه وفتاويه إلا ما كان من طريق أهل بيته أو من أصحاب عبد الله بن مسعود . وقد كان — كرم الله وجهه — يشكو عدم حملة العلم فيقول : « إن ها هنا لعلما لو أصبت له حملة » .. ولعل من أبرز مزاياه — رضى الله عنه — أنه كان حريصا على معرفة أقدار الناس وإنزالهم منازلهم اللائقة بهم ، على ما تشهد لذلك فتواه فى شأن بنات كسرى الثلاث اللائى جيء بهن أسيرات إلى المدينة المنورة فى خلافة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه فأمر بأن تعامل بنات كسرى معاملة أمثالهن فى مثل هذه الحال . غير أن الإمام — كرم الله وجهه — توجه بالحديث إلى أمير المؤمنين يقول له : « إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة » .. فسأله عمر كيف الطريق إذن يا أبا الحسن ؟ .. فأجابه : « يقوّمن ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن » .. ولم يجد عمر بدا من الأخذ بهذا الرأى الحصيف ، فأخذهن علىّ بقيمتهن ثم زوجهن أكفاءهن من أبناء أمراء المؤمنين ، فزوج إحداهن محمد ابن أبى

بكر ، وزوج الثانية عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وزوج الثالثة ولده الحسين .. وكان له منها ولده زين العابدين .

ولن يعقل غير معقول من يرى أن غلاة الشيعة من أهل فارس إنما حملهم على الغلو فى حب على وفى بغض عمر ، هذا الموقف الذى يشتمل على تكريم بنات آخر أباطرة إيران .

وما زالت الشعوب الوفية لأمجادها ترى فى تكريم ملوكها وأمرائها ورؤسائها تكريما لتاريخها كله .

على وعلم الكلام

أسلفنا لك ـــ حفظك الله ـــ أن الإمام عليا تكاد تعتزى إليه كل فرقة من فرق المسلمين وتتجاذبه كل طوائفهم ، فهو ـــ كرم الله وجهه ـــ إمام كل إمام فى مختلف معارف أهل الإسلام ، سواء فى ذلك ما يتصل بالعلم الإلـٰهى ـــ علم التوحيد ـــ وما يتصل بعلوم الشريعة .

وقد وعدناك أن نفصل لك ما أجملنا على أن نلتزم فى ذلك ما يسانده برهان مما يرتضيه أسلافنا الصالحون ، والله ولى التوفيق .

إنه مما ينبغى التنبه له والتنبيه إليه ، أن لأهل العلم أعرافا تختلف باختلاف علومهم ومعارفهم . فالكلمة « دابة » مثلا تدل ـــ عند الإطلاق ـــ على كل ما يدب على وجه الأرض من إنسان وحيوان ، غير أن العرف جعل هذه الكلمة خاصة بذوات الأربع . فغير سائغ أن تطلق على مخاطبة الإنسان جنسه بما يفيدهم فائدة يحسن بالمتكلم أن يسكت عليها ولا يتطلع السامع إلى أكثر منها . فكل علم يؤدى إلى هذه الغاية فهو من علوم الكلام ، سواء فى ذلك علم النحو ، وعلم اللغة ، وعلم البيان ، وعلم المعانى ، وعلم البديع . فكل علم من هذه العلوم يمكن أن يسمى علم الكلام لأنه يعين المتكلم على أن يبلغ غايته من إفادة السامع فائدة لا يتطلع إلى أكثر منها .

ولكن أهل النظر من الفلاسفة خصصوا علم الكلام بعلم التوحيد ، بحيث لو أطلق المتكلم هذه الكلمة لم يفهم أهل هذا العرف منهـا إلا علم التوحيد .

ولك بعد ذلك أن تسأل عن منزلة الإمام بين علماء الكلام ، أعنى علماء التوحيد وتنزيه البارى سبحانه عما لا يليق بذاته العلية ؟ .. وجواب سؤالك

هذا أن بعض الذين كتبوا عن الإمام — كرم الله وجهه — يزعمون أن علم الكلام أو علم التوحيد إنما نقل عنه وإليه انتهى ، ومنه ابتدأ .. ذلك أن المعتزلة الذين هم أهل التوحيد والعدل وأرباب النظر إنما هم تلاميذ على — كرم الله وجهه . لأن كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبى هاشم بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم هذا هو تلميذ أبيه محمد ، وأبوه تلميذ الإمام — كرم الله وجهه — فهو أصل المعتزلة .

وأما الأشعرية فإنك تعلم أنهم ينتمون إلى أبى الحسن على بن أبى بشر الأشعرى ، وأبو بشر تلميذ أبى على الجبائى ، وأبو على هو أحد مشايخ المعتزلة ، فالأشعرية ينتهون إلى أستاذ المعتزلة وهو علىّ كرّم الله وجهه .

ولعلك سائل بعد ذلك عن السبب الذى حمل أولئك الكاتبين على اعتبار الإمام أستاذا لأهل الاعتزال . فإليك إجمال ما يقال فى هذا المجال من أن المعتزلة يذهبون إلى نفى صفات المعانى القديمة التى يثبتها الأشاعرة ، بقولهم إن لله تعالى صفات كثيرة تبتدىء بالصفة الذاتية وهى أنه تعالى واجب الوجود ، ثم تجىء بعد ذلك فى المرتبة الثالثة صفات المعانى ، وهى صفات وجودية قديمة قائمة بذاته تقدست أسماؤه وجل ثناؤه .

وصفات المعانى هذه يثبتها الأشعرية لذات البارى تعالى فى الوقت الذى ينفيها عنه أهل الاعتزال ، وحجتهم فى ذلك كلمة للإمام رواها عنه الشريف الرضى وفيها يقول الإمام — كرم الله وجهه : « أول الدين معرفة الله تعالى وكمال معرفته التصديق به . وكمال التصديق به توحيده . وكمال توحيده الإخلاص له . وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه بشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة . فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله .

وبهذه الكلمة التى نسبها الشريف إلى الإمام تجتمع للناظر قضيتان كلاميتان خطيرتان كلتاهما تحتاج إلى وقفة تتغيا — فى حدود الإمكان — إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وعلى الله قصد السبيل :

وأولى القضيتين نسبة الإمام إلى المعتزلة على أنه رأسهم ومعلمهم .

وثانيتهما نسبته إلى القول بنفى صفات المعانى عن ذاته العلية كما هو مذهب أهل التعطيل .

فأما نسبته إلى المعتزلة على أنه رأسهم ومعلمهم ، فذلك لغو من القول لا يسلك سبيله إلّا ولىٌّ جاهل أو عدو أحمق ، وإلا فإن عليا — ربيب محمد وخريج بيت النبوة — لا يقع فى وهم عاقل أن يكون من أولئك الذين انحرف بهم الهوى عن سواء السبيل ، فاستحق بذلك فى زعم الزّاعمين أن يكون من أهل الاعتزال أو شيخا من شيوخهم ومعلما من معلميهم .

وأما نسبته إلى أهل التعطيل الذين ينفون صفات المعانى عن الذات العلية ، فإنها نسبة أشد إيغالا فى باب الجهالة وأبين عتوا فى معنى الضلالة ، ومهما حاول أصحاب هذا الزعم أن يحتجوا له بالكلمة التى رواها الشريف عن الإمام فإنها حجة داحضة ، لظهور أثر الصنعة فيها ظهورا يساير ما كان قد نشأ فى دولة بنى العباس من ثقافة اليونان وطرائق تفكيرهم إبان حياة الشريف الرضى غفر الله له ، وإلا فإن مسلما صحيح العقيدة لا ينفى عن الله ما وصف سبحانه به نفسه ، وما وصفه به أعرف الخلق بالله وأنصحهم للأمة محمد رسول الله وفيض رحمته للعالمين .

هذا وليس يَخفى على البصراء بشئون الاجتماع فى عصر بنى العباس ، أن من أهل العلم من كان يؤلف الكلام يطلب به رفعة الجاه ونعمة الثراء عند الخلفاء والولاة وأعيان الدولة ، على نحو ما صنع أبو حيان فى اختلاقه

رسالة طويلة زعم أن أمير المؤمنين عمر حمّلها أبا عبيدة لتبليغها إلى الإمام علي ، وفيها من دلائل الصنعة والتوغل في صوغ الكلام ما يشهد بأنها صنعة أبي حيان في كتابه « المقايسات » . بل لقد وضع الواضعون أحاديث نسبوها إلى رسول الله ﷺ كما جاء ذلك في حديث رواه الراوي لأمير المؤمنين هارون الرشيد رحمه الله ، وقد جاء في هذا الحديث أنه لا سبق إلا في خف أو حافر أو جناح . وبيان ذلك أن رسول الله ﷺ أباح للمسلم أن يسابق غيره من أصحاب الإبل ، أو من أصحاب الخيل على جُعل معلوم محدد يظفر به من سبق . فلما ضعف الوازع الإسلامي في النفوس لعب القوم بالحمام ، وكره بعض أهل العلم هذا اللون من السباق ، غير أن أحد المعروفين برواية الحديث أفتى بأنه لا بأس بالمسابقة بالحمام ، ثم أورد الحديث الذي جاء في الخف والحافر فزاد فيه كلمة الجناح فأصبح الحديث يشتمل على هذه الصور الثلاث : صورة الاستيلاء على السبق من طريق المسابقة بالإبل أو طريق المسابقة بالخيل أو من طريق اللعب بالحمام . وفي هذا الباب يقول المؤرخون لهذا العصر إن أمير المؤمنين هارون الرشيد أمر يذبح الحمام ، لأنه كذب به على رسول الله ﷺ .

وليس يخفى على المتأمل البصير أن الذين يكذبون على رسول الله ويختلقون عليه أحاديث لم يقلها ، ويختلقون خطبا على ألسنة الخلفاء الراشدين ، لا يصعب عليهم أن يختلقوا خطبة على لسان الإمام على ينتصرون بها لمذاهبهم ، ابتغاء الظفر برفعة الجاه والاستمتاع بنعمة الثراء .

ولسنا نكتمك حفظك الله أن قد وازنا بين أمرين : أحدهما أن نأخذ بالمذهب القائل إن عليا هو رأس المعتزلة ومعلمهم . وثانيهما أن نؤثر على هذا المذهب مذهبا أليق بنشأة الإمام في حضانة بيت النبوة يوجهه إلى صراط الله المستقيم في العقائد والعبادات والمعاملات .

غير أن الكلمة التى رواها الشريف الرضى عن الإمام تنتظم عبارات تدل صراحة على مذهب الاعتزال وهى — فى الوقت نفسه — أشبه بكلامه كرم الله وجهه من حيث جودة الصوغ ودقة النسج وفحولة الأسلوب . وأنت إذا وضعت هذه الأمور موضع الاعتبار ، فإنك لا تجد بدا من أحد أمرين تأخذ بحكمه وتنزل على مقتضاه : فإما أن تزعم مع الزاعمين أنه — رضى الله عنه — رأس المعتزلة كما تشير إلى ذلك تلك الكلمةُ المروية عنه ، وإما أن تنأى به عن هذا الزعم عرفانا بقدره ورعاية لشرف نشأته .

وفى هذا الحال لا ندحة لك عن اليقين بأن الخطبة المروية عنه مختلقة من لدن فقيه بروح العصر ، بصير بحر الكلام .. فهذا هو ما نؤمن به وندين الله تعالى عليه ، فإن كنا قد أصبنا فى ذلك فالحمد لله ، وإن كنا قد أخطأنا فلسنا أول من أخطأ الطريق إلى الصواب ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

علىّ فوق شبهات المعتزلة

لا ريب فى أن الفلسفة اليونانية كان لها أبلغ الآثار فى الفكر العربى ، بعد أن اتسعت مجالات الفتوح الإسلامية ووجد العرب أنفسهم فى بحر متلاطم الأمواج من مختلف الثقافات الهندية والفارسية والرومانية والمصرية . وقد أخذ علماء العرب — فيما أخذوا عن ثقافات المغلوبين جانبا من فلسفة العلم الإلٰهى ، الذى كان يتمثل فى مذهب أهل الاعتزال خفى المعالم مختلط الأعلام يناقض أشد المناقضة السماحة والبساطة التى أسبغها التراث الإسلامى على العقيدة الإسلامية فيما وراء المادة ، من شتى العوالم التى لا وسيلة إلى الإلمام بها إلا من طريق علوم القرآن الكريم .

وقد كان من أوضح ذلك وأيسره سبيلا مذهب أهل الاعتزال فى طوره الأخير ، فقد كان هذا المذهب ينتظم جانبين حقيقيين لا يسع المعتزلى أن يتغاضى عنهما كليهما إذا أراد أن يكون مشارا إليه فى الفن من فنون أهل الكلام .

وأحد الجانبين يتعلق بفلسفة السلوك الإنسانى فى الحياة الدنيا من حيث كان الإنسان مسئولا عن عمله لأنه مختار فى الحصول عليه وسلوك الطريق إليه ، غير مغلوب عليه إذا لم يرده ولا محجوز عنه حين يريده . ومن هذا الجانب يطلق أهل العلم على المعتزلة أنهم أهل العدل ، لأن الإنسان فى رأيهم ومذهبهم قادر على أن يخلق أفعاله الاختيارية بقدرة أودعها الله تعالى فيه . وما دام هو الخالق لأفعال نفسه مختارا غير مكره **فإن من أعدل العدل** أن يكون مستحقا للثواب إذا أحسن ، وللعقاب إذا أساء .

وأما الجانب الثانى فإنه يتعلق بفلسفة العلم الإلٰهى من حيث كان الله جل ثناؤه أزليا لا أول لوجوده ، أبديا لا نهاية لبقائه ، ومن حيث كان قديما لا يشاركه فى صفته هذه سواه . ومن هذا الجانب تكون صفته اللائقة بجلاله أنه هو الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

والذين يتأملون فى هذين الجانبين القائم عليهما مذهب المعتزلة .. الجانب السلوكى والجانب الإلٰهى ، لا جرم أنهم لا ينكرون على الإمام كرم الله وجهه أن يكون إماما لأهل الاعتزال فى جانب السلوك الإنسانى فى دنيا الناس ، من حيث كان هذا الجانب قائما على تحرى العدل . والإمام كرم الله وجهه سيد من سادات أهل العدل الذين يعتزون به أكرم الاعتزاز ، ويحرضون عليه أشد التحريض .

وأما الذين يتأملون فى الجانب الإلٰهى تأمل البصراء بأقدار الرجال وما يليق بهم وما لا يليق ، فإنهم ينكرون أشد الإنكار أن يكون الإمام كرم الله وجهه ممن يسيغ هذا لعامة الناس ، فضلا عن أن يكون هو نفسه إماما له أو معلما من معلميه .

ومهما حاول قصار النظر أن يدونوا كلمات للإمام تشير إلى إمامته لهذا المذهب ، فإن ذلك — فى مبلغ العلم — إما مفترى عليه انتصارا لمذهب فاسد ، أو تأييدا لبهتان خسيس .

وربما ذكر لك بعض أدعياء العلم كلمة منسوبة إلى الإمام تتضمن نفى الصفات عن ذاته العلية ، زاعمة أنه — سبحانه — قادر بذاته ، مريد بذاته ، سميع بذاته ، فليس له إرادة زائدة عن الذات ، وليس له صفة من صفات الكمال زائدة على ذاته العلية جل ثناؤه ، وتباركت أسماؤه .

وإليك — رحمك الله — هذه الكلمات التى قد يستخدمها المغرضون للتدليل على أن الإمام كرم الله وجهه إمام لأهل الاعتزال ، فذلك قوله — كرم الله وجهه — حسب رواية الرضى غفر الله له : « إن كمال التصديق بالله تعالى توحيده والإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة . فمن وصف الحق فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله » . راجع ما ذكره الرضى .

وننتهز بك هذه السانحة لنروى لك ما ذكره أئمة علماء التوحيد مما يبطل رأى المعتزلة فى هذا الجانب الذى لا يليق بالمؤمن الحق أن ينسبه إلى رب العالمين .

قال الإمام الحجة أبو جعفر الأزدى : إن الله تعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال .. صفات الذات ، وصفات الفعل . ولا يجوز للمسلم أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها ، لأن صفاته صفات كمال ، وفقد هذه الصفات صفة نقص فلا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بصفة .

ولقد كان أئمة السنة لا يطلقون على صفات الله أنها غيره ولا أنها ليست غيره .

وقد يقول قائل : إن الصفة لا عين الموصوف ولا غير الموصوف . وهذا القول له معنى صحيح وهو أن الصفة ليست عين ذات الموصوف التى يفرضها الذهن وليست غير الموصوف ، بل الموصوف بصفاته شىء واحد .

فإذا قلت : أعوذ بالله . فقد عذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال الثابتة التى لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه .

وإذا قلت : أعوذ بعزة الله . فقد عذت بصفة من صفاته تعالى . وهذا المعنى يفهم من لفظ الذات ، فإن كلمة ذات فى أصل معناها لا تستعمل إلا مضافة بمعنى أنها ذات وجود أو ذات قدرة أو ذات عزة أو ذات علم أو ذات كرم .. إلى غير ذلك من الصفات . هذا هو الأصل لمعنى الكلمة « ذات » فالذات لا يتصور انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه ، وإن كان الذهن قد يفترض ذاتا مجردة عن الصفات ، كما يفترض المحال . وقد قال رسول الله ﷺ : (أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر) .

وكذلك قال ﷺ : (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق . اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك) .

وربما سمعت من يقول : الاسم عين المسمى أو الاسم غير المسمى . فاعلم — رحمك الله — أن الناس طالما غلطوا فى ذلك وجهلوا الصواب فيه . فالاسم قد يراد به المسمى وقد يراد به اللفظ الدال عليه ، فإذا قلت : سمع الله لمن حمده ، فإن المراد هنا المسمى نفسه . وإذا قلت : الرحمان اسم عربى ، فإن المراد ها هنا اللفظ وليس المراد مسمى هذا اللفظ .

وليس يسوغ لك أن تقول الاسم غير المسمى ، لأن فى لفظ « غير » إجمالا . فإن أردت بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فذلك حق ، وإذا أردت أن الله سبحانه كان وليس له اسم حتى خلق لنفسه أسماء أو سمّاه خلقه بأسماء من صنعهم ، فهذا من أعظم الضلال والإلحاد فى أسماء الله تعالى .

وليس يخفى عليك أن الله تعالى قد وصف نفسه بأن له المثل الأعلى حيث قال : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(١) .

---

(١) النحل ٦٠

فقد جعل سبحانه وتعالى مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص لأعدائه المشركين وأوثانهم ، ثم أخبر أن المثل الأعلى المتضمن بثبوت الكمال كله لله وحده ، فمن سلب صفة الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مثل السوء ، ونفى عنه ما وصف به نفسه وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية ، التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان بها أعلى من غيره .

ولما كانت صفات الله سبحانه أكثر وأكمل كان له المثل الأعلى ، وكان هو أحق به من كل ما سواه ، بل يستحيل أن يشترك في المَثل الأعلى المطلق اثنان ، لأنهما إن تكافآ من كل وجه لم يكن أحدهما أعلى من الآخر ، وإن لم يتكافآ فالموصوف به أحدهما وحده ، ويستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير .

ومن أحق ما يقال في معنى المثل الأعلى أنه جماع صفات الكمال ، فكل ما كان كمالا فهو لله تعالى صفة ، وكل ما أشعر بالنقص فالله تبارك منزه عنه .

على والعناية بالقرآن

القرآن دستور الإسلام ومرجع المسلم فى شئون الدنيا والآخرة ، فالعناية به حق من حقوق الفطرة السوية ، ومطلب من مطالب الإسلام الحنيف .

وليس يخفى أن العناية بالقرآن ذات وسائل شتى وطرق مختلفة . فمن هذه الوسائل الترغيب فى حفظه عن طريق إنشاء مكاتب للصبية بالقرى ومدارس لهم فى المدائن ، مع بذل المعونات التى تستحث الهمم على استظهاره وتجويده على نحو ما صنع ويصنع أهل الغنى واليسار فى كل زمان ومكان ، فيحبسون بعض أموالهم على إنشاء مكاتب أو مدارس لتحفيظ القرآن الكريم نزولا على مقتضى الحديث النبوى الشريف : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

وغير خفى على أهل العلم بشئون الإسلام والمسلمين أن العمل على تحفيظ أبناء الأمة وبناتها القرآن أو بعضه ، إنما هو سبب من أسباب بقاء القرآن محفوظا فى الصدور إلى جانب حفظه فى السطور ، كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(١) . ووجه الإشارة فى الآية الكريمة أن الله تعالى وضع للكون العظيم سننا يقوم عليها نظامه ، ومن تلك السنن ارتباط الأسباب بالمسببات واستناد النتائج إلى المقدمات . فإذا أراد الله تعالى أمرا هيأ أسبابه ، وقد وعد سبحانه بحفظ القرآن من التغيير والتبديل ، وذلك عن طريق تمهيد السبل إلى استظهار القرآن وتجويده على ألسنة أبناء الإسلام وبناته صغارهم وكبارهم .

---

(١) الحجر ٩

ومن وسائل العناية بالقرآن الحرص على اللغة العربية الفصحى التى هى لغة القرآن ، ميراثا للأخلاف الصالحين عن الأسلاف الموثوقين .. ذلك أن غياب هذه اللغة وامتهاد السبل إلى النيل منها والغض من قدرها ، لا جرم أنه يفضى بالأمة الإسلامية إلى الجهل بالكتاب العزيز ثم إلى معاداته ، جريا على الحكمة القائلة : « مَنْ جَهِلَ شيئا ، عَادَاه » .

ولقد كان القرآن الكريم موضع العناية البالغة من الإمام على — كرم الله وجهه — وهذه العناية تتجلى فى صورتين :

إحداهما ، أنه كان يحفظه حفظا يكاد يهتف برائديه فى كل ما روى عنه الشريف الرضى من الخطب والوصايا فى كتاب نهج البلاغة .. وذلك أن كلامه — كرّم الله وجهه — تجهم أشد التجهم التعجرف والكلام الوحشى واللفظ الغريب المستكره .. وخير الكلام ما مضى على هذا السنن الشريف الذى التزمه الإمام فى كل ما روى عنه من كلام .. ولست تشك فى أن سبب ذلك يرجع إلى حفظ الإمام للقرآن العظيم ، وتأثره به ونسجه على منواله القائم على أن القرآن فى أعلى طبقات الفصاحة ، وأن من تأمله تأملا شافيا رأى الفصاحة فيه تنتظم البعد عن التقعر والتعقيد ، والكلام الوحشى الغريب . كذلك يجد المتأمل كلام الإمام ، إذ كان كلامه — كرم الله وجهه — **مستقى** من ألفاظ القرآن ، ومقتضبا من معانية ومذاهبه ، ومحذوا به حذوه ، ومسلوكا به منهاجه ، حتى إنك لتستطيع أن تذكر للناس أنه ليس بعد القرآن كلام أفصح منه ولا أجزل ، ولا أعلى ولا أفخم ولا أنبل ، إلا أن يكون كلام ابن عمه ﷺ . فهذا أمر لا يعلمه إلا من ثبتت له قدم راسخة فى علم هذه الصناعة ، وليس كل الناس يصلح لنقد الجوهر ، فإن لكل صناعة أهلا ، ولكل عمل رجال لا يمارى فى ذلك من يحترم الحق ويؤثر العدل والإنصاف .

هذا .. وأما **الصورة الثانية** لعناية الإمام بالقرآن فخلاصة القول فيها : أنه أول من جمع القرآن ، وأنه إنما تأخر عن بيعة أبي بكر لاشتغاله بجمع القرآن خلافا لما تقوله الشيعة من أنه إنما تأخر عن بيعة أبي بكر من أجل أنه كان غير راض عن بيعته .

فهذان الأمران : حفظه القرآن على النحو الذى تأثر به فى كتبه وخطبه ووصاياه ، ثم اشتغاله بجمعه بعد وفاة رسول الله ﷺ ، هما من أجل مظاهر عنايته بالقرآن رضى الله عنه وأرضاه ، وربما انضم إلى هذين الأمرين أمر ثالث تتحدث عنه كتب القراءات ، إذ تذكر أن أئمة القراء جميعا يرجعون إلى على ، كأبى عمرو بن العلاء وعاصم بن أبى النجود وغيرهما ، فهم يرجعون إلى أبى عبد الرحمن السلمى القارىء ، وأبو عبد الرحمن هذا كان تلميذا للإمام وعنه أخذ القرآن . فقد صار هذا الفن أيضا من الفنون التى تنتهى إلى الإمام كما انتهت إليه — كرم الله وجهه — موضوعات علم الكلام وموضوعات علم الفقه ، وكما انتهى إليه وضع علم النحو فى الكلمات التى قالها لأبى الأسود الدؤلى . ولئن كان رضى الله عنه قد عنى بالقرآن على هذه الصورة ، لقد كان فضله فى ذلك لا يدانيه فيه أحد من أهل الإسلام .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ..

عليّ وعلم الفقه

درج المؤلفون على أن يقدموا فى تأليفاتهم ما يتصل بالعقيدة ، ثم يتبعوه ما يكون مظهرا للعقائد من العبادات والمعاملات وأدب السلوك بوجه عام . ومبلغ علمى أنهم — فى هذا الصنيع — ينهجون نهج القرآن العظيم .. ذلك أن الدعوة المحمدية بدأت أولى خطواتها فى مكة بتصحيح العقيدة ونفى الشوائب عنها كما تشير إلى ذلك الآية : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(1) . فلما بدأ طور الدولة بالهجرة إلى المدينة المنورة ، بدأ التنزيل المدنى خطواته إلى تنظيم المجتمع الجديد تنظيما أحاطه بكل ما يوفر له الأمن والسلام .. وكان من أول ما نزل من القرآن سورة البقرة وما إليها مما لا يستغنى عنه مجتمع يتطلع إلى الإصلاح .

وقد آثرنا لهذا الكتاب أن يلتزم هذه الطريقة الشريفة فى الكتابة عن الإمام على — كرم الله وجهه — فبدأنا الحديث عنه بعلم الكلام وما يتعلق به مما يتصل بشأن العقيدة . وها نحن أولاء نذكر فى هذا الفصل صلة الإمام بالفقه المذهبى ومبلغ تأثر الأئمة به وأخذهم عنه ، فنقول وبالله التوفيق :

إن عليا — كرم الله وجهه — يرجع إليه فقه الأئمة الأربعة مالك والشافعى وابن حنبل وأبو حنيفة ، كما يرجع إليه فقه الشيعة وفقه الصحابة رضى الله عنهم .

فأما مالك فقد أخذ عن ربيعة الرأى ، وأخذ ربيعة عن عكرمة ، وأخذ عكرمة

---

(1) البقرة ١٢٩

عن ابن عباس ، وأخذ ابن عباس عن الإمام على رضى الله عنه وأرضاه .

وأما الشافعى فقد أخذ عن مالك إمام المدينة المنورة ، وعن الشافعى أخذ ابن حنبل ، ثم لم يقف عطاء مالك عند العلم بل تجاوزه إلى الجود بالمال ، فقد رأى الشافعى خيلا على باب مالك استأثرت بإعجابه ، فلما رأى مالك أن الشافعى أعجبته الخيل أعطاه إياها لم يمسك منها شيئا .. ولم يجد الشافعى مندوحة عن سؤال مالك : ماذا أبقيت لنفسك ؟ فأجابه بالكلمة الشريفة التى يعنو لها وجه التاريخ : « إننى أستحى أن أركب دابة تطأ ترابا ثوى فيه جسد رسول الله ﷺ » .

هذا .. وأما أبو حنيفة وصاحباه أبو يوسف ومحمد فقد أخذوا عن جعفر الصادق ، وأخذ جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر ، وأخذ الباقر عن على زين العابدين الذى ينتهى علمه إلى الإمام على رضى الله عنهم أجمعين .

ومما ينبغى التنبه له والتنبيه إليه ، أن المراد بالفقه ما ينتظم الأحكام الخمسة من الوجوب والندب والحرمة والكراهة والإباحة .

وقد يتناول النظر فى الفقه مدارك الأحكام الفقية .. من الكتاب والسنة والاجتهاد والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة ، واعتبار شرع مَنْ قبلنا شرعا لنا .

ومن الحق علينا لمن يقرأ لنا أن نقف به وقفة حيال القياس . فإن فى كلمات الإمام ما يشير إلى أنه — كرّم الله وجهه — لم يكن يرتضى القياس ، فذلك حيث روى عنه قوله — كرّم الله وجهه — : « ترد على أحدهم القضية فى حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه ، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه ، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذى استقضاهم فيصوب آراءهم جميعا ، وإلههم واحد ، ودينهم واحد ، وكتابهم واحد . أفأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه ؟ .. أم نهاهم عنه

فعصوه ؟ .. أم أنزل الله سبحانه دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه ؟ .. أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى ؟ .. أم أنزل الله سبحانه دينا تاما فقصر الرسول عن تبليغه وأدائه ؟ .. والله سبحانه يقول : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِى الكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ﴾[1] ويقول : ﴿ فيه تِبْيَانُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[2] .

فهذه الكلمات — كما ذكر شارح النهج — يتعلق بها نفاة القياس ، وفى ذلك من الحرج والتناقض ما لا يخفى على البصراء بمذاهب الأئمة فى اعتبارهم القياس بابا من أبواب الاجتهاد . وكيف يجترئ ذو علم ودين على نسبة هذا الرأى إلى الإمام — كرم الله وجهه — وهو البصير بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيراً ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ؛ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[3] .. فقد اشتملت هذه الآية الشريفة على اعتبار القياس اعتبارا لا يخفى على بصير بحر الكلام ، ذلك أن على الأمة أن ترجع فى شتى أمور الدين إلى قول الله أو إلى قول رسوله . فإن هى لم تتبين جلاء الأمر فتنازعت ، فإن الفيصل هنا أن ترد الأمر المتنازع فيه إلى الله ورسوله ، والرد إلى الله ورسوله له صورتان : **إحداهما** أن يكون الرد إلى قول الله ورسوله ، **وثانيتهما** أن يكون الرد إلى الاجتهاد بالقياس على ما أمر به الله أو نهى عنه . وغير خفى على الناظر البصير أن الرد إلى قول الله ورسوله يفضى إلى التكرار من حيث كانت الآية قد أمرت بطاعة الله وطاعة الرسول . والخلاص من التكرار ماثل فى رجوع

---

(١) الأنعام ٣٨ (٢) (٣) النساء ٥٨ .

المتنازعين إلى القياس الذى هو بابٌ من أبواب الاجتهاد .

وليس يستبعد الغيارى على الإمام فى فضله وعلمه ، أن تكون تلك الكلمات التى رواها الرضى مفتراة عليه — كرّم الله وجهه — ، وإلا فإن القول بنفى القياس فى الأحكام الشرعية قول لا تسانده حجة ولا يناصره دليل . ويؤيد هذا الاستبعاد أن القياس طريق إلى العلم ، والله تعالى يقول : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(١) . ففى هذه الآية يأمر الله أهل الإيمان بأن يردوا ما أشكل عليهم إلى الرسول ، فإن لم يكن موجوداً فإلى أولى الأمر من العلماء وأهل الاستنباط . وأول باب فى الاستنباط هو القياس ، وقد أرشد القرآن الكريم إلى القياس أيضا فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ ﴾(٢) .

ففى هذه الآية أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يلتزموا جانب العبرة والعظة ناشئتين عن قياس الشىء بالشىء .

وأصرح من ذلك وأوضح قول الله جل ثناؤه : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۞ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۞ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ .. وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(٣) . فهذه الآية من سورة الواقعة قد وقع فيها الاحتجاج

---

(١) النساء ٨٣ (٢) الأحزاب ٢٦ (٣) الواقعة ٥٨ — ٦٢

على الكفار فى إنكارهم البعث .

وكما وقع القياس فى الكتاب العزيز وقع فى السنة الشريفة ، إذ جاء فى الحديث الصحيح أن رجلا أتى إلى النبى — ﷺ — فقال : يا رسول الله لقد ولد لى غلام أسود فأنكرته . فقال له ﷺ : (هل لك من إبل) . قال الرجل : نعم . قال النبى : (ما ألوانها ؟) قال الرجل : إنها حمر . قال النبى : (هل فيها من أورق ؟) قال الرجل : نعم . قال النبى : (فأنّى ذلك ؟) قال الرجل : لعله نزعه عرق . فقال رسول الله — ﷺ — : (فلعل ابنك هذا نزعه عرق) . ففى هذا الحديث إرشاد للرجل إلى أن يقيس مخالفة لون ولده له على مخالفة لون ولد الجمل لوالده .

وفى هذا الباب يقول حجة الإسلام الغزالى : ما من مُفْتٍ إلا وقد قال بالرأى ، ومن لم يقل به فقد أغناه عن الاجتهاد ولم يعترض معترض على ذلك ، فانعقد إجماع قاطع على جواز القول بالرأى . وقد أقر النبى ﷺ من كان قياسه صحيحا من أصحابه دون غيره ممن أخطأ فى القياس .

ومن الأقيسة التى أقرها صلوات الله عليه ما جاء فى الصحيح من أن أبا سعيد الخُدرى — رَقَى ملسوعًا بسورة الفاتحة ، وأخذ على ذلك جعلا من غنم ، قياسا على الجعل فى غير الرقية . فلما قدم على رسول الله قال له صلوات الله عليه : (إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله) . فسلم له النبى ما استنبط من القياس .

وليس يجمل بك — أعزك الله — أن تتمثل الإمام مصدرا للقول بنفى القياس ، وأنت ترى مدار الاستدلال بالقياس على التسوية بين المتماثلين والتفرقة بين المختلفين . ولو جازت التفرقة بين المتماثلين لسدت أبواب الاستدلال كما يقول الإمام ابن القيم .

وقد ثبت أن القرآن الكريم كان يستخدم قانون التساوى فى الأحكام لتشابه الصفات ، فقد قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؛ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾(١) . فقد نبه هذا النص الكريم أن عاقبة أولئك المشركين كعاقبة من كانوا قبلهم إنْ هم فعلوا مثل فعلهم . وقد كان الإمام زيد بن على زين العابدين ممن يأخذون بالقياس مضيا على طريقة جده على بن أبى طالب الذى لا يرتاب مسلم فى أنه كان من فقهاء الرأى فى عهد الصحابة ، وفى أن له فى القياس اجتهادا واضحا لا يخفى على الذين يعلمون .

---

(١) محمد ١٠

علىّ فى حضانة الحنيفية

غير خفى على البصراء بالسيرة النبوية أن رسول الله ﷺ قد أثنى أطيب الثناء على أخلاق العرب فى الجاهلية .. ذلك أنه خرج إلى منى وفى معيته أبو بكر وعلى ، ثم جلس إلى بنى شيبان يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله . ودار حوار بين القوم ثم بينهم وبين رسول الله وقد انتهى هذا الحوار بنهوض النبى صلوات الله عليه آخذا بيد أبى بكر وقائلا له : « أية أخلاق فى الجاهلية هذه يا أبا بكر ؟ ما أشرفها ! إنهم ليتحاجزون بها فيما بينهم وبها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض » .

وقد تسأل — حفظك الله — هل كانت هذه الأخلاق الشريفة أمرا تواضع عليه القوم ابتغاء مصلحة لهم فى ذلك ، أو كانت بقية من بقايا ملة أبى العرب وأبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام ؟ .

ومهما أجابك أهل العلم بأن العقل إنما ينظر من وراء الشرع دون اعتبار لما فى الشيء من حسن أو قبح ذاتى ، فإن مما ينبغى التغاضى عنه أن الفطرة السوية لها مقاييس فى قبح الأشياء وحسنها ، وأن القول بنفى الحسن والقبح الذاتيين قول يصعب التسليم به والجرى وراء قائليه ، ثم هو قول لا يحملك الأخذ به على تحريم حلال ، أو تحليل حرام ، أو تجهم أمر معلوم من الدين بالضرورة ، ولكنه ينأى بك عن متاهات العصبية المذهبية بين أهل السنة وأهل الاعتزال . ولعل من الخير أن ننزل فى هذا الباب على مقتضى القاعدة التى يرتضيها أهل السنة من أن العقل إنما ينظر من وراء الشرع ، فنفترض — جدلا — أن هذه الأخلاق الجاهلية التى أشار إلى شرفها القرآن

وأثنى عليها رسول الله وفصل جمالها أمير المؤمنين ابن الخطاب ، إنما هى من بقايا الحنيفية السمحة التى هى دين أبى الأنبياء وأبى العرب إبراهيم ، فإنه — عليه السلام — نشأ بالعراق حوالى ألفى عام قبل الميلاد ، وأنه كان واضح الانتماء إلى عشيرة من عشائر العرب الكلدانيين حديثة الهجرة إلى العراق ، حيث كان العراق مع الشام ومصر مصبا منذ فجر التاريخ لهذه الهجرات القبلية ، التى تلاحقت من الجزيرة العربية تجاه أحواض الأنهار المحيطة بها فى موجات ينتظم تدفقها فى سنن الله ، فى حقب زمنية متساوية تبلغ الحقبة منها بضع مئات من السنين .

وقد كان إبراهيم الفتى يحمل بهذه الهجرة الحديثة إلى العراق هذه الجذوة من خصائص آبائه الصالحين وتراثهم . بل لقد زاده توهجا بهذه الخصائص وانطلاقا بطاقاتها كل ما أخذ يفطن إليه حوله من مشاهد ذلك المجتمع المهيض المتمزق .. الذى استكان إلى إفك الأوثان وسلطان الكهان بعد أن ركد الناس حكاما ومحكومين ، يتغالبون على خيرات الأنهار الجارية حتى أسنوا فى مواقعهم ، منكبين على وجوههم وقد نسوا الله فأنساهم أنفسهم وأذلهم بأيدى أربابهم وكبرائهم .

لقد ظلت هذه الخصائص الدينية الفطرية — فى نبضها الدافئ وضوئها المرشد — حية فى قلب إبراهيم وعقله ، لأنها كانت فى إطار حرية إرادته وجذوة إيمانه ونضرة كرامة الإنسان أمام عينيه . فما انفكت تتمثل له منذ شب عن الطوق فتلفته إلى التفكر فى خلق السماوات والأرض ، والتدبر لهذا البرهان العقلى والحسى الذى يأخذ بيد الفطرة السوية إلى الإيمان البصير بالله الأحد الذى لا إله غيره ولا خفاء لآيات وجوده وكماله . وغنى عن البيان أن الحنيفية هى ملة إبراهيم على ما تشير إلى ذلك الآية من سورة النحل :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1] . وكذلك الآية : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

والعرب — بحكم بنوتهم لإبراهيم — كانوا حراصا على الإلمام بالحنيفية وما يتعلق بها فى العقائد والعبادات والمعاملات . ورسول الله ﷺ كان فى حراء يلتزم طريق أبيه إبراهيم فى التأمل والتفكر فى ملكوت السموات والأرض ، فكان يعتكف شهر رمضان فى كل عام حتى أعزه الله وأعز به الإنسانية جمعاء ، فأنزل عليه كتابه الكريم فى ليلة القدر .

وقد كان فى الأمة العربية الجاهلية حنفاء فى ذروتهم رسول الله وخديجة بنت خويلد وورقة بن نوفل وزيد بن نفيل . ومن هؤلاء السادة من حرم الخمر على نفسه كعبد المطلب بن هاشم وأبى طالب بن عبد المطلب .

وما من شك فى أن عليا — كرّم الله وجهه — كان فى أسرته بين أبويه فى حضانة الحنيفية المسماح ، التى لم يكن ينحسر عنه ظلها فى سائر أحواله ، تحميه لظى الشرك وتحمله على مكارم الأخلاق . ثم لما بلغ السادسة من عمره وضعته عناية الله فى أكرم دور مكة بين محمد رسول الله وخديجة سيدة نساء العالمين .

والذين يتدبرون القرآن الكريم لا جرم أنهم يرون كلمة الحنيفية وكلمة حنيف تنتظم أشرف ما يتخلق به الإنسان ، وحسب هذه الكلمة شرفا أن الله تعالى آثر لنبيه محمد — ﷺ — أن يتبع ملة إبراهيم حنيفا كما فى الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[3] .

(١) النحل ١٢٠   (٢) آل عمران ٦٧ — ٦٨   (٣) نحل ١٢٠

وكذلك الآية : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١) .

ففى هذه الآية يخاطب الله رسوله آمرا أن يقوم وجهه لله غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا . فإن من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه وسدد إليه نظره وَقوّم له وجهه مقبلا به عليه . فتلك هى الفطرة التى خلق الله الناس عليها قابلين للتوحيد ودين الإسلام ، غيرَ نائين عنه ولا مُنكرين له لكونه مجاوبا للعقل السليم مساوقا للنظر الصحيح ، حتى إنهم لو تركوا لما اختاروا عليه دينا غيره . فالذين غووا وتنكروا له فإنما أغوتهم الشياطين وصرفتهم عن مسايرة فطرتهم ، فأشركوا بالله غيره واستناموا إلى هوى الأنفس أو سلطان التقاليد .

وإذ قد كانت هذه هى خاصة الحنيفية فى العقائد ، فإن خاصتها فى السلوك اتقاء كل ما يمس المروءة ويتجهم شرف السلوك الاجتماعى الكريم .. وما أكثر الذين كانوا يتجنبون الأمر من الأمور أنفة منهم أن يواقعوا الصغائر ويرضوا بالدون من الحياة . ثم ما أكثر الذين كانوا يأخذون بالإسلام وأدبه وهم يقولون : والله إن هذا الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن دينا لكان فى أخلاق الرجال حسنا .

ولعلنا ننتهز بك هذه السانحة لنضرب لك مثلا من الأخلاق الكريمة التى كان يتحلى بها علىّ — كرّم الله وجهه — إلى جانب زهده وتقشفه وعدالته وبذله فى سبيل الإسلام والمسلمين ما لم يسلك سبيله أحد سواه فى مبلغ ما نعلم عن أهل الإسلام وسادة المسلمين . وخلاصة هذا المثل ما ذكره أحمد بن يحيى البلاذرى فى تاريخ الأشراف ، من أن بنى أسد

(١) الروم ٣٠ .

أغاروا على بنى حنيفة فى خلافة أبى بكر الصديق فأصابوا خولة بنت جعفر سبية وباعوها فى المدينة . فلما بلغ الخبر قومها قدموا المدينة للقاء على — كرّم الله وجهه — ثم أخبروه بموضع المرأة منهم . ولم يسع عليا إلا أن يسلك مع القوم أشرف ما يسلكه كريم مفضال ، فدعا بالجارية فأعتقها ثم مهرها وتزوجها فولدت له بعد موت فاطمة بنت رسول الله ولدا سماه محمدًا وكناه أبا القاسم ، إمضاء لوصية كان قد أوصاه بها رسول الله .

ومحمد هذا هو المعروف بمحمد بن الحنفية ، وهو الذى كان قد حدث بينه وبين أخيه الحسن فكتب إليه يقول له :

يا أخى إن أباك وأبى على لا تفضلنى فيه ولا أفضلك ، فنحن فى شرفنا به سواء ، وأما أمك فإنها فاطمة بنت محمد سيدة نساء العالمين ولن يفضلها أو يعادلها ملء الأرض نساء مثل أمى . وقد كنت عتبت عليك فى أمر فتعال إلى وترضانى واحذر أن أسبقك أنا إلى هذا الشرف الذى أنت له أهل وبه أحق وأجدر ، والسلام عليك ورحمة الله . ولم يسع الحسن — رضى الله عنه — إلا أن يستجيب أخاه ، فذهب إليه حاسرا وترضاه . وتلك هى مكارم الأخلاق التى يتوارثها أهل البيت كابرا عن كابر — رضى الله عنهم ورضى عنا بهم أجمعين .

العقل العربى يتجهم التعقيد

فى الكلمة التى رواها الشريف الرضى عن الإمام ــ كرّم الله وجهه ــ عبارات تدق مسالك العقول إليها ، وتضيق الصدور بوضوح الصنعة فيها . ذلك أن الإمام نفى عن الذات العلية صفات الكمال الثابتة التى لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه . ثم كيف يرضى ذو دين سليم من آفات الزيغ أن يجعل الإمام بهذه المنزلة ، وهو يستمع إلى الحديث الذى أخرجه مسلم عن عثمان بن أبى العاص الثقفى ، أنه شكا إلى رسول الله ــ ﷺ ــ وجعا فى جسده ، فقال له : (ضَعْ يدك على الذى تألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثا ، وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد) .

وقد كان صلوات الله عليه يقول : (أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك) .

فهذه الأحاديث صحيحة صريحة فى أن رسول الله كان يستعيذ بصفات الله ، وما كان لعلى ولا لغيره إلا أن يقتدى برسول الله ﷺ . فإذ قد ثبت أنه كان يستعيذ بالله وبصفات الله ، فغير جائز أن ينكر الإمام علىّ أن الله موصوف بكل كمال منزّهٌ عن كل نقص .

وباستصحاب هذا المعنى نروى لك ما يقوله ثقات أهل العلم والدين ، من أن المسلم الحق لا ينبغى له أن ينفى عن الله سبحانه ما وصف به نفسه ، وما وصفه به أعرف الخلق بربه وأنصحهم لأمته وأقدرهم على البيان . ذلك أنك إن نفيت شيئا من ذلك فقد عاندت الله ورسوله إذ أعرضت عن الكتاب

والسنة ، وإن أنت وصفته بما وصف به نفسه فإياك أن تشبهه بخلقه إذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثل الأعلى ، فقال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(١) .

فقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثل الأعلى ، وقد جعل لأعدائه المشركين ولأوثانهم مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمالات ، فمن سلب صفة الكمال عن الله تعالى فقد جعل له تعالى مثل السوء ، ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعانى الثبوتية ، التى كلما كانت أكثر فى الموصوف وأكمل ، كان بها أكمل وأعلى من غيره .

ولما كانت صفات الله سبحانه أكثر وأكمل ، كان له المثل الأعلى وكان أحق به من كل ما سواه . بل إنه ليستحيل أن يشترك فى المثل الأعلى المطلق اثنان لأنهما إن تكافآ من كل وجه لم يكن أحدهما أعلى من الآخر ، ولما لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده حتى يستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير .

هذا المعنى على ما ينبغى له يستحيل على كل ذى عقل سليم وعقيدة إسلامية صحيحة أن ينسب إلى الإمام على — كرّم الله وجهه — القول بنفى صفات الكمال عن الذات العلية ، ومن ثم تكون تلك الكلمات الاعتزالية مفتراة على الإمام رضى الله عنه وعن آل بيته الطيبين .

وغير ذى حاجة إلى بيان ، أن الطعن فى نسبة هذه الكلمات إلى الإمام

---

(١) النحل ٦٠

لا يعنى النيل من الشريف الرضى بنسبته إلى افتراء الكذب على الإمام — كرم الله وجهه — ذلك أن الشريف إنما أخذ خطب الإمام وكلماته من أفواه معاصريه أو من صحائفهم التى كتبوها ، وقد كانت المعركة على أشدها بين أهل السنة وأهل الاعتزال . وليس ببعيد أن يكون هؤلاء المعتزلة قد اختلقوا ذلك اختلاقا تأييدا لمذهبهم القائل بنفى الصفات عن الله ، زاعمين — أنه بذاته — عالم ، مريد ، قادر ، سميع ، بصير ، متكلم دون الله ، له صفات زائدة على الذات من العلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام .. وبتأمل هذا المعنى الذى هو خلاصة مذهب المعتزلة ، تكون تلك الخطبة من تأليفهم انتصارا لمذهبهم ، فلا يكون على الشريف الرضى فى ذلك لوم لأنه نقل ما وجد أو حكى ما سمع ، فالغلط من غيره والوهم سابق عليه . وهذا اللون فى أحاديث الإخباريين كثيرة مستفيضة ، إذ كان أهل العلم يحسنون الظن بالذين يأخذون عنهم ويثقون بهم . وحسب الرجل فضلا أن يروى خبرا يثق بمن نقله عنه ما دام لا يمس أصول العقيدة ولا أدب السلوك .

الأمة الإسلامية خير الأمم

لا يغيب عن الفقهاء بتاريخ الأمم فى مختلف شئونها الاجتماعية ، أن الأمة العربية الإسلامية وسط بين الإفراط والتفريط ، فذلك هو مناط الحكم بأنها خير الأمم . وقد جاء فى القرآن الكريم قول الله جل ثناؤه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾(١) .

ففى هذه الآيةِ الشريفةِ من سورة آل عمران بيانٌ من الله تعالى بأن هذه الأمة العربية الإسلامية خير الأمم ، وبأن هذه الخيرية راجعة إلى أنها لا تنفك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله . فمهما استقامت لها السبيل إلى أداء هذه الأمانة فقد ثبت لها الحكمُ بأنها خير الأمم ، وإن هى قصرت فى أداء الحق الذى ناطه الله تعالى بها فلا جرم أنها يومئذ تتراجع عن شرف منزلتها إلى ما دونها من منازل لا خير فيها ولا شرف لها ، وربما هبطت بها إلى منزلة التابع من المتبوع ، أو منزلة العبدِ من سيده يأمره وينهاه ويتحكم فى مصائر أموره ..

وغير ذى حاجة إلى بيان أن فى كل أمة من هو خير ومن هو أخير منه ، ومن هو كريم ومن هو أكرم منه ، وهكذا يتفاوت الناس فى الأمة علوا وانحطاطا واستقامة واعوجاجا وإفراطا وتفريطا .. والمنزلة الوسطى بين الغلو والتقصير هى خير المنازل كما ذكر ذلك على — كرّم الله وجهه — فقال : « خير الناس النمط الأوسط : يلحق بهم التالى ويرجع إليهم الغالى ».

---

(١) آل عمران ١١٠ .

وليس يخفى على المتأمل أن الخير فى النمط الأوسط غير مختص بأمر الدين غلوا أو تقصيرا ، ولكنه يتجاوز ذلك إلى سائر القضايا الاجتماعية . فالتوسط مطلوب فى الحكم على الناس بغير غلو ولا تقصير .. ومن هنا ينبغى لكل ذى دين ألا يسرف فى الثناء على الناس ، ولا فى الغض من أقدارهم والحرص على تنقصهم وإشاعة السوء عنهم مهما تكن الأسباب الداعية إلى ذلك لخير الدنيا أو خير الدين .. فإن السوء بغيض فى كل الأحوال من حيث كان وسيلة إلى صدع الصف وإثارة الخلاف . ورب كلمة سوء تفتح أبوابا من الشر تنفذ منها إلى الأمة فتن مشبوبة النار مسعورة الأوار يتساوى فى البلية بها الظالم والمظلوم على سواء .

نقول هذه الكلمات لكى نتوسل بها إلى استبعاد بعض الخطب التى ينسبها الغلاة إلى الإمام على كرّم الله وجهه — وهى خطب أو أحاديث — لا تتفق مع مقامه الجليل فى صلته الوثيقة برسول الله من طريق القرابة ومن طريق القربة جميعا . ذلك أن فى هذه الخطب أو فى هذه الأحاديث ما يتنقص أصحاب رسول الله ﷺ تنقصا يجعلهم بمنأى عن ثقة رسول الله بهم وتكريمه إياهم ، وفى ذلك من الشر ما لا يخفى على بصير بشئون الإسلام والمسلمين . ثم كيف يرضى ذو عقل ودين أن يقف علىّ موقفا أو يجلس مجلسا يلقن الناس فيه كلمات تناقض كلمات رسول الله عن أصحابه رضى الله عنهم أجمعين .

إن لرسول الله ﷺ فى أصحابه أحاديث تشرفهم وتعلن للناس مناقبهم ، لا تخفى على علىّ — كرّم الله وجهه — ، فيستحيل أن يقول كلمات تناقض الكلمات التى كرّم بها رسول الله أصحابه الميامين .

وقبل أن نروى لك الخطبة التى قد توحى إلى الناس أن عليا ينال من أصحاب رسول الله ، نسوق لك من الأحاديث الصحيحة ما يمهد السبيل

إلى الإيمان بأن الإمام أجلُّ قدرا وأكرم نفسا وأشرف أدبا من أن ينال من إخوته فى مصاحبة رسول الله ﷺ بما يغض من قدرهم أو يحط من شأنهم ويجعلهم مضغة فى أفواه المتربصين بدعوة الإسلام ووحدة المسلمين .

فمن تلكم الأحاديث النبوية الشريفة :

ما أخرجه تيسير الوصول عن عمران بن حُصين قال : قال رسول الله ﷺ : (خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم إن بعدهم قوما يشهدون ولا يستشهدون ، ويحلفون ولا يستحلفون ، تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته) .

ومن تلكم الأحاديث ما أخرجه أبو داوود عن سعيد بن زيد قال : « سمعت رسول الله ﷺ يذكر عشرة من أصحابه ويبشرهم بالجنة وهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد بن مالك وعبد الرحمن ابن عوف وأبو عبيدة بن الجراح » . ثم سكت سعيد عن العاشر ، فقالوا : من العاشر ؟ فقال سعيد : « سعيد بن زيد » — يعنى نفسه —، ثم قال سعيد : « والله لمشهد رجل منهم مع رسول الله ﷺ تغير فيه وجهه ، خير من عمل أحدكم عمره ولو عُمِّر عمر نوح » .

ومن تلكم الأحاديث ما أخرجه الشيخان البخارى ومسلم عن أبى سعيد ، قال : خطب رسول الله ﷺ الناس فقال : « إن من أمن الناس علىَّ فى صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام ومودته » .

ومن تلكم الأحاديث الشريفة ما أخرجه مسلم عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تسبوا أصحابى . فوالذى نفسى بيده لو أن أحدا أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) .

ومن تلكم الأحاديث الشريفة ما أخرجه الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أرحم الناس بأمتى أبو بكر ، وأشدهم فى أمر الله تعالى عمر ، وأشدهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبى بن كعب ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر ، أشبه عيسى عليه السلام فى ورعه) . فقال عمر رضى الله عنه : أتعرف ذلك له يا رسول الله ؟ قال : « نعم ، فاعرفوه له » .

ومن تلكم الأحاديث الشريفة ما أخرجه أبو داود عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أُرى الليلة رجل صالح ، كأن أبا بكر نيط برسول الله — علق به — ، ونيط عمر بأبى بكر ، ونيط عثمان بعمر) . يقول جابر : فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا : أما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ ، وأما تنوّط بعضهم ببعض فهم ولاة الأمر الذى بعث الله به نبيه ﷺ .

ومن تلكم الأحاديث الشريفة ما أخرجه الترمذى عن بريدة ، قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من أحد من أصحابى يموت بأرض إلا كان قائدا ونورا لهم يوم القيامة) .

ومن تلكم الأحاديث التى لها فضل تعلق بهذا الفصل من الكتاب ، ما أخرجه البخارى وأبو داوود عن محمد بن الحنفية قال : قلت لعلى : يا أبت أى الناس خير بعد رسول الله ﷺ ؟ قال : « خير الناس بعد رسول الله أبو بكر » . قلت : ثم من ؟.. قال : عمر خير الناس بعد أبى بكر .. وخشيت أن أقول ثم من ، فيقول عثمان . فقلت : ثم أنت يا أبت ؟.. فقال : « ما أنا إلا رجل من المسلمين » .

ومن تلكم الأحاديث ما أخرجه البخارى عن أبى الدرداء رضى الله عنه ، قال : « كنت جالسا عند النبى ﷺ إذ أقبل أبو بكر رضى الله عنه آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه ، فقال رسول الله : (أما صاحبكم فقد غامر — خاصم —) فجاء أبو بكر فسلم ثم قال : إنه كان بينى وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه — أسأت إليه — ، ثم ندمت فسألته أن يغفر لى فأبى ، فأقبلت إليك يا رسول الله . فقال النبى : (يغفر الله لك يا أبا بكر) . ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبى بكر فقال : « أثَمَّ — أهنا — أبو بكر ؟ » . قالوا : « لا » . فجاء عمر إلى النبى ﷺ فجعل وجه النبى يتغير حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال : يا رسول الله أنا كنت أظلم . فقال النبى ﷺ : (إن الله بعثنى إليكم فقلتم كَذَبت ، وقال أبو بكر صدقت وواسانى بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركون لى صاحبى ؟ » مرتين أو ثلاثا) فما أوذى بعدها أبو بكر من أحد .

ومن تلكم الأحاديث ما أخرجه مسلم قال : قال رسول الله ﷺ : (بينا رجل يسوق بقرة وقد حمل عليها ، فالتفتت إليه فقالت : إنى لم أخلق لهذا ولكنى خلقت للحرث . فقال الناس : سبحان الله ، تعجبا وفزعا — بقرة تتكلم — ثم قال ﷺ : (إنى أومن به وأبو بكر وعمر) ..

ومن تلكم الأحاديث ما أخرجه الترمذى عن عبد الرحمن بن خباب قال : « شهدت رسول الله ﷺ وهو يحث على تجهيز جيش العسرة ، فقام عثمان بن عفان رضى الله عنه فقال : يا رسول الله على مئة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله . ثم حضّ الله على الجيش فقام عثمان فقال : يا رسول الله على مئتا بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله . ثم حضّ النبى على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال : يا رسول الله على ثلاث مئة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله . يقول راوى الحديث : فأنا رأيت رسول الله ﷺ

ينزل عن المنبر وهو يقول : (ما على عثمان ما عمل بعد هذه) .

ومن أكرم ما يذكر فى هذا الفصل لأمير المؤمنين عثمان — رضى الله عنه وأرضاه — ما يرويه الثقات من أهل العلم وقد نجم قرن الفتنة بمحاصرة الأغبياء له فى داره . ذلك أن معاوية رحمه الله قال لعثمان : اخرج معى إلى الشام قبل أن يهجم عليك ما لا قبل لك به ، فقال عثمان : « لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشىء ولو كان فيه خبط عنقى » .. قال معاوية : « فأبعث إليك من الشام من يقيمون معك ويمنعونك » . فقال عثمان : « لا أضيق على جيران رسول الله ﷺ » . فقال معاوية : « والله لتغتالن » قال عثمان : « حسبى الله ونعم الوكيل » .

ومن تلكم الأحاديث ما أخرجه الترمذى عن أبى إدريس الخولانى قال : « لما عزل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمير بن سعد عن حمص ، وولى معاوية . فقال الناس : عزل عميرا وولى معاوية . فقال عمير رضى الله عنه : لا تذكروا معاوية إلا بخير ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (اللهم اهد به) .

ومن تلكم الأحاديث ما أخرجه الترمذى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أسلم الناس ، وآمن عمرو بن العاص) .

ففى هذا الحديث — على ما ترى — يضع رسول الله عمرا فى منزلة رفيعة لم يظفر بها كثير من الناس .. ذلك أن عمرا لم يدخل فى الإسلام دخول الذى ينقاد لقوة الرأى العام ، ولكنه يصدر فيما يأتى عن تأمل وفكر يبلغان به منزلة اليقين ، فيتصرف تصرف الذى يعول على رأيه لا يبالى وافق الناس أو خالفهم . وتلك منزلة لا يظفر بها إلا أولئك الذين أعطاهم الله عقلا واعيا ونظرا بعيدا فانتفعوا بهذه المنحة الإلهية الجليلة فى تعاملهم مع الناس إبّان الحرب والسلم على سواء .

ولقد كان عمرو بن العاص — فى مبلغ ما نعلم — صادقا الصدق كله فى معرفته نفسه ، وفى مصارحته الناس بما لا يصارحهم به إلا شجاع لا يعنيه من الأمر إلا أن يقول الحق ، ثم يستغفر الله مما عسى أن يكون قد واقع فيه سخط الله عز وجل . وآية هذا الذى نقول ما يرويه عنه شيخ الإسلام ابن القيم فى كتابه عن الروح حيث ذكر : أن عمرا — آخر عهده بالحياة — قال لولده :

لا تجزع على أبيك يا بنى ، وإنى مخبرك عن موضعى من رسول الله ﷺ ، فقد كنت معه على أطوار ثلاثة : طور دعوته إلى الإسلام أول أمره ، وقد كنت شديد البغض له ، ثم هدانى الله للإسلام فذهبت إليه وقلت له : « امدد يدك أبايعك على الإسلام يا رسول الله . فمد ﷺ يده فقبضت يدى فقال : مالك يا عمرو ؟.. قلت أريد أن أشترط . قال : تشترط ماذا ؟.. قلت : أن يغفر الله لى .. قال : « ألم تعلم يا عمرو أن الإسلام يجب ما قبله » .

فأخذت يده وبايعته ، فلم يكن وجه أحب إلى من وجهه ﷺ ، حتى إننى لم أكن أملأ عينى منه هيبة له . ثم ولينا بعد ذلك أمورا لا ندرى أين نحن من رضوان الله فيها ، ثم أدار وجهه إلى الحائط وأخذ يبكى وهو يقول : اللهم أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فأتينا ، اللهم لا برئ فأعتذر ولا قوى فأنتصر ، ولكنى مذنب مستغفر ، فاغفر اللهم بفضلك ورحمتك ياذا الجلال والإكرام . ثم أسلم الروح .

فهذه هى مناقب أصحاب رسول الله وفيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وعمرو ، وهم جميعا موضع تكريم رسول الله ﷺ . ومن حقهم فى منزلتهم هذه أن يلقوا التبجيل والاحترام من كل مسلم يخشى الله وينصف التاريخ ويحرص على التخلق بأخلاق أهل الإيمان .

هذا ما آثرنا ذكره مما يستهدف تكريم رسول الله ﷺ أصحابه رضى الله عنهم . وقد بقى لك علينا أن نذكر بعد ذلك خطبة الإمام التى نقف نحن وأنت منها موقف الحذر الذى لا يرحب بكل ما يلقى إليه من روايات تاريخية لا تسلم من هوى جامح ، ولا من حقد متربص . والله تعالى المسئول أن يتفضل علينا فيرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه ، والباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه ، فإنه أكرم مسئول وأعظم مأمول وهو حسبنا ونعم الوكيل .. ونبادر إلى القول بأنا لا نتهم الرضى بالتزييف والافتراء ، إذ كنا لا نملك الحجة على ذلك ولا نحب أن نقول قولا بغير دليل ، ثم إن الرجل من آل البيت النبوى الشريف وله — فى مبلغ ما نعلم — خلق رضى . ومن شأن ذلك أن يدعونا إلى الإيمان بأن الرجل قد وجد فى صدور الناس وعلى ألسنتهم خطبا وأحاديث ينسبونها إلى أمير المؤمنين على فروى من ذلك ما تطمئن إليه نفسه فإن كان صادقا فله صدقه ، وإن كان كاذبا فعلية كذبه ، وللناس عقول تحكم وأذواق ترضى . فلك أن تأخذ من ذلك ما تطمئن إليه وأن ترد ما تنفر منه والله المستعان .

وإليك تلك الخطبة التى وعدناك بالنظر فيها وبنقدها نقدا يتوخى العدل ويتجهم الجور بكل سبيل ، والله تعالى حسبنا ونعم الوكيل .

قال الإمام — كرم الله وجهه :

« أما — والله — لقد تقمصها ابن أبى قحافة ، وإنه ليعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى ، ينحدر عنى السيل ولا يرقى إلى الطير ، فسدلت دونها ثوبا وطويت عنها كشحا ، ثم طفقت أرتئى بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء ، يهرم فيها الكبير ويشيب الصغير ... الخطبة » .

ومبلغ الظن بك — ألهمك الله الصواب — أنك لا تجد بدا من وقفات توازن فيها بين ما يصح صدوره عن الإمام وبين ما يمكن أن يكون مفترى

عليه من ذوى الأهواء ، غلواً فيه أو قلى له كرم الله وجهه : وأولى هذه الوقفات إخبار الإمام عن أبى بكر بالكلمة « ابن أبى قحافة » ، إذ كانت هذه العبارة توحى بشىء من الاستخفاف بشأن الخليفة الأول أبى بكر الصديق ، وذلك أمر نبرئ منه الإمام تبرئة الذئب من دم ابن يعقوب . وسندنا فى تلك التبرئة أنه — كرم الله وجهه — يعلم منزلة أبى بكر عند رسول الله فى حديثه عنه وتعامله معه ، وليس لمسلم أن يظن بعلى أنه يعاند بقول أو بفعل ما يعلم أنه لا يرضى رسول الله ﷺ .

وثانية الوقفات نسبة الإمام صفة الظلم إلى أبى بكر عن طريق قوله فى خطبته تلك « إنه ليعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى » . فهذه العبارة تشير إلى أن أبا بكر كان يعلم أن عليا أحق منه بالخلافة ومع ذلك خالف علمه فأصبح من الظالمين له ، وذلك أمر يستحيل تصوره فى علىّ — كرّم وجهه — لأن كلمته هذه إما صدق وإما كذب ، فإن كان أبو بكر يعلم أن عليا أحق منه بالخلافة ثم يتنكر لعلمه فهو ظالم ، والظالم لا يجوز أن يلى أمر الأمة خليفة عن رسول الله . ولكن الأمة رضيت أبا بكر مطمئنة إليه ، معتزة بشرف سلوكه ، طائعة أمر رسول الله فى ترشيحه خليفة له عن طريق تقديمه إماما للمسلمين فى الصلاة حتى قال قائلهم : « لقد رضيه رسول الله ﷺ لديننا فمن الحق أن نرضاه لدنيانا » . وذلك أمر لا يخفى على أمير المؤمنين على كرّم الله وجهه — ورضى الله عنه وعن سائر إخوته من خلفاء رسول الله وأمراء المؤمنين .

وثالثة الوقفات تصريح الإمام على بأن الخلافةَ ميراث له . ذلك أن اعتبارَ الخلافةِ عن رسول الله ميراثا لا بد أن يكون كبار الصحابة قد علمـوه ، وفى هذه الحال يكون عليهم أن يجروا على مقتضى علمهم . فأما وقد بايعوا

أبا بكر راضين مطمئنين ، فذلك يعنى أن رسول الله لم يعتبر الخلافة عنه ميراثا لآل بيته الكريم .

ورابعة الوقفات أن صبر الإمام على القذى فى عينه والشجا فى حلقه قد يحمله بعض أعدائه أسوأ محمل ، أو يتخذه أسلس مطية إلى أنه شريك فى دم عثمان ، وذلك أمر لا يرضاه للإمام كرّم الله وجهه إلا أصدقاء جاهلون أو أعداء متربصون .

وخامسة الوقفات ما تشير إليه الكلمة « تشطرا ضرعيها » ذلك أن هذه الكلمة توحى بمعنى نأباه أشد الإباء ونرفضه أعنف الرفض ، وهو أن كلا من أبى بكر وعمر قد انتفع من الخلافة انتفاع شارب اللبن بما يحلبه من لقحته .. ومعاذ الله أن يكون ذلك رأى على فى أبى بكر وعمر ، وهما الرجلان اللذان كادا أن يلتحقا بعالم الملائكة عزوفا عن الشرور وضيقا بالآثام ، حتى لقد كان أحدهما يكره أن يأكل طيب الطعام أو أن يشبع منه حرصا من كل منهما على القدوة بمحمد رسول الله ﷺ . فكل قول ينال من هذين الخليفتين لا ينبغى أن يلتفت إليه ذو دين . ومن الظلم للحقيقة وللحق أن ينسب مثل هذه الكلمة إلى أمير المؤمنين على كرّم الله وجهه .

وسادسة الوقفات وصفه عثمان بن عفان بأنه لا يهتم إلا بمأكله ، فهو بين — تناول الطعام والتخلص منه — كالدابة بين المعتلف والنثيل ، وهو معنى لا تسوغ نسبته إلى الإمام .

وما كان ليخفى على أمير المؤمنين شيء من هذا الذى ذكرنا فى هذه الوقفات . من أجل ذلك نرى أن هذه الخطبة لا تسلم من صنعة فيها تجعلها أشبه بكلام الإمام صورة وشكلا ، وإن كانت أبعد ما تكون عنه حقيقة وموضوعا . وإلا فإن الذى ينظر فى هذه الخطبة معتقدا أنها رأى الإمام وفكره وأسلوبه إنما يتجهم بذلك منزلة الإمام من أدب الإسلام ، ويراه

أبعد ما يكون عن الإذعان لأمر رسول الله فى تكريم أصحابه والثناء عليهم وجعلهم أئمة يحملون عنه عبء الدعوة إلى الله ، وإتمام ما بدأه هو عليه الصلاة والسلام . وظن المسلمين بعلى هذا الظن يستلزم أن يضعوه بمنأى عن مرضاة الله تعالى ومرضاة رسول الله ﷺ . نعوذ بالله من ذلك ونعيذ به سبحانه أبناء الأمة الذين يحرصون على التأدب بأدب الله والانقياد لأمر رسول الله فى كل ما أمر به ونهى عنه وأرشد إليه ، وفى طليعة ذلك احترام أصحابه الميامين .

ولعلك تتطلع إلى مزيد من القول يزيدك يقينا بأن بعض خطب الإمام وأحاديثه التى نال فيها من أصحاب رسول الله إنما هى مفتراة عليه من الغلاة فى حبه والغلاة فى بغضه ، وهو كرّم الله وجهه برئ من أولئك وهؤلاء ومن كل من يجرى فى طريقهم التى تغض من أقدار أصحاب النبى ومن قدر علىٍّ نفسه رضى الله عنهم ورضى عنا بهم أجمعين .

ومما يؤيد القول بأن الإمام عليا أبعد ما يكون عن النيل من أصحاب رسول الله ، أن أحفاده كرّم الله وجهه كانوا يكرهون لأنصارهم والمتشيعين لهم أن ينالوا من أبى بكر وعمر وعثمان . وآية ذلك ما يرويه ثقة فاضل من أن الإمام عليا زين العابدين ابن الإمام الحسين ابن الإمام على كان يتجهم الذين يذمون الخلفاء الراشدين . فلا يعلم عنه رضى الله عنه أنه قال فى أبى بكر وعمر وعثمان إلا خيرا . وكان يعتبر محبة المتشيعين لآل على غير سائغة ولا مقبولة إذا شابها ذم لأبى بكر أو عمر أو عثمان ، بل كان يقول رضى الله عنه : أيها الناس أحبونا حب الإسلام ، فما برح حبكم إيانا عارا علينا بما كنتم تنالون من أصحاب رسول الله حتى بغضتمونا إلى الناس .

ومما يؤثر عن الإمام زين العابدين رضى الله عنه أنه جلس إليه قوم من المتشيعين لعلى كرّم الله وجهه ، فذكروا أبا بكر وعمر فنالوا منهما ، ثم ابتدعوا فى عثمان فقال لهم — رضى الله عنه — : أخبرونا أأنتم من المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ؟ .. قالوا : « لا » .. قال : أفأنتم من الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ؟ قالوا : « لا » فقال لهم : أما أنتم فقد أقررتم على أنفسكم بأنكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء ، وأما أنا فإننى أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) ثم قال لهم : قوموا عنى ، لا بارك الله فيكم ولا قرب دوركم . أنتم مستهزئون بالإسلام ولستم من أهله.فإذ قد كانت هذه الكلمات التى رواها ابن كثير عن الإمام زين العابدين صورة لما فى نفسه من الاحترام والتكريم لأصحاب رسول الله ﷺ ، فإن أحدا لا يجترئ على الظن بأن زين العابدين أعظم إجلالا لأصحاب النبى من جده علىّ الذى تنسب إليه هذه الخطبة « الشقشقية » ، بما انطوت عليه من كلمات تغض من قدر أبى بكر وعمر وعثمان . ذلك بأن سلوك علىّ زين العابدين فى كلماته وتصرفاته ، إنما يرجع إلى قدوته بجده ، ولا يمكن عقلا أو عادة أن يتنكر الحفيد لجده وبخاصة إذا كان فرعا من تلكم الشجرة الزكية ، شجرة آل البيت النبوى الكريم .

فإذا ضممت إلى هذا المعنى أن زين العابدين قد صقلته محنة آبائه الذين

---

(١) الحشر ١٠

رآهم يذبحون بين يديه ، فإن من شأن ذلك أن يزيدك ثقة بشرف أخلاق عليّ وبنيه حتى يوم الناس هذا .. وأنت — إذا استصحبت هذه المعانى — لم تجد بدا من أن تنظر إلى ما رواه الشريف الرضى عن الإمام عليّ نظر الذى يأخذ بالأحوط من الرأى ، فلا يقبل كل ما أثر عن الإمام — كرَّم الله وجهه — من خطب وأحاديث . وليس يستبعد أهل النظر الصحيح أن تتحرج الفتن العمياء من افتراء الكذب وترويج الأباطيل ، وهى التى استحلت ما حرم الله من سفك الدماء واستباحة الحرمات .

عليّ فى مجلس الشورى

أسلفنا لك — حفظك الله — أن رسول الله ﷺ رشح للخلافة من بعده أبا بكر ، ثم رشح أبو بكر رضى الله عنه للخلافة من بعده عمر .

وقد كان الظن بأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أن ينهج نهج رسول الله ﷺ ، أو ينهج نهج أبى بكر الصديق رضى الله عنه فيرشح للخلافة من بعده عليًّا — كرم الله وجهه — أخذا للطريق على فتنة عمياء ينفخ فى نارها التكافؤ بين المتنافسين الذين لا يمتاز أحدهم عن قرنائه امتيازا يجعله مهوى الأفئدة ومعقد الأبصار . ذلك أن الستة الذين رشحهم عمر كانوا متساوين أو أدنى إلى التساوى فى النسب وفى السابقة وفى تبشير رسول الله ﷺ إياهم بالجنة . فما ذاك الذى صرف أمير المؤمنين عمر عن المضى فى طريق رسول الله وهو الحريص على القدوة به ؟.. ثم ما الذى صرفه عن المضى فى طريق أبى بكر وهو الحريص على الوفاء له ؟.

وقبل أن نجيبك على هذا التساؤل نقرر لك — ثبت الله قلبك — أن عمر رأى أحداثا جدت ، وأن هذه الأحداث تقتضى نظرا يليق بها وينسجم معها . ثم هو نفسه رضى الله عنه كان شديد التحرج من كل ما يرى أنه مأخوذ به عند الله وعند الناس .. وهذا التحرج هو الذى منعه أن يرشح عليًّا من بعده .. ومعاذ الله أن يكون عمر عبد هوى أو مطية شهوة ، فهو — فى مبلغ ما نعلم — فوق الشبهات التى تبخس الناس حقهم ثم ترمى بهم إلى تيه من التظنن تتصارع فيه الأهواء وتتجاوب الأحقاد .

وربما زادك اطمئنانا إلى هذا الذى نقول أن تتمثل أمرين لا يعرفهما التاريخ

الوائق إلا لأمير المؤمنين عمر ، وكلاهما يفضى بك إلى اليقين بأن عمر ينبغى أن يضعه الغيارى على الحق فوق سيئات الظنون .

فأما أحد الأمرين ، فإنه رأى الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ يأتون الشجرة التى وقعت عندها بيعة الرضوان ثم يصلون عندها . فرأى أن ذلك رجوع إلى الوثنية ، وأن هذه الشجرة أخذت مكان العزى فى الجاهلية . فشدد رضى الله عنه النكير على كل من يصنع ذلك قائلا لهم : ألا إنى لأنهاكم عن ذلك ، ولئن جيء إلىّ بأحد صلى تحت تلك الشجرة لأقتلنه قتلة المرتد عن دين الله . ثم أمر بالشجرة فقطعت .

وأما الأمر الآخر ، فهو أنه مر يوما بشاب من فتيان الأنصار فاستسقاه فأعطاه الشاب شرابا مشوبا بعسل ، فأبى عمر أن يشربه قائلا : إن الله تعالى يقول : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

فقال له الشاب الأنصارى : ياأمير المؤمنين إن هذه الآية ليست لك ولا لأحد من المسلمين ، واقرأ الآية من سورة الأحقاف : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (٢) .

وعلى هذا النهج من الاحتياط الشديد فى شئون الدنيا وشئون الدين كان أمير المؤمنين عمر يسير لا يخاف فى الله لومة لائم ، فلا يكاد يأتى أمرا إلا إذا كان له فيه من الله تعالى برهان ، أو أتاه عنه من رسول الله ﷺ بيان . ولعله كان يرى من مصلحة الأمة أن يجعل عليًّا فى أهل الشورى دون أن يختاره للخلافة من بعده ، فنزل على ما تقتضيه مصلحة الأمة حتى لا يحتمل من

(١) ، (٢) الأحقاف ٢٠

تبعات المنصب الشريف ما لا يد له فيه . وآية أنه آثر مصلحة الأمة على حب عليّ ما يرويه الثقات من كلمة له مع عبد الله بن عباس ، فقد قال له يوما : يا عبد الله بن عباس ، ما تقول فى قومكم وقد كرهوا أن يسندوا الخلافة إليكم ؟.. قال عبد الله بن عباس : لا أعلم يا أمير المؤمنين .. فقال عمر : اللهم اغفر وارحم ، إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتذهبوا فى السماء بذخا وشمخا ، ولعلكم تقولون إن أبا بكر أراد الأثرة عليكم وهضمكم . « كلا » لكنه حضره أمر لم يكن عنده أحزم منه حتى يصير إليه ، ولو أنه ولى عليًّا ما هنأكم مع قومكم أنهم لينظرون إليكم نظر الثور إلى جازره .

وأنت إذا تأملت فى هذه الكلمات التى ينسبها الثقات إلى أمير المؤمنين عمر ، فإنك تراه — رضى الله عنه — يلتمس لأبى بكر العذر فى ترشيحه للخلافة من بعده معرضا عن عليّ ، لما رأى من أن ترشيح عليّ ليس فى مصلحة الأمة ، ولا فى مصلحة عليّ نفسه مع قومه . وآية الصدق فى هذه الكلمات أن عمر كان يرى عليًّا أحرى القوم بمنصب الخلافة ، على ما يقرر هذا المعنى الإمام ابن جرير الطبرى — رحمه الله — حيث قال :

« لما طعن أبو لؤلؤة المجوسى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب طعنة الموت قيل له : يا أمير المؤمنين ألا تستخلف ؟.. قال رضى الله عنه : لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته ، وقلت لربى لو سألنى : سمعت نبيك يقول : « أبو عبيدة أمين هذه الأمة » . ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لاستخلفته ، وقلت لربى لو سألنى : سمعت نبيك ﷺ يقول : « إن سالما شديد الحب لله » .. فقال له رجل : لم لا تولى عبد الله بن عمر ؟ فقال — رضى الله عنه — : قاتلك الله يا هذا ، والله ما الله أردت بهذا القول .. وإن عمر لا أرب له فى خلافتكم ، وإنى لم أحمدها فأرغب فيها لأحد من أهل

بيتى . إنها إن تَكُ خيرا فقد أصبنا منه ، وإن تك شرا يصرفه الله تعالى عنا . حسب آل عمر أن يحاسب منهم واحد فيسأل عن أمر أمة محمد . فلم يسع القوم إلا أن يخرجوا من مجلسه مع حرصهم الشديد على أن يعاودوه يسألونه أن يستخلف عليهم ، ولذلك عادوا إليه يقولون له : إن من الخير للأمة أن يستخلف من يقوم بأمرها بعدك ، ولك فى رسول الله ﷺ أسوة حين استخلف أبا بكر ، ثم لك فى أبى بكر أسوة أيضا حين استخلفك . فأجابهم عمر مشيرا إلى علىّ : لقد كنت أجمعت بعد مقالتى أن أولى أمركم رجلا هو أحراكم أن يحملكم على الحق ، ولكنى كرهت أن أتحملها حيا وميتا ، وعلمت أن الله غالب على أمره . فعليكم بالرهط الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : إنهم من أهل الجنة علىّ وعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص ولم يذكر فى هذا المجلس طلحة بن عبيد الله ، ولا كان طلحة يومئذ بالمدينة . ثم أمر رضى الله عنه بدعوة المرشحين فلما دخلوا عليه وهو على فراشه يجود بنفسه ، نظر إليهم ثم قال لهم : أكلكم يطمع فى الخلافة بعدى ؟ فلم يجبه أحد منهم . فقال لهم ثانية : أكلكم يطمع فى الخلافة بعدى ؟.. فأجابه الزبير بن العوام قائلا : ما الذى يبعدنا منها ؟.. لقد وليتها أنت فقمت بها ، ولسنا دونك فى قريش ولا فى السابقة ولا فى القرابة .. قال عمر : أفلا أخبركم عن أنفسكم ؟. قالوا : ما تشاء فإنا لو استعفيناك لم تعفنا . فقال رضى الله عنه يصف القوم واحدا واحدا ..

أما أنت — يا زبير — فإنك مؤمن الرضا كافر الغضب : يوما إنسان ويوما شيطان . فليت شعرى من يكون للناس يوم تكون شيطانا ومن يكون لهم يوم تغضب ؟.. وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة وأنت على هذه الصفة .

وأما أنت يا سعد بن أبى وقاص ، فإنما أنت صاحب قنص وأسهم .

وأما أنت يا عبد الرحمن بن عوف ، فلو وزن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجع إيمانك بهم .

وأما أنت يا عثمان ، فكأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك فحملت بني أمية على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء ، فسارت إليك عصابة من ذئبان العرب فذبحوك على فراشك .

ثم أمر عمر بأن يدعى إليه أبو طلحة الأنصاري ، فلما جاء قال له : انظر يا أبا طلحة إذا عدتم من حفرتي فكن في خمسين رجلا من الأنصار معكم سيوفكم ، فخذ هؤلاء النفر بإمضاء الأمر وتعجيله واجمعهم في بيت ثم قف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحدا منهم ، فإن اتفق خمسة وأبى واحد فاضرب عنقه،وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب أعناقهما ، وإن اتفق ثلاثة وخالف ثلاثة فانظر الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن فارجع إلى ما قد اتفقوا عليه ، فإن أصر الثلاثة الآخرون على خلافهم فاضرب أعناقهم . وإن مضت الأيام الثلاثة ولم يتفقوا على أمر فاضرب أعناق الستة جميعا ليختار المسلمون لأنفسهم .

فهذه الكلمات من أمير المؤمنين عمر تؤكد أن عليًّا كان موضع التقدير والاحترام من أبي بكر وعمر جميعا ، وتؤكد في الوقت نفسه أن المصلحة في رأى كل منهما تقتضي أن يكون الأمر شورى بين المسلمين ، لأنهما كانا يعلمان أن قريشا لم تكن لترضى عن ترشيح عليٍّ للخلافة فآثر عمر أن يترك الأمر شورى بين الرهط الذين بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة . ثم ذكر رضي الله عنه خمسة : عليًّا وعثمان وعبد الرحمن والزبير بن العوام وسعد ابن أبي وقاص ثم قال لهم : انهضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا فيها . ووضع رأسه وقد نزف الدم ودخل القوم الحجرة وتناجوا حتى ارتفعت أصواتهم ، فقال عبد الله بن عمر : إن أمير المؤمنين لم يمت بعد ففيم هذا

اللغط ؟.. ثم انتبه عمر وسمع الأصوات فقال : ليصلي بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الرابع من يوم موتى إلا وعليكم أمير ، وليحضر عبد الله بن عمر المجلس مشيرا ليس له من الأمر شيء ، وطلحة بن عبيد الله شريككم فى الأمر فإن قدم إلى ثلاثة أيام فأحضروه أمركم وإلا فأرضوه .. ومن لى يرضى طلحة ؟.. فقال سعد ابن أبى وقاص : أنا لك به يا أمير المؤمنين ، ولن يخالف إن شاء الله . ثم ذكر عمر وصيته لأبى طلحة الأنصارى وما خص به عبد الرحمن بن عوف من كون الحق فى الفئة التى هو فيها ، ثم أمر عمر أبا طلحة الأنصارى أن يقتل المخالف منهم اتقاء للفتنة .

فلما فرغ القوم من دفن عمر — رضى الله عنه — جمع أبو طلحة الستة فى البيت ووقف هو على الباب بالسيف فى خمسين من الأنصار معهم سيوفهم . ومضى القوم يتنازعون وقد افتتح طلحة بن عبيد الله النزاع فقال : أشهدكم على نفسى بأننى قد وهبت حقى من الشورى لعثمان . فقال الزبير ابن العوام : وأما أنا فأشهدكم أننى قد وهبت حقى من الشورى لعلىّ .

وعلى ذلك بقى من المرشحين الستة أربعة : عبد الرحمن بن عوف وعثمان وعلى وسعد بن أبى وقاص . وهنا قال سعد بن أبى وقاص : أشهدكم أننى وهبت حقى من الشورى لعبد الرحمن بن عوف .

يقول ثقات المؤرخين : وما إن سمع عبد الرحمن بن عوف كلمة ابن عمه سعد بن أبى وقاص التى يتنازل له فيها عن حقه ، حتى تغير وجهه تغيرا يثير العجب ، ثم جعل يقول — فى تأثر شديد — : أما أنا فإنى أشهدكم يا أهل الشورى أنى قد خلعت نفسى منها ، فإنى رأيت الليلة روضة خضراء كثيرة العشب فدخلها فحل ما رأيت أكرم منه ، فمر كأنه سهم لم يلتفت إلى شيء منها حتى خرج لم يعرج على شيء ، ثم دخل بعير يتلوه تابع أثره حتى

خرج منها ، ثم دخل فحل عبقرى يجر خطامه ومضى قصد الأولين ، ثم دخل بعير رابع فوقع فى الروضة يرتع ويخضم ، لا — والله — لا أكون الرابع ، ولن يقوم أحد مقام أبى بكر وعمر فيرضى عنه الناس .

وليس يغيب عنك — رحمك الله — أن هذه الرؤيا تشير إلى سيدنا رسول الله ﷺ ، ثم إلى أبى بكر ، ثم إلى عمر ، ثم إلى عثمان رضى الله عنهم أجمعين ، وحشرنا فى زمرتهم المباركة يوم لا ينفع مال ولا بنون ..

وقد كان من الحق على عبد الرحمن — رضى الله عنه — أن يخلع نفسه من الأمر على أن يوليه أفضل القوم فى نفسه .. فلما أعلن إلى القوم رأيه هذا وعزمه على خلع نفسه جعل يخاطب القوم فيقول : « أيها الناس ، أشيروا علىّ فى هذين الرجلين ، فقال عمار بن ياسر : إن أردت ألا يختلف الناس فبايع عليًّا . وقال المقداد : صدق عمار ، وإن بايعت عليًّا سمعنا وأطعنا . ولم يشأ عبد الرحمن أن يستمر فى طلب رأى الناس خشية الخلاف ، فقال : أشهدكم أننى قد أخرجت نفسى من الخلافة على أن أختار أحد الرجلين : عليًّا أو عثمان . ثم بدأ بعلىّ فقال له : أبايعك على كتاب الله وسنة رسول الله وسيرة الشيخين أبى بكر وعمر . فقال علىّ — كرّم الله وجهه — بل أبايعك على كتاب الله وسنة رسول الله واجتهاد رأيى » .

ولم يجد عبد الرحمن بدا من أن يتجه إلى عثمان فعرض عليه ما عرضه على علىّ .. فقال عثمان « نعم » .. فعاد عبد الرحمن إلى علىّ مرة أخرى فعرض عليه ما كان قد عرض من قبل فتمسك علىّ برأيه ، فأعاد العرض عليه ثلاث مرات ، فلما رأى أنه غير راجع عما قاله ورأى عثمان ينعم له بالإجابة ، صفق على يد عثمان قائلا له : « السلام عليك يا أمير المؤمنين » .. وبذلك غدا عثمان بن عفان أميرا للمؤمنين .

يقول المؤرخ الثقة: « إن عليًّا خرج من المجلس بعد أن تم الأمر لعثمان وهو يقول : ليس هذا بأول يوم تظاهرتم فيه علينا . فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

ولعله من هنا بدأ الرأى يختلف وتعرضت الأخوة الإسلامية لمحنة أليمة انصدع بها الصف وتفرقت الكلمة وامتلأت الصدور بالضغائن والأحقاد . وقد ضاعف هذا البلاء أن اجتمع فريق من أنصار علىّ فبايعوه بيعة هى إلى الإكراه عليها أدنى منها إلى الاختيار فيها على ما تشير إلى ذلك المعنى خطبته :

« فما راعنى إلا والناس كعرف الضبع إلىّ ، ينثالون علىّ من كل جانب ، حتى لقد داسوا الحسنين وشقوا ردائى . فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

ثم قال — كرَّم الله وجهه — : « أما والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، لولا حضورُ الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم ، لألقيت حبلها على غاربها وسقيت آخرها بكأس أولها ثم لألفيتم دنياكم هذه أزهد عندى من عفطة عنز .

---

(١) القصص ٨٣

لا يدفع الحذر القدر

إن البلية فى محنة التحكيم بين علىّ ومعاوية أبعد أثرا وأسوأ مغزى من الحكم لأحد الرجلين على صاحبه ، ذلك أن القوم ــ غفر الله لهم ــ قد عادوا إلى حكم الجاهلية فى التعصب للقبلية بعد إذ أكرمهم الله بالإسلام ، وجعل مقياس التفاضل بينهم تقوى الله والاعتزاز بجامعة الإسلام ، على مايقول شاعرهم :

أبى الإسلام لاأب لى سواه   إذا افتخروا بقيس أو تميم

إن الناس حين رضوا بالتحكيم كان من رأى الإمام ــ كرَّم الله وجهه ــ أن يمثله فى هذه القضية عبد الله بن عباس ، إلى جانب عمرو ابن العاص الذى اختاره معاوية غفر الله له ، فذلك حيث قال الإمام : إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحدا هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص ، وأنه لا يصلح للقرشى إلا قرشى مثله فعليكم أيها الناس بعبد الله بن العباس فارموه به ، فإن عمرا لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله ، ولا يحل عقدة إلا عقدها ، ولا يبرم أمرا إلا نقضه ، ولا ينقض أمرا إلا أبرمه . ولكن الأشعث أحد رجال الإمام جعل يقول : لا .. والله لا يحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة ، ولكن اجعل رجلا من أهل اليمن إذ جعلت قريش رجلا من مضر .

يريد الأشعث بكلمته هذه أن ابن العاص قرشى مضرى وأن ابن العباس قرشى مضرى أيضا ، فإذا اجتمع الرجلان فى التحكيم كان شرف التحكيم راجعا إلى مضر وهو يأبى ذلك ، فيريد أن يكون الأمر فى التحكيم إلى مضر وأهل اليمن . وهنا قال الإمام : إنى أخاف أن يخدع يمنيكم الذى

تقترحونه . فإن عمرا يركب الصعب إلى مايكون له فيه هوى ، ولكن الأشعث مضى فى قوله يقول : والله لأن يحكم الحكمان ببعض ما نكره ـــ وأحدهما من أهل اليمن ـــ أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب فى حكمها وهما مضريان .

ولم يسع الإمام إلا أن يأخذ برأى الأشعث ومن وافقه ، فمضى يقول ـــ كرَّم الله وجهه ـــ قد أبيتم إلا أبا موسى فى مواجهة ابن العاص ؟.. قالوا نعم .. قال : فاصنعوا ما شئتم . فبعثوا إلى أبى موسى فأخبروه أن الناس قد اصطلحوا فحمد الله ، ثم أخبروه أنهم قد جعلوه حكما فكره ذلك قائلا : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

وقد رأى الإمام ـــ كرَّم الله وجهه ـــ أن ينصح لعمرو إبراء للذمة وأداء للأمانة ، فبعث إليه مع شريح بن هانىء بكلمات وقال له : قل لعمرو إذا لقيته إن عليًّا يقول لك : إن أفضل الخلق عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه ، وأن أبعد الخلق من الله من كان العمل بالباطل أحب إليه وإن زاده .

والله يا عمرو إنك لتعلم أين موضع الحق فلا تتجاهله ... واذكر دائما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾(١) .

طلائع الخديعة :

لقد كان الإمام ـــ كرَّم الله وجهه ـــ يكاد ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق ، فقد بدأ داهية العرب عمرو ينصب شباكه حول أبى موسى حتى ينال

---

(١) النساء ٥٨

منه ما يريد . ذلك أن الحكمين حين التقيا بدومة الجندل ، أخذ عمرو يقدم أبا موسى فى الكلام قائلا له : إنك صحبت رسول الله ﷺ قبلى ، وأنت أكبر منى سنا ، فتكلم أنت ثم أتكلم أنا . فجعل ذلك سنة يجريان عليها وعادة يحتكمان إليها . وكان عمرو يعطى أبا موسى صدر المجلس وكان لا يتكلم قبله ، ثم أعطاه التقدم فى الصلاة وفى الطعام فلا يأكل قبله ، وإذا خاطبه فإنما يخاطبه بأجل الأسماء قائلا له : ياصاحب رسول الله — ﷺ — . ومازال الداهية بأبى موسى — وكان رجلا تدركه غفلة الصالحين — حتى اطمئن إليه ، وقد ظن أنه لا يغشه . فلما حان الوقت الذى كان قد قدره عمرو سنحت الفرصة له ، فبدأ يتحدث إلى أبى موسى قائلا له : أخبرنى ما رأيك ياأبا موسى ؟.. قال أرى أن أخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين يختارون من شاءوا . فقال عمرو : الرأى والله ما رأيت ياصاحب رسول الله . ثم أقبلا إلى الناس وهم مجتمعون فبدأ أبو موسى الكلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن رأيى ورأى عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به شأن هذه الأمة . فقال عمرو : صدق أبو موسى . ثم قال له : تقدم ياصاحب رسول الله فتكلم . فقام ليتكلم فدعاه ابن عباس فقال له : ويحك ياأبا موسى ، إنى لأظنه خدعك . إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه قبلك ليتكلم به ثم تكلم أنت بعده فإنه رجل غدار ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فإذا قمت به فى الناس خالفك ، وقد أدركت أبا موسى عقلة الصالحين . فقال : إيها[1] عنك يابن عباس ، لقد اتفقنا . ثم تقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر شيئا هو أصلح لأمرها وألم لشعثها

---

(١) إذا أراد العربى أن يسكت صاحبه قال له : إيها ، بنصب الهاء وتنوينها ، يعنى اسكت .

من أن لا تتباين أمورها ، وقد اجتمع رأيي ورأى صاحبي على خلع عليّ ومعاوية حتى تستقبل الأمة هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين يولون أمورهم من أحبوه .. وإني قد خلعت عليًا ومعاوية فاستقبلوا أموركم وولوا من رأيتموه لهذا الأمر أهلا . ثم تنحى فقام عمرو بن العاص في مقام أبي موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا — أبا موسى — قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه عليًا ، ولكنى أثبت صاحبي معاوية في الخلافة ، فإنه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه . فقال له أبو موسى : مالك — لا وفقك الله — لقد غدرت وفجرت . إنما مَثَلُكَ كمثَلِ الكلب إن تحمل عليه يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهث . فقال له عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا.. ثم حمل شريح بن هانئ على عمرو فقنعه بالسوط، وحمل ابن عمرو على شريح فقنعه بالسوط ، ثم قام الناس فحجزوا بينهما . فكان شريح بعد ذلك يقول : ما ندمت على شيء ندامتي على أن لا أكون ضربت عمرا بالسيف بدل السوط ، جالبا عليّ قضاء الله ماكان جالبا . ثم التمس أصحاب الإمام أبا موسى فركب ناقته ولحق بمكة .. وقد كان ابن عباس يقول : قبح الله أبا موسى ، لقد حذرته وهديته إلى الرأى فما عقل . وكان أبو موسى يقول : لقد حذرني ابن عباس غدرة الفاسق ، ولكنى اطمأننت إليه وظننت أنه لا يؤثر شيئا على النصح للأمة .. ثم رجع عمرو إلى منزله من دومة الجندل فكتب إلى معاوية :

أتتك الخلافة مزفوفة ... هنيئا مريئا تقر العيونا
تزف إليك زفاف العروس ... بأهون من طعنك الدارعينا
وما الأشعرى بصلد الزناد ... ولا خامل الذكر في الأشعرينا
ولكن أتيحت له حية ... يظل الشجاع لها مستكينا
فقالوا وقلت وكنت امرأ ... أجهجه بالخصم حتى يلينا

فخذها ابن هند على بعدهـا ... فقـد دافـع الله مايحظرونـا
وقد صرف الله عن شامكم ... عدوا مبينـا وحربـا زبونـا

يقول الرواة : .. فقام سعد بن قيس الهمداني فقال : والله لو اجتمعتما على الهدى زدتمانا على مانحن الآن عليه .. ومـاضلالكما بلازم لنا ومارجعتما إلا بما بدأتما به . وإنا اليوم لعلى ماكنا عليه أمس .. ثم قام كردوس بن هانئ مغضبا فقال :

رضينا بحكم الله لاحكـم غـيره ... وبـالله ربـا والنبـي وبالذكـر
وبالأصلع الهادى علىٌّ إمامنـا ... رضينا بهذا الشيخ فى العسر واليسر
رضينا به حيـا وميتـا وأنـه ... إمام هدى فى الحكم والنهى والأمر
فمن قال « لا » قلنا « بلى » إن أمره ... لأفضل مانعطاه فى ليلة القـدر
ومـالابن هنـد بيعة فى رقابنـا ... ومـابيننـا غيـر المثقفـة السمـر
وضرب يزيل الهـام عن مستقره ... وهيهات هيهات الرضا آخر الدهر
أبت لى أشياخ الأرامل سبـة ... أسب بها حتى أغيب فى القبر

ثم تكلم بعد ذلك يزيد بن أسد القسرى — من قواد معاوية — فقال : يا أهل العراق ، اتقوا الله فإن أهون ما تردنا وإياكم الحرب إليه ما كنا عليه بالأمس وهو الفناء ، وقد شخصت الأبصار إلى الصلح وأشرفت الأنفس على الفناء وأصبح كل امرئ يبكى على قتيل . مالكم رضيتم بأول أمر صاحبكم وكرهتم آخره ، إنه ليس لكم وحدكم الرضا .

وغنى عن البيان أنه لم يكن للأشعريين بد من كلمة فى هذا المجال فقام أحد شعرائهم فقال :

أبا موسى ، خدعت وكنت شيخا ... قريب القعر مدهوش الجنان
رمى عمرو صفاتك يا ابن قيس ... بأمـر لاتنـوء به اليـدان
وقد كنا نجمجم عن ظنـون ... فصرحت الظنـون عن العيـان
فعض الكـف من ندم ومـاذا ... يرد عليـك عضك بالبنـان

إن الراضى بقضاء الله وقدره ظافر بسكينة النفس ، طامح إلى نعيم الأمل ، وعلى غير هذا النهج يمضى الساخطون ، فإذا الواحد منهم يرى نفسه نهب حيرة ترمى بصاحبها إلى متاهات من يأس أليم ، ثم إذا هو أحق بقول الشاعر الحكيم :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيبا كاسفا باله قليل الرجاء

ومن هنا كان الراضون بقضاء الله أنعم خلق الله بالا وأحسنهم حالا وأحمدهم عاقبة ، حتى كان حسن الظن بالله هتاف نفسه يلوذ به كلما حز به أمر أو نزلت به ضائقة ، فلا يلبث أن ينشد مع الشاعر ما يزداد به يقينه بفضل الله :

اصرف الهم ما استطعت عن النفس فحمـلانك الهمـوم جنـون
إن ربا كفـاك بالأمس ما كان سيكفـيك فى غد ما يكـون

ومن هنا يرى الناس أهل الإيمان يحمدون الله تعالى فى كل حال : يحمدونه فى السراء يستجلبون بحمده أفاويق النعماء ، ويحمدونه فى الضراء يستدفعون به أهاويل البلاء .

ولا يرتاب البصراء بشئون أهل الإيمان فى أن الإمام — كرّم الله وجهه — كان من أعلم عباد الله بجلال الله ، ومن أحرصهم على تجنب مساخطه والتطلع إلى مراضيه ، ولهذا لم يجزع حين أنبأه القوم بأن قضية التحكيم جاءت على غير ما كان يتوقع المخلصون فى طلب الحق والمتأدبون بأدب الإسلام ، فخطب خطبته التى تقوم على وجه الدهر شاهد صدق على أنه فى الدهاء وسعة الحيلة والقدرة على بلوغ غايته من أيسر طريق . وقد كان الإمام نفسه يعلم هذه الحقيقة ، وكذلك كان يعلمها على غاية الوضوح عبد الله بن عباس كما تشير إلى ذلك كلمته التى يرويها مؤلف أنساب الأشراف حيث

ذكر أن سائلا سأل ابن عباس قائلا له : ما الذى منع عليًّا أن يبعثك مع عمرو يوم التحكيم بدلا من أبى موسى ؟.. فأجابه ابنُ عباس يقول : لو كنت هناك لقعدت على مدارج أنفاس عمرو أنقض ما أبرم وأبرم ما نقض وأطير إذا أسف وأسف إذا طار ، ولكن سبق قدر وبقى أسف ومع اليوم غد ، والآخرة خير لأمير المؤمنين .

وأحسب أنك — حفظك الله — أسير رغبة عاتبة تنزع بك إلى سؤال تبتغى له جوابا تستريح به وتريح : ما الذى دعا الإمام كرَّم الله وجهه إلى أن يترك رأيه إلى رأى آخرين من أصحابه ، لا شك يعلم أنهم كانوا غير مخلصين لشخصه الكريم ، بل أنه لا يشك فى أنهم استجابوا لدواعى عصبية قبلية جاهلية تعاند آداب الإسلام ؟..

ومبلغ علمى أن الإمام كان حريصا أبلغ الحرص على الاقتداء برسول الله ﷺ كلما امتهدت إلى القدوة به سبيل ، وليس يغيب عن الفقهاء بالسيرة النبوية الشريفة أن رسول الله — صلوات الله عليه — كان له فى معركة أحد موقف نزل فيه عن رأيه الشريف إلى رأى من كان حوله فى تلك الموقعة ، وفيهم المؤمنون الصادقون إلى جانب المنافقين الكاذبين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين . ولم يكن نزول رسول الله — صلوات الله عليه — عن رأيه إلى رأى من كان حوله إلا درءا للفتنة ومحاولة لجمع الكلمة . ومن هنا رأى الإمام أن القدوة برسول الله تشتمل على خير كثير .. على أن ولى الأمر ينزل عن رأيه إلى رأى رعيته تجنبا للفرقة وأخذا للطريق على فتنة الاختلاف . وكذلك كان الإمام رضى الله عنه يرى رأيا لا يشك فى أنه هو الصواب ، ولكنه مع ذلك آثر أن ينزل إلى رأى أصحابه ونصحائه كما تدل على ذلك خطبته التى يقول فيها بعد أن وقع ما لم يكن القوم يتوقعون ، فخلع أبو موسى عليًّا وثبت عمرو معاوية فى إمارة

المؤمنين .. فذلك حيث قال كرّم الله وجهه : إن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة ، وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ونخلت لكم مخزون رأيى فأبيتم علىّ إباء المخالفين الجفاة ، والمعاندين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه .. فكنت أنا وإياكم كما قال أخو هوازن :

أمرتهمو أمرى بمنعرج اللوا　　　فلم يستبينوا النصح إلّا ضُحى الغد

وليس يجهل الذين يتأملون فى قضية التحكيم أن أكثر الناس أو كثيرا منهم كانوا يضعون أبا موسى الأشعرى دون عمرو بن العاص .

علىّ فى محنة الخلافة

أسلفنا لك — حفظك الله — أن عليًّا كرَّم الله وجهه قبل منصب الخلافة على غير رغبة فيه ولا ترحيب به ، فهى — فى رأيه الشريف — دائرة بين المحنة التى يستعاذ بالله تعالى من شرها وبين المنحة التى يحمد الله تعالى على خيرها . وهو كرَّم الله وجهه إنما قبلها شبه مكره عليها .. ومعروف عند فقهاء الأمة أن هذا المنصب الشريف يجب قبوله على كل مسلم كفء يستطيع القيام بقضاء حقه ورعاية مقتضى الأمانة فيه . وأمير المؤمنين علىّ لا يرتاب أحد فى أنه أقدر الأمة على أداء الأمانة والنهوض بأعباء الإمارة بما توافر له من خصائص لم يشركه فيها أحد من قبل ، ولن تتوافر — فى مبلغ ما نعلم — لأحد من بعد حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وفى هذا المقام يروى الثقات عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن عليًّا كرَّم الله وجهه خطب فى اليوم الثانى من بيعته فى المدينة فقال :

« ألا إن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم ﷺ . والذى بعث محمدا بالحق لتبلبلن بلبلة ، ولتغربلن غربلة ، ولتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم ، وليسبقن سابقون كانوا قد قصروا وليقصرن مقصرون كانوا قد سبقوا . والله ما كتمت كلمة ولا كذبت كذبة ، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم . ألا وإن الخطايا خيل شُمُس ، وإن التقوى مطايا ذُلُل ، ولئن أمر الباطل لقديما فعل ، ولئن قل الحق فلربما ولعل ، على أنه قل ما أدبر شىء ثم أقبل . ألا وإن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود فى بيت المال ، فإن الحق القديم لا يبطله شىء ، ولو وجدته قد تزوج به النساء وفرق فى البلدان لرددته إلى

حاله ، فإن فى العدل سعة ، ومن ضاق عنه العدل فالجور عنه أضيق » .

ثم ما لبث كرَّم الله وجهه أن أمر بكل سلاح وجدوه لعثمان فى داره فقُبض ، كما قُبضت إبل من إبل الصدقة كانت فى داره . وقد كان من عفة الإمام وشرف نفسه أن أمر بالكف عن جميع أمواله الخاصة به التى وجدت فى داره وفى غير داره ، ثم أمر كرَّم الله وجهه أن تسترجع الأموال التى أجاز بها عثمان على أى صورة وجدت .

ولقد كان هذا التصرف سببا فى إهاجة الفتنة بين بنى هاشم وبنى أمية ، حتى قال الوليد بن عقبة الذى هو أخو عثمان من أمه شعرا يثير الفتن ويوقظ الضغائن :

بنى هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ولا تنهبوه ، لا تحل مناهبه
بنى هاشم إلا تردوا فإننا سواء علينا قاتلاه وسالبه

ولعل من الحق علينا أن نقف بك عدة وقفات حيال هذه الخطبة ، لعلى فيها معوانا لك على استجلاء غامض أو إيضاح مبهم أو تفصيل مجمل أو تكميل ما يحتاج إلى تكميل :

وأولى هذه الوقفات حول اعتزام الإمام علىّ كرم الله وجهه رد ما أقطعه عثمان من المال ، ولو كان مهرا لزوجة وثمنا لأمة .

وخلاصة القول فى هذه الوقفة أن مهور النساء ملك لهن ، والله تعالى قد صان للزوجة حقها فى المهر بما بذلت من نفسها لزوجها ، على ما تشير إلى ذلك الآية الشريفة من سورة النساء : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً .. وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظًا ﴾ (١) .

---

(١) النساء ٢١

فإذ قد كان الإسلام قد حصن مهر الزوجة على هذه الصورة من القوة كما حصن الملكية ، فكيف يسيغ المسلم الفاقه أن ينسب لأمير المؤمنين عليّ — فى ورعه وفضله وعلمه وزهده — أن يسلك مسلكا يتجهم القرآن فى احترامه ملكية المال .

وربما كانت هذه الخطبة وأمثالها إحدى المفتريات الكثيرة التى يفتريها أهل الأهواء انتصارا لمذهب أو استرضاء لنزوة ، من حيث كانت مصادرة مهور الزوجات وأثمان الإماء خروجا على منطق الفطرة السوية وتجهما لأدب القرآن العظيم ، ومعاذ الله أن يقول الإمام ذلك أو يأمر به أو يرضى عنه .

والوقفة الثانية حول إقطاع عثمان ذوى قرباه ما يعينهم على مروءاتهم ، فذلك حيث ذكر — رضى الله عنه — فى مجلسه الذى جمع ولاته وبعض أصحاب رسول الله ﷺ فقال : « إنى مخبركم عنكم وعما وليت من الأمر ، فأذكركم بأن صاحبيَّ اللذين كانا قبلى قد ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل ، لأنهما لم يبرا ذويهما بعطاء من بيت المال وهما يقصدان بذلك وجه الله تعالى ويحتسبانه عنده ، وقد كان رسول الله ﷺ يعطى قرابته .. وأنا فى رهط أهل عيلة وقلة معاش ، فبسطت يدى فى شىء من بيت المال لهم أحتسبه عند الله وأقتدى فى ذلك برسول الله ﷺ . فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه ، فأمرى تبع لأمركم . فأجابه أصحابه : لقد أصبت وأحسنت . ثم خرجوا راضين .

ولست أراك محتاجا إلى من يذكرك — أعزك الله — بأن أمير المؤمنين عثمان كان يجتهد اجتهاداً سوغ له أن يعطى قرابته ، وأن صاحبيه أبا بكر وعمر لم يعطيا قرابتهما لأن اجتهادَهما لم يأذن لهما بذلك . فأبو بكر وعمر

— رضى الله عنهما — إنما منعا قرابتهما ابتغاء مرضاة الله . وعلى ذلك يمضى تصرف عثمان فى إعطائه قرابته إذ كان يبتغى بهذا العطاء وجه الله . وربما كان صنيع عثمان أدنى إلى الصواب من حيث كان ينظر إلى صنيع رسول الله ﷺ فى هذا الباب .

والدليل الذى استند إليه أمير المؤمنين عثمان ماثل فى الآية الشريفة من سورة الأنفال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١) .

ففى هذه الآية يذكر شيخ المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبرى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس : أربعة منها بين من قاتل عليها ، والخمس الباقى يقسم على أربعة هم : قرابة رسول الله ﷺ ، واليتامى والمساكين وابن السبيل .

ومعلوم أن رسول الله لم يأخذ من الخمس شيئا .. فلما لحق بالرفيق الأعلى رد أبو بكر نصيب قرابة رسول الله إلى المسلمين فجعل يحمل به فى سبيل الله ، لقوله ﷺ : (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة) .

وثالثة الوقفات : أن عثمان رضى الله عنه كان قد قرر — على مرأى ومسمع من المسلمين أن يرد ما كان قد أقطعه ، ولكن المنية عاجلته قبل ذلك ، ولو كان قد مد له فى العمر لأمضى الرد على ما قرره فى مجلس ولاته وأقربائه . فليس يسوغ لمسلم أن يأخذ على الإمام كرم الله وجهه أنه قد خاشن أهل عثمان واستعداهم على نفسه ، وأنه قد أنكر حق عثمان عليه .

---

(١) الأنفال ٤١

ذلك أنه إنما فعل ما كان قد أمر به عثمان ، فهو — برده قطائع عثمان إلى بيت المال — جمع بين أمرين : أحدهما إمضاؤه رغبة الخليفة الراحل ، وثانيهما إرضاؤه الثائرين الذين لم تكن لهم حجة على عثمان إلا هذه القطائع التى كان يقطعها أهله وذويه . ومن حق الرعية على الإمام أن يسترضيها بما لا ينقص المروءة ولا يتجهم الإسلام .

———

إلى اللقاء أيها الشهيد المظلوم

حين مضى معاوية إلى الشام بدأت الفتنة تتحرك إلى غايتها المشئومة فحاصر الأغبياء الفجرة دار أمير المؤمنين عثمان ، فكتب رضى الله عنه إلى علىّ — كرم الله وجهه — : « أما بعد ، فقد بلغ السيل الزبىٰ ، وطمع فى من لا يدفع عن نفسه ، فأقبل إلىّ — عدوا كنت أم صديقا — :

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمزق

وقد استجاب الإمام دعوة أخيه عثمان فذهب إليه وقد أمر الناس أن يركبوا معه : فركب ثلاثون رجلا من المهاجرين والأنصار ، ثم دخل على عثمان فأشار عليه أن يتكلم بكلام يسمعه الناس ليسكنوا إلى ما يعدهم به من النزوع(١) عما أسخطهم وقال له : إن البلاد قد تمخضت عليك، ولا آمن من أن يجىء ركب من جهة أخرى فتقول لى يا على اركب إليهم . فإن لم أفعل رأيتنى قد قطعت رحمك واستخففت بحقك ، وإنى أعوذ بالله من ذلك .

وقد قبل عثمان نصيحة علىّ — كرّم الله وجهه — فخرج إلى الناس ، ثم خطب الخطبة التى ينزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة قائلا لهم : فمثلى يتوب إلى الله ، فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم وليروا رأيهم ، وليذكر كل واحد ظلامته لأكشفها وحاجته لأقضيها ، فوالله الذى لا إلٰه إلا هو لئن ردنى الحق عبدا لأستنن بسنة العبيد ولأذلن ذل العبيد ، وما عن الله تعالى من مذهب إلا إليه . والله لأعطينكم الرضا ، ولأنحين مروان وذويه ثم لا أحتجب عنكم .

وما إن سمع القوم هذه الكلمات حتى رقوا له وبكوا حتى خضلوا(٢)

---

(١) النزوع عن الشىء : الكف عنه .   (٢) بلت دموعهم لحاهم .

لحاهم ، وبكى هو أيضا . فلما نزل وجد مروان ونفرا من بنى أمية فى منزله قعودا ولم يكونوا قد شهدوا خطبته وإن تكن قد بلغتم . فلما جلس — رضى الله عنه — قال مروان : يا أمير المؤمنين أأتكلم أم أسكت ؟.. فقالت نائلة ابنة الفرافصة زوجة عثمان : لا بل تسكت يا مروان فأنتم والله قاتلوه وميتمو أطفاله . إنه قد قال مقالة لا ينبغى له أن ينزع عنها . فقال لها مروان : ما أنت وذاك ؟ والله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ . فقالت نائلة : مهلا يا مروان عن ذكر أبى إلا بخير . والله لولا أن أباك عم عثمان وأنه ينال عيبه لأخبرتك من أمره بما يسوؤك ولا أكذب فيه . فأعرض عنه عثمان لسوء أدبه وفساد نيته وصدوره فيما قال عن عاطفة هوجاء وحقد أسود .

ولست تجهل — أعزك الله — أن الفتنة ينفخ الشيطان فى نارها فلا يبقى معها شيء من الخير إلا مشوبا بشر كثير . وقد كانت الفتنة هنا تتغيا أمرين :

أحدهما ، أن يقتل عثمان لكى يقتل به الأمن والسكينة والسلام .

وثانيهما ، أن يجد مدبروها من أعداء الإسلام سبيلا إلى اتهام علىّ — كرّم الله وجهه — بقتل عثمان رضى الله عنه ، وقد كان هو الشجا فى حلوق أهل الفتنة وكان القذى فى أعينهم وكان العقبة الكأداء التى تحول بينهم وبين إمضاء خطتهم فى القضاء على العروبة والعرب وعلى الإسلام والمسلمين .

وكانت الخطة الشيطانية ترتبط بمروان بن الحكم بن العاص أن يقوم خطيبا فى الناس على شدة طيشه وذرب لسانه وسوء أدبه ، فخرج إليهم وقد ركب بعضهم بعضا من شدة الزحام ثم قال لهم : « ما شأنكم ؟ لقد اجتمعتم كأنكم جئتم للنهب والسلب . ألا شاهت الوجوه . أتريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ والله لئن رمتمونا لنمرن عليكم ما حلا وليحلن بكم ما يسوؤكم ولا تحمدون عاقبته . ارجعوا إلى منازلكم فإنا غير مغلوبين على ما فى أيدينا . فرجع الناس خائبين يشتمون عثمان ومروان .. وانتهز سفلة

القوم الفرصة فدخلوا على عثمان وقتلوه .. قتله بطانته ، ومن قبله قتل عمر .. قتله عدله ، ومن بعده قتل عليّ .. قتله فقهاؤه . وصدق رسول الله ﷺ في قوله الشريف (النجوم أمنة السماء ، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي ، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما توعد) .

ففي هذا الحديث يقول ابن منظور صاحب لسان العرب : إن النبي أراد بذهاب النجوم تكويرها وانكدارها ، وأراد بوعد السماء انشقاقها وذهابها ، وأراد بوعد أصحابه ما وقع بينهم من الفتن ، وكذلك أراد بوعد الأمة انصداع شملها واعوجاج صفها وتفرق كلمتها . وجملة ما أراد صلوات الله عليه إنما هو إشارة إلى مجيء الشر عند ذهاب أهل الخير ، ذلك أنه لما كان رسول الله بين الناس كان يبين لهم ما يختلفون فيه .. فلما لحق بالرفيق الأعلى جالت الآراء واختلفت الأهواء إذ كان الصحابة يسندون الأمر إلى الرسول في قول أو فعل أو دلالة حال . فلما فقد — صلوات الله عليه — قلت الأنوار وقويت الظلمات ، وكذلك حال السماء عند ذهاب النجوم .

هذا ما يتعلق بمقتل أمير المؤمنين عثمان — رضى الله عنه — في تدبير المتآمرين . وأما ما يتعلق بالإمام عليّ — كرّم الله وجهه — في ذلك التدبير الخبيث فإن الفتنة لم تستطع أن تناله فتشركه في دم عثمان ، ذلك أن الموثوقين من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يرون مقتل عثمان شرا مستطيرا ، فكانوا لا يريدون الإساءة إلى الإسلام بإلقاء المسلمين في متاهات من الظنون لا تقوم بها حجة ولا تستند إلى دليل .

وكما كانوا ينأون بأنفسهم عن هذا البلاء ، كانوا ينأون بالإمام — كرّم الله وجهه — عن هذا البلاء أيضا ، عرفانا منهم بقدره وإحقاقا للحق وإبطالا للباطل ، ولو كره الذين يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين .

وآية ذلك ما يرويه ابن كثير من أن حذيفة بن اليمان كان عنده رجل من إخوانه فى مرضه الذى مات فيه ، وقد كان الرجل يناجى امرأة حذيفة فى كلمات خافتة وحرص شديد ، ففتح حذيفة عينيه فسألهما ، فقالا : خيرا . فقال حذيفة : إن شيئا تتناجيان به دونى لا خير فيه . فقالا : قتل الرجل — عثمان — . فاسترجع حذيفة ثم قال : اللهم إنى كنت من هذا الأمر بمعزل ، فإن كان خيرا فهو لمن حضره وأنا منه برىء ، وإن كان شرا فهو لمن حضره وأنا منه برىء . اليوم تغيرت القلوب ياعثمان ، اليوم تغيرت القلوب ياعثمان .

وكذلك قال أبو موسى الأشعرى آسفا حزينا لا يكاد يملك دموعه : « لقد قتل الفجرة أمير المؤمنين عثمان » . وعلىّ غائب فى أرض له ، فلما بلغه نبأ الفاجعة قال : اللهم مارضيت ولا مالأت . ثم وقف على باب المسجد أو عند أحجار الزيت رافعا صوته يقول : اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان . ثم إن عليًّا — كرَّم الله وجهه — دخل على عثمان فوقع عليه وجعل يبكى حتى ظن الناس أنه سيلحق به .

يقول علىّ — كرَّم الله وجهه — ولقد جاءونى للبيعة فقلت : والله إنى لأستحى من الله أن أبايع قوما قتلوا رجلا قال فيه رسول الله ﷺ : (إنى لأستحى ممن تستحى منه الملائكة) . وإنى لأستحى من الله أن أبايع وعثمان قتيل لم يدفن بعد ، فانصرفوا عنى . فلما دفن رجعوا يسألوننى البيعة فقلت : اللهم إنى أشفق مما يدعوننى إليه . فتداكوا[1] علىَّ تداك الإبل الهيم[2] يوم وردها ، وقد أرسلها راعيها وخلعت مثانيها[3] حتى ظننت أنهم قاتلى أو أن بعضهم قاتل بعض لدى . فرحت أقلب هذا الأمر ، بطنه وظهره فلم أجد مفرا من قبول البيعة والنهوض بأعبائها ، وإلا كنت مفرطا فى قضاء

(١) ازدحموا . (٢) العطاش . (٣) الحبال .

الحق الذى ناطه الله تعالى بالقادرين على قضبائه للأمة .. وقد تمثلت الذين جاءوا يبايعوننى كأنهم لم يجدوا غيرى ، يضعون أماناتهم عندى ويطالبوننى أن أواكبهم إلى إمّضاء ما أخذ اللهُ على العلماء أن لا يقاروا على بطنة ظالم ولا سغب مظلوم . فعند ذلك بسطت يدى للبيعة عاقدا العزم على المحاماة عنها مهما يكن الطامعون فيها من الكثرة والقوة ، ومهما تكن تبعاتها من الثقل والمشقة ، والله المستعان .

وأنت إذا تأملت فى هذه الكلمات وما إليها من رواة الرضى وغيره عن أمير المؤمنين علىّ ، فإنك لا تأذن لطيف من الشك يلم برأسك فيوحى إليك أن الإمام كان يطلب إمارة المؤمنين على أى حال ، لا يبالى فى ذلك حرجا ينزل بالأمة أو فتنة ينفخ فى نارها الحرص على الجاه والظفر بالسلطان . ذلك أن الإمام لو كان يريد الخلافة على أية صورة لأخذ بنصيحة عمه العباس ومعه بنو هاشم مع نصيحة أبى سفيان بن حرب ومعه بنو أمية ، ولكنه أبى ذلك وأنكره زهدا فيه أو تحرجا من تحمل تبعاته أمام الله وأمام الناس .

ذلك أن عمه العباس رضى الله عنه أشار عليه بها أكثر من مرة فى أكثر من موضع ، فلم يكن جواب الإمام له إلا الإعراض الزاهد المتأثم .. فذلك هو ما يقوله العباس :

أعرنى سمعك يا علىّ وافقه ما أقول لك ، واذكر أننى أشرت عليك عند مرض رسول الله ﷺ أن تسأله عن هذا الأمر فيمن هو ولكنك أبيت ، ثم أشرت عليك عند وفاة أبى بكر أن تعاجل البيعة وقد كان معى أبو سفيان سيد بنى أمية ولكنك أبيت ، ثم أشرت عليك حين سماك عمر فى الشورى أن ترفع نفسك عنها فلا تدخل معهم .. ولكنك أبيت ، فاعلم يا على أن هؤلاء لا يبرحون يدفعونك عن هذا الأمر حتى يقوم لك به غيرك . وايم الله لن تناله إلا بشر لا ينفع معه خير .

والذين يعرفون الدهاء العربى فى نظرته النافذة وتجربته الحكيمة ، واستخراج النتائج الصادقة من مقدماتها الأصيلة ، يعرفون العباس بن عبد المطلب متمتعا بكل هذه الفضائل بين كبار الرجال ، ثم يعرفون أن عليًّا — كرّم الله وجهه — كان ينظر إلى العباس نظره إلى أبيه أبى طالب ، أخذا بمنطق الأدب النبوى الذى يقول فيه رسول الله ﷺ : (عم الرجل صنو أبيه) .

فإذا قد كان العباس قد أوصى عليًّا بهذه الوصايا الشريفة ، فلا جرم أنه كان شديد الأخذ بها والوقوف عندها ، وفى ذلك ما يدعو إلى اليقين بأن الإمام — كرّم الله وجهه — لم يكن ليحرص على الظفر بهذه الخلافة مع هذا البلاء الذى كان يستشعره فى أعماق نفسه الواعية وفى كلمات عمه الصادقة . ومثله — كرّم الله وجهه — لا يخادع نفسه ولا يخاتل عمه ، شأنه فى ذلك شأن الهاشميين الشرفاء فى كل زمان ومكان .

علىّ والبيان العربى

من حق هذا العنوان أن نبدأ الحديث فيه بقانون يحتكم إليه فرسان الفصاحة وأهل البصر بحر الكلام . وهذا القانون — بالنسبة إلى الكلام — كالموازين دقيقة الحس كاملة الضبط بالنسبة إلى الجواهر الثمينة والمعادن النفيسة .

وخلاصة هذا القانون أن البيان لا يستحق اسم البيان إلا إذا اجتمعت له فضيلتان : تخير اللفظ ، وصوغ المعنى . ذلك أن الشأن ماثل فى إقامة الوزن وسهولة المخرج وصحة الطبع وجودة السبك ، وأما الشأن فى المعنى فإن سبيله سبيل الشيء الذى يقع التصوير فيه .. كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار . فإذا أردت أن تحكم على فضيلة الخاتم أو السوار فلا بد لك من النظر فى صوغ الخاتم وجودة الصنعة أو رداءتها ، وعلى ذلك يكون حكمك للخاتم أو عليه وللسوار أو عليه . وعلى هذا القياس يكون نظرك إلى المزية فى الكلام ، فلا يسوغ لك أن تنظر فى مجرد معناه دون عناية منك بالصنعة فى لفظه والجودة فى صنعه . فإذا نظرت إلى بيت من الشّعر ففضلته على آخر من أجل معناه دون نظر إلى صوغ ألفاظه ، فإنك تكون قد فضلت خاتما على خاتم أو سوارا على سوار من أجل المادة التى صنع منها ، وذلك لغو من القول لا يهتم به البليغ الذى يرى الكلام الحر جيدا فى معناه جميلا فى شكله وصورته . وعلى هذا السنن جرى فصحاء العرب وبلغاؤهم . وقد كان ممن سبق فى هذا المضمار سبقا بعيدا وأتعب من جاء بعده تعبا شديدا ، أمير المؤمنين وأمير البيان العربى علىّ بن أبى طالب كرَّم الله وجهه ، ورضى عنه مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

ولما كان التطبيق معوانا على تجلية النظريات ، كان من الحق علينا أن نذكر لك من كلمات الإمام ما يزيدك اطمئنانا إلى أن كلامه يجيء في المرتبة الثالثة بعد كلام الله تعالى ، ثم بعد كلام رسول الله ﷺ . وأول ما نبدأ به من ذلك وصية له قبل موته ، بعد أن ضربه ابن ملجم ضربته القاتلة : « وصيتي لكم ألا تشركوا بالله شيئا ، وألا تضيعوا سنة نبيكم . أقيموا هذين العمودين وخلاكم ذم . أنا بالأمس صاحبكم واليوم عبرة لكم وغدا مفارقكم . فإن بقيت فأنا ولي دمي ، وإن فنيت فالفناء ميعادي ، وإن عفوت فالعفو لي قربة ولكم حسنة ، ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا . أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ . ﴾(١)

ومن وصية له كتبها بعد منصرفه من موقعة صفين : « إن لبني فاطمة من صدقة عليّ مثل الذي لبني عليّ ، وقد جعلت القيام بذلك إلى ابنيْ فاطمة ابتغاء وجه الله وقربة إلى رسول الله وتكريما لحرمته وتشريفا لوصلته » .

ومن كتاب له إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة : « آمرك بتقوى الله في سرائر أمرك وخفيات عملك ، حيث لا شاهد غيرك ولا دليل دونك . وآمرك ألا تعمل بشيء من طاعة الله فيما أظهرت فتخالف إلى غيره فيما أسررت ، ومن لم يختلف سره وعلانيته وفعله ومقالته فقد أدى الأمانة وأخلص العبادة » .

ومن وصيته إلى محمد بن أبي بكر حين قلّده مصر : « اخفض لهم جناحك وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك وآس بينهم في اللحظة والنظرة ، حتى لا يطمع العلماء في حيفك لهم ، ولا ييأس الضعفاء من عدلك فيهم ، فإن الله تعالى يسائلكم عن أعمالكم صغيرها وكبيرها ، وظاهرها وخفيها .. فإن يعذب فأنتم أظلم ، وإن يعف فهو أكرم ، واعلموا

---

(١) النور ٢٢

— عباد الله — أن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة ، فشاركوا بذلك أهل الدنيا فى دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا فى آخرتهم . سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت ، وأكلوا بأفضل ما أكلت ، فحظوا من الدنيا بما حظى به المترفون ، وأخذوا منها ما أخذ الجبابرة المتكبرون ، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ والمتجر الرابح . ثم اعلم يا محمد أنى قد وليتك أعظم أجنادى فى نفسى — أهل مصر — فأنت محقوق بأن تخالف نفسك وأن تنافح عن دينك ، لا تسخط الله برضا أحد من خلقه ، فإن فى الله خلفا من غيره وليس فى غيره خلف منه ، وليس سواء إمام الهدى وإمام الردى ، وولى النبى وعدو النبى » .

ومن وصية له للحسن ابنه : « من الوالد الفان ، المقر للزمان ، المدبر العمر ، المستسلم للدهر ، الذام للدنيا ، الساكن مساكن الموتى ، والظاعن عنها غدا ، إلى المولود المؤمل : أوصيك بتقوى الله ولزوم أمره ، وعمارة قلبك بذكره والاعتصام بحبله ، حيث لا سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به . أمسك عن طريق إذا خفت ضلالته ، فإن الكف عند حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال ، وأمر بالمعروف تكن من أهله ، وأنكر المنكر وباين من فعله ، وجاهد فى الله حق جهاده . أى بنى : إنى لما رأيتنى قد بلغت سنا ورأيتنى أزداد وهنا بادرت بوصيتى إليك ، وأوردت خصالا منها قبل أن يعجل بى أجلى دون أن أفضى إليك بما فى نفسى . إن أمامك — يا بنى — طريقا ذا مسافة بعيدة ، ومشقة شديدة ، ولا غنى لك فيه عن حسن الارتياد ، بقدر بلاغك من الزاد ، مع خفة الظهر فلا تحملن على ظهرك فوق طاقتك ، فيكون ثقل ذلك وبالا عليك » .

ومن كلماته التى تجرى مجرى الأمثال السائرة والحكم المسلمة :

« امحض أخاك النصيحة ، حسنة كانت أم قبيحة . تجرع الغيظ فإنى لم أر جرعة أحلى منها عاقبة . لن لمن غالظك فإنه يوشك أن يلين لك . من ظن بك خيرا فصدّق ظنه . لا تضيعن حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه ، فإنه ليس لك بأخ من أضعته حقه . لا يكن أهلك أشقى الخلق بك . لا ترغبن فيمن زهد عنك . لا يكونن أخوك على مقاطعتك أقوى منك على مواصلته . لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان . لا يكبرن عليك ظلم من ظلمك ، فإنه يسعى فى مضرته ونفعك . ليس جزاء من سرك أن تسوءه . اعلم يا بنى أن الرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فإن أنت لم تأته أتاك . ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى . إن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، وإن جزعت على ما تفلّت من يدك فاجزع على كل ما لم يصل إليك . استدل على ما لم يكن بما قد كان . رب قريب أبعد من بعيد ، ورب بعيد أقرب من قريب . الغريب من لم يكن حبيب .

من لم يبالك فهو عدوك . قد يكون اليأس إدراكا إذا كان الطمع هلاكا .

قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل . من أمن الزمان خانه . ليس كل من رمى أصاب . إذا تغير السلطان تغير الزمان .

حب الناس من حب الله

روى ثقات المحدثين أن رسول الله ﷺ قال : (إذا أحب الله عبدا دعا إليه جبريل فقال له إنى أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل .

ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله قد أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض) .

ففى هذا الحديث الصحيح قاعدة لا مجال للشك فيها ، وهى أن حب الناس إنسانا دليل على حب الله تعالى لهذا الإنسان .

وقد ثبت فى أكثر من حديث عن رسول الله ﷺ فضل علىّ كرم الله وجهه ، فمن ذلك ما ذكره الإمام ابن كثير من أن عليا كرم الله وجهه قال : « أنا عبد الله وأخو رسوله ، لا يقولها بعدى إلا كذاب » . وقد أورد ابن كثير أيضا حديثا عن ابن عمر قال : « آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، فجاء علىّ تدمع عيناه فقال يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخى بينى وبين أحد . فقال له ﷺ : (أنت أخى فى الدنيا والآخرة)

وقد شهد علىّ بدرا ، وفيها يقول رسول الله ﷺ لعمر (وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) .

وقد شهد كرم الله وجهه بيعة الرضوان ، وفيها يقول الله جل ثناؤه ﴿ لَقَدْ رَضِىَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ وقال رسول الله ﷺ فى بيعة الرضوان : (لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة) .

وقد ثبت فى الصحاح وغيرها أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : (لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله) . فلما أصبح أعطاها عليا ففتح الله على يديه ،

وقد أخرج ابن كثير أيضا عن سفيان الثورى ، أن عليا كرم الله وجهه قام على منبر الكوفة يقول : « أردت أن أخطب إلى رسول الله ابنته فاطمة ثم ذكرت أن لا شيء لى ، ثم ذكرت عائدته ﷺ فأطمعنى ذلك فى خِطبتها . فخطبتها فقال لى ﷺ : (هل عندك شيء ؟) قلت لا . قال : (فأين درعك التى أعطيتكها ؟) قلت : هى عندى . قال : (فأعطها فاطمة) . فأعطيتها إياها فزوجنى . فلما كانت ليلة عرسى دخلت عليها وقد قال بى رسول الله ﷺ (أنا قادم إليكما) . فجاء وعلينا قطيفة فهممنا أن نقوم فقال (مكانكما) . ثم دعا بقدح من ماء فدعا الله تعالى ثم رشه عليَّ وعليها . فقلت:يا رسول الله أنا أحب إليك أم هى ؟ قال : (هى أحب إليَّ منك وأنت أعز عليَّ منها) . ثم دعا الله لنا فقال : (اللهم بارك لهما فى شملهما) » .

وفى حديث عن أبى هريرة رواه ابن كثير قال : « لما خطب عليّ فاطمة دخل عليها رسول الله ﷺ ثم قال لها : (أى بنية ، إن ابن عمك عليا قد خطبك فما تقولين ؟) ·

فبكت فاطمة رضى الله عنها ثم قالت : « كأنك يا أبتى ، إنما ذخرتنى لفقير قريش » . فقال رسول الله ﷺ : (والذى بعثنى بالحق يا بنية ما تكلمت فى ذلك حتى أذن الله لى فيه) . فقالت فاطمة « رضيت بما رضى الله ورسوله » فخرج من عندها واجتمع المسلمون إليه فقال رسول الله ﷺ : (يا عليّ قم فاخطب لنفسك) . فقال عليّ : الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين ، فهذا محمد رسول الله زوجنى ابنته فاطمة على صداق مبلغه أربعمائة درهم ، فاسمعوا ما يقول واشهدوا . قالوا : ما تقول يا رسول الله ؟ قال ﷺ : (أشهدكم أنى قد زوجته) . وقد قال عليّ : ما كان لنا إلا إهاب كبش ننام عليه ومالى خادم غيرها .

فهذه الأحاديث التى ذكرها الإمام ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » ، تدل على فضل الإمام علىّ كرم الله وجهه ، فضلا لا يشاركه فيه أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، على أنهم جميعا أهل فضل لا يجحده إلا الذين يجحدون ضوء الشمس فى رائعة النهار .

وهذه الأحاديث الشريفة — مع أنها بينة الدلالة على فضل علىّ هى كذلك صالحة للدلالة على حب الله إياه — كرَّم الله وجهه — حتى لو أن سائلا سألك عن السبب فى حب الناس عليا لكان لك أن تجيبه جوابا يستمد الصدق من الحديث النبوى الشريف ، فتقول فى جوابك : إن الناس أحبوا عليًّا من أجل حب الله إياه ، إذ كان حب الناس آية ودليلا على حب الله .

وفى هذه الحال لا يملك سائلك إلا أن يلوذ بالصمت ، قانعا أعظم القناعة بما وقفته عليه وقدته إليه مما قرره أوضح تقرير الحديث النبوى الشريف .

على أنك مستطيع أن تجد سببا يجعل حب الناس لعلىّ مستمدا من حبهم رسول الله ﷺ . ذلك أن بين سيرته وسيرة رسول الله تشابها يوحى بأن الله تعالى آثر للإمام أن يكون أقرب الناس إلى رسول الله ، قرابة لحم ودم ، وقرابة نفس وروح ، وقرابة سيرة وتاريخ .

ولكى تزداد ثقة بهذه الكلمة ، حاول أن توازن بين السيرتين سيرة رسول الله ﷺ وسيرة الإمام علىّ كرَّم الله وجهه . وسوف ترى أن بين السيرتين تقاربا شديدا لا تخفى معالمه على من يفتح للحق قلبه ويفسح للفكر مجاله .

ولسنا فى هذا الذى نأخذ بيدك إليه مبتدعين شيئا من عند أنفسنا ، ولكننا متبعون من سبقنا من أولئك السادة الذين نثق بهم فى أخلاق رضية ، ولمحات ذكية ، وبُعد بعيد عن التعصب المقيت ، والتزمت المميت .

وأول ذلك كلمته التى يقول فيها كرَّم الله وجهه : « والله ، ما معاوية بأدهى منى ولكنه يغدر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس . ولكن كل غدرة فجرة ، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة ، والله ما استغفل[١] بالمكيدة ، ولا استغمز بالشديدة »[٢].

وتلك الكلمات الشريفة ــ على ما ترى ــ تحتاج إلى كتاب يستقصى للناس تاريخ الدعوات الإصلاحية ، ذات المناهج التى تستمد قداستها من ورع الدين أو من جشع الدنيا . وإذ لم يكن فى وسعنا أن نقوم بهذا الحق فإننا لم نجد مندوحة عن الاستعانة برجل من أهل العلم له فى العلم بطبائع الناس قدم ثابتة وآراء سديدة ، وله مع ذلك ورع يدعوه إلى تحرى الحق وإيثار الاعتدال ، حرصا على شرف مروءته ونزولا على مقتضى دينه . فذلك حيث قال رحمه الله حيال خطبة الإمام التى رويناها لك آنفا : إن قوما لم يعرفوا حقيقة فضل أمير المؤمنين علىّ ، زعموا أن عمر كان أسوس منه وإن كان هو أعلم من عمر ، بل لقد قال أعداء الإمام ومباغضوه إن معاوية كان أسوس منه وأصح تدبيرا .

فاعلم رحمك الله ــ أن السائس لا يتمكن من السياسة البالغة إلا إذا كان يعمل برأيه ناظرا إلى ما فيه صلاح أمره وتوطيد ملكه ، سواء وافق الشريعة أم لم يوافقها . ولقد كان أمير المؤمنين علىّ مقيدا بقيود الشريعة ومدفوعا إلى اتباعها ، مع رفضه ما يصلح الاعتماد عليه من أراد الحرب والكيد والتدبير إذا كان متنكرا للشرع وغير موافق له . فلم تكن قاعدته كرَّم الله وجهه فى الحكم قاعدة غير من يلتزم بذلك .

---

(١) الاستغفال : طلبك غفلة إنسان لتنال منه ما تريد .

(٢) الاستغماز : اختبارك إنسانا لتعلم مقدار احتماله ما يرمى به .

ولسنا بهذا القول زارين على عمر بن الخطاب ولا ناسبين له ما هو منزه عنه إذ كان رضى الله عنه مجتهدا يعمل بالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة ، فيرى تخصيص عمومات النصوص بالآراء وبالاستنباط من أصول تقتضى خلاف ما يقتضيه عموم النص . ولقد كان عمر رضى الله عنه يكيد خصمه ويأمر أمراءه بالكيد والحيلة ، ويؤدب بالدرة والسوط من يغلب على ظنه أنه يستوجب ذلك ، ثم يصفح عن آخرين قد اجترموا ما يستحقون به التأديب ، وهو فى كل ذلك محكوم بقوة اجتهاده وما يؤديه إليه نظره .

ولكن أمير المؤمنين عليًّا لم يكن يرى ذلك الذى يراه عمر ، بل كان يقف مع النصوص والظواهر لا يتعداها إلى الاجتهاد والأقيسة تعديا يدعوه إلى تطبيق أمور الدنيا على أمور الدين ، ويحمله على أن يسوق الكل مساقا واحدا . فكان كرَّم الله وجهه لا يرفع ولا يضع إلا بالكتاب والنص ، ولذلك اختلفت طريقتاهما فى الخلافة والسياسة . وكان عمر — مع ذلك — شديد الغِلْظة شديد السياسة ، على حين كان علىّ كثير الحلم عظيم الصفح والتجاوز . ولذلك ازدادت خلافةُ عمر قوة بقدر ما ازدادت خلافة علىّ لينا . ثم إن عمر لم يُمتحن بما امتحن به علىّ من فتنة عثمان التى أحوجته إلى مداراة أصحابه وجنده دفعا للاضطراب الواقع عن طريق تلك الفتنة ، ثم تلا ذلك فتنة الجمل وفتنة صفين ، ثم فتنة النهروان . وكل هذه الأمور مؤثرة أشد التأثير فى اضطراب أمر الوالى وانحلال معاقد ملكه . ولكن شيئا من ذلك لم يتفق لعمر ، فشتان بين الخلافتين فيما يعود إلى انتظام الملك وصحة تدبير الخلافة .

وقد تسأل أعزك الله : ما قولك فى سياسة الرسول ﷺ وتدبيره ، أليس كان منتظما سديدا مع أنه ﷺ كان لا يعمل إلا بالنصوص وبالتوقيف عن طريق الوحى ؟

وجوابنا لك عن هذا السؤال . إن سياسة الرسول وتدبيره خارج عما نحن فيه لأنه معصوم لا تتطرق الغفلة إلى أفعاله ، وأيضا فإن الله تعالى قد أذن لرسوله ﷺ أن يحكم فى الشرعيات وغيرها برأيه ، كما ترى ذلك على غاية الوضوح فى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾(١)

وأنت إذا تأملت فى هذه الآية الشريفة مستصحبا ما ذكره أهل العلم حولها ، فإنك ترى أن سؤالك الذى سألته ليس بشىء ، لأن ثمة فرقا واضحا بين حاكم مؤيد بالوحى وبين آخر ليست له هذه المنزلة الرفيعة . ثم إن الإمام كرّم الله وجهه لا يمكن أن يبلغ اجتهاده المنزلة الرفيعة التى يبلغها اجتهاد رسول الله ﷺ ، فالفرق بين الاجتهادين هو الفرق بين المنزلتين . ثم أحب لك أن تتأمل معي فيما أرويه من حديث صائب يرويه الثقات عن ثقات مثلهم ، فذلك حيث كان يتحدث به الثقة إلى مريديه وطلاب علمه فيقول :

« إنه لا فرق عند من قرأ سيرة النبى وسيرة علىّ . فكما أن عليًّا لم يزل أمره مضطربا مع أصحابه بسبب مخالفتهم له وعصيانهم أمره وهربهم إلى أعدائه ، فكذلك كان أمر النبى ﷺ ، فإنه لم يزل ممنوًا بنفاق المنافقين وأذاهم له واختلاف أصحابه عليه وهرب بعضهم إلى أعدائه وكثرة الحروب والفتن ، كما يوضح ذلك القرآن العزيز فى حديثه عن المنافقين ، وضيق *رسول الله ﷺ بهم وتألمه من أذاهم له كما فى الآيات الشريفة :* ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِى أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ ؛ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾(٢).

---

(١) النساء ١٠٥ (٢) المجادلة ٨

وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوىَ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وكذلك قوله جل ثناؤه : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۞ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) . وكذلك يقول تعالى في شأن هؤلاء المنافقين : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۞ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

وعلى ذلك ترى أن من تأمل حال رسول الله وحال عليّ فإنه سيجدهما متشابهتين أو أدنى إلى التشابه في الصورة والمقدار ، وبيان ذلك أن حرب رسول الله مع المشركين كانت سجالا : انتصر يوم بدر وانتصر المشركون عليه يوم أحد ، وكان يوم الخندق كفافا خرج هو وهم سواء لا عليه ولا له لأنهم قتلوا رئيس الأوس سعد بن معاذ وقتل من المشركين فارس قريش عمرو بن عبدود ثم انصرفوا عنه بغير حرب .. ثم حارب النبي قريشا يوم الفتح فكان الظفر له . وهكذا كانت حروب عليّ : انتصر يوم الجمل، وخرج الأمر بينه وبين معاوية على سواء يوم صفين إذ قُتل من أصحابه رؤساء ومن أصحاب معاوية رؤساء ثم انصرف كل واحد من الفريقين على مكانه . ثم حارب بعد حرب صفين أهل النهروان فكان الظفر له .

ومن عجب أن أول حروب رسول الله ﷺ كانت بدرا وكان هو المنصور فيها ، وكانت أول حروب علي الجمل وكان هو المنصور فيها .

---

(١) المجادلة ١٥ ، ١٦ (٢) المنافقون ٧ ، ٨

ثم كان من صحيفة الصلح والحكومة يوم صفين نظير ما كان فى صحيفة الصلح والهدنة يوم الحديبية . ثم دعا معاوية فى آخر أيام علىّ إلى نفسه واتخذ لنفسه لقب الخلافة ، كما أن مسيلمة والأسود العنسى دَعَوَا إلى نفسيهما فى آخر أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم تسميا بالنبوة . وقد اشتد على الإمام تصرف معاوية كما اشتد على رسول الله تصرف مسيلمة والأسود . ولم يحارب رسول الله ﷺ أحد من العرب إلا قريش ماعدا يوم حنين ، وكذلك علىّ كرَّم الله وجهه لم يحاربه أحد من العرب إلا قريش ماعدا يوم النهروان .

وقد مات الإمام كرَّم الله وجهه شهيدا بالسيف كما مات رسول الله ﷺ شهيدا بالسم . ولم يتزوج رسول الله ﷺ أحدا على أم أولاده خديجة حتى ماتت ، وكذلك الإمام كرَّم الله وجهه لم يتزوج على فاطمة أم أشرف أولاده الحسن والحسين حتى ماتت رضى الله عنها ..

ومات رسول الله ﷺ عن ثلاث وستين سنة من عمره الشريف ، وكذلك علىّ مات كرَّم الله وجهه عن مثل هذا العدد من السنين .

فإن أنت تجاوزت ذلك إلى الأخلاق والخصائص والصفات فإنك سترى رسول الله ﷺ على غاية الشجاعة ، وكذلك الإمام كرَّم الله وجهه يكاد يقارب رسول الله فى تلك الصفة . ورسول الله ﷺ عالم بالفقه والشريعة والعلوم الإلٰهية الدقيقة الغامضة ، وقد تابعه فى تلك الطريق الشريفة علىّ كرم الله وجهه . ثم إنك إذا نظرت إلى الزهادة فى الدنيا وجدت عليًّا يكاد يكون زهده قريبا من زهد رسول الله . ثم إن محمدا رسول الله ينتهى نسبه إلى عدنان وكذلك علىّ . وقد ربى محمد ﷺ فى حجر أبى طالب — والد علىّ — فكان جاريا عنده مجرى أحد أولاده ، ثم لما شب ﷺ وكبر استخلص عليًّا من أبى طالب فرباه غلاما فى حجره مكافأة لصنيع

أبيه به ، فامتزج الخلقان وتماثلت السجيتان . وإذا كان القرين يقتدى بالقرين فما ظنك بالتربية والتثقيف فى الدهر الطويل . إن من حق ذلك علينا أن تقبل نتيجة تلك المخالطة فى بيت أبى طالب على أن تكون أخلاق محمد رسول الله على مثل أخلاق أبى طالب إذ كان عمه ومربيه . وعلى ذلك تكون أخلاق علىّ كأخلاق أبى طالب من حيث كان والدا لعلىّ ، وتكون أخلاق علىّ كأخلاق محمد من حيث كانا قد أخذا عن تربية أبى طالب لهما . ولم يكن أبو طالب إلا كأبيه عبد المطلب حنيفيا ذا أخلاق شريفة كسائر الحنفاء الذين كان منهم محمد نفسه قبل أن يوحى إليه رسولا إلى العالمين يتمم مكارم الأخلاق .

ثم نلفتك بعد ذلك إلى نتيجة هذا البحث فنقول لك ما قاله أبو جعفر رحمه الله : إن من حق التربية أن تجعل محمدا وعليًّا شيمة واحدة وطينة مشتركة ، وأن لا يكون بين الرجلين فرق لولا أن الله اختص محمدا برسالته واصطفاه لوحيه لما يعلمه من مصالح البرية فى ذلك .. والله أعلم حيث يجعل رسالته . ولذلك امتاز رسول الله عمن سواه وبقى ما عدا الرسالة على أمر الاتحاد . ولذلك قال رسول الله ﷺ للإمام علىّ كرّم الله وجهه : (أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى) . فقد أبان نفسه — ﷺ — من علىّ بالنبوة وأثبت له ما عداها من الفضائل والخصائص .

وقد كان النقيب أبو جعفر — رحمه الله — غزير العلم صحيح العقل منصفا فى الجدال غير متعصب لمذهب الشيعة .

وعلى أنه كان علويا كان يعترف بفضائل الصحابة ويثنى على الشيخين أبى بكر وعمر قائلا : إنهما مهدا دين الإسلام وأرسيا قواعده ، وقد كان شديد الاضطراب فى حياة رسول الله وإنما مهّداه بما تيسر للعرب من الفتوح

فى دولتهما . وكان يقول فى عثمان : إن الدولة فى أيامه كانت على إقبالها وعلو جدها ، بل كانت الفتوح فى أيامه أكثر والغنائم أعظم لولا أنه لم يلتزم بناموس أبى بكر وعمر ، لأنه لم يستطع أن يسلك مسلكهما إذ كان مغلوبا عليه وكان كثير الحب لأهله ، وقد أتيح له من مروان وزير سوء أفسد القلوب عليه وحمل الناس على خلعه وقتله . وليس يجحد فضل ذوى الفضل إلا من لا نصيب له من لطف الله وجميل عنايته .

هذا ما يرويه المعتدلون من المتشيعين للإمام علىّ كرَّم الله وجهه وهو مما لا يخفى على الذين كانوا يحملون الدعوة لآل البيت النبوى الكريم ، وفى طليعتهم الإمام علىّ كرم الله وجهه . ومن هنا أحب الناس عليًّا لهذه الأخلاق الشريفة . وكان حبهم إياه مستمدا من حبهم لرسول الله ، وما كان رسول الله ﷺ ليحب أو يكره إلا فى إطار مكارم الأخلاق ، فهو يحب ما أحبه الله ويحب من أحب الله . وآية ذلك قوله ﷺ : (إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها) .

وإذاً فقد أصبح من الحق الذى لا يقبل الجحود أن يكون حب الناس عليًّا كرَّم الله وجهه راجعا إلى أمر دينى محض قرره الحديث النبوى الشريف الذى وضعنا له هذا العنوان : « حب الناس من حب الله » .

غير أن بعض أهل العلم يطيب لهم أن يسلكوا الطريق إلى التماس أسباب عادية يجيبون بها عن هذا السؤال : لماذا أحب الناس ويحبون الإمام رضى الله عنه ؟.

ومن هؤلاء الذين يؤثرون الاحتكام إلى الأسباب العادية بدلا من الأسباب الدينية ، السيد الجليل أبو جعفر بن أبى زيد الحسنى نقيب البصرة . فقد سأله أبو حامد عز الدين ابن أبى الحديد قائلا له : ما سبب حب الناس لعلىّ ابن أبى طالب وعشقهم له وتهالكهم فى هواه ؟ أرجو أن تجيبنى ، على أن

تترك فى الجواب حديث الشجاعة والعلم والفصاحة وغير ذلك من الخصائص التى رزقه الله سبحانه الكثير الطيب منها .

ولم يسع السيد نقيب الطالبين بالبصرة إلا أن يتهيأ للجواب فبدأ يقول وقد أشرقت فى وجهه المسماح ابتسامة تدل على ماوراءها من الإعجاب بالسؤال والثقة بالنفس فى القدرة على إحسانه الجواب عنه ، فجعل يقول رحمه الله : كم تجمع علىّ من حراميزك (١) وبنات ذكائك . ثم أخذ يقول : إن ها هنا مقدمة لاندحة عن العلم بها ، وهى أن أكثر الناس موتورون فى الدنيا . أما المستحقون فلا ريب فى أن أكثرهم محرومون ، كالعالم يرى أنه لاحظ له فى الدنيا ويرى جاهلا غيره مرزوقا وموسعا عليه ، وكالشجاع أبلى فى الحرب وانتفع الناس بموضعه وليس له عطاء يكفيه ويقوم بضروراته ، مع أنه يرى غيره من الجبناء وبعضهم يملك قطرا عظيما من الدنيا وقطعة وافرة من المال والرزق ، وكالعاقل صحيح التدبير قدر عليه رزقه وهو يرى غيره أحمق تدر عليه الخيرات وتتحلب عليه أخلاف الرزق ، وكصاحب الدين القويم والعبادة الحسنة وهو مع ذلك محروم ضيق الرزق مع أن غيره من أهل المذاهب الباطلة أصحاب مال كثير وأحوال حسان .. حتى إن هذه الطبقات المستحقة ليحتاجون فى أكثر الأوقات إلى الطبقات التى لا استحقاق لها . وربما دعتهم الضرورة إلى الذل لهم والخضوع بين أيديهم .. إما لدفع ضرر أو لاستجلاب نفع ، ودون هذه الطبقات من ذوى الاستحقاق ما نشاهده عيانا من نجار حاذق أو بناء عالم أو نقاش بارع أو مصور لطيف ، وكلهم على غاية ما يكون من ضيق رزقهم وقعود الوقت بهم وقلة الحيلة لهم ، مع أن غيرهم من الذين لا يجرون مجراهم ولا يلحقون

---

(١) حرمزه : لعنه .

طبقتهم مرزوقون مرغوب فيهم وقد ظفروا بطيب العيش وسعة الرزق ، فتلك حال ذوى الاستحقاق والاستعداد .

وأما الذين ليسوا من أهل الفضائل فإنهم أيضًا لا يخلون من الحقد على الدنيا والذم لها والحنق والغيظ منها لما يلحقهم من حسد أمثالهم وجيرانهم ، فليس فيهم قانع بعيشه ولا راض بحاله بل يستزيد ويطلب حالا فوق حاله ، وهذه كلها من بديهيات الأمور التى لا تحتاج إلى إعمال فكر ونفوذ نظر وحسن تقدير .

فإذا عرفت هذه المقدمة ، فمعلوم أن عليًّا كرَّم الله وجهه كان مستحقا محروما ، بل هو أمير المستحقين المحرومين وسيدهم وكبيرهم . ومعلوم أن الذين ينالهم الضيم وتلحقهم المَذَلَّة يتعصب بعضهم لبعض ويكونون يدا واحدة على المرزوقين الذين ظفروا بالدنيا ونالوا منها مآربهم لاشتراكهم فى الأمر الذى آلمهم وساءهم وعضهم ومضهم ، مع اشتراكهم فى الأنفة والحمية والغضب والمنافسة لمن علا عليهم وقهرهم وبلغ من الدنيا ما لم يبلغوه .

فإذا كان هؤلاء المحرومون متساوين فى المنزلة والمرتبة وتعصب بعضهم لبعض ، فما ظنك بهم إذا كان منهم رجل عظيم القدر جليل الخطر كامل الشرف جامع للفضائل ، وهو مع ذلك محروم محدود جرعته الدنيا علاقمها وعلته عللا بعد نهل من صابها وصبرها ، ولقى منها برحا (١) بارحا وجهدا جهيدا ، وعلا عليه من هو دونه وحكم فيه وفى بيته ورهطه من لم يكن ما ناله من الإمرة والسلطان فى حسابه ، ولا دائرا فى خلده خاطرا فى باله ، ولا كان أحد من الناس يرتقب ذلك له . ثم كان فى آخر الأمر أن قُتل هذا الرجل الجليل فى محرابه ، ثم قتل بنوه من بعده ، وأحاط الذل والهوان

(١) البرح : الشدة والهول .

بأهله وبنى عمه حينا بالقتل وحينا بالطرد والتشريد ، وحينا بالسجن والتهديد ، دون أن يكون لهم ذنب يؤخذون به أو يحاسبون عليه ، إذ كان جميعهم صاحب فضل وزهد وعبادة وسخاء ، والخلق جميعا ينتفعون منهم فى الدنيا وفى الدين . فهل يكون من الممكن أن لا يتعصب البشر كله مع هذا الشخص ؟ . وهل تستطيع القلوب أن لا تحبه وتهواه وتفنى فى عشقه انتصارا له وأنفة مما ناله وامتعاضا مما جرى عليه ؟ إن ذلك أمر مركوز فى الطباع ومخلوق فى الغرائز ، كما يشاهد الناس على الجرف إنسانا قد وقع فى الماء العميق وهو لا يحسن السباحة ، فإنهم بالطبع البشرى يرقون عليه رقة شديدة ، وقد يلقى قوم منهم أنفسهم فى الماء نحوه يطلبون تخليصه دون أن يتوقعوا على ذلك مجازاة منه بمال أو شكر أو ثواب فى الآخرة ، فقد يكون منهم من لم يعتقد أمر الآخرة .. ولكنها رقة بشرية تدعو الواحد منهم أن يتخيل فى نفسه أنه ذلكم الغريق ، فكى يطلب خلاص نفسه لو كان غريقا يطلب تخليص من هو فى تلك الحال الصعبة بالمشاركة النوعية . وكذلك لو أن ملكا ظلم أهل بلد من بلاده ظلما عنيفا ، لكان أهل ذلك البلد يتعصب بعضهم لبعض فى الانتصار من ذلك الملك والاستعداء عليه . ولو قد كان من جملة هؤلاء رجل عظيم القدر جليل الشأن قد ظلمه الملك أكثر من ظلمه إياهم ، فأخذ ضياعه وأمواله وقتل أولاده وأهله ، لكان لياذهم به وانضواؤهم إليه واجتماعهم به والتفافهم حوله أعظم ، لأن الطبيعة البشرية تدعو إلى ذلك دعاء واجبا لا يستطيع الناس منه امتناعا .

هذا ما ذكره السيد النقيب ، على فضله وصدق إيمانه وسلامة مذهبه فى احترامه أصحاب رسول الله وحبه إياهم واعتقاده الخير فيهم . وغاية ما كان يقول إذا غضب على أعداء علىّ أن حكمهم حكم مسلم مؤمن عصى فى بعض الأفعال وخالف الأمر ، فحكمه إلى الله إن شاء آخذه وأن شاء غفر له .

ثم سألته سؤالا آخر عن أبى بكر وعمر أتقول إنهما من أهل الجنة ؟ فقال : إى والله إنى لأعتقد ذلك إما بعفو الله تعالى عنهما وإما بشفاعة رسول الله ﷺ لهما . ذلك أنى لا أشك فى إيمانهما برسول الله وصحة عقيدتهما فى الإسلام . فسألته أيضا : وماذا ترى فى عثمان ؟ فقال : كذلك عثمان رحم الله عثمان ! وهل كان عثمان إلا واحدا منا وغصنا من شجرة عبد مناف ؟ ولكن أهله كدّروه علينا وأوقعوا العداوة والبغضاء بينه وبيننا . قلت له أيضا : فهل يلزم على ما سمعنا منك أن تجيز دخول معاوية الجنة ؟. فقال : إن معاوية كان مع أبيه من المؤلفة قلوبهم .

وقد كان ابن أبى الحديد شيعيا غير متطرف تطرف الشيعة الغلاة ، وكان مع ذلك من أهل الاعتزال . فكان يقول الذى استقر عليه رأى المعتزلة بعد اختلاف كثير بين قدمائهم ، هو أن عليًّا أفضل الجماعة وأن أصحاب رسول الله إنما تركوا الأفضل لمصلحة رأوها ، وإن لم يكن هناك نص يقطع الغموض وإنما كانت إشارة وإيماءة لا يتضمن شىء منها صريح النص . وأن عليًّا رضى الله عنه نازع ثم بايع ثم استجاب ، ولو أقام على الامتناع لم نقل بصحة البيعة ، ولو جرد على السيف فى أول الأمر كما جرده فى آخره لقلنا بفسق كل من خالفه على الإطلاق كائنا من كان ، ولكنه رضى بالبيعة ودخل فى الطاعة .

وبالجملة ، يقول أصحابنا من المعتزلة : إن الأمر كان له وكان هو المستحق ، فإن شاء أخذه لنفسه وإن شاء ولّاه غيره . فلما رأيناه قد وافق على ولاية غيره اتبعناه ورضينا ما رضيه . فقال النقيب : قد بقى بينى وبينكم قليل .. أنا أذهب إلى النص وأنتم لا تذهبون إليه . فقلت له : إنه لم يثبت نص عندنا بطريق يوجب العلم ، وما تذكرونه أنتم صريحا فإنكم تنفردون بنقله . وما عدا ذلك من الأخبار التى نشارككم فيها فلها تأويلات معلومة . فقال لى

وهو ضجر : لو أننا فتحنا باب التأويلات لجاز أن نتناول قول المسلم لا إلٰه إلا الله محمدا رسول الله ، فدعنا من التأويلات الباردة التى يعلم الناس أنها غير مرادة وأنها متكلفة ، فإنما أنا وأنت فى الدار لا ثالث لنا يستحى أحدنا من صاحبه بحضرته أو يخافه .

فلما بلغنا إلى هذا الموضع دخل قوم ممن كان يخشاهم النقيب للتجسس ونحوه ، فتركنا ذلك الأسلوب من الحديث وخضنا فى غيره .

وهنا عرضتُ للقوم سياسة معاوية وما يزعمه أعداء علىّ ومبغضوه من أنها خير من سياسة أمير المؤمنين علىّ . وربما كفانا فى الكلام على ذلك ما كان يقوله شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الذى شرح هذه القضية أتم شرح وأوفاه بألفاظه رحمه الله :

قال أبو عثمان : ربما وجدت بعض من يظن بنفسه العقل والفهم والتحصيل مع أنه من العامة فيضع نفسه مع الخاصة ، ثم يزعم أن معاوية كان أبعد غورا وأصح فكرا وأجود روية وأبعد غاية وأدق مسلكا .. وليس الأمر كذلك ، وسأومئ إليك بجملة تعرف بها موضع غلطه والمكان الذى دخل عليه الخطأ من قبله . لقد كان علىّ لا يستعمل فى حربه إلا ما وافق الكتاب والسنة ، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة كما يستعمل الكتاب والسنة ، ثم يستعمل جميع المكايد حلالها وحرامها ، ويسير فى الحرب سيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى وسيرة خاقان إذا لاقى قيصر . فكان علىّ يقول : لا تبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم ولا تتبعوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا بابا مغلقا . فهذه سيرته كرَّم الله وجهه يتقيد فيها بالكتاب والسنة لا يعدوهما مهما دعته إلى الظفر بالنصر دواعى حب الشرف وإيثار السلطان .

وأما أصحاب الحروب فإنهم إن قدروا على البيات بيتوا ، وإن قدروا على رضخ الجميع بالجندل وهم نيام فعلوا ، وإن أمكن ذلك فى طرفة عين لم يؤخروه إلى ساعة ، وإن كان الحرق أعجل من الغرق لم يقتصروا على الغرق ولم يؤخروا الحرق إلى وقت الغرق ، وإن أمكن الهدم لم يتكلفوا الحصار ولم يدعوا أن ينصبوا المجانيق والعرادات والنقب والدبابات والكمين ، ولم يدعوا دس السموم ولا التضريب بين الناس بالكذب وطرح الكتب فى عساكرهم بالسعايات وتوهيم الأمور وإيحاش بعض من بعض ، وقتلهم بكل آلة وحيلة كيفما وقع القتل وكيفما دارت بهم الحال .

فمن اقتصر — حفظك الله — من التدبير على ما فى الكتاب والسنة ، كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير وما لا يتناهى من المكايد ، والكذب أكثر من الصدق ، والحرام أكثر عددا من الحلال .. ولو سمى إنسان إنسانا باسمه لكان قد صدق وليس له اسم غيره . ولو قال شيطان أو كلب أو حمار أو شاة أو بعير أو كل ما خطر على البال لكان كاذبا فى ذلك . وكذلك الإيمان والكفر ، وكذلك الطاعة والمعصية ، وكذلك الحق والباطل ، وكذلك السقم والصحة ، وكذلك الخطأ والصواب .

فعليّ كرّم الله وجهه كان ملجما بالورع عن جميع القول إلا ما هو لله عز وجل ، وكان ممنوع اليدين من كل بطش إلا ما هو لله رضا ، وهو لا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله ، ولا يرى الرضا إلا فى ما دل عليه الكتاب والسنة دون ما يعول عليه أصحاب الدهاء والمكر والمكايد والآراء . فلما أبصرت العوام كثرة نوادر معاوية فى المكايد ، وكثرة غرائبه فى الخداع ، وما اتفق له وتهيأ على يده ، ولم يروا ذلك من عليّ ظنوا بقصر عقولهم وقلة علومهم أن ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان عند عليّ . وينبغى أن تعلم علما

لا يَرْقى إليه الشك أنك لا تستطيع وصف الصالحين بالدهاء والنكراء، فلا تقول : ماكان أنكر أبا بكر بن أبى قحافة ، وماكان أنكر عمر بن الخطاب ، ولن يقول أحد عنده شيء من الخير إن رسول الله ﷺ كان أدهى العرب والعجم ، وكان أنكر قريش وأمكر كنانه ، لأن هذه الكلمة إنما وضعت فى مديح أصحاب التعمق فى الرأى من أجل توكيد أمر الدنيا وزبرجها وتشديد أركانها .

فأما أصحاب الآخرة الذين يرون الناس لا يصلحون على تدبير البشر ، وإنما يصلحون على تدبير خالق البشر ، فإن هؤلاء هم صفوة الله من خلقه ، وهم لا يمدحون بالدهاء والنكراء ، ثم هم لم يمنعوا هذا إلا ليعطوا أفضل منه وهو تأثير الله لهم .

ولقد مضى العلامة الجاحظ يقول : وكذلك كان قول معاوية للجميع : اخرجوا إلينا قتلة عثمان ونحن لكم سلم . فاجهد أنت كلَ جهدك واستعن بمن شايعك إلى أن تتخلص إلى صواب رأى فى ذلك الوقت أضله عليّ ، حتى تعلم أن معاوية خادع ، وأن عليًّا كرَّم الله وجهه كان المخدوع . فإن قلت : لقد بلغ ما أراد ونال ما أحب . فإنك لا تكون قد جئت بجديد يحرجنا أن ندخل فيه ، لأننا إنما وضعنا كتابنا هذا على أن عليًّا — كرَّم الله وجهه — كان قد امتحن فى أصحابه وفى دهره بما لم يمتحن إمام قبله من الاختلاف والمنازعة والتسرع والعجلة . وهل أُتى عليّ إلا من هذا المكان ؟ ولقد علمنا أن ثلاثة نفر تواطئوا على قتل ثلاثة نفر ، فانفرد ابن ملجم بالتماس ذلك من عليّ ، وانفرد البرك بالتماس ذلك من عمرو بن العاص ، وانفرد عمرو بن بكر التميمى بالتماس ذلك من معاوية . فكان من الاتفاق أو من الامتحان أن كان عليّ من بينهم هو المقتول . وفى قياس مذهبكم أن تزعموا أن سلامة عمرو ومعاوية إنما كانت بحزم منهما ، وأن

قتل عليّ إنما كان عن تضييع منه . فإذ قد تبين لكم أنه من الابتلاء والامتحان فكل شيء سوى ذلك فإنما هو تبع للنفس .

ذلك ما ذكره الجاحظ نرويه لك ببعض التصرف ، ولعل من حقنا لمن يقرأ لنا ويأخذ عنا أن ننتهز هذه السانحة لنقرر أن الإمام عليًّا — في دقة حسه وشرف نفسه — لا يمكن أن يفوته حسن التدبير حرصا على الحياة .. إما من أجل الاستمتاع بها استمتاعا أحله الله لعباده المؤمنين ، وإما من أجل التمكين لرسالة الإسلام أن تبلغ غايتها التي تضمنتها الآية الشريفة :

﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾(١) .

---

(١) الصف ٩

عليّ رجل حرب وسلام

إن الذين درسوا سيرة الإمام — كرّم الله وجهه — دراسة فقه واستبصار ، لعلهم لا يجدون خيرا من هذه الكلمات عنوانا لهذا الفصل يحددون بها معالم شخصيته فى مختلف أطوار حياته المباركة ، رضى الله عنه وأرضاه :

فأما أنه رجل حرب ، فإن أحدا لا يجهل حقائق بطولته تتجلى لرائديها على طرف الثمام منذ بدأت الدعوة المحمدية أولى خطواتها بالهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، وقد أمره رسول الله ﷺ أن ينام فى فراشه ، توهيما لرءوس الشرك بأن النائم فى الفراش هو محمد بن عبد الله وليس علىّ بن أبى طالب . وما من شك فى أنه كرّم الله وجهه كان يتوقع الموت بيد أعداء الدعوة الفَيْنة بعد الفينة ، مع أنه لا يملك وسيلة للدفاع عن نفسه إذا تذاءب عليه القوم وأخذوا عليه منافذ الهرب لو أنه فكر فى الفرار . ثم تلا هذا الموقف الشريف من مواقفه كرّم الله وجهه ، أنه شارك فى كل الغزوات التى اضطر المسلمين إليها أعداء الإسلام .

ومن آيات أنه رجل حرب ودولة ، نصيحته لأمير المؤمنين عمر أن لا يشخص بنفسه لقتال الفرس اتقاء لخطر ماحق لو تعرض رأس الدولة لقتل أو لأسر ، لا يدخر العدو جهدا فى الوصول إليه مهما كلفه ذلك من غوالى التضحيات . وليس يدرك هذا الخطر على هذه الصورة إلا من فطره الله تعالى فطرة سوية ورزقه القدرة على استجلاء الغيب من مكان بعيد .

هذا ما يتصل بكونه رجل حرب .. وأما ما يتعلق بكونه رجل سلام فحسب الذى يطلب القناعة بهذه الحقيقة أن يتمثله فيلسوفا متصوفا زاهدا فى عرض الدنيا ، بصيراً بالشريعة فى الكتاب العزيز والسنة الشريفة . إلى أن له

مع ذلك قلم كاتب ، وذوق أديب ، وأسلوب مدرس ، يؤثر لمريديه أن يقتنعوا بما يلفتهم إليه ويعظهم به ، دون أن يستغل فى ذلك هيبته فى أنفسهم . فإذا نصحه لهم أدنى إلى قوة السلطان ، منه إلى قوة الحجة والبرهان .

وآية هذا الذى نقول ، خطبته كرّم الله وجهه حين اضطرب عليه أصحابه فى أمر الحكومة بينه وبين معاوية رحمه الله ، فذلك حيث قال :

« أيها الناس ، إنه لم يزل أمرى معكم على ما أحب حتى نهكتكم الحرب ، وقد — والله — أخذت منكم وتركت ، وهى لعدوكم أنهك . لقد كنت أمس أميرا فأصبحت اليوم مأمورا ، وكنت أمس ناهيا فأصبحت اليوم منهيا ، وقد أحببتم البقاء وليس لى أن أحملكم على ما تكرهون » .

ففى هذه الخطبة — على ما ترى — يتضح لك أنه لم يكن يلجأ إلى هيبته فى صدور أوليائه وأعدائه ، ولكنه كان يلجأ إلى قوة الحجة ونصاعة البرهان . ذلك أنه يقول كرّم الله وجهه : لقد أخذت منكم الحرب وتركت فلم تستأصلكم ففيكم بعد بقية . ولئن كانت أثرة الحرب قد أضنتكم إنها لعدوكم أشد إضناء من حيث كان القتل فى أعدائكم أشد استمرارا . وقد كان أصحابه على ما يذكر الثقات أقساما : فمنهم من دخلت عليه الشبهة برفع المصاحف ، ومنهم من كان مَلَّ الحرب وآثر السلم ، فلما رأى شبهة يسوغ التعلق بها فى رفع المحاربة أخلد إليها ، ومنهم من كان يبغض عليًّا بباطنه ويطيعه بظاهره كما يطيع كثير من الناس السلطان فى الظاهر ويبغضونه بقلوبهم ، فلما وجدوا طريقا إلى خذلانه وترك نصرته أسرعوا نحوها ، فاجتمع جمهور عسكره عليه وطالبوه بالكف وترك القتال . فامتنع امتناع عالم بالمكيدة وقال لهم : إنها حيلة وخديعة وإنى أعرف بالقوم منكم ، فهم ليسوا بأصحاب قرآن ولا بأصحاب دين ، ولقد صحبتهم وعرفتهم صغيرا وكبيرا فعرفت منهم الإعراض عن الدين والركون إلى الدنيا . فلا تراعوا برفع المصاحف وصمموا على الحرب وقد

ملكتموهم فلن يبقى منهم إلا خشاشة ضعيفة . فأبوا عليه وأصروا على القعود والخذلان ، ثم أمروه أن يبعث إلى المحاربين من أصحابه أن يأمرهم بالرجوع ، وتهددوه بإسلامه إلى معاوية إن لم ينفذ ما أمروه به .

. ولم يجد الإمام حيلة إلا أن يرسل إلى الأشتر الذى كان مسئولا عن أصحاب علىّ ، فأرسل إليه يأمره بالرجوع وترك الحرب . فأبى الأشتر ذلك محتجا بأن انتصاره بات قريبا . فلما عاد رسول الإمام إليه بما قاله الأشتر غضبوا ونفروا وقالوا : لقد بعثت إلى الأشتر تأمره سرا بالتصميم وتنهاه عن الكف ظاهرا ، وإن لم تُعِد الأشتر الساعة قتلناك . فكرر الإمام رسالته إلى الأشتر يأمره بوقف القتال .

وبملاحظة هذه المعانى ينكشف لك معنى أنه كرَّم الله وجهه كان آمرا فأصبح مأمورا ، وكان ناهيا فأصبح منهيا . وليس فى الدنيا آلم لنفس الحر من أن يتمرد عليه أقل جنده شأنا وأولاهم بطاعته فى السر والعلانية ، ولكن هكذا قضى الله وما شاء الله كان .

ومما يزيد الناظر يقينا بأن الإمام رجل سلام شامل ، أنه كان ينهى أصحابه عن التوسع فى مطالب الدنيا كما كان ينهاهم عن التضييق على أنفسهم . ذلك أن السعة كالضيق كلاهما يخرج بالمسلم عن القصد والاعتدال ويضعه بعيدا عن وسطية الإسلام . فهاتان قضيتان لكل واحدة منهما برهان يشهد لها ويكشف عن وجه الصدق فيها : فقد دخل كرَّم الله وجهه على بعض أصحابه بمدينة البصرة يعوده ، فلما رأى سعة داره قال — على ملإ من أصحابه — تلك الكلمات التى تضعه كرَّم الله وجهه موضع المربى الذى يعنيه من صاحبه أن يكون صورة حسنة فى أنفس الناس ، فذلك حيث قال كرَّم الله وجهه : ما كنت تصنع بسعة هذه الدار فى الدنيا وأنت إليها فى الآخرة كنت أحوج . بلى إن شئت بلغت بها الآخرة ، تقرى فيها الضيف وتصل الرحم وتطلع منها

الحقوق مطالعها فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة . فقال له صاحبه وكان يدعى العلاء الحارثى : يا أمير المؤمنين ، أشكو إليك أخى عاصم بن زياد الحارثى . فسأله الإمام : ماله ؟ قال : لبس العباء وتخلى من الدنيا . فقال الإمام كرَّم الله وجهه : علىّ به . فلما جاء قال له :

« يا عُدَىَّ نفسه ، لقد استهام بك الخبيث . أما رحمت أهلك وولدك ؟ أترى الله تعالى أحل لك الطيبات وهو كاره أن تأخذها ؟ . أنت أهون على الله من ذلك .

ولم يشأ الرجل أن يسمع كلام الإمام مستسلما له دون مناقشة ، فقال : هذا أنت يا أمير المؤمنين فى خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك ، يعنى أنك تنهانى يا أمير المؤمنين عما أخذت به نفسك من خشونة الملبس وغلظ المأكل . فقال له كرَّم الله وجهه : ويحك يا عاصم بن زياد إنى لست كأنت . إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس ، كيلا يتبيغ (١) بالفقير فقره .

يقول الإمام فى هذه الخطبة : إن الدار التى نسكن فيها لا حاجة بك إليها فى الدنيا وحاجتك إليها فى الآخرة أظهر وأعظم ، على أنك إن شئت بلغت بها الآخرة ، تقرى فيها الضيف وتصل فيها الرحم وتطلع منها الحقوق مطالعها . فأنت — إذا — بلغت بها الآخرة .

ولم يترك الرجل فرصة وجود الإمام فى بيته ، فسارع إلى انتهازها شاكيا له أخاه بأنه يلبس العباء وقد تخلى من الدنيا وأعرض عن الاستمتاع بما أحل الله له فيها . فدعا الإمام بالرجل المشكو فيه فقال له متحننا مشفقا : يا عُدَىَّ (٢) نفسه .

(١) تقول العرب تبيغ به الدم تعنى أنه ثار فأوشك أن يهلكه ، ومنه تبيغ الفقر بالفقير .

(٢) عُدَىّ : على مثال قصى تصغير لكلمة عدو ، والعرب تقصد بالتصغير أحيانا الشفقة والتلطف .

« لقد استهام (١) بك الخبيث ، أما رحمت أهلك وولدك ؟ أترى أن الله تعالى أحل الطيبات وهو يكره أن تنال منها ؟ أنت أهون على الله من ذلك » .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين هذا أنت فى خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك ، فكيف تحرم علىّ ما حللته لنفسك من الزهد والتقشف ابتغاء مرضاة الله ؟ فقال له الإمام : « إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس ، كيلا لا يتبيغ بالفقير فقره » .

يقول كرّم الله وجهه إن على أئمة الحق أن يكونوا قدوة للضعاف من رعيتهم فلا يُغالوا فى الملبس والمأكل والمسكن ، فإنهم لو تغالوا فى ذلك لثار بهم الفقراء والضعاف فيهلكون أنفسهم أو يفتنون المجتمع الذى يعيشون فيه ، فإذا سار بهم فقرهم وحملهم على الفتنة المفضية إلى هلاكهم ، كان مثلهم كمثل الذى ثار به الدم فأهلكه .

---

(١) استهام : جعلك هائما : يعنى أن الشيطان جعلك هائما ضالا .

قضاء الحقوق صيانة للسلام

لا يعرف التاريخ أهل بيت جاهدوا فى الله حق جهاده كما يعرف ذلك لآل ياسر ، حتى كان رسول الله ﷺ يمر بأهل هذا البيت وهم يعذبون فيقول لهم : (صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة) . وقد نشأ عمار ابن ياسر بين أبويه : ياسر وسمية أول شهيدة فى الإسلام ، ورأى ما كان يصيب أبويه من عذاب وما يتجلى فى وجه رسول الله ﷺ من مظاهر العطف عليهما ومعالم الرحمة بهما ، فزاده ذلك حبا لرسول الله وقوة فى الإيمان بدعوته وإصرارا على أن يتابع خطواته فى سبيل الانتصار للعقيدة ، ثقة منه بأن الله تعالى قد استجاب لنبيه دعوته أن يكون آل ياسر من أهل الجنة .

ولم يقف حب عمار عند رسول الله وحده بل شمل معه حب آل البيت أجمعين ، فكان من أنصار الإمام علىّ كرّم الله وجهه فى أثناء اختلافه مع معاوية رحمة الله عليه على ما يروى الثقات ، من أن عمار بن ياسر نادى فى الناس ذات يوم : يامعشر قريش إلى متى تصرفون أمر الخلافة عن أهل بيت نبيكم ، تحولونه هاهنا مرة وهاهنا مرة ؟ إنى لا آمن أن ينزعه الله منكم ويضعه فى غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه فى غير أهله . فقال له هاشم ابن الوليد بن المغيرة : يا بن سمية لقد عدوت طورك . ما أنت وما رأت قريش لأنفسها ؟ إنك لست فى شيء من أمرها وإمارتها فتنح عنها . ثم تكلمت قريش بأجمعها فصاحوا بعمار وانتهروه ، فلم يزد عمار على أن قال : الحمد لله رب العالمين ، إن أعوان الحق ما زالوا أذلاء . ثم قام فانصرف .

وقد وقع بعض ما كان قد توقعه عمار بن ياسر رضى الله عنه ، فجعلت عواصف الشر تعصف بقريش وقد استباحت من مقدساتها ما لا يستبيحه إلا

عدو يبتغى الانتصار على عدوه بأى ثمن وعلى أية صورة ومن أى طريق .

وكان شر ما أصيب به المسلمون — وفى طليعتهم قريش — الخوارج وغلاة الشيعة ، وهما الفرقتان اللتان قضتا على السلام فى الأمة الإسلامية : سلام الفرد ، وسلام الأسرة ، وسلام المجتمع الذى يعيش فيه المسلمون .. بما ابتدعه أولئك وهؤلاء من صور اجتماعية ضاعف البلاء فيها سوء التأويل لكتاب الله الكريم ، وافتراء كواذب الأحاديث على الرسول العظيم .

وقد أسلفنا لك — أعزك الله — كلمة عن الخوارج والشيعة ، وننتهز بك هذه السانحة لنلفتك إلى صورة من البلاء الذى يلازم تضييع حقوق ذوى الحقوق . وسوف ترى أن معرفة الحق لأهله صيانة للمروءة وأمان من الفتنة . وعلى غير هذا المنهج تكون حياة الأمم إذا انتكست فيها الأوضاع وضاعت فيها الحقوق ، حتى طمع فيها العدو وتخلى عنها الصديق .

ولعله لا يخفى على من يتدبر كلمات الإمام فى النهج ما كان يقاسيه كرَّم الله وجهه من خلاف أصحابه عليه ، وإعناتهم جميعا له ، فإن فعل ما طلبوا إليه لاموه وحملوه خطئا هم اقترفوه ، وإن لم يفعل ما أرادوه منه قصروا فى الاستجابة له وتغاضوا عن أوامره ونواهيه ، فكان مثله معهم كرَّم الله وجهه كمثل الشاعر حين قال :

فشكواى تؤذيها وصبرى يسوؤها — وتجزع من بعدى وتنفر من قربى
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها — أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربى

وهذه الحيرة التى ذكرها الشاعر هى بعض ما كان يقاسيه أمير المؤمنين علىّ كرَّم الله وجهه من الغلاة فى حبه والغلاة فى بغضه على سواء .

ذلك أنه لم يكن له بد من النزول على رغائب القوم فى احتكامهم إلى القرآن حين اشتد البلاء بالقتال بين جنده فى العراق وجند معاوية فى الشام ، حتى ذكر له أهل الرأى من الفريقين أنهم يخشون على حرماتهم وذراريهم فى العراق

من أهل فارس ، كما يخشون على حرماتهم وذراريهم فى الشام من الروم .

فلما رضى التحكيم ووافق عليه أنكر الخوارج ذلك ورفضوه هاتفين بشعارهم المعروف : لا حكم إلا لله . ثم راحوا يتبعون هذا قولهم إن عليًّا حكّم الرجال فى دين الله . ومضوا يثيرون الفتنة عن هذا الشعار ، فخطب الناسَ كرَّم الله وجهه قائلا :

« إنا لم نحكِّم الرجال وإنما حكمنا القرآن ، وإنما القرآن خط مستور بين الدفتين لا ينطق بلسان ولا بد له من ترجمان ، وإنما ينطق عنه الرجال . ولما دعانا القوم إلى أن نحكّم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولى عن كتاب الله سبحانه وتعالى ، وقد قال الله — جل ثناؤه — : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (١) . فردّه إلى الله أن نحكم بكتابه ، وردّه إلى الرسول أن نأخذ بسنته . فإذا حكم الحاكم بالصدق فى كتاب الله فنحن أحق الناس به ، وإن حكم بسنة رسول الله ﷺ فنحن أحق الناس وأولاهم بها .

وأما قولكم : لم جعلت بينك وبينهم أجلا فى التحكيم ؟ فإنما فعلت ذلك ليتبين الجاهل ويتثبت العالم ، ولعل الله أن يصلح فى هذه الهدنة أمر هذه الأمة . ألا إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه من الباطل ، فأين يتاه بكم ، ومن أين أتيتم ؟ استعدوا للمسير إلى قوم حيارى عن الحق لا يبصرونه ، وموزعين بالجور لا يعدلون به ، جفاة عن الكتاب نكب عن الطريق . أف لكم لقد لقيت منكم برحا . يوما أناديكم ويوما أناجيكم ، فلا أحرار صدق عند النداء ، ولا إخوان ثقة عند النجاء .

فإن أبيتم إلا أن تزعموا أنى أخطأت وضللت ، فلم تضللون عامة أمة محمد بضلالى وتأخذونهم بخطئى وتكفرونهم بذنب من أذنب وقد علمتم أن

---

(١) النساء ٥٩

رسول الله ﷺ رجم المحصن وصلى عليه ثم ورثه أهله ، وقتل القاتل وورث ميراثه أهله ، فأمضى فى المخطئ حكم الله ولم يمنعه حقه . ألا وإنى لأخشى أن تكونوا أحد الصِّنفين الهالكين الذين تضمنهما حديث رسول الله ، أنه سيهلك فِيَّ صِنفان .. محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق ، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق . وخير الناس فِيَّ حالا النمط الأسود فالزموه والزموا السواد الأعظم . فإن يد الله على الجماعة ، وإياكم والفرقة فإن الشاذ من الناس للشيطان ، كما أن الشاذ من الغنم للذئب . لقد حكم الحكمان ليحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن . وإحياء ما أحيا القرآن الاجتماع عليه ، وإماتة ما أمات القرآن الافتراق عنه . فإن جرَّنا القرآن إليهم اتبعناهم ، وإن جرهم إلينا اتبعونا . فلم آت — لا أبا لكم — بجرا (١) ، ولا ختلتكم عن أمركم ، ولا لَبَّسته عليكم . ولقد اجتمع رأى ملئكم على اختيار رجلين أخذنا عليهما أن لا يتعديا القرآن فتاها عنه ، وتركا الحق وهما يبصرانه ، وكان الجور هواهما فقضيا عليه ».

إن هذه الكلمات من الإمام كرَّم الله وجهه لتأخذ بيد طلاب الحق إلى اليقين البصير ، بأنه حقيق بإمارة المؤمنين بما هيأ الله تعالى له من أسباب لم تتهيأ لغيره . فلما لم يعرف الناس حقه عليهم فقصروا فى قضائه له وأدائه إليه ، أصاب الأمة ما يصيب الذين يتغاضون عن الحق ويحتكمون إلى غير العدل فيرميهم الله تعالى بما يقضّ مضاجعهم بالليل ، ويزعج سكينتهم بالنهار . ولعل أعدل شاهد لهذه القضية ما أتاه إلى الإسلام والمسلمين صاحب الزنج ، الذى سلطه الله تعالى على الأمة مصيبة لا تعدلها مصيبة نزلت بالإسلام والمسلمين ، .. وإليك بعض الخبر عن هذا اللعين ، لترى مقدار البلاء الذى

---

(١) البجر : الأمر العجيب أو الداهية أو الشر وفى كلمة الصديق إنما هو الفجر أو البحر .

نزل بساحة أمتنا عن طريق الغض من قدر ذوى القدر ، والتهاون فى معرفة الحق لأهله وأدائه إليهم كاملا غير منقوص :

روى شارح النهج أن رجلا يدعى المغيرة بن سعيد كان من موالى العرب ، وقد أحب أن يحدث لنفسه مقالة مذهبية يستهوى بها قوما وينال بها ما يريد الظفر به من الدنيا ، فبدأ من ذلك بالغُلُوّ فى علىّ كرَّم الله وجهه فقال : لو شاء علىّ لأحيا عادا وثمود وقرونا بين ذلك كثيرا . وقد جاء المغيرة هذا فاستأذن — ذات يوم — على محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين ، فقال له : أخبر الناس أنى أعلم الغيب وأنا أطعمك العراق . فزجره الإمام زجرا شديدا وأسمعه ما كره ، فانصرف عنه . فأتى أبا هاشم رحمه الله فقال له مثل ذلك ، وكان أبو هاشم قويا فوثب عليه فضربه ضربا شديدا أشفى به على الموت . فلما برئ أتى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، وكان محمد رجلا سكيتا فقال له كما قال لمن قبله . فسكت محمد فلم يجبه ، فطمع فيه بسكوته فخرج عنه وهو يقول أشهد أن هذا هو المهدى المنتظر ، وأنه قائم أهل البيت . ثم قدم المغيرة هذا الكوفة — وكان مشعبذا (١) — فدعى الناس إلى قوله الذى كان يغلو به فى علىّ ونبيّه فاتبعه خلق كثير . وقد مضى يدعى على محمد بن عبد الله الحسنى أنه أذن له فى خنق الناس وسقيهم السموم ؛ ثم بث أصحابه فى الأسفار يفعلون ذلك بالناس . فقال له بعض أصحابه : إنا نخنق من لا نعرفه . فقال لهم : لا تهتموا بذلك ، فإن الذى تخنقونه إن كان من أصحابكم عجلتموه إلى الجنة ، وإن كان من عدوكم عجلتموه إلى النار . ثم تفاقم أمر الغلاة بعد المغيرة هذا فأمعنوا فى الغلو حتى ادعوا حلول الذات الإلٰهية المقدسة فى قوم من سلالة أمير المؤمنين عليه السلام ، وقالوا بالتناسخ ، وحجروا البعث والنشور وأسقطوا الثواب والعقاب . وقال قوم منهم : إن

(١) الشعبذة : التدليس والتحايل لترويج مذهب باطل أو الظفر بمال حرام .

الثواب والعقاب إنما هو ملاذ هذه الدنيا ومشاقها . ثم تولدت من هذه المذاهب القديمة التى قال بها سلفهم مذاهب أفحش منها قال بها خلفهم ، حتى صاروا إلى المقالة المعروفة بالنصيرية ، وهى التى أحدثها محمد بن نصير النميرى الذى كان من أصحاب الحسن العسكرى .

ومن العجيب أن صاحب الزنج ، هذا الفوضوى الذى استغل الحاقدين من أهل الطبقة الدنيا فى حرب الإسلام وتعذيب المسلمين وغيرهم من رعايا الدولة العربية الإسلامية ، كان يزعم للناس كذبا أنه علوى ، وأنه هو علىّ بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه .

وأعجب من ذلك أن أتباعه كانوا من الزنوج الذين يكسحون السباخ بالبصرة ، ولذلك اتفق النسابون على أنه لا صلة له بالبيت النبوى الكريم . ومن أدلتهم على ذلك أنه كان ينادى فى عسكره على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من أشراف قريش ، فتباع الجارية فيهم بدرهمين . وينادى عليها بنسبها فيقال : هذه ابنة فلان ابن فلان ، وكان كل زنجى منهم يستولى على العشرين والثلاثين يخدمن النساء الزنجيات . وما زالت هذه المحنة مستعرة النار حتى تداركت الأمة الإسلامية رحمة الله ، فركدت ريح الفتنة بما أجرى الله تعالى من الخير على يد الخليفة العباس أحمد المعتضد بالله الذى دخل إلى بغداد فى جيش كثيف ورأس صاحب الزنج بين يديه ، والله تعالى بالمؤمنين رءوف رحيم .

علىّ سيد العلماء بشئون الاجتماع

إن الذى أكرمه الله تعالى بشرف النسب وكرم البيئة ، ويسر له سبيل القدوة بآبائه وأجداده فى حرصهم على لزوم معالى الأمور والنفور من سفسافها، لا جرم أنه ينشأ نشأة صالحة تأخذ بيده دائما إلى معالم الهدى وتنأى به عن متاهات الضلال .. فإذا نظر أصاب الحق وإذا فكر استخرج أصدق النتائج من أصح المقدمات . ثم إذا انضم إلى هذه الفضائل فى إنسان فضيلة الفضائل بتأديب رسول الله إياه وعنايته بأمره ، فلا جرم أن يكون هذا الإنسان سيد العلماء بشئون الاجتماع .

وكذلك كان الإمام علىّ بن أبى طالب — كرّم الله وجهه — فى كل ماكان يصدر عنه من قول أو فعل ، وكذلك تراه فى أقضيته التى قضاها وفتاواه التى أصدرها وخطبه التى دونها له الثقات .

وإليك ما يشير إلى هذا الذى ذكرنا لك ، فى كلمته التى أجاب بها سائله عن أحاديث البدع وعما فى أيدى الناس من حكم وأحكام ، فذلك حيث قال كرّم الله وجهه :

« إن فى أيدى الناس حقا وباطلا ، وصدقا وكذبا ، وناسخا ومنسوخا ، وعاما وخاصا ، ومحكما ومتشابها ، وحفظا ووهما » .

ولقد كُذِب على رسول الله ﷺ حتى قام خطيبا فقال : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

وإنما أتاك بالحديث أربعةُ رجال ليس لهم خامس :

أحدهم ، رجل منافق مظهر للإيمان متصنع بالإسلام لا يتأثم ولا يتحرج ، يكذب على رسول الله ﷺ متعمدا . فلو علم الناس بأنه منافق

كاذب لم يقبلوا منه ولم يصدقوا قوله ، ولكنهم قالوا صاحب رسول الله ﷺ وقد رآه وسمع منه ولقف عنه فلا يجلبون مندوحة عن الأخذ بقوله . وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبر ، ووصفهم بما وصف ، ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان فولوهم الأعمال ، وجعلوهم حكاما على رقاب الناس ، فأكلوا بهم الدنيا . وإنما الناس مع الملوك ومع الدنيا إلا من عصم الله . فهذا أحد الأربعة .

وثانيهم ، رجل سمع من رسول الله شيئا لم يحفظه على وجهه فوهم فيه ولم يتعمد كذبا ، فهو فى يديه يرويه ويعمل به ويقول أنا سمعته من رسول الله ﷺ . فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه ، ولو علم هو أنه كذلك لرفضه .

وثالثهم ، رجل سمع من رسول الله ﷺ شيئا أمر به ، ثم نهى عنه وهو لا يعلم ، أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم ، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ ، فلو علم أنه منسوخ لرفضه ، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه .

ورابعهم ، رجل لم يكذب على الله ولا على رسوله ، مبغض للكذب خوفا من الله وتعظيما لرسول الله ﷺ ، وقد حفظ ما سمع على وجهه فجاء به على سمعه لم يزد فيه ولم ينقص منه ، فهو حفظ الناسخ فعمل به وحفظ المنسوخ فجنب عنه ، وعرف الخاصة والعامة والمحكم والمتشابه فوضع كل شيء موضعه .

وقد كان يكون من رسول الله ﷺ الكلام له وجهان : فكلام خاص ، وكلام عام فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله سبحانه به ولا ما عنى رسول الله ﷺ ، فيحمله السامع ويوجهه على غير معرفة بمعناه وما قصد به وما خرج من أجله . وليس كل أصحاب رسول الله ﷺ من كان يسأله ويستفهمه ،

حتى إنهم كانوا يحبون أن يجيء الأعرابى والطارئ فيسأله ﷺ حتى يسمعوا .

ثم مضى الإمام كرَّم الله وجهه يقول : كان لا يمر بى من ذلك شيء إلا سألته عنه وحفظته ، فهذه وجوه ما عليه الناس فى اختلافهم وعللهم فى رواياتهم .

وأنت لا تشك بعد أن تقرأ هذه الكلمات للإمام كرَّم الله وجهه ، فى أنك تستمع إلى عالم أزهرى متخصص فى أصول الفقه وهو يلقى درسه على طلاب القسم العالى فى الجامع الأزهر الشريف . ذلك أنك لا ترى أسلوبا إنشائيا ولكنك ترى أسلوبا علميا لم يعهده الناس إلا من الذين يحرصون على تنقيح القول وتهذيب الكلام .

وقد علق شارح النهج على هذه الخطبة بما نؤثر أن نتحرى تدوينه فى هذا الفصل بلفظه أو بأقرب الألفاظ إلى لفظه ، فنقول ومن الله نستمد المعونة والتوفيق :

قال الشيخ العلامة أبو حامد عز الدين : فى هذه الخطبة ألفاظ أصولية هى العام والخاص ، والناسخ والمنسوخ ، والصدق والكذب ، والمحكم والمتشابه . وهذه الكلمات يسأل عنها ويؤخذ جوابها من أصول الفقه . ولكن الإمام فى هذه الكلمات كان يلتزم طريقة التعليم القائمة على التفصيل وتحديد معانى الكلمات . فذلك هو الفرق بينه — كرَّم الله وجهه — وبين الذين يتشدقون بالكلام فيؤثرون حسن الأحدوثة عنهم ، ويحرصون عليها أكثر مما يحرصون على نفع المريدين من طلاب العلم ، الذين كانوا أحوج إلى التحديد والتوضيح منهم إلى التشادق والتفاصح .

وهنا كلمات تحتاج إلى مزيد عناية بها وطول تأمل فيها ، فلا مندوحة عن الوقوف حيالها وقفات تقوم بقضاء الحق لها وتمهد السبيل إلى أعظم الانتفاع بها . والله الهادى إلى سواء السبيل :

وأولى هذه الكلمات ، كلمة وهْم — بسكون الهاء — لأنها مصدر للفعل

وهم على مثال وعد ، فكما تقول وعد يعد وعدا ، تقول وهم يهم وهما ، تعنى أنه تخيل الشيء دون أن يحققه . ويجيء الفعل على صورة أخرى فيقول العربى وَهِمَ فلان على مثال فرح يعنى أنه غلط ، وربما قال العربى لقد وهمت فى صلاتى يعنى أنه سها فيها . فالفعل فى هذه الحال على مثال فرح . فكما تقول فرح يفرح فرحا وغلط يغلط غلطا . تقول وهم يوهم وهما تعنى أنه غلط وسها.

وثانية الكلمات ، « تأثَّم وتحرَّج » فإن هذا الفعل وما يشتق منه يشير إلى الكف عن موجب الإثم . فالعربى يقول فلان يتأثم يعنى يترك موجبات الإثم .

وثالثة هذه الكلمات كلمة « جنب عنه » بمعنى الانصراف عن الشيء وكلمة « لَقِف عنه » بمعنى تناوله بسرعة .

ومن تلكم الكلمات كلمة رسول الله ﷺ : (فليتبوأ مقعده من النار) فإنها أمر بمعنى الخبر . والمعنى فى الحديث الشريف أن من كذب على رسول الله ﷺ فإنه ينزل منزلا من النار يوم القيامة ، وليس يرتاب الذين يعرفون أخلاق الإمام وينابيع علمه فى أن هذا التقسيم الذى ذكره تقسيم صحيح .

وقد مضى أبو حامد يقول : قد كان فى أيام رسول الله ﷺ منافقون بقوا بعده ، فليس يمكن أن يقال إن النفاق مات بموته ﷺ . فإن شئت أن تعرف السبب فى استتار حالهم بعده ﷺ ، فاعلم — علمك الله الخير — أن النبى كان لا يزال يذكرهم بما ينزل عليه فى شأنهم من القرآن الكريم ، فكان السبب فى انتشار ذكرهم وأحوالهم وحركاتهم هو القرآن العظيم . فلما انقطع الوحى بموت رسول الله لم يبق من ينعى عليهم سقطاتهم ويوبخهم على أعمالهم ويأمر بالحذر منهم ويجاهرهم تارة ويجاملهم تارة ، فلما صار الأمر إلى خليفة رسول الله كان يحمل الناس كلهم على كاهل المجاملة ويعاملهم بالظاهر ، وذلك هو الواجب فى حكم الشريعة والسياسة الدنيوية ، بخلاف حال الرسول ﷺ ، فإن تكليفه معهم كان على غير هذا التكليف ، لأنك ترى أن الله تعالى يقول

لرسوله : ﴿ ولا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾(١)فهذا يدل على أنه كان يعرفهم بأعيانهم ، وإلا كان النهى له عن الصلاة عليهم تكليف ما لا يطاق . وعلى غير هذه الطريقة كان الوالى بعده ، فلم يكن يعرفهم بأعيانهم ، ثم هو لم يكن مخاطبا بما خوطب به رسول الله فى أمرهم.

ولسكوت الخلفاء عنهم بعده خمل ذكرهم ، فكان قصارى أمر المنافق أن يسر ما فى قلبه ويعامل المسلمين بظاهره ويعاملونه هم بحسب ذلك . ثم فتحت عليهم البلاد وكثرت الغنائم فاشتغلوا بها عن الحركات التى كانوا يعتملونها أيام رسول الله ﷺ . ثم بعثهم الخلفاء مع الأمراء إلى بلاد فارس والروم فلهتهم الدنيا عن الأمور التى كانت تنقم منهم فى حياة رسول الله ﷺ .

ومنهم من استقام اعتقاده وخلصت نيته لما رأوا الفتوح وإلقاء الدنيا إليهم بأفلاذ كبدها من الأموال العظيمة والكنوز الجليلة ، فقالوا : لو لم يكن هذا الدين حقا لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه . وجملة القول فيهم أنهم لما تُركوا تَركوا ، وحيث سُكت عنهم سَكتوا عن الإسلام وأهله إلا فى دسيسة خفية يعملونها ، من مثل الكذب على رسول الله الذى أشار إليه الإمام — كرَّم الله وجهه — فإنه خالط الحديث كذب كثير صدر عن قوم ضلت عقيدتهم . وقد كان هؤلاء الضالون يذكرون قوما كان لهم فى التنويه بذكرهم غرض دنيوى ، حتى إن الثقات ليتحدثون بأنه افتعل فى أيام معاوية حديث كثير . ولم يسكت المحدثون الراسخون فى علم الحديث عن هذا بل ذكروا كثيرا من هذه الأحاديث الموضوعة ، وبينوا وصفها وأن رواتها غير موثوق بهم . إلا أن المحدثين إنما يطعنون فيما دون طبقة الصحابة ، ولا يتجاسرون فى الطعن على أحد من الصحابة لأن عليه لفظ الصحبة .

---

(١) التوبة ٨٤

على أنهم قد طعنوا فى قوم لهم صحبة من أمثال بشر بن أرطأة وغيره . فإذا سأل سائل : من هم أئمة الضلالة الذين يتقرب إليهم المنافقون ، وهل هذا إلا تصريح بما تذكره الشيعة الإمامية وتعتقده ؟ فإن الذى يجيب عن سؤالك هذا يقول لك إن الإمام — كرَّم الله وجهه — إنما يعنى بكلماته فى هذه الخطبة معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ومن شايعهما على مذهبهما ، كالخبر الذى رواه من رواه فى حق معاوية من كلمة النبى فى شأنه : اللهم قه العذاب والحساب وعلمه الكتاب . وكذلك رواية عمرو بن العاص يتقرب بها إلى قلب معاوية فيقول : إن آل أبى طالب ليسوا لى بأولياء ، إنما وليى الله وصالحو المؤمنين . وكذلك رواية قوم فى أيام معاوية أخبارا كثيرة من فضائل عثمان تقربا إلى معاوية بها .

ولسنا نجحد فضل عثمان وسابقته ، ولكنا نعلم أن بعض الأخبار الواردة فيه أخبار موضوعة . وليس يغض من قدر الفاضل أو يحط من منزلته الرفيعة أن تكون الأخبار الواردة فى فضله مفتعلة مختلقة . فإنا — مع اعتقادنا بأن عليًّا أفضل الناس — نعتقد أن بعض الأخبار الواردة فى فضائله مفتعلة مختلقة على ما يذكر ذلك أبو جعفر محمد بن علىّ الباقر ، فيقول لبعض أصحابه : لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى وقد أخبر أننا — آل البيت — أولى الناس بالناس . فتمالأت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معدنه وهى تحتج على الأنصار بحقنا ، ثم تداولته قريش واحدا بعد واحد حتى رجع إلينا فنكثت بيعتنا ونصبت الحرب لنا . ولم يزل صاحب الأمر فى صعود حتى قُتل ، فبايع الناس ابنه الحسن وعاهدوه ثم غدروا به وأسلموه ، ووثبوا عليه حتى طعنوه بخنجر فى جنبه ونهبوا عسكره ، وعالجوا خلاخيل أمهات أولاده فلم يجد بدا من موادعة معاوية حقنا لدمه ودماء أهل بيته وهم قليل حق قليل . ثم بايعوا الحسين من بعده فغدروا به وخرجوا عليه وقتلوه . ثم لم نزل — نحن أهل

البيت — نستذل ونستضام ونقصى ونمتهن ونحرم ونقتل ونخاف ، لا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا . وقد وجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعا يتقربون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال السوء فى كل بلد ، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة راوين عنا مالم نقله ومالم نفعله ، ليبغضونا إلى الناس . وكان أعظم ذلك وأكثره وآكده أيام معاوية بعد موت الحسن ، فقُتل شيعتنا بكل بلد ، وقُطعت أيديهم وأرجلهم على الظِنة ، وكان من يعرف عنه أنه يحبنا يسجن أو ينهب ماله أو تهدم داره . ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام .

ثم جاء الحجاج بن يوسف الثقفى فقتلهم كل قتلة ، وأخذهم بكل تهمة وظنة ، حتى إن الرجل ليؤثر أن يوصف بالكفر أو الزندقة على أن يوصف بأنه من شيعة علىّ . وربما رأيت الرجل الصدوق الورع يحدث بأحاديث عظيمة عجيبة من تفضيل بعض من قد سلف من الولاة وهو يحسب أنها حق مع أنها الباطل نفسه ، ولكنه يحسبها حقا لكثرة من رواها ممن لم يعرف بكذب ولا بقلة ورع . ولذلك أكثروا فى الرواية عن فضائل وسوابق ومناقب أعداء علىّ ، مع الغض من علىّ وعيبه والطعن فيه والشنآن له ، حتى إن إنسانا وقف للحجاج فصاح به : أيها الأمير إن أهلى عقونى فسمونى عليًّا ، وإنى فقير بائس وإلى صلة الأمير محتاج . فتضاحك له الحجاج قائلا له : للطف ما توسلت به ولَّيتك . وكذلك روى ابن عرفة المعروف بنفطويه أن أكثر الأحاديث الموضوعة فى فضائل الصحابة إنما افتعلت فى أيام بنى أمية ، تقربا إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بنى هاشم . والدليل على أن هناك أحاديث موضوعة مطعونا فى نسبها إلى رسول الله ، خبر رواه ابن عمر عن رسول الله وفيه يقول ﷺ : (إن الميت يُعذَّب ببكاء أهله عليه) .

ووجه الخطأ فى نسبه هذا الحديث إلى رسول الله بيّنه ابن عباس لما روى له

فقال : لقد ذهل ابن عمر . إنما مر رسول الله ﷺ على قبر مشرك فقال : إن أهل المدفون فى هذا القبر ليبكون عليه وإنه ليعذب بجرمه . وكذلك خبر قليب بدر وقد روى فيه الرواة أن النبى ﷺ وقف على قليب بدر فقال : (هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقا) ؟ ثم قال : (إنهم يسمعون ماأقول لهم) . فلما بلغ الحديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أنكرته وقالت : « إنما قال رسول الله إنهم يعلمون أن الذى كنت أقوله لهم هو الحق » . ثم استشهدت رضى الله عنها الآية الشريفة ﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾(١) .

وأما الصنف الثالث الذى سمع المنسوخ ولم يسمع الناسخ فقد وقع كثيرا . وكتب الحديث مشحونة بذلك ، كالذين أباحوا لحوم الحمر الأهلية لخبر رووه فى ذلك دون أن يرووا الخبر الناسخ . قال الشيخ العلامة أبو حامد : اعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام ، كان مخصوصا من دون الصحابة رضوان الله عليهم بخلوات مع رسول الله ﷺ لا يطلع أحد من الناس على مايدور فيها . وكان هو كثير السؤال لرسول الله عن معانى القرآن وعن معانى كلامه ، فإذا لم يسأل رسول الله بدأه ﷺ بالتعليم والتثقيف . ولم يكن أحد من أصحاب النبى كذلك بل كانوا أقساما : قسم يهاب أن يسأله ، وهم الذين كانوا يُحبون أن يجىء الأعرابى أو الطارئ فيسأله وهم يسمعون . والقسم الثانى كان بعيد الفهم قليل الهمة فى النظر والبحث . والقسم الثالث كان مشغولا عن طلب العلم إما بالعبادة وإما بالدنيا . والقسم الرابع هم المقلدون الذين يرون فرضهم السكوت وترك السؤال .

فهذه هى الأقسام الأربعة التى أشار إليها الإمام فى خطبته التى رويناها لك

---

(١) الروم ٥٢

آنفا ، وقد بقى قسم خامس وهم مبغضوه وشانئوه الذين ليس للدين عندهم من الموقع ماينفقون وقتهم وزمانهم بالسؤال عن دقائق العلم وغوامض المعرفة . ولا يشغلنك هذا التقسيم بما اشتمل عليه من غوامض عن حقيقة لا بد أن تتمثلها لتستعين بها مزيداً من الإلمام بشرف الإمام عليّ وفضائله . وخلاصة هذه الحقيقة أنه كرَّم الله وجهه كان له ذكاؤه وفطنته ، وطهارة طينته وإشراقة نفسه . وإذا كان المحل قابلا متهيئا وكان الفاعل المؤثر موجودا والمانع منتفيا ، حصل الأثر على أتم مايمكن ويكون . فلذلك كان عليّ — كما قال الحسن البصرى — ربانى هذه الأمة ، ولهذا تسميه الفلاسفة « إمام الأئمة » وحكيم العرب .

وقد مضى ابن أبى الحديد — مع أنه شيعى — يقول :

اعلم — رحمك الله — أن أصل الأكاذيب فى أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة ، فإنهم وضعوا فى مبدأ الأمر أحاديث مختلقة حملهم على وضعها عداوة خصومهم . فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة ، وضعت لصاحبها أحاديث فى مقابلة أحاديث الشيعة لصاحبهم عليّ عليه السلام . وذلك نحو الحديث الذى يقول : (لو كنت متخذا خليلا ، لاتخذت أبا بكر) . فقد وضعت الشيعة فى مقابلة هذا الحديث حديث الإخاء الذى قال فيه رسول الله لعليّ : (أنت أخى فى الدنيا والآخرة) . وعلى قدر ماذكر الشيعة فى صاحبهم عليّ من الفضائل ذكر البكرية مطاعن كثيرة فى عليّ وفى ولديه — فنسبوه تارة إلى ضعف العقل ، وتارة إلى ضعف السياسة ، وتارة إلى حب الدنيا والحرص عليها . ولقد كان الفريقان فى غنية عما اكتسباه واجترحاه ، إذ كان فى فضائل عليّ الثابتة الصحيحة ، وفضائل أبى بكر المحققة المعلومة ،

ما يغنى عن تكلف العصبية لهما . فوق أن هذه العصبية أخرجت الفريقين من ذكر الفضائل إلى ذكر الرذائل ، ومن تعديد المحاسن إلى تعديد المساوىء والمقابح . والله المسئول أن يعصمنا من الميل إلى الهوى وحب العصبية ، وأن يجرينا على ما عودنا من حب الحق أينما وجد وحيثما كان ، سخط ذلك من سخطه ورضيه من رضيه . والله يحب المحسنين .

سؤال يبحث جاهداً عن جواب

كان الإمامُ كرَّم الله وجهه يقيس الأشياء إلى نظائرها ، ثم يستنتج نتائج لا تستجيب إلا لإنسان سوى الفطرة بعيد النظرة طويل التجربة لا يتحكم هواه فى عقله ، فإذا هو على ذلك إنما ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق . وقد كان كرَّم الله وجهه كثيرا ما يتحدث إلى أصحابه بهذه العجائب ، بل كان ربما قال لهم : « سلونى قبل أن تفقدونى » . فإذا سألوه أنبأهم بما كان رسول الله ﷺ قد أخبره به صادقا مصدوقا . وقد كان يضيف إلى ذلك ما تهديه إليه فطرته ويدله عليه فكره سليماً من العلل والآفات ، فلا يملك الناس أمام ذلك إلا أن يرفعوه فوق منازل البشر ، وربما وصفوه بصفة من صفات الله ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً ﴾(١) .

ولسنا نسوق إليك رحمك الله هذه الكلمات من عند أنفسنا ، بل نرويها لك عما دونه الرضى من خطبته التى يقول فيها كرَّم الله وجهه :

« أما بعد حمد الله والثناء عليه .. أيها الناس — فإنى قد فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجترئ عليها غيرى ، بعد أن ماج غيهبها واشتد كلبها ، فاسألونى قبل أن تفقدونى ، فوالذى نفسى بيده لا تسألونى عن شيء إلا أنبأتكم به » .

وهنا يرد ذهنك السؤال ، لماذا غلا الناس فى أمير المؤمنين كرَّم الله وجهه ، فادعوا فيه الإلـٰهية لإخباره عن الغيوب التى شاهدوا صدقها عيانا ، مع أنهم لم يغلوا فى رسول الله ﷺ فيدعوا له الإلـٰهية ، فى حين أن الغيوب الصادقة قد سمعوها منه وعلموها علم اليقين ، ورسول الله كان أولى بذلك من على ، لأنه الأصل المتبوع ، ومعجزاته أعظم ، وأخباره عن الغيوب أكثر ؟.

---

(١) الإسراء ٤٣

وجواب سؤالك هذا — على ما ذكر الثقات — هو أن الذين صحبوا رسول الله ﷺ وشاهدوا معجزاته وسمعوا أخباره عن الغيوب الصادقة عيانا ، كانوا أسد آراء وأعظم أحلاما وأوفر عقولا من تلك الطائفة الضعيفة العقول ، السخيفة الأحلام ، الذين رأوا الإمام فى آخر أيامه ، كعبد الله بن سبأ وأصحابه فإنهم كانوا من ركاكة البصائر على حال مشهورة ، فلاعجب من مثلهم أن تستخفهم الغرائب غير المألوفة فيعتقدوا فى صاحبها أن الجوهر الأعلى قد حل فيه ، لأنه لا يصح من البشر هذا الذى سمعوه ورأوه إلا فى إطار إيمانهم بنظرية الحلول . وربما كان من هؤلاء من سمع من أبيه وسلفه نظرية الحلول فى أنبيائهم ورؤسائهم فاعتقدوا فى الإمام مثل ذلك الذى ألفوه من قبل . على أنه يجوز أن يكون أصل هذه المقالة من قوم ملحدين أرادوا إدخال الإلحاد فى الإسلام فذهبوا إلى تلك المقالة توطئة لما يريدون . ولو قد كان هؤلاء فى أيام رسول الله ﷺ لقالوا فيه مثل هذه المقالة إضلالا لأهل الإسلام ، وقصدوا لإيقاع الشبهة فى قلوب المسلمين . غير أنه لم يكن فى الصحابة مثل هؤلاء ولكن كان فيهم منافقون لم يهتدوا إلى هذه الفتنة ، ولا خطر لهم مثل هذه المكيدة . وإنى لأعتقد أن الفرق بين هؤلاء القوم وبين العرب الذين عاصروا رسول الله ﷺ ، يتجلى على غاية الوضوح فى أن أولئك الملاحدة كانوا من ساكنى الكوفة . وطينة هؤلاء وأمثالهم مازالت تنبت أرباب الأهواء وأصحاب النحل العجيبة والمذاهب البديعة . وأهل تلك الأقاليم التى عاش فيها الإمام هم أهل بصر وتدقيق ونظر وبحث عن الآراء والعقائد وعن شُبَه معترضة فى المذاهب . وقد كان منهم فى أيام الأكاسرة مثل ماكان فى مزدك وغيره من أهل الفلسفة والزندقة والإلحاد .

ولكن طينة أهل الحجاز ليست من تلك الطينة ، ولا أذهانهم من فصيلة تلك الأذهان ، إذ الغالب على أهل الحجاز الجفاء وخشونة الطبع . والذين

سكنوا المدن منهم كأهل مكة والمدينة والطائف كانت طباعهم قريبة من طباع أهل البادية بحكم المجاورة والتقارب ، فلم يكن فيهم من قبل حكيم ولا فيلسوف ، ولا صاحب نظر وجدال ، ولا موقع شبهة ، ولا متبوع نحلة ، ولهذا نجد مقالة الغلاة طارئة ناشئة من حيث سكن الإمام كرَّم الله وجهه بالكوفة وما حواليها ، ولم تكن هذه المقالة فى أيام مقامه بالمدينة وهى أكثر عمره ،فهذا الفرق — فيما ذكر الثقة — هو الخليق بالاعتبار .

الحب بين الفكر والعاطفة

إن حب الناس إنسانا لا يخلو من أن يكون ناشئا عن الانتفاع به فى شأن من شئون الدين . وربما أحبوا إنسانا حبا ناشئا عن الرثاء له والإشفاق عليه ، ومبلغ علمنا أن الحب نوعان .. حب التقدير والاحترام ، وحب الرثاء والإشفاق .

فأما حب الناس أمير المؤمنين حب تقدير واحترام ، فمرده إلى انتفاع الناس به فى شئون الدنيا وشئون الدين . وآية ذلك وبرهانه ما أسلفناه لك من سيرته الشريفة فى تمام مروءته وكمال زهادته ، وبعد نظره فى شئون السياسة وصواب فقهه بأمور الدين ، إلى شجاعة فائقة لا تهاب الموت فى ابتغائها شرف الحياة ، مع بذل للمال وسماحة فى العطاء لم يسبقه إليه أحد إلا ابن عمه محمد رسول الله الذى كان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، والذى لم يكن يخشى إلا الله وحده لا شريك له .

وأما حب الناس له كرَّم الله وجهه حب إشفاق ورثاء ، فقد أشار إليه نقيب الطالبيين ، غير أن هذه الإشارة جاءت مجملة لا تستغنى عن تفصيل يوضح إجمالها فى غير إطناب ممل ولا إيجاز مخل ، فذلك هو قضاء الحق لأمير المستحقين المحرومين كرَّم الله وجهه .

إن حبك إنسانا رثاء له وإشفاقا عليه لا يقل فى باب الدعوة ولا يعدله إلا حبك إياه حبا يعود عليك بخيرى دنياك وأخراك . ولعل حب الرثاء أدنى إلى المشاركة الإنسانية الشريفة من حب المنفعة وابتغاء الفائدة . وما أصدق ما قال الشاعر :

يرثى له الشامت مما به ياويح من يرثى له الشامت

فإذا بلغ الأمر بالإنسان أن يرحمه عدوّه ويرثى له الشامت به ، فإن حب الناس إياه على هذه الصورة أمر لا يختلف فيه من توافر لهم حظ من الإنسانية قل أو كثر .

ولكى تتمثل ما أنزله أهل الجحود بآل البيت النبوى الكريم مما تنوء به شم الجبال ، نروى لك شيئا تستدل به ، والقليل يدل على الكثير والنماذج تعلن عن الحقائق ، فنقول وبالله المستعان :

إن أول ما يدعو إلى العبرة فى حديث أبى طالب وبنيه وحفدته أن تتمثلهم موضع اضطهاد وقتل وتشريد ، فإذا هم بين مقتول ومفقود قد بلغ عددهم فيما أحصاه الثقات مائتين واثنين وعشرين بطلا من أبطال التاريخ ، كان أكثرهم يسعى إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل ودعم قواعد العدل ورفع رايات السلام بين العالمين .

ولست ترتاب فى أن جملة هؤلاء الأبطال المجاهدين من شأنها أن تجمع القلوب حول الإمام علىّ كرّم الله وجهه ، جمعا يتألف من الاعتزاز بعلمه ودينه ، كما يقوم على الرثاء له والإشفاق عليه وتمثله — رضى الله عنه — بين هم مقعد مقيم ، كلما ذكر أخا له أو ابنا أو حفيدا ، ثم ذكر أن الضُّرَّ مسَّ هؤلاء جميعا فألقى بهم أو بكثير منهم إلى ظلمات القبور أو إلى ذل الحياة يكابدون لأواءها ويقاسون بلاءها ، وهم السادة الذين لا يرقى إلى منازلهم الذين جحدوا فضلهم وتنكروا لشرفهم ثم ساموهم الخسف المبين والعذاب المهين .

ومما يأكل القلب حرقة وألما أنك ترى الذين نكلوا بهؤلاء الأبطال لم يكونوا من المشركين ولا من أهل الكتاب ، ولكنهم كانوا من أبناء عمومتهم الأبعدين بنى أمية ، والأقربين بنى العباس . فكانوا شركاءهم فى العرق والعقيدة .

وأول ما يرويه الثقة من ذلك عن الإمام الحسن بن عليّ رضى الله عنهما من طريق ابن سيرين قال : إن الحسن دخل المخرج ثم خرج فقال لأخيه الحسين : لقد سقيت السم مرارا فما سقيته مثل هذه المرة ، ولقد لفظت قطعة من كبدى فجعلت أقلبها بعود معى .. فقال له الحسين : من سقاكه يا أخى ؟ فقال : أتريد أن تقتله ؟ إن يكن هو هو ، فالله أشد نقمة منك ، وإن لم يكن هو فما أحب أن يؤخذ بى برىء . ثم مات رضى الله عنه ودفن فى البقيع فى جنب فاطمة الزهراء ، وقد كان أوصى أن يدفن مع رسول الله فمنعه مروان بن الحكم من ذلك .

وثانية البليتين مقتل الحسين بن على رضى الله عنهما يوم الجمعة لعشر خلون من المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة . ولو أن أمر البلية بمقتله وقف عند القتل وحده لقال الناس رجل خرج يثأر لأبيه وأخيه فقتله أهل البغى والإجرام ، فكانت المصيبة بذلك أدنى إلى العزاء عنها والتجمل فيها . ولكن الذى يضاعف من وقعها على النفوس ويساير نكرها فى التاريخ ما تتخاشع به أبصار وتتخاضع له أعناق ، هو أن يفقد قاتلوه شرف المروءة وكرم الدين فينبشوا قبره .. وقد كان من أخلاق الأشراف ألّا يتبعوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح .

لقد فعل بنو العباس ذلك حتى قال شاعر عربى :

تالله إن كانت أميـــة قد أتت قتل ابـن بنت نبيـه مظلومـا
فلقد أتى ابن بنى أبيـه بمثلـه هذا لعمـرك قبره مهدومـا
أسفوا على ألا يكونوا شاركوا فى قتلـه فتتبعـوه رميمـا

ثم لو أن قتل الحسن بالسم والحسين بالسيف لم يكن خالطه هذا الصغار من محاربة القتلى فى قبورهم ، وقتل الذين لا حول لهم ولا حيلة من أصحاب الحسين ، لكان لذلك التصرف وجه يحتمل الحديث . ولكن فقدان المروءة وهوان

الدين جعلهم يحاربون الحسن ميتا وينبشون قبر الحسين دفينا ، ثم يجمعون إلى هاتين الرذيلتين رذيلة ثالثة تأباها العروبة ويرفضها الإسلام ، وهى أن يقتل غير المقاتلة من نساء ورجال . فقد روى الثقات عن الإمام عليّ زين العابدين ابن الإمام الحسين أنه كان دائم الحزن شديد البكاء ، وذات يوم قال له قائل : إنك شديد الحزن كثير البكاء فهلا هونت على نفسك ؟ فقال رضى الله عنه : إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف . ولم يكن علم أنه قد مات . ولقد رأيت أنا بضعة عشر من أهل بيتى يذبحون فى غداة يوم واحد . أفترى حزنهم يذهب من قلبى ؟

هذا بعض ما يتعلق بالذين استشهدوا من آل البيت النبوى الشريف . وأما ما يتعلق بالذين اختفوا فى البيوت أو شردوا فى الآفاق خشية ظلم بنى العباس ، فإليك ما يشير إلى ذلك دون استيعاب أو إطناب :

وأوْلى ما يؤثر من ذلك عن القاضى التنوخى ، هو أن الشاعر المتصوف أبا العتاهية قال : لما امتنعت من قول الشعر وتركته ، أمر المهدى بحبسى فى السجن مع المجرمين ، فأخرجنى من بين يديه إلى الحبس . فلما دخلته استوحشت ودهشت وطار عقلى لأنى رأيت منظرا هائلا ، ثم رميت بطرفى أطلب موضعا آوى إليه أو رجلا آنس بمجالسته ، فإذا أنا بكهل حسن السمت نظيف الثياب تبدو عليه سيما الخير فقصدته وجلست إليه من غير أن أسلم أو أسأله عن شىء من أمره ، لشدة ما كنت فيه من الجزع والحيرة . فمكثت على ذلك مليا وأنا مطرق مفكر فى حالى فإذا الرجل الكهل ينشد شعرا يقول فيه :

تعودت مس الضر حتى ألفتــه ... وأسلمنى حسن العزاء إلى الصبر
وصيرنى يأسى من النـاس واثقـــا ... بحسن صنيع الله من حيث لا أدرى
إذا أنـا لم أقنـع من الدهـر بالـذى ... تكرَّهت منه ، طال عتبى على الدهر

فلما فرغ الرجل من إنشاد الشعر استحسنت البيتين وثاب إلىّ عقلى ، وقد تفاءلت بهما فأقبلت على الرجل أقول له: تفضل — أعزك الله — فأعد على هذين البيتين . فتغير وجه الرجل ثم قال : ويحك يا هذا ! ما أسوأ أدبك وأقل عقلك وأضعف مروءتك ! لقد دخلت ولم تسلم تسليم المسلم على المسلم ، ولا توجعت لى توجع المبتلى للمبتلى ، ولم تسألنى سؤال الوارد على المقيم ، حتى إذا سمعت بيتين من الشعر لم يجعل الله فيك خيرا ولا أدبا ، ولا جعل لك معاشا إلا منه لم تتذكر ما سلف منك فتتلافاه ، ولا اعتذرت مما قدمت وفرطت فيه من الحق ، فرحت تستنشدنى مبتدءا كأن بيننا أنسا قديما أو صحبة تبسط المنقبض . فلم أملك إلا أن أقول له : اعذرنى متفضلا فإن دون ما أنا فيه يدهشنى . فسألنى : وفى أى شىء أنت ؟ إنما تركت قول الشعر الذى كان جاهك عند بنى العباس وسبيلك إليهم فحبسوك حتى تقوله ، وأنت لا بد أن تقوله فيطلقوك . وأما أنا فسيدعى بى الساعة إلى المهدى فأطالب بإحضار عيسى بن زيد بن رسول الله ﷺ ، فإن دللت عليه قتلوه فلقيت الله عز وجل بدمه وكان رسول الله ﷺ خصمى فيه ، وإن لم أدل عليه قتلونى ، فأنا أولى بالحيرة منك وأنت ترى احتسابى وصبرى . فقلت : يكفيك الله عز وجل . وأطرقت إلى الأرض خجلا منه فقال لى : لا أجمع عليك التوبيخ والحرمان . اسمع البيتين واحفظهما إن شئت . فأعادهما على مرارا حتى حفظتهما . ثم دعى به وبى إلى الحضرة ، فلما وقف بين يدى المهدى قال له : أين عيسى بن زيد ؟ قال الرجل : وما يدرينى أين عيسى بن زيد . لقد طلبته وأخفته فهرب منك فى البلاد فأخذتنى وحبستنى . فمن أين أقف على موضع هارب منك وأنا محبوس ؟.. فقال له المهدى : فأين كان متواريا ومتى كان آخر عهدك به وعند من لقيته ؟ فقال الرجل : ما لقيته منذ توارى ولا أعرف له خبرا . فقال المهدى : والله لتدلنى عليه أو لأضربن عنقك

الساعة . قال الرجل : اصنع ما بدا لك أفترانى أدلك على ابن رسول الله ﷺ لتقتله فألقى الله عز وجل ورسوله ﷺ يطالبنى بدمه ؟ والله لو كان عيسى بن زيد بين ثوبى وجلدى ما كشفت لك عنه . قال المهدى : اضربوا عنقه . ثم دعانى فقال : أتقول الشعر أو ألحقك به ؟ قلت : أقوله . قال : أطلقوه .

هذا ما يشير إلى الذين اختفوا عن أنظار بنى العباس خشية التنكيل بهم ، وأما الذين شردهم الخوف فى الآفاق فإليك حديث أحدهم وهو عبد الله الأشتر بن محمد بن عبد الله من آل علىّ كرّم الله وجهه . وخلاصة ما ذكره ثقات المؤرخين ما يرويه ابن مسعدة المؤدب فيقول : لما قتل محمد بن عبد الله ابن الحسن ، خرجنا بابنه الأشتر فأتينا الكوفة ثم انحدرنا إلى البصرة ثم خرجنا إلى السند ، فلما كان بيننا وبينها أيام نزلنا خان فكتب على جداره هذه الأبيات ، ثم وضع اسمه عليها وهى :

منخرق الخفين يشكو الوجى ... تنكبه أطراف مرو حداد
شرده الخوف وأزرى به ... كذاك من يكره حر الجلاد
قد كان فى الموت له راحة ... والموت حتم فى رقاب العباد

يقول راوى الخبر ابن مسعدة : ثم دخلنا المنصورة فلم نجد شيئا ، فدخلنا قندهار فأحللت الأشتر قلعة فيها لا يرومها رائم ولا يطير بها طائر . ولقد كان الأشتر — والله — أفرس من رأيت من عباد الله ، ما إخال الرمح فى يده إلا قلما ، فنزلنا بين ظهرانى قوم يتخلقون بأخلاق الجاهلية ، يطرد أحدهم الأرنب فتأتى عند صاحبه فيمنعها من الطلب ويعتبرها جارا تحتمى به .

ولقد حدثنى من أثق به أن رجلا جاء إلى أبى جعفر المنصور فقال له : لقد مررت بأرض السند فوجدت كتابة فى قلعة من قلاعها . وقرأ له الأبيات فقال له أبو جعفر : هو هو — يعنى الأشتر — ثم دعا هشام التغلبى فأخبره بأن الأشتر بأرض السند . ثم أصدر أبو جعفر أمره بتولية هشام هذا على السند ،

فشخص الرجل إليها فقتل الأشتر وقطع رأسه فبعث به إلى أبى جعفر .

وأما الذين استأثرت بهم السجون ثم قتلوا ، فإليك حديث شيخ من جلة شيوخهم .. عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ . وقد روى هذا الحديث الطبرى وابن الأثير وغيرهما من علماء التاريخ ، وفيه أن ثقة كان يحدث عن عبد الله بن الحسن فيقول : بعثنا أمير المدينة فكلم عبد الله بن الحسن فى أمر ابنيه : محمد وإبراهيم وقد كانا هاربين من أبى جعفر المنصور ، وأبو جعفر يصر على أن يستقدمهما أبوهما أو يخبره بمكانهما .

فلما دخل رسول أمير المدينة ، إذا عبد الله بن الحسن على حقيبة فى بيت فيه تبن ، فلما سئل عن ابنيه قال لمحدثه : « ياابن أخى والله إن بليتى لأعظم من بلية إبراهيم عليه السلام . ذلك أن الله عز وجل أمر إبراهيم أن يذبح ابنه إسماعيل وهو لله طاعة ، فقال إبراهيم : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾(١) . وإنكم جئتمونى اليوم تكلموننى فى أن آتى بابنىَّ .. أدفعهما لهذا الرجل أبى جعفر فيقتلهما ، وذلك معصية لله عز وجل ، ولقد كنت على فراشى لا يأتينى النوم ، وإنى على ما ترى لأطيب نوما .

وما زال عبد الله بن الحسن مصرا على الاحتفاظ بسر ولديه ، فأمروا به إلى السجن ثلاث سنين ثم ذبح كما تذبح الشاة .

وإذ قد بلغنا بك هذه الغاية من القول فى تفصيل الإجمال الذى قرره نقيب الطالبيين ، فإن من الحق أن نذكر الناسين بأن الإمام كرَّم الله وجهه يرجع حب الناس له إلى أمرين كلاهما يفضى بصاحبه إلى الغلو فيه ، إلا أن تتدارك عناية الله أهل الإسلام فتأخذ بأيديهم إلى القصد والاعتدال وتقديم أمر الله على أمر العاطفة التى تضرب بأهليها فى آفاق لا خير فيها لدنيا ولا لدين .

---

(١) الصافات ١٠٦

على أن هذه الألوان القبيحة من سوء السلوك مع علىّ وبنيه قد حملت على حبه كثيرا من غير المسلمين . ولئن كان حب غير المسلمين لعلىّ منقبة جليلة له وصورة إنسانية شريفة لمحبيه ، لقد دعا هذا السلوك المعيب الشعوبية إلى التطاول على بنى العباس تطاولا يأنف منه أهل المروءات حيثما كانوا ، فى حين أن الذين يحملون أوزارَ ما ترمى به الشعوبية بنى العباس إنما هم بنو العباس أنفسهم ، وفى ذروتهم أمراء المؤمنين فى أخبث رحلة مر بها تاريخ المسلمين . وإليك بعض ما قاله ابن الرومى فى صدد نبش قبر الحسين على صورة يحتقرها ذو المروءة ويغضب لها صاحب الدين . وقد روى هذا الشعر الأستاذ السيد أحمد صقر محقق كتاب مقاتل الطالبيّين .

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج ... طريقان شتى : مستقيم وأعوج
أكل أوان للنبــى محمـــد ... قتيــل زكــى بالدمــاء مضرج
تبيعون فيه الديــن شر أئمــة ... فللــه ديــن الله قد كان يمرج
أكلكمو أمسى اطمأن مهــاده ... بأن رسول الله فى القبر مزعــج
نظــار فإن الله طالب وتـــره ... ليالى لا ينفك منكــم متــوج
وإنى على الإسلام بعد لخائــف ... بوائق شتــى بابها الآن مرتــج

هذا ، ولئن كان ابن أبى الحديد — فى سؤاله نقيب الطالبيين عن سر حب الناس لعلىّ قد ظفر منه بشىء ، إنى لأعتقد أن عنوان هذا الفصل قد جمع لأمير المؤمنين كرَّم الله وجهه أسباب ذلك الحب فى أمرين ، يرجع أحدهما إلى المنطق الذى لا ينازع فيه أحرار العقول ، ويرجع الآخر إلى العاطفة التى لا يجحد قدرها من ظفر من شرف الإنسانية بنصيب .

عليّ .. لسان مبين لدعوة الإسلام

إن الدعوة التى بعث الله بها محمداً عبد الله ورسوله إلى العالمين ، تقوم — أول ما تقوم — على الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوا أحد . ثم يجيء بعد الدعوة إلى هذه العقيدة الدعوة إلى بقية الدعائم التى يقوم عليها الإسلام على ماذكر ذلك رسول الله ﷺ فقال: « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج إلى بيت الله الحرام » .

ففى هذا الحديث النبوى الشريف جعل رسول الله مثل الإسلام كمثل البيت من الشعر تجعله العرب على خمسة أعمدة ، أحدها أوسط والبقية أركان . فمادام العمود الأوسط قائما فالبيت موجود مهما سقط من الأركان . فإذا سقط العمود الأوسط سقط البيت وزال مسماه . وقد تلاحظ أن رسول الله ﷺ لم يذكر الجهاد فى هذا الحديث ، وذلك حق ، فإن الجهاد ليس ركنا من أركان الإسلام ولكنه حارس لبنائه ، فهو — بهذا الاعتبار — تستند إليه الأصول الخمسة استنادا أقوى وأوضح من استناد البناء إلى أصل من أصوله .

ولقد كان عليّ كرّم الله وجهه لسانا للدعوة الإسلامية مبينا ، على ما تشهد لذلك خطبه ونصائحه ومواعظه التى جمعها له مشكورا مقدورا الشاعر الأديب الشريف الرضى رحمه الله وأحسن جزاءه عن الإسلام والمسلمين .

وأنت حين تطالع هذا المأثور عنه ، تتجلى لك على غاية الوضوح فلسفته فى وصفه خالق الخلق ومكون الأكوان ، وكذلك تتجلى لك قدرته الفائقة على تبيان المعانى الدقيقة التى هى عند التحقيق سر التشريع .

ونبدأ من ذلك بما بدأ به رسول الله ﷺ في الحديث الشريف الذى جعل الإيمان بالله وجودا وتوحيدا وتنزيها عن مشابهة الحوادث ، أصلا فى بناء الإسلام . فذلك حيث قال كرَّم الله وجهه :

« كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة ، فاعل لا بمعنى الحركة والآلة ، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه ، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده . أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأه ابتداء ، بلا روية أجالها ، ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدثها ، ولا همامة نفس اضطرب فيها . أحال الأشياء لأوقاتها ، ولأم بين مختلفاتها ، وغرز غرائزها ، وألزمها أشباحها ، عالما بها قبل ابتدائها ، محيطا بحدودها وانتهائها ، عارفا بقرائنها وأحنائها » .

يقول كرَّم الله وجهه : إن الله تعالى موجود غير محدث ، فينفى بهذه الكلمة عن البارى تعالى الحدوث الزمانى وينفى عنه الحدوث الذاتى ، ثم يقرر أن الله تعالى مع كل شيء من غير مقارنة ، وذلك يستلزم أن يكون عالما بكل خلقه سواء فى ذلك الجزئيات والكليات ، لأن من يكون مع الشيء لا بد أن يعلم عنه كل شيء من خصائصه وحقائقه ، فإذا قارنه فى الوجود كان حادثا مثله ولذلك نفى المقارنة عنه ، فأثبت له بذلك صفة مخالفته للحوادث . وإلى هذا تشير الآية الكريمة من سورة المجادلة : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1] .

---

(١) المجادلة ٧

وأما قول الإمام إن الله غير كل شيء لا بمزايلة ، فإنه قول حق . ذلك أنك لو نظرت إلى الواقع المشاهد لك لكى ترى أمرين مختلفين لوجدت كلا منهما يخالف صاحبه : إما بوجوده فى مكان غير مكانه ، وإما بوجوده فى غير زمانه . فإذا كان الله تعالى واحداً لا نظير له فإنه يكون غير كل شيء غيرية ناشئة عن اختلاف المكان أو عن اختلاف الزمان .

وإذ قد كان تعالى غير كل شيء ، فإنّ مغايرته للأشياء لا تعنى أنه مباين لها ، لأن المباينة تكون عن الزمان أو عن المكان.. والله تعالى منزه عن الزمان وعن المكان . ولهذا قال الإمام : « إن الله تعالى غير كل شيء ، لا بمزايلة » .

وأما قوله إن الله فاعل لا بمعنى الحركة والآلة ، فواضح لأن فعله اختراع أو إبداع فهو يفعل لا بحركة ولا بآلة كما يفعل الواحد منا ، ثم هو لا يوجد شيئا من شيء سبق مثاله .

وأما قوله : إن الله بصير إذْ لا منظور إليه من خلقه ، فتلك حقيقة يذهب إليها العقلاءُ فيرون أنه سبحانه فى الأزل سميع بصير ، مع أنه ليس هناك ما تُدركه الأسماع والأبصار ، ولذلك جاء الوصف الصحيح للحق تبارك وتعالى بكلمتى سميع بصير على مايقوله تعالى فى سورة الشورى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(١) .

ومعنى هاتين الكلمتين فى هذه الآية ، أنه تعالى بحال يصح منه إدراك المسموعات والمبصرات إذا وجدت ، وذلك يرجع إلى أنه حى لا آفة به .

وليس يخفى عليك الفرق بين الكلمتين سميع وسامع ، وبين الكلمتين بصير ومبصر . ذلك أنك تقول فى صفة الله تبارك وتعالى إنه سبحانه فى الأزل

---

(١) الشورى ١١

سميع بصير ، ولا تقول إنه فى الأزل سامع مبصر . لأن السامع المبصر وصف لمن يبصر شيئا أو يسمع شيئا حال وصفه بتلك الصفة . فلو وصفت الخالق بأنه فى الأزل سامع مبصر ، لوجب أن يكون فى الأزل مخلوق مسموع مبصر فعلا ، فيكون معه قديم مثله والله ليس كمثله شىء . وهذا بخلاف سميع بصير ، فإن هذا البناءَ فى اللغة العربيةِ متضمن أن الله تعالى فى الأزل بحال يسمع ويبصر إذا وجد ما يسمع ويبصر .

وأما قوله : إن الله متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده ، فجملة القول فى معناه أن العادةَ جرت بإطلاق كلمة متوحد على من كان له من يستأنس بقربه ويستوحش لبعده فينفرد عنه . والله تعالى متوحد فى الأزل ولا موجود سواه ، والله تعالى أنشأ الخلق إنشاء وابتدأه ابتداء ، بغير فكرة رددها ولا تجربة أعانته على خلقه .

وأما قوله : إن الله أحال الأشياء لأوقاتها ، فإنه يعنى أنه جعل محل كل شىء وقته كما يحل الدين على المدين . وقد جعل سبحانه المختلفات ملتئمة ، كما قرن النفس الروحانية بالجسد الترابى ، ثم هو سبحانه غرز غرائزها فجعلها غرائز وذلك كقولهم : سبحان من ضوء الأضواء .

وأما قوله : « ألزمها أشباحها » فإنه يعنى أنه ألزم الغرائز أشباحها وأشخاصها ، لأن كل مخلوق مطبوع على غريزة لازمة فالشجاع لا يكون جبانا والبخيل لا يكون جوادا . وكذلك كل الغرائز لازمة لا تنتقل .

وأما قوله : « ولا همامة نفس اضطرب فيها » فإن المعنى المراد من همامة النفس أنه تعالى منزه عن التردد بين الإقدام على أمر والإحجام عنه .

وأنت إذا تمثلت هذه المعانى على دقتها وخفائها ، رأيت أن الأمام كرَّم الله وجهه كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين ، وذلك على فطرته وشرف نشأته ليس ببعيد .

هذا ، وقد رتب الإمام كرَّم الله وجهه خطبه وكلماته على مثل ما جاء فى الحديث النبوى الشريف ، فبدأ بالحديث عن الخالق مثنيا عليه سبحانه بما هو أهله ، ثم ثنى بذكر النبى ﷺ مع سائر الأنبياء ، وكأنه كرَّم الله وجهه كان يتمثل فى كلمته هذه حديث رسول الله ﷺ : (الأنبياء إخوة) وإليك كلماته عن محمد رسول الله ﷺ ، فذلك حيث بدأ كرَّم الله وجهه بوصف الأنبياء كافة ثم اختص منهم محمدا فى آخر كلمته فيهم صلوات الله عليهم أجمعين فذلك حيث قال :

« إن الله قد استودع الأنبياء فى أفضل مستودع ، وأقرهم فى خير مستقر ، تناسختهم كرائم الأصلابِ إلى مطهرات الأرحام . كل مامضى منهم سلف ، قام منهم بدين الله خلف ، حتى أفضت كرامة الله سبحانه إلى محمد ﷺ فأخرجه من أفضل المعادن منبتا ، وأعز الأرومات مغرسا . من الشجرة التى صدع منها أنبياءه ، وانتخب منها أمناءه . عترته خير العتر ، وأسرته خير الأسر ، وشجرته خير الشجر ، نبتت فى حرم ، وبثقت فى كرم ، لها فروع طوال ، وثمر لا ينال . فهو إمام من اتقى ، وبصيرة من اهتدى . سراج لمع ضوؤه ، وشهاب سطع نوره ، وزند برق لمعه . سيرته القصد ، وسنته الرشد ، وكلامه الفصل ، وحكمه العدل . أرسله على حين فترة من الرسل ، وهفوة عن العمل ، وغباوة من الأمم » .

يقول كرَّم الله وجهه : إن الله قد أودع أنبياءه فى أكرم الآباء وأطهر الأمهات ، يتلو بعضهم بعضا فى إبلاغ رسالة الله إلى العالمين ، ولكل سلف منهم خلف ، فإذا أدى السالف رسالته قام الخالف من بعده يؤدى رسالته ، ودين الجميع واحد ، وشرائعهم قد تختلف باختلاف حاجات الناس فى الزمان والمكان . ومازال الأمر على هذه الصورة ماضيا حتى إذا أراد الله كرامة الإنسانية جمعاء ، ابتعث إليها محمدا وقد أخرجه من أفضل المعادن وأعز

الأصول . ثم مضى كرّم الله وجهه فى لغته المبينة يذكر عن رسول الله ﷺ أن عترة محمد خير العتر ، وأن شجرته خير الشجر ، لأنها نبتت فى حرم آمن ، وظهرت فى كرم شامل ، وذلك لا ريب فيه . فقد جاء عن رسول الله ﷺ الحديث بتشريف قريش حتى شرف رسول الله نساءها فقال : « خير نساء ركبن الإبل نساء قريش . أحناهن على ولد فى صغره ، وأرعاهن لزوج فى ذات يده . وعلى هذا قال رسول الله أيضا : (الأئمة من قريش) . وكذلك قوله : (قدموا قريشا ولا تتقدموها) . وأما فيما يتصل بنسب رسول الله فقد قال ﷺ : (إن الله اصطفى من العرب معدّا ، واصطفى من معدّ بنى النضر بن كنانة ، واصطفى هاشما من بنى النضر ، واصطفانى من بنى هاشم .

وكذلك قوله ﷺ : (إن الله تعالى أخرجنى لم يمسنى سفاح فى أرومتى ، منذ إسماعيل بن إبراهيم إلى عبد الله بن عبد المطلب .

بقية الدعائم فى كلمات للإمام

لعله لم يغب عنك حديث رسول الله ﷺ الذى جعل بناء الإسلام يقوم على أعمدة خمسة ، وأن هذه الأعمدة الخمسة تنتظم أصل الأصول « الإيمان بالله رب العالمين » ، ثم تجيء شعائر الإسلام أصولا فرعية تساند الأصل فى إقامة البناء .

وقد سلك الإمام كرَّم الله وجهه فى أحاديثه وخطبه ومواعظه هذه الطريقة نفسها، مبتدئا بخطبته التى تضمنت صفة الله الذاتية وهى الوجود ، ونفت عنه الحدوث ومشابهته للحوادث ، ثم وصفه سبحانه بأنه السميع البصير . وقد أعقب الإمام حديثه عن الذات الإلـٰهية بحديث عن رسول الله ﷺ وصفه به أصدق وصف وأجمله . ثم لم يكن له بد بعد ذلك من أن يشير إلى سائر شعائر الإسلام وهو ما نذكره لك فى كلمته التالية ، فذلك حيث قال كرَّم الله وجهه : إن أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه هو الإيمان به وبرسوله ، ثم الجهاد فى سبيله فإنه ذروة الإسلام ، وكذلك كلمة الإخلاص فإنها الفطرة ، وإقام الصلاة فإنها لله ، وإيتاء الزكاة فإنها الفريضةُ الواجبة ، وصوم رمضان فإنه جنة من العقابَ ، وحج البيت واعتماره فإنهما ينفيان الفقر ويرحضان الذنب ، وصلة الرحم فإنها مثراة فى المال ومنسأة فى الأجل ، وصدقه السر فإنها تكفر الخطيئة ، وصدقه العلانية فإنها تدفع ميتة السوء ، وصنائع المعروف فإنها تقى مصارع الهوان . أفيضوا فى ذكر الله فإنه أحسن الذكر ، وارغبوا فيما وعد المتقين فإن وعده أصدق الوعد ، واقتدوا بهدى نبيكم فإنه أفضل الهدى ، واستنوا بسنته فإنها أهدى السنن ، وتعلموا القرآن

فإنه أحسن الحديث ، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب ، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور ، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص ، وإن العالم بغير علمه كالجاهل الحائر الذى لا يستفيق من جهله . بل الحجة عليه أعظم والحسرة له ألزم وهو عند الله ألوم » .

يذكر الإمام كرّم الله وجهه فى كلمته هذه ثمانية أشياء :

أولها الإيمان وهو التصديق بالقلب تصديقا يدفع إلى العمل لا ترقى إليه شبهة ولا يدركه وهن .

وغير خفى عن العلماء بخفايا القلوب أن العمل بمقتضى الإيمان خير معوان للمؤمن على اكتمال إيمانه ، وحياطته له من آفات الهوى وشهوات النفس . فالمؤمن الذى يعمل بمقتضى إيمانه لا يزال إيمانه يهديه صراط الله المستقيم .

والأمر الثانى ، الصلاة التى هى عماد الدين ، وهى الصلة بين العبد وربه يناجى فيها المسلم مولاه بما يختلج فى نفسه وما يعجز عن تحقيقه ، فيستعين الله تعالى فى صلاته على كشف الضر ، فكذلك قال سلفىّ صالح : كنت إذا ضاقت بى الدنيا قمت إلى الصلاة أسر إلى ربى ما لا أعلنه إلى أحد ، فإذا الحاجة مقضية والكرامة مصونة والسر مستور .

والأمر الثالث ، الزكاة التى هى صلة الغنى والفقير توثق بين الجميع علائق المودة وتقيهم وقلة الأحقاد ، وتجعل التكافل الاجتماعى بينهم منجاة لهم من عبث العابثين وفساد المفسدين وتربص المتربصين .

والأمر الرابع ، الصيام فإنه تدريب عملى لأهل الإسلام على كبح جماح النفوس وقهر سلطان الشهوات ، فإذا الصائم سيد نفسه ، يوجهها ولا توجهه ، ويستبد بها ولا تستبد به . فإذا المؤمن على ذلك أبعد ما يكون عن مساخط الله وأدنى ما يكون إلى مراضيه .

والأمر الخامس ، حج البيت واعتماره ، فإنهما خيرُ معوان على توثيق علائق الود بين المسلمين فى مختلف أوطانهم وتباعد زمانهم ، ثم هما مع ذلك سياحة فى سبيل الله يبتغى المسلم من ورائها الخير العاجل فى الدنيا ، كما يتوقع الخير الآجل يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

والأمر السادس ، صلة الرحم فإنها مثراة للمال ، منسأة للأجل ، وهذه الكلمة فى خطبة الإمام كرَّم الله وجهه تنظر إلى الحديث الصحيح الذى يقول فيه رسول الله ﷺ : (مَنْ سرَّه أن يُبارك له فى رزقه ، ويُنْسأ له فى عمره ، فليصلْ رَحِمه) .

والأمر السابع ، صدقه السر فإنها تكفر الخطايا ، وتأخذ بيد المسلم إلى ظل العرش يوم تدنو الشمس من الرءوس فلا يكون ظل إلَّا ظل الله . كما جاء فى الحديث الصحيح أن من المسلمين من يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، فذكر منهم ﷺ الرجل يتصدق فى خفاء حتى لا تعلم شماله ما تعطى يمينه . وقد كان أسلافنا الصالحون يبتكرون أساليب لم يسبقهم إليها سابق فى إخفاء صدقاتهم ، حتى إن أحدهم ليقوم بين يدى الفقير يستجديه أن يقبل صدقته ، فيمد يده بالصدقة إليه وكأنه يأخذ منه ولا يعطيه .

والأمر الثامن ، الجهاد الذى كتبه الله على عباده ليدافعوا عن شعائر دينهم ومقدسات حياتهم . فمثل الجهاد الذى شرعه الله للمسلمين مثل الحارس الذى يحمى البيت أو المنزل أو الدار من ولى متربص أو عدو مغير ، والله ولى المؤمنين .

علىّ فى الرعية حاكم معلم

غير ذى حاجة إلى مزيد بيان أن ولى الأمر فى النظام الإسلامى يستمد سلطانه على رعاياه من قوة الدين وقوة الدولة ، فهو فى مقامين لا مُنْتدح له عن القيام فيهما معا : أن يرشد ويعظ ويوجه إلى الحق ، ثم يؤدب الخارجين على حدود الله بما انتظمته الشريعة المحمدية من مثوبة المحسن وعقوبة المسىء .

وقد مضى على هذا النهج الخلفاء الراشدون من الخليفة أبى بكر إلى آخر الخلفاء الحسن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين ، وقد كانوا جميعا يهتدون بهدى رسول الله ﷺ هداة مرشدين وحكاما عادلين مدة ثلاثين عاما قررها الحديث النبوى الشريف : (الخلافة ثلاثون ثم ملك بعد ذلك) .

ومع أنك مستطيع أن تجد لكل خليفة منهم كلمات شريفة يأمر فيها بالمعروف وينهى عن المنكر ويعلم الجاهل وينبه الغافل ، إلا أنك ترى صاحب الحظ الأوفى فى هذا الباب أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرَّم الله وجهه ، وأوضح مثل نضربه لذلك كلمته كرَّم الله وجهه فى النهج عن غيبه الناس ، فذلك قوله :

« إنما ينبغى لأهل العصمة والمصنوع إليهم فى السلامة أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية ، ويكون الشكر هو الغالب عليهم والحاجز لهم عنهم . فكيف بالغايب الذى غاب(١) أخاه وعيره بلواه ؟.. أماذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه مما هو أعظم من الذنب الذى غابه به . وكيف يذمه بذنب قد

(١) غابه على مثال عابه وزنا ومعنى : تقول العرب غاب فلان فلانا تعنى أنه ذكره بما يسوءه . فإن ذكره بما فيه فقد غابه واغتابه وإن ذكره بما ليس فيه فقد بهته وقذفه بالباطل .

ركب مثله ؟ فإن لم يكن قد ركب ذلك الذنب بعينه فقد عصى الله فيما سواه مما هو أعظم منه . وايم الله لئن لم يكن عصاه فى الكبير وعصاه فى الصغير ، لجرأته على عيب الناس أكبر . ياعبد الله لا تعجل فى عيب أحد بذنبه فلعله مغفور له ، ولا تأمن على نفسك صغير معصية فلعلك معذب عليه ، فليكفف من علم منكم عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه ، وليكن الشكر شاغلا له على معافاته مما ابتلى به غيره » .

ففى هذه الكلمات يذكر أهل العلم لُمَعاً نافعة يقتضيها المقام ، ويستدعيها الحرص على حر الكلام ، فقد ورد فى الكتاب العزيز ذم الغيبة ، وجاء عن رسول الله ﷺ النهى عنها فى الحديث الشريف (لا تحاسدوا ولا تباغَضُوا ولا يَغتبْ بعضُكم بعضاً وكُونوا — عبادَ اللهِ — إخوانا) .

وقد روى جابر وأبو سعيد أنه ﷺ قال :

(إياكم والغيبة فإنّ صاحب الذنب يتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر الله له حتى يغفر له صاحبه) . وكذلك روى أنس عنه ﷺ : (مررت ليلة أسرى بى فرأيت قوما يخمشون وجوههم بأظافيرهم ، فسألت جبريل عنهم فقال : هؤلاء الذين يغتابون الناس) وكذلك جاء حديث سلمان : (قلت يارسول الله علمنى خيرا ينفعنى الله به . قال : لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أنْ تلق أخاك بوجه طلق) .

ومن كلمات الحسن البصرى رحمه الله : « أن الغيبة أسرع فى دين المؤمن من الأكلة فى الجسد . ولقد أدركنا سلف هذه الأمة وهم لا يرون العبادة فى صوم ولا صلاة ولكن فى الكف عن أعراض الناس » .

ومن كلمات أبى هريرة رضى الله عنه : « إن من الناس من يبصر القذى فى عين أخيه ولا يبصر الجذع فى عين نفسه » .

ومن الكلمات التى ترضى الحق وتهدى سواء السبيل كلمة ينسبها الثقات إلى أعرابى يستمد معارفه من شرف الفطرة فيقول : « من غاب وضيعا فقد رفعه ، ومن غاب شريفا فقد وضع نفسه » .

وقالت رابعة العدوية : إذا نصح الإنسان لله أطلعه على مساوىء عمله ، فتشاغل بذلك عن ذكر مساوىء خلقه .

ومن الطرائف فى هذا الباب ما نؤثر أن نذكره لك بغير تعليق ثقة بقدرتك على التفطن له ، وحرصا على مصلحتك فى الانتفاع به انتفاع معرفة وثقافة ، أو انتفاع موعظة وسلوك .

دخل فيلسوف عربى على الخليفة المتوكل — وعنده جلساؤه — فقال له الخليفة : يا فيلسوف العرب لقد كان هؤلاء كلهم يغتابونك ، سواى فإنى لم أذممك . فأجابه الفيلسوف على البديهة :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى   فلازال غضبانا على لئامها

فجمع الله له بهذا البيت مكافأة الخليفة بأكرم مديح ، ومعاقبة جلسائه بأفحش هجاء . ثم أظفره بجائزة سنية كفلت له ولأولاده من بعده عيشة راضية وحياة مطمئنة .

كان محمد بن سيرين قد جعل على نفسه أن يتصدق بدينار كلما اغتاب واحدا من الناس ، وكان إذا مدح إنسانا قال هو كما يشاء الله ، وإذا ذمه قال هو كما يعلم الله . فلم يكن يزيد فى وصف الناس عن هذه الكلمات يكل الأمر فيها إلى الله ، فيقول الحق الذى يدنيه من رضوان الله ويحميه من ألسنة الناس .

ومن أكرم الوصايا ما وصى به أحد السلف ابنه فقال له : يا بنى عليك بالدين واحذر الدنيا ، فإن الدين يبنى والدنيا تهدم : ألا ترى علىّ بن أبى

طالب وما يقوله فيه خطباء بنى أمية يذمونه ويعيبونه ويغتابونه ؟ إنهم يا بنى — كأنما يأخذون بناصيته إلى السماء . ثم ألا ترى هؤلاء أنفسهم يندبون موتاهم ويرثيهم شعراؤهم ، فوالله الذى لا إله إلا هو لكأنهم يندبون جيف الحمر .

سئل رجل من العرب : من السيد فيكم ؟. قال : هو الذى إذا أقبل هِبْناه ، وإذا أدبر اغتبْناه .

بلغ الحسن أن رجلا اغتابه فأهدى إليه طبقا من رطب ، فجاء الرجل يشكر على الهدية ويسأل عن الداعى إليها . فقال له : أهديت إلى حسناتك ولم أجد عندى كفاء فضلك ، فأهديت إليك ما أملك هذا الطبق من الرطب . فبكى الرجل واعتذر إلى صاحبه ، وأعطى الله عهداً ألا يغتاب أحدا بعد ذلك .

ومما تتم به العظة التى ذكرها الإمام كلمة له جليلة ، يقول فيها كرَّم الله وجهه :

« أيها الناس ، من عرف من أخيه وثيقة دين وسداد طريق ، فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال . أما إنه قد يرمى الرامى ، وتخطئ السهام ، ويحيل الكلام . وباطل ذلك يبور ، والله سميع وشهيد . أما إنه ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع ، فتحروا الحق واحرصوا عليه ، وتحروا الباطل وتجنبوا كل سبيل إليه » .

وليس يغيب عنك أعزك الله أن هذا الكلام نهى عن التسرع إلى التصديق بما يقال من عيب وقدح فى أعراض الناس . وقد ضرب كرَّم الله وجهه مثلا خليقا بالتأمل وحمل النفس عن العمل بمقتضاه ، فذلك حيث قال :

« إنّ الرامى عن القِسى بالسهام ، قد يرمى فلا يصيب الغرض ، وكذلك الطاعن فى أعراض الناس قد يطعن فلا يصيب ما يريد .

ومازال الفصحاء يستعينون بالأمثال يضربونها للناس ، فإذا سمعوا القول كانوا كأنهم يرون المعنى المراد به على غاية الوضوح وتمام الجلاء .

ومن أحسن الامثال التى ضربها الإمام كرَّم الله وجهه لتبيان الفرق بين الحق والباطل ، قوله : « ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع » فلما سئل عن معنى ذلك جمع أصابعه الأربع ثم وضعها بين عينيه وأذنيه ثم قال والقوم يشاهدون ويسمعون : « الباطل أن تقول سمعت ، والحق أن تقول رأيت » وتلك المقالة من الصدق بمكان مكين .

عليّ ومنصب القضاء

لا يرتاب أهل العلم فى أن أحق الناس بمنصب القضاء وأقربهم إلى الإصابة فيه ، مَن توافر له الفقه بالقرآن فى لغته وأسلوبه وأحكامه . فإذا توافر له ذلك ، إلى جانب قربه من رسول الله ﷺ ، فإن ذلك معوان له على إصابة الحق فى شئون القضاء .

وقد توافر للإمام على — كرّم الله وجهه — كل ذلك الفضل الذى لم يتوافر لغيره من الصحابة رضى الله عنهم ، حتى كان أمير المؤمنين عمر يقول : « لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن » ولم يكن أمير المؤمنين عمر ليقول هذه الكلمات الشريفة إلا ونصب عينيه قول رسول الله ﷺ : (أقضاكم على) . حتى لقد أصدر أمير المؤمنين عمر أمره بأن يكون علىّ هو المفتى ، فذلك حيث قال : « لا يفتين أحد فى المسجد وعلىّ حاضر » .

وباستصحاب هذه المعانى الشريفة يتراءى وجه العدل ضاحك القسمات طلقا فى تولية رسول الله — ﷺ — عليا منصب القضاء ، فى حديث شريف خلاصته ما أخرجه النسائى عن أبى زكريا يحيى بن آدم بن سليمان الأموى قال : حدثنا شريك عن سماك بن حرب عن حنش بن المعتمر عن علىّ كرّم الله وجهه قال : « بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن وأنا شاب فقلت : يا رسول الله ، تبعثنى وأنا شاب إلى قوم ذوى أسنان أقضى بينهم ، وليس لى علم بالقضاء؟ فوضع يده — ﷺ — على صدرى ثم قال : (إن الله سيهدى قلبك ويثبت لسانك) . ثم أوصانى فقال : (إذا جلس إليك الخصمان فلا تقضى بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول ، فإنك إذا فعلت ذلك تبدى لك وجه القضاء) . وهنا يقول الإمام كرّم الله وجهه : فلا والله ما أشكل علىّ قضاء بعد ذلك .

وأحسب أنك — حفظك الله — تتطاول إلى أمثلة من أقضيته كرّم الله وجهه لتزداد إيمانا بأن الله تعالى قد استجاب لرسوله الكريم دعوته لعلى ، فهدى قلبه وثبت لسانه .

وغير ذى حاجة إلى بيان أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يكن ليخفى عليهم شأن الإمام كرّم الله وجهه مع رسول الله فى توليته إياه منصب القضاء ، ودعوته له بأن يهدى الله إلى الحق قلبه ويثبت على طريقه لسانه ، ولذلك كان أمير المؤمنين عمر يقول : « لولا علىّ ، لهلك عمر » .

وقبل أن نذكر ما يتسع له المقام من أقضية الإمام ، نرى من الحق أن نشير إلى أمر لا بد من الالتفات إليه فى هذا المقام وهو الفرق بين إبداء الرأى وبين إمضائه ، إذ كان إبداء الرأى داخلا فى النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم ، وأما إمضاء الرأى إلى غايته فإنه داخل فى باب الإلزام الذى هو حق لولى الأمر ومن ينوب عنه .

وبملاحظة هذه التفرقة يكون ما أثر عن الإمام كرّم الله وجهه من آراء وأحكام دائرا بين أمرين :

أحدهما : النصيحة التى لا سبيل لسلطان الدولة عليها قبولا أو رفضا .

وثانيهما : القضاء الذى تلتزم الدولة بالقيام عليه وإمضائه إلى غايته إحقاقا للحق وإبطالا للباطل .

ولكى يتضح لك هذا الفرق اتضاحا يكون به على طرف الثمام ، ينبغى لك أن تتمثل أحكام الإمام وآراءه وهو واحد من المسلمين فى دولة الإسلام ، ثم أن تتمثله كرّم الله وجهه وهو رأس الدولة وأمير المؤمنين . فإذا كانت معه قوة الدولة فهو حينئذ القاضى العادل ، وإذا لم تكن معه قوة الدولة فهو حينئذ النّاصح الأمين . .

وإذ قد استبان لك هذا الفرق ، فإن أحق ما نبدأ به أحكامه وآراءه وأقضيته ما كان قد أشار به على أمير المؤمنين عمر بأن لا يخرج على رأس الجيش فى فتح فارس ، ذلك أنه رضى الله عنه كان قد أشار على أمير المؤمنين عمر بأن لا يخرج على رأس الجيش فى فتح فارس ، وقد أخذ عمر رضى الله عنه برأى الإمام إيثارا له على ما خالفه من الآراء .

وأول ما يقتضى حقه من البيان فى هذا العنوان ، أن ثم فرقا بين القتال عن الإمام ، والقتال مع الإمام .

وليس يخفى على أولى النُّهى أن من التضييع تعريض رأس الدولة للأعداء يجعلون همهم كله فى الإحاطة به ليقتلوه أو يأسروه ، فتتهيأ لهم بذلك فرصة ينقضّون فيها على الأمة يصنعون بها ما ينكس راياتها بين العالمين ، فإذا الأمة ــ على ذلك ــ تحيا حياة السوائم بغير غاية تسعد بها دنياها أو يرضى عنها دينها ومذهبها ، وذلك هو الخسران المبين .

والذين يستعرضون تاريخ الحروب فى القديم والحديث لا يعوزهم أن يجدوا لهذا الرأى شواهد ينصرها المنطق ويزكيها التاريخ ، وخاصة هذا العصر الذى نعيش فيه فى القرن العشرين .

فقد أنفق الغرب زهرة شبابه يبتغى بذلك القضاء على زعيم ألمانيا الحديثة فى الحرب العالمية الثانية التى انتصر فيها الحلفاء سنة ١٩٤٥ ميلادية ، ولم يكن لعقلاء الغرب وحكمائه غاية من وراء ذلك التصرف إلا أن يضعوا أيديهم على ذلكم الزعيم حيا كان أو ميتا .. وذلك أمر لا يخفى إجماله وتفصيله على البصراء بأحداث ووقائع تلكم الحرب التى لم يتمكن المؤرخون من الوقوع على آثارها السيئة ونتائجها المخيفة ، حتى يوم الناس هذا .

وجملة ما نحب أن نقوله : أن رأس الدولة هو الهدف الأكبر الذى يتغيا عدوُ الأمة القضاء عليه على أى وجه وبأى أسلوب ، لأنه يعلم ــ على وجه

اليقين — أن فى القضاء عليه قضاء على قوة العدو وتيسيرا لسبيل النصر المبين . وحق ذلك على أهل الحزم أن يضعوا رأس الدولة بمأمن من مثل هذا التفكير الذى قامت الشواهد على أنه تدبير ماكر يرمى إلى أبعد الغايات بأيسر سبيل .

وأحسب أنك حفظك الله قائل : إن رسول الله ﷺ قدوة لأمته ، وقد كان يخرج على رأس الجيوش : خرج فى بدر ، وخرج فى أحد ، وخرج فى الأحزاب ، وخرج فى فتح مكة ، وقد كان مستطيعا أن ينيب عنه من يرى أنه كفء ولكنه لم يفعل . فدل ذلك على أن الإمام يدافع عن الأمة ، وأن الأمة لا تدافع عن الإمام لأنه لا يسوغ له بمقتضى — الحزم — أن يغشى ميادين القتال .

فإن كنت مصرًّا على أن تتوجه بهذا السؤال ، فاعلم — رحمك الله — أن ثم فرقا بين رسول الله ﷺ وبين غيره من سائر المسلمين . ذلك أن الله تعالى تولى حفظه وأنزل عليه فى كتابه هذا الوعد الموثوق : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾(١) .

فهذه الآية — على ما ترى ، ضمنت لرسول الله ﷺ العصمة من أعدائه عصمة تستبقى حياته الشريفة للإنسانية جمعاء ، يرفع — ﷺ — بالإسلام خسيستها فى إحقاق الحق وإبطال الباطل ودعم قواعد العدل ورفع ألوية السلام . وقد يعينك على إدراك هذه المعانى من الآية الشريفة أن تراجع ما كتبه الموثوقون من أهل السير حول هذه الآية ، إذ أن بعض أصحابه كان يقوم على حراسته فى خيمته فى بعض غزواته ، فلما نزلت الآية صرف ﷺ حراسه ، ثقة بعصمة الله إياه .

---

(١) المائدة ٦٧

وبتدبر هذا المعنى ، لا يستعصى عليك أن تسيغ ما تقضى به الفطرة وتنصره أحداث التاريخ من أن الإمام أو رأس الدولة أو أمير المؤمنين ، إنما يقاتل عنه دون أن يخرج هو إلى ميادين القتال ، إذ كان هم الأعداء منحصرا فى التخلص منه والاستيلاء عليه حيا أو ميتا ابتغاء توهين قوة العنو ، وتحصيل الانتصار عليه بأى ثمن ومن أى طريق .

ومما يزيدك اطمئنانا إلى هذا الذى قررناه ونقرره ، أن أمير المؤمنين عليا كرّم الله وجهه قد قضى هذا القضاء وأعلن إلى أصحاب رسول الله ﷺ هذا الرأى ، فأخذ به عمر ونزل على حكمه ، وهو الذى كان يقول : « لولا على لهلك عمر » . ويطيب لنا أن نروى هذا القضاء مع ما يتصل به ويدور فى فلكه من أنباء موثوقه ووقائع مأثورة .

* * *

روى صاحب النهج أن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه استشار الإمام فى الشخوص لقتال الفرس بنفسه ، فقال كرّم الله وجهه ينصح أمير المؤمنين عمر بعدم الخروج بأن لا يشخص لقتال الفرس بنفسه ، فذلك حيث قال كرّم الله وجهه :

« إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة ، وهو دين الله الذى أظهره وجنده الذى أعده وأمده حتى بلغ ما بلغ وطلع حيثما طلع ، ونحن على موعود من الله والله منجز وعده وناصر جنده . ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه ، فإذا انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا — والعرب اليوم — وإن كانوا قليلا — فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع . فكن قطبا واستدر الرحا بالعرب ، واصلهم دونك نار الحرب فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما

بين يديك . إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا يقولوا : هذا أصل العرب فإذا اقتطعتموه استرحتم . فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك . فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين فإن الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما كره . وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة » .

كذلك قضى الإمام فى هذه القضية قضاء لا تصرفك روعة نظمه عن صحة حكمه .

ومما يعين على قضاء الحق لهذا الموضع الجليل فى أقضية الإمام أن نلفتك — أعزك الله — إلى ما ذكره فى هذه الواقعة الإمام الجليل محمد بن جرير الطبرى حيث قال رحمه الله :

لما بدا لعمر المقام بعد أن كان عزم على الشخوص بنفسه ، أمّر سعد بن أبى وقاص على المسلمين ، وبعث يزدجرد رستمَ الأرمنى أميرا على الفرس ، فأرسل سعدُ النعمانَ بن مقرن رسولا إلى يزدجرد فدخل عليه وكلمه بكلام غليظ . فقال يزدجرد : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك . ثم حمله وقرا من تراب على رأسه وساقه حتى أخرجه من باب من أبواب المدائن قائلا له : ارجع إلى صاحبك فقد كتبت إلى رستم أن يدفنه وجنده من العرب فى خندق القادسية ، ثم لأشغلن العرب بعدها بأنفسهم ولأصيبنهم بأشد مما أصيبوا به فى الدهر الطويل . فرجع النعمان رضى الله عنه إلى سعد بن أبى وقاص فأخبره ، فقال له سعد : « لا تخف فإن الله قد ملكنا أرضهم » . وكان سعد رضى الله عنه من الذين يتفاءلون فتفاءل فى هذه اللحظة بالتراب الذى وضعه يزدجرد على رأس النعمان . وقد تثبط رستم عن القتال وكرهه فاستعجله يزدجرد مرارا واستحثه على الحرب ، ولكنه كان يرى المطاولة ، وكان عسكره مئة وعشرين ألفا وعسكر سعد بضع وثلاثون ألفا . فأقام رستم بريدا من الرجال

الواحد منهم إلى جانب الآخر من القادسية إلى المدائن ، فكلما تكلم رستم كلمة أداها جنده بعضهم إلى بعض حتى تصل إلى سمع يزدجرد فى وقتها . وقد شهد وقعة القادسية مع المسلمين طليحة بن خويلد وعمرو بن معديكرب والشماخ بن ضرار وعبدة بن الطبيب وأوس بن معن الشاعر ، فقاموا فى الناس ينشدونهم الشعر ويحرضونهم . وقرن أهل فارس أنفسهم بالسلاسل لئلا يهربوا فكان المقرنون نحو ثلاثين ألفا ، ثم التحم الفريقان فى اليوم الأول فحملت الفيلة التى مع رستم على الخيل فطحنتها وثبت لها الرّجالة ، فضرب الرجال خراطيم الفيلة بالسيوف فقطعوها وارتفع عواؤها . وفى اليوم الثانى وصل أبو عبيدة بن الجراح من الشام فى عساكر من المسلمين فكانوا مددا لسعد . ولعله فى ذلك اليوم أسرت بنات كسرى الثلاث وجىء بهن إلى أمير المؤمنين عمر ، فحماهن الإمام كرّم الله وجهه من السباء ثم زوجهن أكفاءهن من أشراف العرب .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ما رواه الإمام الجليل شمس الدين بن القيم فى الحلف بالطلاق متسائلا : هل الحلف بالطلاق يمين أولا ؟ وقد أجاب على تساؤله فقال فى « إعلام الموقعين » :

إن الحلف بالطلاق لا يلزم ولا يقع على الحانث به طلاق ولا يلزمه كفارة ولا غيرها ، وهذا مذهب خلق من السلف والخلف ، صح ذلك عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرّم الله وجهه . وقد قال بعض فقهاء المالكية وأهل الظاهر : ولا يعرف لعلى فى ذلك مخالف من الصحابة ، على ما قرر ذلك أبو القاسم التيمى فى « شرح أحكام عبد الحق » ، وقد قاله قبله أبو محمد بن حزم ، وصح عن طاوس أجل أصحاب ابن عباس وأفقهم على الإطلاق . قال عبد الرازق — فى مصنفه — أنبأنا ابن جريج عن ابن طاوس عن أبيه أنه

كان يقول : « الحلف بالطلاق ليس شيئا » . قلت له : أكان يراه يمينا ؟ قال : لا أدرى . وهذا أصح إسناد عمن هو من أجلّ التابعين وأفقههم ، وقد وافقه أكثر من أربعمائة عالم من الذين بنوا فقههم على نصوص الكتاب والسنة دون القياس ، ومن آخرهم أبو محمد بن حزم حيث قال فى كتابه المحلى : اليمين بالطلاق لا يلزم سواء برَّ أو حنث، لا يقع به طلاق ، ولا طلاق إلا كما أمر الله تعالى ، ولا يمين إلا كما شرع الله تعالى على لسان رسوله ﷺ . ثم قرر ذلك وساق اختلاف الناس فى هذا ثم قال : فهؤلاء على بن أبى طالب كرّم الله وجهه ، وشريح ، وطاووس ، لا يقضون بالطلاق على من حلف به فحنث ، ولا يعرف فى ذلك لعلىّ كرّم الله وجهه مخالف من الصحابة رضى الله عنهم .

* * *

قال شيخ الإسلام ابن القيم فى كتابه « إعلام الموقعين عن رب العالمين » . والأثر المروى عن علىّ رضى الله عنه هو : أن رجلا تزوج امرأة وأراد سفرا فأخذه أهل امرأته ، فجعلها الرجل طالقا إن لم يبعث بنفقتها إلى شهر ، فجاء الأجل ولم يبعث إليها شيء . فلما قدم الرجل من سفره خاصموه إلى علىّ ، فقال كرّم الله وجهه : إنكم اضطهدتموه حتى جعلها طالقاً .. ثم رد عليه زوجته . ولا متعلق لهم بقوله اضطهدتموه لأنه لم يكن هناك إكراه ، فإنهم إنما طالبوه بحق نفقتها فقط . ومعلوم أن ذلك ليس بإكراه على الطلاق ولا على اليمين . وليس فى القصة أنهم أكرهوه بالقتل أو بالضرب أو بالحبس أو أخذ المال على اليمين حتى يكون يمين كره . والسائلون لم يقولوا لعلى شيئا من ذلك ألبتَّة وإنما خاصموه فى حكم اليمين فقط ، فنزل الإمام كرّم الله وجهه الأمر فى ذلك بمنزلة المضطهد ، حيث لم يرد طلاق امرأته وإنما أراد التخلص إلى سفره بالحلف . فالحالف والمُضْطَهَد كل منهما لم يرد طلاق امرأته . فالمضطهد محمولٌ على الطلاق وقد تكلم به ليتخلص من ضرر الإكراه . والحالف حلف

به ليتوصل إلى غرضه من الحصن أو المنع أو التصديق أو التكذيب . ولو اختلف حال الحالف بين أن يكون مكرها أو مختارا ، لسأله الإمام كرّم الله وجهه عن الإكراه وشروطه وحقيقته وبأى شيء أكره ، فهذا ظاهر بحمد الله ، وعليك أن ترضى للمقلد بما فيه لنفسه .

* * *

هذا وأما أثر شريح رحمه الله ففى مصنف عبد الرازق عن محمد بن سيرين عن شريح ، أنه خوصم إليه فى رجل طلق امرأته إن أحدث فى الإسلام حدثا ، فاكترى بغلا إلى مكان ثم تعدى به المكان إلى أصفهان فباع البغل واشترى به خمرا . فقال شريح : إن شئتم شهدتم عليه أنه طلقها . فجعلوا يرددون عليه القصة وجعل هو يردد عليهم القول فلم يره حدثا ، وكيف لا يكون حدثا وأى حدث أعظم ممن تعدى المكان الذى اشترط عليه ، ثم باع بغل مسلم ظلما ، ثم اشترى بثمنه خمرا ؟

قال ابن القيم : الظاهر أن شريحا لما ردت عليه المرأة ، ظن من شاهد القصة أنه لم ير ذلك حدثا ، إذ لو رآه حدثا لأوقع عليها الطلاق . وشريح إنما ردها لأنه علم أنه لم يقصد طلاق امرأته وإنما قصد اليمين فقط ، فلم يلزمه بالطلاق . وشريح أفقه فى دين الله من أن لا يرى مثل هذا حدثا .

* * *

وممن روى عنه عدم وقوع الطلاق على الحالف إذا حنث ، لعكرمة مولى ابن عباس كما ذكره سنيد بن داوود فى تفسيره أول سورة النور ، أنه سئل عن رجل حلف بالطلاق أنه لا يكلم أخاه فكلمه ، فلم ير ذلك طلاقا . ثم قرأ قول الله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ

وَرَحْمَتُهُ ما زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(١) .

وهنا نروى لك — حفظك الله — ما كان يرويه العلامةُ الأزهرى محقق كتاب ابن القيم بعد أن روى هذه الكلماتِ الطيبات لأئمة الفقهاء فى باب اليمين ، فذلك حيث كان يقول رحمه الله منشدا شعرا معروفا للأدباء والمتأدبين :

فقل للعيون الرمد للشمس أعين سواك تراها فى مغيب ومطلع
وسامح نفوسا بالقشور قد ارتضت وليس لها باللُّب من متطلع

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — قضية الزبية ، وهى الحفرة فى الموضع المرتفع لا يبلغه السيل ، يحفرونها ثم يغطونها بالقش ونحوه تعمية على الأسد حتى يسقط فيها .

وخلاصة القول فى هذه القضية أن جماعة من أهل اليمن أرادوا أن يصطادوا أسدا فحفروا حفرة فى موضع عال ثم غطوها بالقش ، فجاء الأسد يمشى مختالا كعادته فسقط فى الحفرة التى يسميها أهل اللغة « الزبية » ، فاجتمع الناس على رأسها يستمتعون برؤية الأسد ذليلا لا حول له ولا حيلة وقد كان من قبل يزأر فتكاد تنخلع لزئيره القلوب . وفيما هم على ذلك يتزاحمون ، هوى أحد الواقفين فى الزبية فجذب ثانيا ، وجذب الثانى ثالثا ، وجذب الثالث رابعا ، فقتلهم الأسد جميعا ثأرا لكرامته أو إشباعا لغريزته .

ولم يكن للقوم بد من أن يرفعوا الأمر إلى قاضى اليمن علىّ كرّم الله وجهه ، فقضى للأول بربع الدية ، وللثانى بثلث الدية ، وللثالث بنصفها ، وللرابع

(١) النور ٢١

بالدية كاملة . ثم قال : اجعلوا الدية على من حفر رأس البئر . فلما رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ قال : (الأمر كما قضى على) .

وليس فى وسع فقيه بروح الشريعة الإسلامية ، أن يجاوز قضاء الإمام فى صورته هذه دون أن يقف وقفة لا منتدح عنها لأولى الألباب . وخلاصة هذه الوقفة أن الإمام ابن القيم عنى بمسألة الزبية وقضاء الإمام على فيها ، حتى ذكر فى كتابه « الإعلام » أنها مسألة مشكلة ، وأن قضاء علىّ فيها بعيد عن القياس . ثم مضى رحمه الله يصوب أن قضاء الإمام جار على مقتضى القياس ، وكأن الأمر هنا أمر قياس يحتمل التخطئة والتصويب !

ولولا أن الثقة بشيخ الإسلام ابن القيم موفورة لا يرقى إليها الشك ، لكان من الحق أن يلومه أهل العلم على تصرفه هذا ملامة لا تعوزها حجة ، ولا تعمى إليها سبيل . ذلك أن قضاء الإمام كرّم الله وجهه رضيه رسول الله ﷺ . ومعروف عند أهل العلم أن رضوان رسول الله عن كلمة تقال أو فعل يحدث إنما هو إقرار للقول أو الفعل ، وبذلك يصبح هذا الإقرار سنة . وليس يسوغ لمسلم أن يواجه سنة رسول الله باعتباره إشكالا أثاره الفقهاء ومحاولته الرد عليه بتصويبه القياس فيه .

ولو أن الأمر كان أمر قضاء الإمام وحده لكان ذلك الاعتبار سائغا مقبولا ، لأن الإمام كرّم الله وجهه يجوز عليه الخطأ فى الحكم وعدم الإلمام المستوعب بما يصوب غاية القياس ويصحح نتيجته . ولكن منزلة رسول الله ﷺ فوق منازل المجتهدين من أمته فلا يسوغ أن يظن به الخطأ . ولو افترض ذلك افتراضا جدليا ، لانفسح الطريق إلى قاعدة أصولية مسلمة عند كل ذى عقل ودين ، وهى أن عناية الله تعالى تتدخل فى هذه الحال لتصوب لرسول الله ﷺ الخطأ الذى لابس اجتهاده الشريف .

وأيًّا ما كان الأمر ، فإن قضاء الإمام فى المتزاحمين على رأس البئر مع إقرار رسول الله لهذا القضاء ، هو إلى النص أدنى منه إلى القياس . ومعذرة إلى شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله ، على أن لكل عالم هفوة ، ولكل جواد كبوة ، ولكل صارم نبوة ، وما أخطأ طريق الحق من آثر أساليب العلماء فى البحث والتنقيب مهما يكن حظه من الخطأ أو من الصواب ، فهو مثوب مأجور فى كل حال .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ، قضاؤه فى بنات يزدجرد آخر ملوك فارس ، وذلك على ما يرويه العلامة الزمخشرى فى كتابه « ربيع الأبرار » . فيقول رحمه الله « لما جىء إلى المدينة بسبى فارس فى خلافة عمر بن الخطاب كان فى هذا السبى ثلاث بنات ليزدجرد ، فأمر عمر رضى الله عنه ببيع البنات الثلاث . فقال الإمام على كرّم الله وجهه : إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة . فسأله أمير المؤمنين عمر : كيف الطريق إلى العمل معهن يا أبا الحسن ؟ فقال كرّم الله وجهه : يُقوَّمن يا أمير المؤمنين ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن » . وقد أخذ عمر برأى الإمام فأخذهن على رضى الله عنه ، ثم دفع بواحدة لعبد الله بن عمر ، ودفع بالثانية إلى محمد بن أبى بكر ، ودفع بالثالثة إلى الحسين ، على أن يكون البنات الثلاث زوجات لأكفائهن من العرب . وقد ولدت زوجة الحسين عليا زين العابدين الذى ينتسب إليه كل شريف حسينىّ على وجه الأرض ، فيكون له بذلك فى العرب أشرف الأصلاب إلى جانب أن له فى الفرس أكرم الأرحام .

وذلك القضاء بلا ريب قضاء لا يتأتى إلا لمثل الإمام فى شرف نفسه وغزارة علمه وفقهه ، لما انطوى عليه الإمام من معرفة لأقدار الناس وإحسان لوزن الأمور .. على ما يقول عبد الله ابن مسعود ــ رضى الله عنه : « لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا ، فإن تساووا هلكوا » .

وأنت إذا تدبرت التاريخ على هذا الضوء فى هذا القضاء ، فإنك لن تجد مناصا من القول بأن السر الحق فى تشيع الفرس للإمام يقوم على النظر إلى قضاء الإمام نظر الذى أكرمهم فى إكرام بنات آخر ملوكهم . والإنسان مجبول بفطرته على التعصب لقومه فى هذا الباب من أبواب الاحترام ، لمن تربطهم بهم صلة ، ويجمعهم معهم تاريخ . ولولا أن الشيعة قد غلوا غلوا شديدا خرجوا به عن العقل وتجهموا للإسلام ، لكان من الحق أن ننظر إليهم نظرة مودة واحترام . ولكن الغلو الذى حملهم على كره العرب كراهية اعتدت على أصول الإسلام ، هو الذى يحمل المسلم على الغض من أقدار الغلاة فى التشيع . ولكن الأمل فى رحمة الله لن يدعنا فرائس يأس من اجتماع الشمل ووحدة الصف ، فى ظلال وارفة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، بمنأى عن الغلو والمبالغة والإغراق ، والله يتولى الصالحين .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ما يأثره الثقات عن الإمام جعفر الصادق رحمه الله ، قال : بينا أمير المؤمنين على فى ملأ من أصحابه ، إذ جاءه رجل فقال : إنى أوقبت على غلام فجئت إليك أسألك أن تطهرنى يا أمير المؤمنين . ولم تكد هذه الكلمات تواقع سمعه كرّم الله وجهه حتى تغير لونه تغيرا يوحى إلى من يراه أنه نضو(١) هم مقعد مقيم . ذلك أن العرب لم تكن تعرف هذا اللون الفاحش من الشذوذ فى إرواء الشهوات الحيوانية ، حتى إنهم لم يضعوا له كلمة تعبر عنه فى لغتهم العربية الشريفة كما وضعوا للمفاحشة بين الرجل والمرأة كلمة «الزنا» ، وللمفاحشة بين المرأة والمرأة كلمة « السحاق » ، فإذا ما أرادوا التعبير عن المفاحشة بين الذكور ، استخدموا كلمة «اللّواط »

---

(١) النضو : المهزول من هم ونحوه ، تقول العرب فلان نضو سفر يعنون أنه مجهود مكدود .

يأخذونها عن قوم لوط عليه السلام ، وقد كانوا — لعنهم الله — أول الذين ابتكروا هذه الفاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين .

فلما هدأت العاصفة فى صدر الإمام كرّم الله وجهه ، توجه بالحديث إلى ذلك الذى جاء إليه راجيا أن يطهره ، فقال له : يا هذا عد إلى منزلك فلعل سوء مزاجك هاج بك فأوقعك فى هذا البلاء المبين . ولم يسع الرجل إلا أن يصدع بأمر أمير المؤمنين فرجع إلى منزله كما أمر ، ولكنه ما لبث أن عاد إلى ما قد اقترفه من قبل فجاء إلى أمير المؤمنين يطلب إليه أن يطهره ، فقال له كرّم الله وجهه : يا هذا إن تطهيرك مما قارفته يقتضى أحد أمور ثلاثة .. أن يضرب عنقك بالسيف ضربة بالغة ما بلغت ، أو أن تقذف من شاهق جبل مشدود اليدين والرجلين ، أو أن تحرق بالنار . فاختر أيهن شئت .

ولم يشأ الرجل أن يختار حتى أقبل على أمير المؤمنين يسأله : أى الثلاثة أبلغ أذى وأشد إيلاما يا أمير المؤمنين ؟ فأجابه كرّم الله وجهه : الحرق بالنار هو الأبلغ الأشد . فقال الرجل : فإنى قد أخذت هذا على ما سواه فطهرنى به رضى الله عنك . فأجابه أمير المؤمنين : خذ لذلك أهبتك واستعد . ولم تكن أهبة الرجل إلا أن يفزع إلى الصلاة ، فقام فصلى ركعتين ثم جلس فى تشهده يدعو الله تعالى ويقول : « اللهم إنى قد أتيت من الذنب ما قد علمت ، وقد جئت لابن عم نبيك أسأله أن يطهرنى فخيرنى بين ثلاث شدائد فاخترت أشدها الإحراق بالنار . اللهم إنى أسألك أن تجعل ذلك كفارة لذنبى وألا تحرقنى بنار الآخرة . ثم قام يبكى حتى جلس فى الحفرة التى حفروها له وهو يرى النار تتأجج ، ولم يتمالك أمير المؤمنين أن بكى وبكى معه أصحابه ، ثم قال للرجل : يا هذا إنك أبكيت ملائكة الله فى سمائه وأرضه وإنى أرى بذلك لك توبة ، فقم وإياك أن تعاود شيئا مما فعلت ، والله غفور رحيم » .

هذا ، ولست أجد بدا من أن أقف بك وقفات حول هذا القضاء فى هذه الجريمة الشنعاء .

فأما الوقفة الأولى ، فجملة القول فيها أن العلماء اختلفوا فيما يجب على من فعل ذلك — بعد إجماعهم على تحريمه — فقال مالك : يرجم محصنا أو غير محصن ، وكذلك يرجم المفعول به إن كان بالغا ، ويحبس ويؤدب إن كان غير محصن . وقال أبو حنيفة : يعزر المحصن وغيره . وقال الشافعى : يحد حد الزانى قياسا عليه .

وأما الوقفة الثانية ، فجملة القول فيها ما رواه العلامة القرطبى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، من أنه حرق رجلا يسمى الفجاءة حين عمل عمل قوم لوط ، وذلك هو رأى على بن أبى طالب . فإنه لما كتب خالد بن الوليد إلى أبى بكر فى ذلك ، جمع أبو بكر أصحاب النبى ﷺ واستشارهم فى هذه النازلة ، فكان من رأى على كرّم الله وجهه أن يحرق الفاعل بالنار ، قائلا : إن هذا الذنب لم تُعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة صنع الله بها ما قد علمتم . وقد نزل مجلس الخليفة أبى بكر على رأى الإمام كرّم الله وجهه . وبناء على ذلك كتب الخليفة الأول إلى خالد بن الوليد أن يحرق ذلك المفاحش بالنار فأحرقه . ثم مضى الإحراق بالنار فى المجتمع الإسلامى قانونا نافذا أخذ به عبد الله بن الزبير فى زمانه ، ثم أحرقهم هشام بن عبد الملك فى الشام ، ثم أحرقهم خالد القسرى فى العراق . فلما أفضت إمارة المؤمنين إلى الإمام كرّم الله وجهه أمضى ما كان قد رآه لأبى بكر ومن كان فى مجلسه من أصحاب رسول الله ، رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين .

وأما الوقفة الثالثة ، فجملة القول فيها ما ذكره شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى فى شأن قوم لوط الذين ابتدعوا هذه الفاحشة فى العالمين : إن جبريل عليه السلام نشر جناحه فانتسف به أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها

وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها ، فضمها فى جناحه ، فحواها وطواها فى جوف جناحه ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب ، ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة ، ثم دمدم(١) بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها ، ثم أتبعها حجارة من سجيل .

ولعل الإمام كرّم الله وجهه استند فى قضائه بقذف المجرم من شاهق جبل ، إلى ما تضمنته الآية الكريمة فى سورة هود : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ۞ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾(٢) .

ففى هذه الآية يقول تعالى ذكره : ولما جاء أمرنا بالعذاب وقضائنا فيهم بالهلاك جعلنا عاليَ قريتهم سافلها .

وأما الوقفة الرابعة : فجملة القول فيها أن أمير المؤمنين كرّم الله وجهه أشفق على المذنب إشفاقا شديدا حتى بكى واستبكى ، ثم أمره بالانصراف ولم يقم عليه الحد . وفى هذا ما يدعو إلى التساؤل عن سر هذا التصرف فى تعطيل حد من حدود الله ؟ .

ونبادر إلى القول بأن الإمام رضى الله عنه لا يمكن أن يحكم حكما أو يقضى قضاء إلا وله فى ذلك سند من فقه لا يشوبه هوى ولا تفسده مجاملة ، كما تشهد بذلك سيرته العطرة فى جميع تصرفاته مع عامة المسلمين ومع خاصة أهله وذوى قرباه .

ومبلغ ما يستند المرء إليه فى تسويغ تصرف الإمام كرّم الله وجهه فى هذه القضية ، هو أن الشريعة المحمدية المسماح جعلت من حق الإمام أن

---

(١) الدمدمة : الطحن والإهلاك ، وذلك هو ما أشار إليه الإمام كرم الله وجهه فى قضائه بقذف ذلك المفاحش اللعين من شاهق الجبل .

(٢) هود ٨٢

يستصحب المصلحة فى سياسته رعيته ، وهو على ذلك قوى أمين . وفى ظل هذه القاعدة الشرعية وعلى هديها مضى أمير المؤمنين عمر ، ومضى أمير المؤمنين عثمان . وقد كان القوم يستفتون الإمام فيما يأخذون ويتركون ، فلعله كرّم الله وجهه قد ألقى فى روعه أن ذلك المذنب قد تاب توبة نصوحا ، وأن التوبة النصوح يرضى الله بها عن عبده ، والله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١] وكذلك الآية الكريمة من سورة الفرقان : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ۞ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ۞ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عملاً صَالِحاً فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾[٢] .

فلعل أمير المؤمنين كرّم الله وجهه باستصحابه هذه المعانى التى هو أبو عُذرتها وسيد فقهائها ، لعله رأى أن الله تعالى قد قبل توبة الرجل بما كان قد اختاره من الحرق بالنار لأنه أشد ألوان العذاب ، وإلقاء الله تعالى الحق فى روع[٣] المصطفين من عباده أمر ترضاه الفطرة ، وتقتضيه المصلحة ، ويزكيه الإسلام . وفى الحديث الشريف قد كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر بن الخطاب . على أن ها هنا احتمالا يسوقنا إليه الإيمان بأن

---

(١) التحريم ٨ . (٢) الفرقان ٦٨ — ٧٠

(٣) الروع : — بضم الراء — القلب .

الإمام — كرّم الله وجهه — أجلّ قدرا ، وأعلى منزلة ، وأعرق فقها ، وأشد توقيرا لله من أن يتجهم حدا من الحدود التي يأثرها الثقات عن رسول الله ﷺ .

وخلاصة هذا الاحتمال يرجع إلى توجيه من رسول الله إلى أن الذي يفر من الحد ينبغي لأهل الإيمان أن يتركوه ، كما جاء ذلك في قصة ماعز الأسلمي ، فقد جاء إلى رسول الله ﷺ معترفا بأنه قد فاحش مفاحشة تستحق الرجم بالحجارة حتى يموت . ولكن رسول الله ﷺ أعرض عنه ، فجاء إليه ماعز من شقه الآخر مصرا على اعترافه فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، ثم جاءه ماعز مرة أخرى معترفا أيضا بما كان قد اعترف به أولا ، فيكون قد اعترف أربع مرات ويكون اعترافه على هذه الصورة كشهادة أربعة من الشهود توافرت فيهم العدالة التي تقتضي أن يرجم ماعز . ولم يجد رسول الله ﷺ مندوحة من أن يأمر برجمه ، فأخرج الرجل إلى الحرة وبدأ القوم يرجمونه بالحجارة . فلما وجد مس الحجارة فر يشتد هاربا ، غير أنه لسوء حظه لقيه رجل معه عظمة جمل شديدة حادة فضرب بها ماعزا فقتله . فلما ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ قال : (هلا تركتموه ؟) يشير رسول الله ﷺ بكلمته هذه إلى سقوط الحد بالفرار ، فإذا ضممت إلى ذلك أن رسول الله ﷺ كان يعرض له بالرجوع عن الاعتراف سترا على نفسه ، فإنك سوف ترى أن الشريعة المحمدية المسماح كانت تؤثر الستر على الفضيحة ، أخذا بمفهوم الحديث الشريف : (من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة) . وكذلك الحديث : (إن الله ستير يحب الستيرين) .

هذا ولسنا نزعم أن الرجل الذي قبل أن يحرق بالنار قد رجع عن إقراره الذي رفعه إلى الإمام أول الأمر ، ولكننا نستطيع أن نلفت القادرين على استصحاب روح الشريعة إلى أن يعتبروا بكاء الرجل وما كان يتجلى في وجهه من الرعب وخشية العذاب بالنار ، نستطيع أن نعتبر ذلك بمنزلة الفرار من إقامة

الحد عليه من طريق الإحراق بالنار ، على نحو ما وجد ماعز الأسلمي من مس الحجارة ما دعاه إلى الفرار .

والإمام — كرّم الله وجهه — لا يغيب عنه مثل هذا الاحتمال ، ولأن يلتمس أهل العلم وجها لتصرف الإمام يستند إلى قضاء لرسول الله ويستر عرض مسلم ، خير من أن يترك الأمر للعواطف والرغائب تصرفه كيف تشاء حيث تشاء .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما يرويه العلامة التسترى من أن أمير المؤمنين عمر جيء إليه بخمسة نفر أخذوا فى قضية زنا ، فأمر رضى الله عنه أن يقام على كل واحد منهم الحد . فجاء الإمام كرّم الله وجهه فقال : ليس هذا حكمهم يا أمير المؤمنين . فقال له عمر : أقم أنت الحد عليهم يا أبا الحسن . فقام فقدم واحدا منهم فضرب عنقه ، ثم قدم الثانى فرجمه ، ثم قدم الثالث فضربه الحد ، ثم قدم الرابع فضربه نصف الحد ، ثم قدم الخامس فعزَّزه.فتحير أمير المؤمنين عمر وتحير الناس معه ، فقال له : يا أبا الحسن ، خمسة نفر فى قضية واحدة أقمت عليهم خمسة حدود وليس منها شيء يشبه الآخر . فقال الإمام كرّم الله وجهه : أما الأول فكان ذِمِّيا خرج عن ذمته فلم يكن له حكم إلاالسيف . وأما الثانى فرجل محصن فكان حده الرجم . وأما الثالث فغير محصن فحده الجلد . وأما الرابع فعبد فضربناه نصف الحد . وأما الخامس فمجنون مغلوب على عقله فعزَّرناه .

وقد يذكرنا اختلاف الحكم فى هذه القضية بقضية تضمنتها قصة ذكرها

---

(١) التعزير : — كما فى اللسان — ضرب الجانى دون الحد لردعه ومنعه من المعاودة . وفى ذلك يقول الشاعر :

وليس بتعذير الأمير خزاية عليا إذا ما كنت غير مريب

العلامة الأديب المبرد فى كامله ، وهى أنه تقاذف عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، وعبد الرحمن بن الحكم بن أبى العاص ، فبلغ ذلك معاوية فكتب إلى مروان بتأديبهما ، فضرب مروان عبد الرحمن ثمانين وضرب أخاه عشرين . فقيل لعبد الرحمن بن حسان : لقد ضربك ثمانين وضرب أخاه عشرين فقسى عليك ورحم أخاه ، فارفع إلى أمير المؤمنين معاوية أمرك ، وسينتقم لك من مروان فتشفى صدرك وصدر الذين يعطفون عليك . فقال عبد الرحمن : لا والله لا أفعل ، فإن مروان ضربنى كما يحد الرجال الأحرار ، ثم جعل أخاه على النصف كما يحد العبيد ، فهو بشكرى له أحق منه بلومى إياه .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ما يرويه الثقات من أن أمير المؤمنين عمر جىء إليه بامرأة حامل ليقيم عليها الحد وقد اتهمت عنده بالفجور ، فأمر بها رضى الله عنه أن ترجم ، ولكن رحمة الله ساقت إليها الإمام كرّم الله وجهه فردها عن الحفرة ، ثم قال لأمير المؤمنين عمر : هل أمرت بها أن ترجم ؟. قال نعم ، اعترفت عندى بالفجور . فقال الإمام كرّم الله وجهه : لعلك انتهرتها أو أخفتها . فقال عمر : قد كان ذلك . فقال الإمام : إن رسول الله ﷺ يقول : (لا حد على معترف بعد بلاء) . ومن قيد أو حبس أو هدد فلا إقرار له .

ولم يجد عمر رضى الله تعالى عنه ندحة عن إخلاء سبيلها ، فتركها ثم قال : « عجز النساء أن يلدن مثل على . ثم قال : لولا على لهلك عمر » .

وقد تكررت هذه الكلمة من أمير المؤمنين عمر فى أقضية الإمام كرّم الله وجهه .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ما يرويه الثقة من أن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه جىء إليه بسارق فقطعه ، ثم جىء إليه به مرة ثانية فقطعه ، ثم جىء به

إليه مرة ثالثة فهم بقطعه ، فقال له الإمام : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، فإنك قطعت يده ورجله ، احبسه . فحبسه .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ما رواه الصُّدق ، من أنه جاء رجل إليه فأقر بالسرقة ، فقال له أتقرأ شيئا من القرآن ؟ قال الرجل : نعم أقرأ سورة البقرة . قال الإمام : لقد وهبت يدك لسورة البقرة . فقال الأشعث الكندى : أتعطل حدا من حدود الله يا أمير المؤمنين ؟ قال : وما يدريك ما هذا ؟ . إن البينة إذا قامت فليس للأمير أن يعفو ، ولكن الرجل إذا أقر على نفسه فذاك إلى الإمام : إن شاء عفا وإن شاء قطع .

ولعلك سائل — حفظك الله — عن وجه التفرقة بين ثبوت التهمة من طريق البينة ، وثبوتها من طريق الإقرار : لماذا يؤخذ بذنبه فى حال البينة ، ثم يعفى عنه فى حال الإقرار بالذنب ؟ .

والذى حفظناه عن شيوخ من شيوخ الأزهر الشريف ، أن العفو فى حال البينة ربما أوقع فى النفوس نوعا من الارتياب فيهم والتجريح لهم ، وفى ذلك فساد كبير لا يخفى وجهه على المتأملين .

وأما العفو عن المذنب فى إقراره بالذنب ، فلعله أن يكون من قبيل إقالة أهل المروءات عثراتهم أو تألّف قوم تنتفع الأمة بتأليفهم . والثقة بأمير المؤمنين كرّم الله وجهه لا تأذن لمسلم أن يشك فى قضاياه رضى الله عنه وأرضاه .

* * *

ومن أقضية الإمام كرّم الله وجهه ما ذكره شيخ الإسلام ابن القيم عن الشعبى رحمة الله ، من أن ثلاث جوار اجتمعن فركبت إحداهن على عنق الأخرى ، فقرصت الثالثة المركوبة فقمصت فسقطت الراكبة فوقصت أى كسرت عنقها فماتت . فلما رفع ذلك إلى على رضى الله عنه قضى بالدية أثلاثا

على عواقلهن[1] ، وألغى الثلث الذى يقابل فعل المقتولة لأنها أعانت على قتل نفسها .

وربما دعانا الحرص على المزيد من المعرفة إلى أن نقف بك حول كلمة واقصة التى جاءت فى سياق القصة . وخلاصة القول فى هذه الكلمة أن البناء اللغوى ينبغى أن يكون قائما على اسم المفعول حتى تكون البنت التى ماتت موقوصة لا واقصة ، فذلك هو ما ذكره العلامة الفيومى حيث قال فى المصباح المنير : تقول العرب وقصت الناقة براكبها وقصا : تعنى أنها رمت به فدقت عنقه ، فالناقة واقصة والعنق موقوصة .

وبناء على ما قاله اللغوى المصرى ينبغى أن تكون البنت الثالثة التى قُتلت أحق باسم الموقوصة ، فكيف يطلق عليها أهل اللغة كلمة واقصة « بمعنى اسم الفاعل مع أنها موقوصة » فهى أحق باسم المفعول ؟

وقد أجاب عن سؤالك هذا العلامة أحمد المقرى الفيومى الأندلسى المهاجر إلى مصر — فقال : إن من حق القياس اللغوى أن يقال « الموقوصة » بدلا من « الواقصة » ، ولكن القوم حافظوا على مشاكلة اللفظ حتى تجىء الألفاظ الثلاثة على نمط واحد ، فهن : القارصة والقامصة والواقصة .

ولك — فى مبلغ علمى — أن تقول : إن القوم إنما أطلقوا عليها اسم الفاعل ، مع أنها خليقة باسم المفعول ، من أجل أنها أعانت على نفسها بركوبها على عنق القامصة فكأنها بذلك قتلت نفسها فهى — بهذا الاعتبار واقصة وإن كانت موقوصة .

* * *

ومما ينتظمه سلك أقضيته كرّم الله وجهه ، ما رواه الزبير بن بكار حيث قال : خطب عمر رضى الله عنه أم كلثوم بنت الإمام من فاطمة الزهراء ، فقال

(١) العواقل : قرائب الإنسان من جهة أبيه الذين يشتركون فى احتمال جرائمه .

له:إنها صغيرة . فقال : زوجنيها يا أبا الحسن فإنى أرصد من كرامتها مالا يرصده أحد . فقال : أنا أبعثها إليك فإن رضيتها زوجتكها . فبعثها إليه ببرد وقال لها : قولى له هذا هو البرد الذى ذكره لك أبى . فقالت له أم كلثوم ذلك .

فقال عمر : قولى له قد رضيت البرد الذى بعثت به رضى الله عنك . ثم أجلسها إلى جانبه وجعل يربت على كتفها ، ولكنها — فى حمية هاشمية — قالت له : أتفعل معى هذا ؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك . ثم انصرفت إلى أبيها فأخبرته الخبر وقالت له : لقد بعثتنى يا أبتى إلى شيخ سوء . قال الإمام لها : مهلا يا بنية فإنما هو زوجك .

ووجه القضاء فى هذه القضية ، أن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه إنما ربت على كتفها تأنيسا لها وحرصا على أن يعرف مقدار إدراكها فى مثل سنها ، ولا ريب فى أنه كرّم الله وجهه كان يستصحب فى صنعه هذا أدب رسول الله ﷺ فى الحديث الشريف : (إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى الزواج بها فليفعل) . وقد أقر الإمام كرّم الله وجهه أمير المؤمنين عمر على ما صنع بأم كلثوم ، فأصبح من حق الخاطب بحكم هذا القضاء أن يصنع ما صنعه أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، كما أصبح من واجب أولياء المخطوبة أن يرضوا بما رضيه الإمام على كرّم الله وجهه .

ثم إن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه جاء إلى الروضة الشريفة حيث كان يجلس فيها مع قدامى المهاجرين ، ثم قال لهم رضى الله عنهم : رفئونى ، رفئونى : أى قولى لى بالرفاء . فقالوا له بم يا أمير المؤمنين نرفئك ؟ . قال : تزوجت أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، لأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (كل سبب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى وصهرى) فتزوجت أم كلثوم .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ما يأثره الثقات عن الإمام جعفر الصادق قال : إن رجلا أتى بامرأة إلى عمر فقال : ياأمير المؤمنين هذه امرأتى ، وهى — كما ترى — سوداء وأنا أسود ، وقد ولدت لى غلاما أبيض . فالتفت أمير المؤمنين عمر إلى الحاضرين فى مجلسه قائلا لهم : ما ترون؟ قالوا : نرى أن ترجمها . فأمر عمر بأن ترجم ، وفيما هى فى الطريق إلى الحفرة أقبل الإمام ، ثم سأل فحدثوه بما قال الأسود وبما أمر به أمير المؤمنين . فقال الإمام للأسود : أتتهم امرأتك؟ قال الرجل : لا . فمضى الإمام يسأل حتى قال : هل أتيتها وهى طامس؟ قال الرجل لقد قالت لى فى ليلة : إنى طامس . فظننت أنها تتقى البرد فوقعت عليها . فتوجه الإمام للمرأة بالسؤال : هل أتاك وأنت طامس؟ قالت الزوجة : نعم . واسأله إننى قد خرجت عليه وأبيت أن أطاوعه . قال الإمام : انطلقا والمولود ابنكما . وإنما غلب الدم النطفة .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما كان يتحدث به جابر الأنصارى رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى على كرّم الله وجهه فقال : إنى كنت أعزل عن امرأتى وقد جاءت بولد مع ذلك . فقال الإمام للرجل : أنشدك الله هل أتيتها ثم عاودتها قبل أن تبول ؟ قال الرجل : نعم ، فعلت ذلك » . فأجابه الإمام : إذن فالولد لك .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما رواه الثقة عن الإمام الصادق — رضى الله عنه — قال : جىء إلى أمير المؤمنين على بامرأة بكر زعموا أنها فاحشت ، فأمر — كرّم الله وجهه — النساء فنظرن إليها فقلن إنها عذراء . فخلى الإمام سبيلها قائلا : ما كنت لأضرب امرأة عليها من الله عز وجل خاتم . وكان رضى الله عنه يجيز شهادة النساء فى مثل تلك القضية .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه — ما صح عن محمد الباقر بن على بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب قال : جيء إلى أمير المؤمنين على بامرأة مع رجل قد فجر بها ، فقالت المرأة لقد استكرهنى والله يا أمير المؤمنين . فدرأ عنها الحد .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ، أن امرأة شهد عليها الشهود بأنهم وجدوا فى بعض مياه العرب رجلا معها يفاحشها وليس بعلا لها . فأمر عمر برجمها . فقالت : اللهم إنك تعلم أنى بريئة . فغضب عمر ثم قال : تفاحشين ثم تجرحين الشهود أيضا ؟ فلما جاء الإمام سئل عن تلك القضية فقال : ردوها فاسألوها فلعل لها عذرا يقبل . فردت المرأة وسئلت فقالت : كان لأهلى إبل فخرجت فى إبلهم وحملت معى ماء ولم يكن فى إبل أهلى لبن ، وخرج معى خليطنا وكان فى إبله لبن . فنفد ما كان معى من ماء فاستسقيته فأبى أن يسقينى حتى أمكنه من نفسى ، ولكننى أبيت . فلما كادت نفسى تخرج من شدة الظمأ أمكنته تحت سلطان الإكراه . فقال الإمام — كرّم الله وجهه : « الله أكبر » . ثم تلا : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١) . فلما انتهت القضية إلى أمير المؤمنين عمر ، خلى سبيل المرأة .

هذا ، ولسنا نستطيع أن نجاوز هذه الصورة من أقضية الإمام ، دون أن نقف حيالها وقفات لا نرى منها بدا ولا عنها ندحة .

وأولى هذه الوقفات حول الآية الكريم التى ذيل بها الإمام قضاءه : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١) .

فإن هذه الآية ونظيرتين لها وردن فى معرض المضطر إلى الطعام ، وأولاهن

(١) البقرة ١٧٣

قول الله جل ثناؤه فى سورة البقرة : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١) .

وثانيتهن قول الله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(٢) .

وثالثة الآيات قوله تعالى فى سورة النحل : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(٣) .

وهذ الآيات الثلاث أبحن للمضطر إلى طعام محرم بنصوص هذه الآيات ، أن يأخذ منه ما يسد الجوعة ويستبقى المهجة على ما تشير إلى ذلك الكلمتان : ﴿ غير باغ ﴾ ﴿ ولا عاد ﴾ . فإن المراد بالكلمة ﴿ غير باغ ﴾ : أن لا يبغى الجائع المضطر على جائع مضطر مثله ، وكذلك المراد بالكلمة ﴿ ولا عاد ﴾ .

والمعنى — على ذلك — أن من ألجاته الضرورة إلى استبقاء حياته بالأكل من هذه المحرمات المذكورة فى هذه الآيات الثلاث ، فإن له أن ينال من هذا الذى حرم الله ما يمسك عليه حياته ، بشرط أن لا يبغى على مضطر مثله ، وأن لا يتجاوز حاجته إلى ما وراءها .

وثانية الوقفات أن أمير المؤمنين عمر — رضى الله عنه — وافق الإمام عليا كرّم الله وجهه ، ولم ينكر هذا القضاء أو يتجهمه أحد من أصحاب رسول الله

---

(١) البقرة ١٧٣ (٢) الأنعام ١٤٥ (٣) البقرة ١٧٣

ﷺ . فدل ذلك على أن هذا القضاء لا غبار عليه ، فإن أصحاب رسول الله ﷺ لا يجتمعون على حكم يخالف الإسلام .

وفى تسويغ هذه الصورة من أقضية الإمام كرّم الله وجهه ، يقول ثقه فاضل : إن ها هنا أمرين لا بد من ملاحظتهما :

أحدهما قول الخليط : لن أسقيك إلا بتمكين منك .

وثانيهما : أن المرأة قبلت ذلك ، وباجتماع الأمرين أحدهما إلى الآخر تدخل القضية فى إطار زواج المتعة ، وهو زواج شرع للضرورة كما يقرر ذلك الإمام الجليل ابن القيم ، فى كتابه « زاد الميعاد فى هدى خير العباد » .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما يأثره أهل الثقة من أنه قد جيء إلى عمر برجل وامرأة ، فقال الرجل للمرأة : « يا زانية » . فأجابته المرأة بقولها : « أنت أزنى منى » . فأمر عمر رضى الله عنه بأن يجلد كل منهما ثمانين جلدة حد القذف . ولكن الإمام — كرّم الله وجهه — قال فى المجلس : لا تعجلوا . ثم قضى على المرأة بأن يقام عليها حدان ، وقرر أن الرجل لا شيء عليه . ثم علل ذلك القضاء بقوله إن على المرأة حدا لقاء افترائها وحدا آخر لقاء إقرارها على نفسها ، غير أنها لا يصار بها إلى غاية الحد .

ومعنى ذلك أنها لا تضرب حد المفاحشة كاملا لأن من الحد الكامل الإقرار أربع مرات ، على ما جاء فى الكتاب العزيز من قوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾(١) يعنى لعاجلكم بالعقوبة ، ولكنه تعالى

(١) النور ٨ — ١٠

لم يعاجلكم بها لفضله ورحمته ومقتضى حكمته وإيثاره لأهل الإيمان التوبة على العقوبة وسوء الأحدوثة .

هذا ، وإذ لم يأذن الشارع بإقامة الحد عليها لعدم توافر الشروط ، فإن الأمر قد عاد إلى التعزير والتعزير لا يبلغ إلى منزلة الحد . هذا ما يتصل بشأن المرأة فى هذا القضاء ، وأما ما يتصل بشأن الرجل فإنها بإقرارها على نفسها أسقطت حد القذف عن الرجل .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ـــ قضاء ما قضى به أحد قبله ، وكان ذلك أول ما قضى به بعد رسول الله ﷺ . وذلك أنه لما قبض رسول الله وأفضى الأمر إلى أبى بكر ، جيء إليه برجل شرب الخمر . فقال له أبو بكر : هل شربت الخمر ؟ فقال الرجل : نعم شربتها . فعاد أبو بكر يسأله : ولم تشربها وهى محرمة ؟ قال الرجل : لقد أسلمت يا خليفة رسول الله ومنزلى بين ظهرانى قوم يشربون الخمر ويستحلونها . ولو علمت أنها حرام لاجتنبتها . فالتفت أبو بكر رضى الله عنه إلى عمر قائلا له : ما تقول يا أبا حفص فى أمر هذا الرجل ؟ فقال عمر رضى الله عنه : معضلة ليس لها إلا أبو الحسن . فدعا أبو بكر بغلام ثم أمره أن يّذهب إلى الإمام فيدعوه إليه ، غير أن عمر رضى الله عنه قال : « يؤتى الحكم فى منزله » . ثم قام عمر ومعه أبو بكر وسلمان الفارسى فأخبروا الإمام بقصة الرجل . فقال ـــ كرّم الله وجهه ـــ لأبى بكر رضى الله عنه : ابعث مع الرجل من يدور به على مجالس المهاجرين والأنصار . فمن كان قد تلا عليه آية تحريم الخمر فليشهد عليه ، فإن لم يكن من يشهد بذلك فعليهم أن يتلوا عليه آية التحريم ثم لا شيء عليه بعد . ففعل أبو بكر ما أشار به الإمام ولكن أحدا لم يشهد عليه ، فخلى سبيله .

وهنا تحمس سلمان رضى الله عنه فقال : لقد أرشدتهم وكأنه إنما أراد أن يعترض على قضاء الإمام . فقال — كرّم الله وجهه : إنما أردت أن أجدد تأكيد هذه الآية فيّ وفيهم : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾(١) . ثم توجه بالحديث — كرّم الله وجهه — إلى سلمان ومظاهرية على رأيه فتلا عليهم قول الله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾(٢) .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما يرويه الإمام الباقر رضى الله عنه قال : جيء إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بقدامه بن مظعون وقد شرب الخمر ، فشهد عليه رجلان أحدهما خصى وهو عمرو التميمى ، والآخر المعلى بن جارود ، فشهد أحدهما أنه رأى قدامه يشرب الخمر ، وشهد الآخر أنه رآه يقيء الخمر . فأرسل أمير المؤمنين عمر إلى أناس من الصحابة فيهم الإمام على فقال له : ما تقول يا أبا الحسن فى هذه القضية ، فإنك الذى قال فيك رسول الله ﷺ : إنك أعلم هذه الأمة وأقضاها بالحق . وقد اختلف هذان الرجلان فى شهادتهما على قدامة بن مظعون . فقال الإمام كرّم الله وجهه : إنهما لم يختلفا فى شهادتهما ، فقد شرب الخمر فشهد عليه عمرو التميمى بأنه رآه يشرب ، ثم شهد الآخر بأنه رآه يقيء الخمر . فالذى قاءه هو الذى شربه فهما لم يختلفا فى شهادتهما عليه .

(١) المائدة ٩٠ ، ٩١ (٢) يونس ٣٥

فسأله أمير المؤمنين عمر : هل تجوز شهادة الخصى يا أبا الحسن ؟

فأجابه — كرّم الله وجهه قائلا : ما ذهاب لحيته إلا كذهاب بعض أعضائه ، فلا مانع من إمضاء شهادته .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه قضاؤه فى مولود تنازعه ثلاثة نفر كلهم يدعيه لنفسه ، وكان أولئك الثلاثة قد وقعوا على أم ذلك الولد فى طهر واحد . فدعا كرّم الله وجهه باثنين منهم فقال لهما : طيبا لهذا بالولد . قالا : « لا » . ثم قال لاثنين : طيبا بالولد لهذا : فقالا : « لا » . ثم قال لاثنين آخرين : طيبا بالولد لهذا . فقالا : « لا » . فقال لهم كرّم الله وجهه : « أنتم شركاء متشاكسون ، وإنى أقرع بينكم فمن قرع فله الولد وعليه لصاحبيه ثلثا الديه » . ثم أقرع بينهم فجعله لمن صارت له القرعة ، وجعل لصاحبيه عليه ثلثى الديه .

فلما ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ، وقد ذهب إلى القول بهذا الحديث إسحاق بن راهويه قائلا : إنه السنة فى دعوى الولد . وكان الشافعى رضى الله عنه يقول به فى القديم ، وأما الإمام أحمد فرجح عليه حديث القافة(١) قائلا : « حديث القافة أحب إلى » .

قال الإمام ابن القيم : وها هنا أمران أحدهما دخول القرعة فى النسب ، وثانيهما تغريم من خرجت له القرعة ثلثى دية ولده لصاحبيه . وكل من الأمرين بعيد عن القياس على ما ذكر ذلك أهل العلم ، فيقال لهم القرعة قد يستعملونها عند فقدان مرجح سواها من بينة أو إقرار أو قافة . وليس ببعيد تعيين المستحق بالقرعة فى هذه الحال ، إذ هى غاية المقدور عليه من أسباب ترجيح الدعوى ، ولها دخول فى دعوى الأملاك المرسلة التى لا تثبت بقرينة ولا أمارة ، فدخولها فى النسب الذى يثبت بمجرد الشبه الخفى المستند إلى قول القائف أولى وأحرى .

(١) القافة جمع قائف وهو الذى يعرف شبه الرّجل بأخيه وأبيه .

وأما أمر الدية فمشكل جدا ، فإن هذا ليس بقتل يوجب الدية وإنما هو تفويت نسبه بخروج القرعة له . فيمكن أن يقال : وطء كل واحد صالح لجعل الولد له وقد فوته كل واحد منهم على صاحبه لوطئه ، ولكن لم يتحقق من كان له الولد منهم . فلما أخرجته القرعة لأحدهم صار مفوتا لنسبه على صاحبيه فأجرى ذلك مجرى إتلاف الولد ، ونزل الثلاثة منزلة أب واحد ، فحصة المتلف منه ثلثي الدية ، إذ قد عاد الولد له فيغرم لكل من صاحبيه ما يخصه وهو ثلث الدية .

قال شيخ الإسلام ابن القيم : ووجه آخر أحسن من هذا وهو أنه لما أتلفه عليهما بوطئه ولحوق الولد به ، وجب عليه ضمان قيمته . وقيمة الولد شرعا هي ديته ، فلزمه لهما ثلثا قيمته وهي ثلثا الدية ، وصار هذا كمن أتلف عبدا بينه وبين شريكين له ، فإنه يجب عليه ثلثا القيمة لشريكيه ، فإتلاف الولد الحر عليهما — بحكم القرعة — كإتلاف الرقيق الذى بينهم .

وهذا من ألطف ما يكون من القياس وأدقه ، ولا تهتدى إليه إلّا أفهام الراسخين فى العلم . وليس فى الشريعة شيء يخالف القياس ، وليس فى المنقول عن الصحابة مما لا يعلم لهم فيه مخالف كذلك ، وأن القياس الصحيح دائر مع أوامر الشريعة ونواهيها وجودا وعدما ، كما أن المعقول الصحيح دائر مع أخبارها وجودا وعدما ، فإن الله تعالى لم يخبر لا هو ولا رسوله ﷺ بما يناقض صريح العقل ، ولم يشرع سبحانه ما يناقض الميزان والعدل .

* * *

ومن أقضيته التى يتلقاها أهل العلم بالقبول القائم على الإعجاب بعمله والإذعان لفضله ، قضاؤه كرّم الله وجهه الذى رواه القرطبى عن الشعبى حيث يقول : بلغ عمر بن الخطاب أن امرأة من قريش تزوجها رجل من ثقيف فى عدتها ، فاستقدمها عمر مع زوجها وفرق بينهما قائلا له : « لا تتزوجها

أبدا » . ثم جعل أمير المؤمنين عمر صداقها فى بيت المال . وقد فشا ذلك فى الناس ، فلما بلغ الإمام — كرّم الله وجهه — جعل يقول : « يرحم الله أمير المؤمنين عمر . ما بال الصداق وبيت المال ؟ إنما جهل الزوجان فعلى الإمام أن يردهما إلى السنة » .

فقال له قائل : « فما تقول أنت فيهما ؟ . فقال : لها الصداق بما استحل منها ويفرق بينهما ، ولا جلد عليهما . وعليها أن تكمل عدتها من الأول ثم تعتد من الثانى عدة كاملة ثلاثة أقراء ، ثم يخطبها الرجل إن شاء » . فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر خطب الناس فقال : « أيها الناس ، ردوا الجهالات إلى سنة رسول الله ﷺ ، وليس لأحد أن يفتى فى المسجد وعلى حاضر » .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه تحديده كلمة حين بستة أشهر ، فقد جيء إليه برجل نذر أن يصوم حينا من الدهر ولم يعين وقتا محددا ، فقضى الإمام أن يصوم الناذر ستة أشهر ثم تلا قول الله جل ثناؤه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(١) . فكلمةُ حين فى هذه الآيةِ حددها الإمامُ بستة أشهر .

وننتهز بك هذه السانحة لنروى لك ما ذكره العلماء فى تحديد معنى كلمة « حين » . وليس يخفى عليك أن هذه الكلمة وردت فى الكتاب العزيز أكثر من مرة بأكثر من معنى ، وجماع هذه المعانى أن الحين وقت بلوغ الشيء وحصوله ، وهو مبهم المعنى وإنما يخصصه ما يضاف إليه ، فهو حينا يجيء بمعنى أجل الشيء نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾(٢) .

---

(١) إبراهيم ٢٥ (٢) يونس ٩٨

وقد يجيء بمعنى الوقت من ليل أو نهار على ما فى الآية الشريفة من سورة الروم : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾(١) .

فالحين فى هذه الآية هو الوقت ، وربما ذكر بعض أهل العلم أن هذه الآية من هذه السورة قد حددت أوقات الصلوات الخمس . وقد تجيء كلمة « حين » للزمان المطلق : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾(٢) . وكذلك قوله من سورة — ص — : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾(٣) .

فالحين فى هذه الآيات ليس له حد فى نفسه يأخذ الإنسان به وينزل على مقتضاه ، وإنما يفهمه بحسب الأحوال المستفادة من إضافة هذه الكلمة إلى ما بعدها أو إلى القرائن من الوقائع والأحداث فى الزمان والمكان .

وعلى ذلك جاءت هذه الآية الكريمة مشيرة إلى النخلة ، فكلمة حين مقترنة بالنخلة تعنى الوقت من جداد النخلة وقطع ثمرتها إلى استئناف حملها من جديد ، ومقدار ذلك ستة أشهر كما جاء فى تفسير الإمام كرّم الله وجهه . وقد حكى عكرمة رحمه الله أن رجلا قال : إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامى حر . ثم أتى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فسأل عكرمة ، فقال عكرمة : إن من الحين حينا لا يدرك معناه ، كقوله تعالى ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾(٤) ثم قال للرجل المستفتى : أرى أن تمسك غلامك ما بين صرام النخلة إلى حملها . وقد أعجب ذلك أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز . ومبلغ العلم بتلك الفتوى من عكرمة أنه قد أخذها عن

(١) الروم ١٧ ، ١٨   (٢) الإنسان ١   (٣) ص ٨٦   (٤) الأنبياء ١١١

الإمام على كرّم الله وجهه ، فالأمر فى تفسير الحين بستة أشهر عنه أخذ وإليه يرد ، رضى الله عنه وعن آل بيته أجمعين .

* * *

ومن أقضية الإمام قضية ليس لها إلا مثله — كرّم الله وجهه — وخلاصة هذه القضية أن امرأة حرة تزيت بزى الإماء ثم راحت تلتمس رجلا كانت تريده ، وما زالت به حتى واقعها معتقدا أنها جاريته ، فلم يتبينها والرغبة جامحة والظلام شديد . فلما رفع أمرها إلى أمير المؤمنين عمر أرسل إلى الإمام على يستفتيه ، فقال له — كرّم الله وجهه : « اضرب الرجل حدا فى السر ، واضرب المرأة حداً فى العلانية .

ولعل وجه التفرقة أن الرجل قد أتى ما أتى جاهلا حقيقة المرأة ، ولعله لو كان قد تبينها وعلم أنها ليست جاريته لأبى أن يفاحشها . وهذا الفرض يجعله غير مستخف بأوامر الله ونواهيه ، فلا ضرورة فى هذه الحال للتشهير به بين الناس . وأما المرأة فإنها قد فاحشت استجابة لرغبة آثمة وتوسلت إلى هذه الرغبة بالغش والخداع ، فكان من العدل أن يفرق بين الحالين فيضرب الرجل فى السر وتضرب المرأة فى العلانية ، ورضى الله عن الإمام الجليل وكرّم الله وجهه .

* * *

هذا ، ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما يرويه الثقة عن الإمام جعفر الصادق قال : شاعت فى الناس شائعات عن امرأة تفاحش ، فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فبعث إليها فروعها ثم أمر أن يجاء بها إليه . ففزعت المرأة فزعا شديدا حتى أخذها الطلق فذهبت إلى بعض الدور فولدت غلاما ، فاستهل الغلام ثم مات . فدخل على عمر من الروعة بموت الغلام فى هذه الحال ما شاء الله ، فقال له بعض جلسائه : لا عليك يا أمير المؤمنين . غير أن عمر رضى الله

عنه لم يقبل هذا القول من جلسائه بل طلب إليهم أن يسألوا عليا . فقال لهم — كرّم الله وجهه: إن كنتم قد اجتهدتم فما أصبتم، ولئن كنتم قلتم برأيكم لقد أخطأتم . ثم قال : إن على أمير المؤمنين دية الصبي .. عتق رقبة لوجه الله تعالى . ففرح أمير المؤمنين عمر وأخذ الصحابة برأى الإمام ، على أن الإمام ابن أبى الحديد روى الخبر مرسلا ، وفيه أن على عمر غرة تؤدى من بيت مال المسلمين عبدا كانت أو أمة .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما روى عن جعفر الصادق من قوله إن أمير المؤمنين عليا — كرّم الله وجهه — قضى فى امرأة زوجها وليها وهى برصاء ، فقال إن لها المهر بما استحل منها ، وأن المهر على الذى زوّجها .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — أن امرأة حرة دلس عليها عبد فتزوجها وهى تظن أنه حر وإن كان عبدا فى حقيقة أمره ، فقضى فى هذه الواقعة الإمام بأن يفرق بينهما إن شاءت المرأة التفريق ، وإلا ظلت زوجة له .

* * *

ومن أقضيته أن رجلا كاتب مملوكه على قدر من المال يدفعه إليه منجما ، فإذا قضى نجومه نال حريته . غير أن المملوك المكاتب جاء بالمال كله إلى سيده ضربة واحدة وسأله أن يأخذ المال ويجيز عتقه ، فأبى السيد إلا أن يأخذ ماله منجما « مقسطا » . فقضى الإمام — كرّم الله وجهه — بأن الشرط أحق بالإمضاء ، فعلى المكاتب أن يحترم شرطه فيقضى كتابته أقساطا ، وللسيد أن يرفض أخذ المال دفعة واحدة .

وليس يخفى عليك حفظك الله وجه الحق فى هذا القضاء الشريف ، إذ كان أداء مال الكتابة على سبيل التقسيط والتنجيم يمكن السيد من الانتفاع

بمملوكه زمنا أطول مما لو قبل مال الكتابه ضربة واحدة . فإن الملك يزول عن المملوك فى هذه الحال فيزول الانتفاع به ، وقد يكون السيد محتاجا إليه .

* * *

ومما يرويه الثقات من قضاء الإمام ، القوم يغرقون فى السفينة أو يقع عليهم البيت فيموتون دون أن يعرف أيهم مات قبل صاحبه . فقال الثقة إن قضاء الإمام فى هذه المسألة أن يورث بعضهم من بعض ، كما هو فى كتاب الإمام الذى تركه للناس كرّم الله وجهه ورضى عنه .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما روى عن الإمام الباقر من قوله : قضى أمير المؤمنين على فى رجل شهد عليه رجلان بأنه سرق فأمر بقطع يده ، حتى إذا كان بعد ذلك جاء الشاهدان برجل آخر زعما أنه هو الذى سرق وأنهما أخطآ فى نسبتهما السرقة إلى الذى قطعت يده . فغضب الإمام أشد الغضب ثم غرم الشاهدين نصف الدية ولم يجز شهادتهما على الآخر .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما يرويه الثقة مرفوعا إليه ، أن الإمام قضى فى رجل وامرأة ماتا معا فى الطاعون على فراش واحد ، ويد الزوج تضم الزوجة إلى صدره . فجعل الميراث للرجل قائلا إنها ماتت قبله ، ثم لحقها هو فمات بعدها .

وليس لقائل أن يقول إن الإمام قضى فى هذه الواقعة بعلمه دون بيّنة ودون يقين . ذلك أن وجود يد الزوج على الزوجة فى فراش الزوجية يعطى العلم اليقينى بأنها هى السابقة إلى الموت ، وأنه هو اللاحق بها .

ولعل يده على هذه الصورة التى رويت للإمام تشير لذوى العقول بأن المرأة

قبل أن تموت بدا منها ما يشبه الاستغاثة به فحاول ضمها إلى صدره ، وكأنه يحاول أن يحول بينها وبين الموت وذلك لا يخفى على بصير بأحوال الأزواج .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — أن رجلا كاتب مملوكا له مشترطا عليه أن ميراثه له ، فلما رفع ذلك إليه أبطل شرطه قائلا له : إن شرط الله قبل شرطك .

* * *

ومن أقضيته التى تنظر إلى بعيد قضاؤه بأن لا يقام على أحد حد بأرض العدو . وليس يخفى وجه الحكمة فى هذا القضاء ، إذ كان من الميسور المحتمل أن يحقد المحدود على قومه ، وقد يحمله الحقد على أن يفر إلى العدو يكشف له عن العورات ويدلهم على ما يؤذى قومه ويسوؤهم .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — أنهم قدموا إليه رجلا يستحق القطع فأمر به أن تقطع يمينه ، فقدموا شماله فقطعوها وهم يحسبونها يمينه . ثم قدموه لتقطع يمينه فقالوا إنما قطعنا شماله . فقال — كرّم الله وجهه : لا تقطعوا يمينه وقد قطعت شماله .

* * *

ومن قضائه أنه رفض قطع سارق البيضة من الغنيمة ، قائلا لمن قدموه للقطع : إنى لا أقطع أحدا له فيما أخذ شرك .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — قضاؤه فى السارق إذا قبض عليه وقد أخذ المتاع دون أن يخرج به من البيت ، فقال — كرّم الله وجهه — : ليس على هذا قطع حتى يخرج بالذى سرق من الدار .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما يرويه الثقة عن الإمام جعفر الصادق أنه قال : جيء إلى أمير المؤمنين على بطرار[1] طر دراهم من كم رجل ، فقال الإمام :

إن كان النشال قد نشل الدراهم من قميص الرجل الداخلى قطعته ، وإن كان قد نشلها من قميصه الأعلى لم أقطعه . فلما حققوا الأمر وجدوه قد نشل الدراهم من قميصه الداخلى ، فأمر بقطعه فقطعت يده . وليس يخفى وجه الفرق بين طر الدراهم من القميص الداخلى وبين طرها من القميص الخارجى ، إذ كانت الدراهم فى القميص الداخلى مصونه فى حرز حريز ، بخلاف ما إذا كانت فى القميص الخارجى فإنها على غير ذلك من الحفظ والصيانة .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — أنه لا قطع على أربعة : أحدهما المختلس ، وثانيهما الغال[2] ، وثالثهما السارق من الغنيمة ، ورابعهم الأجير .

* * *

ومن قوله فى هذا الباب — كرّم الله وجهه — : إذا سرقنى عبدى لم أقطعه فإذا سرق غيرى قطعته — وكذلك عبد الأمان إذا سرق لم أقطعه لأنه فىء .

* * *

ومن قضائه — كرّم الله وجهه — فيمن قتل وشرب الخمر وسرق : وقام عليه الحد فأمر بجلده لشربه الخمر ، ثم قطع يده فى سرقته ، ثم قتله بما قتل .

* * *

(١) الطرار : بلغة عصرنا الحاضر هو النشال .
(٢) الغال : الخائن .

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما يرويه الثقة من أنه جيء إليه برجل فقال : هذا قذفني . ولم تكن له بينة فقال : يا أمير المؤمنين استحلفه . فقال الإمام : لا يمين فى حد ، ولا قصاص فى عظم .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما يرويه الثقات من أنه جيء إليه برجل استوجب حدا ، فأمر الإمام خادمه قنبرا أن يضربه الحد ، فغلط قنبر فزاده ثلاثة أسواط ، فأمر الإمام المضروب بأن يقتص من قنبر فيضربه ثلاثة أسواط .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — أن تستوفى الدية فى القتل الخطأ فى ثلاث سنوات ، وأن تستوفى دية العمد فى سنة واحدة . وكان يقول ، قضاء ماضيا : من ضربناه حدا من حدود الله فمات ، فلا دية له علينا . ومن ضربناه فى حقوق الناس فمات ، فديته علينا .

* * *

ومن أقضيته — فيما روى عن الصادق : أنه جلد رجلا افترى على جماعة ، فجلده حدا واحدا .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — أنه قد اختصم إليه رجلان اشترى أحدهما من الآخر بعيرا واستثنى البائع رأس البعير وجلده ، ثم بدا للمشترى أن ينحر البعير فقال الإمام للمشترى : هو شريكك فيه على قدر الرأس والجلد .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — أنه جلد الوليد بن عقبة بسوط له شعبتان أربعين جلدة ، فقد اعتبر كل شعبة سوطا فيكون قد جلده ثمانين جلدة هى حد شرب الخمر .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه قوله فى صغار قتل أبوهم : إن قاتل أبيهم لا يقتل حتى يكبر صغاره ، فإذا بلغوا فإن أحبوا أن يقتلوا قاتل أبيهم قتلوه ، وإن أحبوا أن يعفوا عنه أو يصالحوه كان لهم ذلك .

* * *

ومن أقضيته قضاؤه برد شهادة شاهدين من اليهود إذا شهدا على يهودى بأنه أسلم . ووجه ذلك عنده كرّم الله وجهه أنهما يجيزان تغير كلام الله وشهادة الزور . فلما سئل عن شاهدين من النصارى شهدا على نصرانى أو مجوسى أو يهودى بأنه أسلم ، أجاز قبول شهادتهما قائلا : إن الله يقول فى النصارى ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[1] ثم قال كرّم الله وجهه : إن من لا يستكبر عن عبادة الله لا يشهد الزور .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه أن جاريتين دخلتا إلى حمام فافتضت إحداهما الأخرى بأصبعها ، فلما رفع الأمر إليه قضى على التى فعلت ذلك بدية البكارة للمجنى عليها .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ما ذكره الإمام جعفر من أنه جىء إلى الإمام على برجلين قذف كل واحد منهما صاحبه باللواط ، فدرأ عنهما الحد وعزرهما .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه فى رجل دعىٰ آخر بابن المجنون ، فقال له

---

(١) المائدة ٨٢

الآخر أنت ابن المجنون . فأمر الإمام أول الرجلين أن يجلد صاحبه عشرين جلده ، فلما جلده أعطى المجلود السوط فجلده عشرين جلدة . وكان ذلك تنكيلا بهما كليهما .

* * *

ومن أقضيته فيما كان يرويه جعفر الصادق أن الإمام كرّم الله وجهه نهى أن يشترى مشتر شبكة الصياد ، على أن يقول له اضرب شبكتك فما خرج منها فهو من مالى بكذا وكذا .

ولعل وجه نهيه — كرّم الله وجهه — أن ها هنا بيع غرر لعدم تعين السلعة ومعرفة الثمن ، وذلك قد يفضى إلى التنازع الذى ضره أكثر من نفعة وشره أخطر من خيره .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه قضاء ينتمى إلى قاعدة كلية تقول : لو أن رجلا أراد الحج فعرض له مرض أو خالطه سقم فلم يستطع الخروج ، لكان له أن يجهز رجلا من ماله ثم يبعثه مكانه .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه قضية خلاصتها أن عبدا قتل حرا خطأ ، فلما علم سيد العبد بجناية عبده أعتقه ، ثم لما رفعت القضيه إلى الإمام أجاز العتق وضمن سيد العبد دية القتيل .

* * *

ومن أقضيته قضاؤه بأن لا يقتل الوالد إذا قتل ولده ، ولكن يقتل الولد إذا قتل والده .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه فى رجل قلّد خاتم الخلافة على عهد أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، وقد أصاب الرجل بهذا الخاتم الزور مالا من خراج الكوفة .. فلما أفضى الأمر إلى أمير المؤمنين عمر صلى بالناس صلاة الصبح ، ثم ذكر لهم القصة طالبا رأيهم فى هذا المزور الغشاش المستولى على مال حرام . فقال بعض القوم تقطع يده ، وقال البعض الآخر يصلب . وكان الإمام حاضراً يستمع ولا يتكلم ، فسأله عمر : ما تقول يا أبا الحسن ؟ فقال كرّم الله وجهه : رجل كذب كذبا فيعاقب فى جسده . فأمر به عمر فضرب ضربا شديدا ثم حبسه .

* * *

ومن أقضيته ما يرويه الثقة عن الأصمعى رحمه الله ، قال : أخذ الإمام على رضى الله عنه قوما بسرقة فحبسهم ، ثم جاء رجل فقال : يا أمير المؤمنين إنى كنت معهم وقد تبت إلى الله . فأمر الإمام بحده حد السرقة ثم أنشد قول الشاعر :

وأدخل رأسه لم يدعه أحد بين القرينين حتى لزه القرن

ووجه تمثله بهذا البيت كرّم الله وجهه أن هذا الذى جاء يزعم أنه تاب من جريمة قد اقترفها مع قوم آخرين ، إنما مثله كمثل اثنين وضعا فى حبل واحد ، فجاء ثالث متطوعا فأدخل رأسه فى الحبل بين القرينين ، فكان كمثل صاحبيه ، وقد جمع الثلاثة حبل واحد .

* * *

ومن أقضيته ما يرويه الإمام جعفر قال : إن أمير المؤمنين عليا قال : إذا ماتت المرأة وفى بطنها ولد يتحرك ، فإن بطنها يشق ليخرج منه الولد . وقال فى المرأة يموت فى بطنها الولد فيخاف عليها من ذلك : لا بأس بأن يدخل يده فيقطع الجنين الميت ويخرجه ، إذا لم ترفق به النساء .

وقد علق المسعودى رحمه الله على قضاء الإمام فى موت الأم واستخراج الجنين من بطنها حيا ، فقال إن من هؤلاء الذين ماتت أمهاتهم وشقت بطونهم واستخرجت منها الأجنة أحياء ، قيصر الروم . ومن هؤلاء فى العرب ، خارجة بن سنان من غطفان ، وهو أخو هَرِم بن سنان ممدوح زهير بن أبى سلمى . وفى خارجة بن سنان هذا ذكر ابن قتيبة أنهم يقولون عن خارجة إنه بقير غطفان ، لأنه استخرج من بطن أمه من بعد أن هلكت .

* * *

ومن أقضيته إجاباته عن أسئلة توجه إليه محتاجه إلى مزيد من الفهم والفطانه .

فمن ذلك ما يروونه من أن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ جلسوا يتذاكرون ، فتذاكروا حروف الهجاء وأجمعوا على أن الألف أكثر دخولا فى الكلام من سائر الحروف . فقام الإمام كرّم الله وجهه فخطب على البديهة خطبة قال فيها : « حمدت وعظمت مَن عَظُمت مِنَّته ، وسبغت نعمته ، وسبقت رحمته غضبه وتمت كلمته ، ونفذت مشيئته .. حمدته حمد مقر بربوبيته ، متخضع لعبوديته ، متنصل من خطيئته ، معترف بتوحيده مؤملٍ من ربه مغفرة تنجيه ، يوم يشغل عن فصيلته وبنيه ، ونستعينه ونسترشده ونستهديه ونؤمن به ونتوكل عليه ، وشهدت له تشهد مخلص موقنٍ ، وفردته تفريد مؤمن متيقن ، ووحدته توحيد عبد مذعن ليس له شريك فى ملكه ، ولم يكن له وليّ فى صنعه جل مشير ووزير ، وعون ومعين ونظيرٌ . علم فستر ، ونظر فخبر ، وملك فقهر ، وعُصِى فغفر ، وحكم فعدل . لم يزل ولن يزول ، ليس كمثله شيء وهو قبل كل شيء وبعد كل شيء ، متفرد بعزته ، متمكن بقوته ، متقدس بعلوه ، متكبر بسموه ، ليس يدركه بصر ، وليس يحيط به نظر ، قوى منيع بصير ، سميع حليم حكيم ، رءوف رحيم ، عجز عن

وصفه من يصفه ، وضل عن نعته من يعرفه . قرب فبعد ، وبعد فقرب ، يجيب دعوة من يدعوه ، ويرزقه ويحبوه . ذو لطف خفى ، وبطش قوى ، ورحمة موسعة ، وعقوبة موجعة ، رحمته جنة عريضة مونقة ، وعقوبته جحيم ممدودة موبقة .

وشهدت ببعثة محمد عبده ورسوله ، ونبيه وخليله ، صلى عليه ربه صلاة تزلفه وتعليه ، وتقربه وتدنيه . بعثه فى خير عصر ، وحين فترة وكفرة ، رحمة لعبيده ومنة لمزيده،ختم به نبوته ، ووضح به حجته ، فوعظ ونصح ، وبلغ وكدح ، عليه رحمة وتسليم ، وبركة وتكريم ، من غفور رحيم ، قريب مجيب . وصيتكم جميع من حضر وصية ربكم ، وذكرتكم سنة نبيكم ، فعليكم برهبة تسكن قلوبكم ، وخشية تذرى دموعكم ، وتقية تنجيكم ، قبل يوم يذهلكم ويبليكم . يوم يفوز فيه من ثقل وزن حسنته ، وخف وزن سيئته ، ولتكن مسألتكم مسألة ذل وخضوع ، وشكر وخشوع ، وتوبة ونزوع ، وندم ورجوع . وليغتنم كل مغتنم منكم صحته قبل سقمه ، وشيبته قبل هرمه وكبره ، وفرغته قبل شغله ، وغنيته قبل فقره ، وحضره قبل سفره .

ثم قرأ كرّم الله وجهه : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(١) .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — أنه جىء إليه بالنجاشى الشاعر وقد شرب الخمر فى شهر رمضان ، فضربه الإمام ثمانين جلدة ثم حبسه ليلا . ثم دعا به إلى الغد فضربه عشرين سوطا، فقال له : ما هذا الذى صنعت بى

(١) القصص ٨٣

يا أمير المؤمنين ، ضربتنى ثمانين فى شرب الخمر ، فما هذه العشرون ؟ فقال : شربت الخمر فجلدناك ثمانين ، ثم دعونا بك فضربناك عشرين لجرأتك على الشرب فى شهر رمضان .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — أن صبيانا فى زمنه كانوا يلعبون ، فرمى أحدهم فدق رباعية[1] صاحب من أصحابه ، فرفع ذلك إليه فدعا بالرامى فأقام البينة بأنه قال قبل أن يرمى : « ضرار » . فدرأ الإمام عنه القصاص قائلا : لقد أعذر من أنذر .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — أنه لم يجعل على المستحاضة حدا حتى ينقطع عنها دمها ، وكذلك لم يجعل على الحائض حتى تطهر ومثلها النفساء ، وكذلك لم يجعل على الحامل حدا حتى تضع حملها .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — أن سئل عن حمل غذى بلبن خنزيرة ، فقال : قيدوه ثم اعلفوه الكسب والنوى والخبز إن كان قد استغنى عن اللبن . وإن لم يكن قد استغنى فأمكنوه من ضرع شاة سبعة أيام .

ومن أجوبته كرّم الله وجهه عن أسئلة تجرى فى طريق القضاء ، أن سائلا سأله عمن لا أب له ولا عشيرة ولم يركض ، وعن القبر الذى سار بصاحبه . فأجاب كرّم الله وجهه : أما من لا أب له فعيسى بن مريم ، وأما من لا عشيرة له فآدم أبو البشر ، وأما القبر الذى سار بصاحبه فذلك يونس بن متى : ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۞ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۞ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[2]

* * *

(١) الرباعية : السنة التى تجاور الناب . (٢) الصافات ١٤٠ — ١٤٢

ومن أقضيته كرّم الله وجهه أن رجلا شكا إليه آخر زعم أنه احتلم بأمه . فذكر الإمام كرّم الله وجهه أن الحلم فى المنام بالنسبة للحالم مثله كالظل للبناء والشجر ونحو ذلك ، ثم قال للشاكى : أوقف غريمك فى الشمس ثم اضرب ظله . ومع ذلك فإننا نضربه حتى لا يعود يؤذى المسلمين ، فضربه ما دون حد القذف .

ففى هذا القضاء بلا ريب دقة إدراك لا يتمتع بها كثير من أهل البصر بشئون الاجتماع .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه قضاؤه بأن لا يؤكل لحم الدجاج إلا إذا حبس على الغذاء النظيف ثلاثة أيام ، وكذلك البط لا يؤكل إلا إذا حبس على الغذاء النظيف خمسة أيام :

ووجه هذا القضاء تزيده الأيام إشراقا على مر العصور حتى يوم الناس هذا ، فقد قرأنا أخيرا أن الإنسان كلما أكل طعاما طيبا نظيفا فإن طيبه ونظافته معوان على سرعة هضمه وقوة الانتفاع به . وقد ضرب المستنيرون مثلا لذلك فى غسل اليدين قبل الطعام ، وفى تناول الطعام نفسه فى مكان نظيف بهيج بين الأشجار أو على ضفاف الأنهار ، فقد أفتى أهل العلم بأن هذا الطعام سريع الهضم عظيم الفائدة .

ومن هنا يجىء قضاء الإمام فى هذه الصورة قضاء سليما تؤيده الفطره السوية ويزكيه العلم الحديث .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — قضاؤه بقطع يد النباش الذى ينبش القبور ، فيسرق الأكفان وأشياء الموتى ويهتك أستارهم ، وذلك أنه قال إن النباش سارق .

وليس غريبا أن يعتبر الإمام النباش سارقا فيقطع يده كما يقطع يد السارق . ذلك أن السارق يأخذ ما يسرقه خفية ، وكذلك النباش يأخذ ما ينبش عليه خفية . ثم إن السارق يأخذ ما يسرقه من حرزه ، وكذلك النباش يأخذ ما ينبش عليه من حرزه ، فالأمر فى غاية الوضوح أن يلحق النباش بالسارق .

وقد كان الناس فى عهد معاوية يكتفون بمعاقبة النباشين دون قطع أيديهم .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما يرويه الثقة عن الإمام جعفر الصادق من قوله : كان أمير المؤمنين على عليه السلام إذا بلغه أن مولى تزوج حرة ، طلب إليه أن يطلقها ، فإن أبى جعل له الإمام حظيرة من قصب أو جريد فحبسه فيها ، ثم أعطاه قوته من طعام وشراب حتى يطلق زوجته .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما يرويه الثقة من أن رجلا جاء إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : إنى طلقت امرأتى تطليقة فى الشرك وتطليقتين فى الإسلام ، فما ترى يا أمير المؤمنين ؟ فسكت عمر . فقال الرجل : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ . فقال عمر : كما أنت حتى يجيء على بن أبى طالب . فلما جاء على قص عليه الرجل قصته وأنه طلق امرأته تطليقة فى الشرك وتطليقتين فى الإسلام . فقال له كرّم الله وجهه : لقد هدم الإسلام ما كان قبله ، والمرأة عندك على واحدة .

وتوضيح هذه القضية أن طلقة الجاهلية لا تحسب ، وإنما الذى يحسب الطلقتان فى الإسلام . وعلى ذلك بقيت للرجل طلقة واحدة ، فلو أتى بها لأصبحت زوجته حراما عليه حتى تنكح زوجا غيره كما هو الشأن فى طلاق الثلاث .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما رواه الثقة عن الإمام الباقر قال: كان لرجل على عهد علي جاريتان فولدتا جميعا .. إحداهما ولدا ذكرا، والأخرى بنتا. فعمدت صاحبة البنت فوضعت بنتها في المهد الذي فيه الولد الذكر ثم أخذته لنفسها. ثم تنازعتا الولد الذكر فكل واحدة منهما تدعيه لنفسها، فتحاكما إلى أمير المؤمنين كرّم الله وجهه، فأمر أن يوزن لبنهما قائلا: أيتهما كان لبنها أثقل فالولد الذكر لها.

على أن لهذه القضية وجها آخر خلاصته ما يذكره شريح القاضي فيقول: كنت أقضي لعمر بن الخطاب، فأتاني يوما رجل فقال لي: يا أبا أمية إن رجلا أودعني امرأتين .. إحداهما حرة مهيرة، والأخرى سرية[1]، فجعلتهما في دار وأصبحت اليوم فإذا هما قد ولدتا غلاما وجارية، وكلتاهما تدعي الغلام لنفسها وتنتفي من الجارية. وقد جئتك أيها القاضي أطلب قضاءك بينهما. يقول شريح: فلم يحضرني شيء فيهما أقضي به، فأتيت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقصصت عليه القصة. فقال: فما الذي قضيت بينهما؟ .. قلت: لو كان عندي قضاء فيهما ما أتيتك. فجمع عمر جميع من حضره من أصحاب رسول الله ﷺ، ثم أمرني أن أقص عليهم ما جئت به. وجعل عمر يشاور أصحاب رسول الله ﷺ، وكلهم يرد الرأي إلى واليه. فقال عمر: لكني أعرف مفزع القضية ومنتزعها. قالوا: كأنك أردت ابن أبي طالب. قال: نعم، وأين المذهب عنه؟ قالوا: فابعث إليه يأتيك. قال: إن له شمخة من هاشم، وأثرة من علم تقتضينا أن نسعى إليه ولا تأذن له أن يسعى هو إلينا، فقوموا بنا إليه. فلما جئناه وجدناه في حائط له يركل[2] فيه على مسحاة[3] ويقرأ قول الله تعالى:

---

(١) السرية: على الزرية، هي الأمة التي تباع وتشرى.

(٢) الركل: الضرب بالرجل.

(٣) المسحاة: آلة يقشر بها الطين عن وجه الأرض ويجرف.

﴿ أيحْسَبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سُدىً ﴾(١) . ثم يبكى بكاء شديداً .

ولم يجد القوم بداً من أن يجهلوه حتى تسكن نفسه ويرقأ دمعه . ثم استأذنوا عليه فخرج إليهم وعليه قميص قدت أكمامه إلى النصف منها ، ثم قال كرّم الله وجهه : ما الذى جاء بك يا شريح ؟ . قلت : أمر عرض جئنا نسأل عنه . فأمرنى فقصصت عليه القصة فقال : فبم حكمت فيهما ؟ قلت : لم يحضرنى حكم فيهما . فأخذ بيده من الأرض شيئا ثم قال : الحكم فيها أهون من هذا . ثم أمر بإحضار المرأتين وأحضر قدحا .. ثم دفعه إلى إحداهما قائلا لها احلبى فيه . فامتثلت المرأة فحلبت .. ثم وزنه . ثم قال للأخرى احلبى أنت أيضا فى قدح أخرى ثم وزنه أيضا . ثم قال لصاحبة اللبن الخفيف : خذى ابنتك . وقال لصاحبة اللبن الثقيل : خذى ابنك .

ثم التفت كرّم الله وجهه إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه قائلا : أما علمت أن الله تعالى حط المرأة عن الرجل فى ميراثها ، فكذلك كان لبنها دون لبنه . فقال عمر : لقد أرادك الحق يا أبا الحسن ولكن قومك أبوا . فقال الإمام : خفض عليك أبا حفص . ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ .

ولم يدع أهل العلم هذا القضاء دون تعليق حتى قال ثقة فاضل : إن جعفراً الصادق رضى الله عنه كان يقول : « لبن أحد الثديين طعام ، ولبن الثدى الآخر شراب . فعلى الأم أن ترضع ولدها من ثدييها كليهما فذلك أصح لجسده وأحكم لقوته .

وتلك قضية لا يسوغ لأهل العلم المعملى أن يتركوها تمر دون أن يؤدوا لها حقها من البحث ، والقضاء لها أو عليها .

* * *

(١) القيامة ٣٦

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ما يرويه الثقات عن الصادق أيضا قال : جيء إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه بامرأة تزوجت شيخا كبيرا . فلما كانت ليلة دخوله بها مات على بطنها ، ثم وضعت المرأة ولدا .. فادعى بنوه أنها فجرت وتشاهدوا عليها ، فأمر بها عمر أن ترجم . فمر بها على كرم الله وجهه فاستغاثت به قائلة : يا ابن عم رسول الله ، إن لى حجة على الذين تظاهروا على . فقال لها : هاتى حجتك . فدفعت إليه كتابا فقرأه فقال : هذه المرأة تعلمكم بيوم تزوجها وبما يكون بين الرجل والمرأة فى ذلك اليوم . فردوا المرأة عن الحفرة . فلما كان من الغد دعا بصبيان أتراب فى سن واحدة ، ثم دعا بالصبى معهم وأمرهم أن يلعبوا ، حتى إذا ألهاهم اللعب قال لهم : اجلسوا . حتى إذا تمكنوا فى مجالسهم صاح بهم أن يقوموا ، فقام الصبيان وقام الغلام ، غير أن الغلام اتكأ على راحتيه فى أثناء قيامه ، فدعا به الإمام وورثه من أبيه وجلد إخوته حد المفترين .. حدا حدا .

فقال له أمير المؤمنين عمر : كيف صنعت يا أبا الحسن ؟ قال : عرفت ضعف الشيخ فى اتكاء الغلام على راحتيه حين قام .

* * *

ومن أقضيته — كرم الله وجهه — قضاؤه فى رجل وصى بعد الموت بسهم من ماله دون أن يبينه . فلما مضى إلى ربه اختلف الورثة فى المراد بالسهم وكيف يصنعون . فلما ترافعوا إليه — كرم الله وجهه — قضى عليهم بإخراج الثمن من ماله ، ثم استشهد لقضائه هذا قول الله جل ثناؤه فى سورة التوبة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ

وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(١) .

وهؤلاء الذين ذكرهم الله فى هذه الآية الشريفة هم ثمانية أصناف ، لكل صنف منهم سهم من الصدقات .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ، قضاؤه فى رجل وصى فقال : اعتقوا عنى كل عبد قديم فى ملكى . فلما مات الرجل لم يعرفوا ما أراد الموصى ، فقال الإمام : يعتق عنه كل عبد ملكه ستة أشهر ، ثم تلا قول الله جل ثناؤه : ﴿ والقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾(٢) .

وقد ثبت أن العُرجون إنما ينتهى إلى الشبه بالهلال فى تقوسه وضؤولته بعد ستة أشهر من أخذ الثمرة عنه .

* * *

ومن أقضية الإمام أيضا قضاؤه الذى صان للمرأة المسلمة حياتها وحفظ عليها كرامتها . وبيان ذلك أن رجلا جاء إلى أمير المؤمنين عثمان يشكو إليه أنه تزوج وأن زوجته ولدت بعد ستة أشهر ، فأراد أمير المؤمنين عثمان أن يقيم عليها الحد . فقال له على — كرّم الله وجهه — ليس لك ذلك يا أمير المؤمنين ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْه كُرْهاً وحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُون شهْـرًا ﴾(٣) الآية من سورة

---

(١) التوبة ٦٠

(٢) يٰس ٣٩

(٣) الأحقاف ١٥

الأحقاف . فقد جعل الله تعالى فى هذه الآية مدة الحمل والرضاع ثلاثين شهرا ، ثم جعل مدة الرضاع الذى يعقبه الفطام أربعة وعشرين شهراً كما فى الآية : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾(١) . الآية من سورة البقرة . وعلى هذا النحو جاءت الآية من سورة لقمان : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾(٢) .

ففى هاتين الآيتين من سورة البقرة وسورة لقمان ، أن مدة الرضاع أربعة وعشرون شهرا ، فإذا أخذت هذه الشهور من الثلاثين شهرا فى سورة الأحقاف فقد بقى ستة أشهر هى مدة حمل الزوجة التى يشكوها زوجها . ولم يسع أصحاب رسول الله ومعهم أمير المؤمنين عثمان إلا أن يذعنوا لقضاء الإمام ، وبذلك انطلقت المرأة إلى بيتها أسعد ما يكون الإنسان بسلامة حياته وصيانة كرامته .

* * *

ومن أقضية الإمام أيضا تسويته فى الفىء والصدقة بين المسلمين ، مخالفا بذلك أمير المؤمنين عمر إذ كان — رضى الله عنه — يفضل فى العطاء بعض المسلمين على بعض .. فضّل السابقين على غيرهم ، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين ، وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة ، ثم فضل العرب على العجم .

وعلى غير هذا النهج كان يمضى الخليفة الأول أبو بكر — رضى الله عنه — فكان يُسوى بين أهل الإسلام فى الفىء والصدقات ، وكان يستند فى ذلك إلى النص فى آية الصدقات من سورة التوبة . وقد كان — رضى الله عنه — استفتى

(١) البقرة ٢٣٣ (٢) لقمان ١٤

الإمام فأفتاه بالتسوية ، فلما آل الأمر إليه لم يكن له بد من الأخذ بفتواه . ولذلك سوى فى العطية مؤكدا أن ذلك هو الإسلام وأنه لن ينزل إلا على حكمه ، فذلك قوله — كرّم الله وجهه — لطائفة من أصحابه مشوا إليه ناصحين ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال للمسلمين ، وفضّل الأشراف من العرب ، وقريشا على الموالى والعجم ، تستميل بذلك من تخاف خلافه وفراره إلى معسكر أعدائك . فقال لهم تلك الكلمة التى نؤثر أن نرويها بنصها : « اتأمروننى أنْ أطلب النصر بالجور ؟ والله الذى لا إلـه إلا هو لا أفعل ذلك ما طلعت شمس فى نهار وما لاح نجم فى ليل . ثم والله لو أن المال كان لى لواسيت بينهم ، فكيف وإنما هى أموالهم التى أفاءها الله عليهم . ثم سكت طويلا ثم قال : والأمر أسرع مما تظنون . وكرر ذلك ثلاث مرات » .

وغير خفى على أهل العلم أن الخلفاء الراشدين كانوا طائفتين .. طائفة تلتزم النص ، وأخرى تستصحب المصلحة . فكان الخليفة أبو بكر ومعه الإمام على يؤثران النص ويلزمان سبيله ، وكان أمير المؤمنين عمر ومعه عثمان يستصحبان المصلحة . وكلتا الطائفتين حريصة على مرضاة الله وظافرة بها أخطأت أم أصابت ، إذ كان من قواعد الشريعة الإسلامية المسماح أن المجتهد المخطئ له أجر واحد ، وأن المجتهد المصيب له أجران . وليس يخفى على المتأمل الفرق بين المجتهد الذى أخطأ والمجتهد الذى أصاب ، إذ كان الذى اجتهد فأصاب قد بذل جهدا أكبر وعانى مشقات أكثر ، فى حين أن الذى اجتهد فأخطأ لم يبذل من الجهد ما بذل صاحبه ، ولم يعان المشقة التى عاناها .

ولست ترتاب — رحمك الله — فى أن تصرف الفاروق عمر فى عدم التسوية كان أرضى لأهل الوجاهة من الناس ، فكان السادة من العرب يعلنون على ملأ من الناس ضيق صدورهم بما آثره الإمام من التسوية فى العطاء بين الكبار والصغار ، والعرب والعجم ، حتى إنك لترى المرأة العربية تعتز

بعروبتها على الأعجمية . فقد جاءت امرأتان إلى الإمام تسألانه المعونة على العيش ، فدفع إليهما — كرّم الله وجهه — دراهم وطعاما بالسواء . فقالت إحداهما فى غضب : إنى امرأة من العرب وهذه من العجم ، فكيف نكون سواء فى العطاء يا أمير المؤمنين ؟ فقال لها الإمام :

« إنى والله لا أجد فضلا لك عليها » .

• • •

ومن عيون فقهه — كرّم الله وجهه — ما يرويه عمرو بن عبيد من قوله : أحسن ما سمعت فى القضاء والقدر قول على بن أبى طالب : « لو كان الوزر فى الأصل محتوما ، كان الموزور فى القصاص مظلوما » . وكذلك كتب واصل بن عطاء : أحسن ما سمعت فى القضاء والقدر قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب : « أيدلك على الطريق ، ويأخذه عليك بالمضيق » . وكذلك كتب العلامة الشعبى فقال : أحسن ما سمعت فى القضاء والقدر قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب : « كل ما استغفرت الله تعالى منه فهو منك ، وكل ما حمدت الله تعالى عليه فهو منه جل ثناؤه » .

وقد كانت هذه الكلمات الحكيمة فى القضاء والقدر جوابات من سادة العلماء على سؤال وجهه إليهم الحجاج بن يوسف الثقفى ، الذى كان من أعدى أعداء الإمام كرّم الله وجهه . ومع هذه العداوة لم يسعه إلا أن يقول كلمة ثناء على الذين أجابوه إلى ما سألهم عنه : لقد أخذوها من عين صافية . يقصد الحجاج بكلمة « العين الصافية » الإمام عليا كرّم الله وجهه .

ولعل من الحق علينا لك — حفظك الله — أن نلفتك إلى أن من هؤلاء السادة من كان يدين بمذهب الاعتزال ، كعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء .

ولعل هذه اللفتة تحملك على أن تسأل عن مدى الصدق فى قول من قال : إن عليا — كرّم الله وجهه — كان إماما للمعتزلة ، وأنهم أخذوا عنه وتتلمذوا له؟

ومبلغ ما نقوله جوابا على سؤالك هذا ، هو ما نرويه لك عن عالم أزهرى واسع الاطلاع قادر على البحث والاستقراء واستخراج أصدق النتائج من أصح المقدمات ، فذلك حيث قال فى معرض حديثه عن الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب :

لقد ثبت أن الإمام زيدا ذهب إلى البصرة والتقى بعلمائها ، وقد قال الشهرستانى فى كتابه «الملل والنحل» إن الإمام زيدا تتلمذ لواصل بن عطاء وأخذ عنه الاعتزال . لأنه قال فى زيد رضى الله عنه إنه أراد أن يحصل الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم ، فتتلمذ فى الأصول لواصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة .

فهذا الخبر الذى رواه صاحب الملل والنحل يدل على أمور ثلاثة : أولها أنه التقى بواصل بن عطاء وتتلمذ عليه أو اقتبس منه ، وأن الذى دفع زيدا إلى لقائه والدراسة عليه هو رغبته فى أن يحصل الأصول مع الفروع . وقد حصل زيد علم الفروع فى المدينة وبقى أن يحصل علم الأصول فى البصرة ، لأن البصرة كانت مهد الفرق الإسلامية . والإمام أبو حنيفة عندما كان يدرس علم الكلام كان يذهب إلى البصرة ليجادل ويناقش ، حتى إنه ليذكر أنه ذهب إليها نحو اثنتين وعشرين مرّة .

والأمر الثانى أنه أخذ عن واصل ، مع أن واصلا كان يعلن أن جده عليا كرّم الله وجهه لم يكن مستيقنا أنه على الحق فى قتاله الناكثين أصحاب الجمل ، والقاسطين أصحاب معاوية . وذلك يعنى أن زيدا رحمه الله كان على درجة رفيعة من استقلال الفكر .

والأمر الثالث أن زيدا غادر المدينة بعد أن اكتمل ، وأخذ يتلقى العلم من أى مكان ومن أى شخص ، وذلك شأن طالب العلم الذى هو أشبه الناس بطالب الجواهر ، فهو لا يتقيد بمكان ولا يتقيد بغواص واحد يهديه إليها ويدله عليها .

غير أن ها هنا أمرا لا بد من لفتك إليه وتنبيهك له ، وهو أن التقاء زيد رضى الله عنه بواصل بن عطاء كان التقاء مذاكرة علمية ، وليس التقاء تلميذ يأخذ عن أستاذ ، فإن سنهما متقاربة . وقد كان زيد ناضجا فهو قد أراد أن يعرف النواحى المختلفة حول أصول العقائد كما تلقى فروع الأحكام عن أسرته ، وفى المدينة مهد علم الفروع .

ولقد كان زيد موفقا غاية التوفيق حينما اختار البصرة موضعاً لتلقى أصول العقائد عند الفرق المختلفة . ذلك أن البصرة كانت موضع تلك الفرق المختلفة حول العقيدة الإسلامية ، فكان فيها طائفة من الشيعة ، وكان فيها المعتزلة ، وكان فيها جميع الذين تكلموا فى صفات الذات العلية ، فمن أراد علم العقائد للفرق المختلفة فليقصد إلى البصرة .

على أننا نستطيع أن نذكر استنادا إلى أهل الثقة ، أن علماء آل البيت الشريف تكلموا فى العقائد وكانوا قريبين مما قاله واصل بن عطاء . بل إنا لنجد من يقول : إن واصلا أخذ عقيدة الاعتزال عن آل البيت الشريف فقد كانوا على علم به ، وخصوصا محمد بن الحنفية الذى كان عالما غواصا فى العلوم وقاد الفكر ، مصيب الخواطر . وقد أخبره أمير المؤمنين على عن أحوال الملاحم ، وأطلعه على مدارج المعالم .

وقد ذكر الإمام المرتضى أن الطبقات الأولى من المعتزلة كانوا من آل البيت النبوى الكريم ، فعلى زين العابدين وابنه الباقر ، والحسن والحسين من قبلهما ، ومحمد بن الحنفية أخوهما ، كانوا من المعتزلة .

وليس هناك ما يكذب هذا القول بل هناك ما يزكيه ، فإن مذهب المعتزلة هو — فى الجملة — مذهب الزيدية فى العقائد ومذهب الاثناعشرية . ويغلب على الظن لذلك أن هذا كان مذهب السلف من آل البيت ، إذ كانوا قد خاضوا فى أصول الاعتقاد ودخلوا فى هذه الحومة .

ولست ترتاب فى أن آل البيت ومن أخذ عنهم ونهج نهجهم ، إنما كانوا يأخذون علومهم ومعارفهم عن جدهم الأكبر أمير المؤمنين على رضى الله عنه وأرضاه .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما يرويه الثقات عن جعفر الصادق رضى الله عنه قال : ولد على عهد أمير المؤمنين مولود له رأسان وصدران ، فمضى أهل المولود إلى الإمام يسألونه عن ميراثه : أيرث ميراثين أم يرث ميراثا واحدا ؟ فقال : « يترك المولود حتى ينام ثم يصاح به ، فإن انتبها جميعا معا كان له ميراث واحد ، وإن انتبه أحدهما وبقى الآخر نائما ورث هذا المولود ميراث اثنين .

وليس هذا بمستبعد فى الحديث وفى القديم ، فما أكثر ما تروى الأخبار المحلية والعالمية الشيء الكثير من هذا الشذوذ فى المواليد . وأما فى القديم فقد روى الثقات أنهم رأوا فى بلاد فارس امرأة لها رأسان وصدران ، وهى متزوجة وإحداهما تغار من الأخرى فهما فى عراك دائم لا ينقطع . وكذلك روى ثقة أنه رأى رجلا كذلك له رأسان وصدران ، وقد كانا يعملان جميعا حائكين . وقد حكى البيرونى فى آثاره عن تاريخ ابن قرة أن أحد بطارقة الروم سنة ٣٥٢ أرسل لناصر الدولة رجلين كانا من البطن ملتصقين ، وكان موضع التصاقهما طويلا بحيث يقدر كل منهما أن يقوم فى يمين الآخر . وكان قد مر عليهما خمس وعشرون سنة . وكانت لهما لحية واحدة .

* * *

ومن أقضيته القضاء الذى اجتمع له فيه الفقه بالشريعة والعلم بالتاريخ ، فذلك حيث روى الثقة عن الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه قال :

جيء إلى عمر بن الخطاب بجارية شهد عليها شهود بأنها بغت وفجرت .
وكان من قصتها أنها كانت يتيمة عند رجل وكان الرجل كثيرا ما يغيب عن أهله . فلما شبت اليتيمة وبلغت مبلغ النساء خشيت زوجة الرجل أن يتزوجها زوجها فتصبح ضرتها بعد أن كانت أمتها ، فدعت بنسوة فأمسكنها ، فانتهزت الفرصة فأخذت عذرتها بإصبعها . فلما قدم زوجها من غيبته قذفت المرأة اليتيمة واتهمتها بالفاحشة ، وأقامت البينة من جاراتها اللائى ساعدنها على ذلك الإثم الشنيع . فرفع الزوج ذلك إلى عمر رضى الله عنه ، ولكن عمر لم يدر كيف يقضى فى هذه المعضلة ، فقال للرجل : اذهب إلى على بن أبى طالب ونذهب نحن معك . ثم أتوا عليا ــ كرّم الله وجهه ــ وقصوا عليه القصة ، فقال لزوجة الرجل : أمعك برهان على ما تقولين فى حق الجارية ؟

قالت المرأة : نعم لى شهود .. هؤلاء جاراتى يشهدن عليها بما أقول . فأمر الإمام كرّم الله وجهه بإحضارهن . فلما حضرن أخرج على سيفه من الغمد فطرحه بين يديه ، ثم أمر بكل واحدة منهن فأدخلت بيتا . ثم دعا بامرأة الرجل فجعل يحاورها ويداورها بكل وجه ولكنها أبت أن تنزل عن قولها ، فردها إلى البيت الذى كانت فيه . ثم دعا بإحدى الشاهدات وجثا على ركبتيه ثم قال : هل تعرفيننى ؟ أنا على بن أبى طالب وهذا سيفى فى يدى ، وقد قالت زوجة الرجل ما قالت ثم رجعت إلى الحق فأعطيتها الأمان . وإن أنت لم تصدقينى القول فلا بد لى من أن أمكن السيف منك . فالتفتت الشاهدة إلى عمر رضى الله عنه قائلة : يا أمير المؤمنين الأمان على الصدق ؟ فقال لها : اصدق يا امرأة . فجعلت المرأة تقول : « لا » ،والله إن زوجة الرجل رأت للجارية جمالا وهيئة فخشيت أن تفسد عليها زوجها فسقتها المسكر ، ثم دعتنا فأمسكناها لها فأزالت بكارتها بإصبعها . فقال على كرّم الله وجهه : الله أكبر ، والحمد لله

الذى جعلنى بعد دانيال أول من فرق بين الشهود لمعرفة الحقيقة . ثم قضى كرّم الله وجهه عليهن بحد القذف ، وقد ألزمهن جميعا دية البكارة التى يسميها الفقهاء بالعقر ، على أن يكون عقر تلك الأمة أربعمائة درهم . فهذه الأربع مائة درهم تعويض للجارية عن عقرها بإزالة بكارتها .

ولم يقف كرّم الله وجهه عند هذا الحد فى قضائه بل تجاوز ذلك إلى ما يليق به فى شرف نفسه وتمام عدله وانتصافه للمظلوم من المظالم ، فجعل يؤنب المرأة المتهمة تأنيبا عنيفا حمل زوجها على أن يعلن فى المجلس طلاقها . فأشار الإمام إلى زوجها بأن يتزوج الجارية ، وساق المهر لها من ماله كرّم الله وجهه ورضى الله عنه وأرضاه . ولم يشأ أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه إلا أن يعلن إعجابه بقضاء الإمام مكررا كلمته التى كان شديد الحرص على تكرارها : « لولا على لهلك عمر » .

* * *

ثم لم يفته أن ينتهز هذه الفرصة راغبا إلى الإمام أن يحدثه ومن معه بحديث دانيال ، فقال كرّم الله وجهه :

إن دانيال كان يتيما لا أم ولا أب ، وقد ضمته إليها امرأة من بنى إسرائيل كبيرة السن فربته أحسن تربية . وكان من ملوك بنى إسرائيل ملك له قاضيان وكان لهذين القاضيين صديق معروف بالصلاح والتقوى ، وله — مع ذلك — امرأة ذات هيئة وجمال ، فكان يأتى الملك فيحدثه . فاحتاج الملك ذات يوم إلى رجل يبعثه فى بعض أموره فقال للقاضيين : أشيرا على برجل ترضيانه أرسله فى بعض أمورى ، فأشارا عليه بصديقهما الصالح التقى زوج المرأة الجميلة . فلما دعا الملك به وجهه إلى ما كان يريد ، فامتثل الرجل أمر الملك ، ثم ذهب إلى القاضيين فأوصاهما بامرأته خيرا فأجاباه إلى ما أراده منهما قائلين له : إن امرأتك فى موضع العناية منا ، فسافر وأنت مطمئن إلى حسن رعايتنا لها وبذلنا كل ما فى طاقتنا لراحتها .

ثم جعل القاضيان يأتيان باب الرجل الصديق يسألان عن زوجته ، قضاء للحق الذى لصديقهما عليهما فى رعاية زوجته والقيام بشئونها والعمل على راحتها وتجنيبها الوحشة بفراق زوجها . ولم يطل الأمر بهما حتى وجد كل منهما فى نفسه طلائع العشق لها ونوازع الرغبة فيها فراودها كل منهما عن نفسها ، فأبت عليهما حفظا لعهد زوجها ورعاية لحقه واعتزازا بشرفها وشرف زوجها فى منصبه الجليل وسمو منزلته فى مجتمع بنى إسرائيل . ولكن جموح الرغبة فى نفس القاضيين حملهما على أن يتهددا المرأة ، قائلين لها : لئن لم تفعلى ما نطلبه إليك لنشهدن عليك عند الملك بأنك بغيت وفاحشت ، فلا يجد ندحة عن رجمك بالحجارة حتى تموتى حسبما تقضى بذلك شريعة التوراة .

ولكن المرأة مع ذلك لم تستجب لهما فقالت — فى ازدراء لسلوكهما الشائن : افعلا ما أحببتما . فذهب القاضيان إلى الملك فأخبراه ، وشهدا عنده بأن زوجة صاحبهما بغت . فدخل الملك من ذلك أمر عظيم واشتد به الغم وقد كان بها معجبا ، فقال للقاضيين : إن قولكما مقبول ولكن أمهلونا ثلاثة أيام . وأمر بأن ينادى فى البلد بأن قد تقرر قتل فلانة العابدة حسنة السير والسلوك لأنها قد بغت وفاحشت ، وقد شهد عليها القاضيان بذلك .

ولم يصدق الناس ذلك فأخذوا يتساءلون ، فقال الملك لوزيره : ماذا ترى فى هذا الأمر ؟ فقال له الوزير : ما عندى فى ذلك حيلة . ثم خرج حتى إذا كان اليوم الثالث أبصر الوزير غلمانا عراة يلعبون ومعهم دانيال يلعب والوزير لا يعرفه ، فنادى دانيال رفقاءه قائلا : تعالوا أيها الصبيان حتى أكون أنا الملك ، وتكون أنت يا فلان المرأة العابدة ، ويكون فلان وفلان القاضيين اللذين شهدا عليها بالفاحشة . ثم جمع دانيال ترابا وجعل سيفا من قصب وقال للصبيان : خذوا بيد هذا فأبعدوه إلى مكان كذا ومكان كذا ، ثم خذوا بيد هذا فأبعدوه إلى مكان كذا وكذا . ففعلوا ما أراد .

ثم دعا دانيال بأحدهما فقال له : قل حقا فإنك إن لم تقل حقا قتلتك . وقد كان الوزير قائما يسمع وينظر فقال الصبى : أشهد أنها بغت . فسأله دانيال : متى ؟ قال يوم كذا وكذا . قال : ردوه إلى مكانه وهاتوا الآخر . فردوه وجاءوا بالآخر فقال له : بم تشهد ؟ قال : أشهد أنها بغت . قال : متى ؟ قال : يوم كذا وكذا . فسأل دانيال : مع من ؟ قال : مع فلان بن فلان . قال : وأين ؟ قال : فى موضع كذا . فخالف صاحبه ، فقال دانيال : يا فلان ناد فى الناس أن الشاهدين إنما شهدا على فلانة بالزور ، فاحضروا قتلهما . فذهب الوزير إلى الملك مبادرا فأخبره الخبر ، فبعث الملك إلى القاضيين فسألهما فاختلفا كما اختلف الغلامان . فنادى الملك وأمر بصلبهما .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ما يسنده أهل العلم إلى الإمام الباقر حيث قال : دخل أمير المؤمنين المسجد فاستقبله شاب يبكى وحوله جماعة يسكتونه . فسأله : ما أبكاك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن شريحا القاضى قضى قضاء لا أرى وجهه . فسأله الإمام عن القضية فقال : إن هؤلاء النفر خرجوا وأبى معهم فى سفر ثم رجعوا ولم يرجع أبى ، فسألتهم عنه فقالوا : لقد مات أبوك . فسألتهم عن ماله فقالوا:ما ترك مالا . فقدمتهم إلى شريح فاستحلفهم . وقد علمت يا أمير المؤمنين أن أبى خرج ومعه مال كثير . فأمرهم أمير المؤمنين أن يرجعوا إلى شريح فرجعوا إليه والفتى معه ، فقال له أمير المؤمنين : كيف قضيت يا شريح بين هؤلاء ؟ قال : لقد ادعى هذا الفتى على هؤلاء النفر أنهم خرجوا فى سفر وأبوه معهم فرجعوا ولم يرجع أبوه ، فسألتهم عنه فقالوا : إنه مات . فسألتهم عن ماله فقالوا : ما خلف مالا . فقلت للفتى : هل لك بينة على ما تدعى ؟ قال : لا بينة عندى . فاستحلفتهم يا أمير المؤمنين . فقال أمير المؤمنين : هيهات يا شريح ، ما هكذا تحكم فى

مثل هذا . قال شريح : فكيف أحكم يا أمير المؤمنين ؟ فقال كرّم الله وجهه : والله لأحكمن فيهم بحكم داوود النبى عليه السلام .

ثم دعا كرّم الله وجهه قمبرا مولاه قائلا : ادع لى بشرطة الخميس — الشرطة العسكرية — . فلما حضروا وكل بكل رجل منهم رجلا من الشرطة ثم نظر إلى وجوههم فقال : ماذا تقولون ؟ هل تقولون إنى لا أعلم ما صنعتم بوالد هذا الفتى ، إنى — إذًا — لجاهل . ثم قال للشرطة : فرقوهم وغطوا رءوسهم . ففرقوا بينهم ، وأقيم كل رجل منهم إلى جانب أسطوانة من أساطين المسجد ورءوسهم مغطاه بثيابهم . ثم دعا كاتبه فقال : هات صحيفة ودواة . ثم جلس الإمام فى مجلس القضاء وجلس الناس إليه ، فقال لهم : إذا أنا كبرت فكبروا . ثم قال للناس : اخرجوا . ثم دعا بواحد من المتهمين فأجلسه بين يديه وكشف عن وجهه ، ثم قال لكاتبه : اكتب إقراره وما يقول . ثم أقبل عليه بالسؤال فقال له : فى أى يوم خرجتم من منازلكم وأبو هذا الفتى معكم ؟ قال الرجل : فى يوم كذا وكذا . فسأله الإمام : وفى أى شهر ؟ قال : فى شهر كذا وكذا . قال الإمام : وإلى أى مكان بلغتم فى سفركم حتى مات أبو هذا الفتى ؟ قال : بلغنا موضع كذا وكذا . قال : وفى منزل من مات هذا الرجل ؟ قال : فى منزل فلان ابن فلان . قال الإمام : ماذا كان مرضه وكم يوما مرض ؟ قال : كذا وكذا . ثم ما زال الإمام يسأله : من غسله ؟ من كفنه ؟ بماذا كفنتموه ؟ من صلى عليه ثم من نزل فى قبره ؟ . فلما سأله الإمام عن جميع ما يريد كبر كرّم الله وجهه فكبر الناس جميعا . فارتاب الباقون ولم يشكوا فى أن صاحبهم أقر عليهم وعلى نفسه . وأمر الإمام أن يغطى رأسه وينطلق به إلى السجن . ثم دعا بآخر فأجلسه بين يديه وكشف عن وجهه ثم قال : زعمتم أنى لا أعلم ما صنعتم . فقال : يا أمير المؤمنين ما أنا إلا واحد من القوم ، ولقد كنت كارها لقتله .

وما زال الإمام يدعو واحداً بعد واحد حتى أقروا بالقتل وأخذ المال . ثم أمر برد الذى حبس فأقر أيضا ، فألزمهم الإمام المال والدم .

* * *

وهنا قال شريح القاضى : يا أمير المؤمنين كيف حكم نبى الله داوود ؟ فقال الإمام : إن داوود مر بغلمان يلعبون وينادى بعضهم بعضا بكلمة « يامات الدين » فيجيب المنادى . فدعاهم داوود فقال : ما اسمك يا غلام ؟ قال : اسمى « مات الدين » . فقال له داوود : من سماك بهذا الاسم ؟ قال سمّانى أبى . فانطلق داوود إلى أمه فقال لها : أيتها المرأة ما اسم ابنك هذا ؟ قالت : مات الدين . قال لها : ومن سماه بهذا ؟ قالت : أبوه هو الذى سماه . فسأل داود : وكيف كان ذلك ؟ قالت المرأة : إن أباه خرج فى سفر له ومعه قوم وقد كان هذا الصبى حملا فى بطنى ، فانصرف القوم ولم ينصرف زوجى ، فسألتهم عنه فقالوا مات . فقلت لهم : فأين ما ترك ؟. قالوا : لم يخلف شيئا . فقلت : هل أوصاكم بوصية ؟ قالوا : نعم أوصانا فزعم أنك حبلى ، فإذا ولدت جارية أو غلاما فسميه «مات الدين » . فأمضيت وصيته كما قال . قال داود : هل تعرفين القوم الذين كانوا قد خرجوا مع زوجك ؟ قالت : نعم . فسألها : هل هم أحياء قالت المرأة : نعم . فأمرها داود أن تنطلق معه إليهم . ثم مضى معها فاستخرجهم من منازلهم فحكم بينهم بهذا الحكم بعينه ، وأثبت عليهم المال والدم ، قائلا للمرأة : اجعلى اسم ولدك « عاش الدين » .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه قضاء يأثرونه عن الأصمعى قال : أخذ علىّ قوما بسرقة فحبسهم ، فجاء رجل فقال : يا أمير المؤمنين إنى كنت معهم وقد تبت . فأمر بحده . وقال متمثلا بشعر يقول فيه الشاعر :

ويدخـل رأسه لم يدعـه أحـد
بين القرينين[1] حتى لزّه[2] القـرن[3]

يقول الإمام كرّم الله وجهه : إن هذا الذى جاء يزعم أنه كان مع اللصوص وأنه قد تاب قد وضع نفسه فى مأزق لم يضعه أحد فيه ، ولكنه وضع نفسه .

ولعله كرّم الله وجهه كان يتمثل قول الشاعر العربى يصف ضعيفا وضع بيد قويين ، فهو يحتمل من البلاء الذى لا يحتمله مثله فى ضعفه وإن كان يحتمله القوى فى قوته ، فذلك حيث قال الشاعر الأول :

وابـن اللبـون إذا ما لز فى قرن
لم يستطع صولة البزل القناعيس

فابن اللبون هو ولد الناقة : إذا كان فى العام الثانى ، فإن كان فى العام التاسع فهو البازل وجمعه بزل على مثال قفل . والقناعيس الإبل حين تقوى وتشتد ، وربما أرادوا بها الرجال الأقوياء فى الخلقة ، فإذا جمعت بين أبناء اللبون وبين الإبل فى أسنانها المتقدمة وقوتها الكاملة فإنها إذا صالت لم تحتمل الصغار صولتها . وكذلك الصغار من الناس لا يستطيعون أن يحتملوا من شدائد الحياة ما يحتمل الكبار من أهل العزائم وأصحاب العقائد . وراجع لسان العرب فى مادة قعس .

---

(١) القرينان : هما البعيران يجمعهما حبل واحد .
(٢) لزّ : تقول العرب لز الرجل شيئا بشىء ، تعنى أنه جمعه به فى حبل .
(٣) القرن : هو حبل يجمع به بين البعيرين كما فى القاموس .

وقد يقول القائل : إن من غير المعقول أن يقيم الإمام الحد على رجل أعلن التوبة .

ولمثل هذا القائل يقال : إن التوبة الصادقة تقوم على أركان ثلاثة : الندم على ما فات ، والعزم على عدم العودة إلى ما كان ، ورد آثار الجريمة . فلعل هذا الرجل الذى أعلن التوبة لم يرد ما استولى عليه من مال المسروق . والتوبة الكاذبة لا تمنع من إقامة الحد ما لم تقترن بما يصدقها من التصرفات .

* * *

ومن فقهه ما أجاب به الأشعث بن قيس وقد سأله : كيف تؤخذ الجزية من المجوس وهم ليسوا أهل كتاب ولم يبعث إليهم رسول ؟ .

فأجابه كرّم الله وجهه قائلا : بلى يا أشعث ، لقد أنزل الله عليهم كتابا وبعث إليهم رسولا ، حتى ولى أمرهم ملك سكر ذات ليلة فدعى بابنته إلى فراشه ، فلما أصبح تسامع به قومه وأنكروا عليه ما صنع . ثم اجتمعوا إلى بابه يقولون له : أيها الملك ، لقد دنست علينا ديننا وأهلكته ، فاخرج إلينا نطهرك ونقيم الحد عليك . فقال لهم : اجتمعوا واستمعوا ، فإن لم يكن لى مخرج مما ارتكبت فشأنكم وما تريدون .

فلما اجتمعوا كما أمرهم قال لهم : هل علمتم أن الله تعالى لم يخلق خلقا أكرم عليه من أبينا آدم وأمنا حواء ؟ قالوا : صدقت . قال : أفليس قد زوج بنيه من بناته وبناته من بنيه ؟ قالوا : بلى لقد فعل وقد صدقت ، فهذا هو الدين . ثم تعاقدوا على ذلك فمحا الله ما فى صدورهم من العلم ورفع عنهم الكتاب ، فهم الكفرة يدخلون النار بغير حساب . قال الأشعث : والله ما سمعت بمثل هذا الجواب . والله لا أعود إلى ذلك أبدا .

وربما أيد ما ذكره الإمام كرّم الله وجهه حديث ذكره فى تيسير الوصول وقد أخرجه مالك فى موطئه عن جعفر بن محمد عن أبيه ، أن عمر

ابن الخطاب رضى الله عنه ذكر المجوس فقال : ما أدرى ما أصنع فى أمرهم ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : أشهد لقد سمعته من رسول الله ﷺ : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

وكذلك أخرج مالك عن ابن شهاب قال : لقد أخذ رسول الله ﷺ الجزية من مجوس البحرين ، وأخذها عمر رضى الله عنه من مجوس فارس ، وأخذها عثمان رضى الله عنه من البربر .

فقضاء الإمام الذى أخبر به الأشعث بن قيس ، قضاء جمع الله تعالى له فيه بين الفقه فى الشريعة وبين العلم بالتاريخ .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ما يرويه الثقة من أنه سئل عن رجل تزوج امرأة ، فماتت المرأة قبل أن يدخل بها : أيسوغ له أن يتزوج بأمها ؟

وقد أجابه كرّم الله وجهه بما رضى فقهاء الإسلام واتخذوه قاعدة لهم فى فقههم : العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ما يسنده الثقات إلى الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه من قوله : إن سائلا سأل أمير المؤمنين عن حمل[1] غذى بلبن خنزيرة ، فأجاب كرّم الله وجهه بقوله : إن كان لا يزال يتغذى باللبن فألقوه على ضرع شاة سبعة أيام ، وإن كان قد استغنى عن اللبن فقيدوه واعلفوه الكسب والخبز .

* * *

ومن فقهه كرّم الله وجهه ما يرويه الثقات عن الثورى عن السدى قال : كنت عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذ أقبل كعب بن

(١) الحمل : على وزن قلم ، هو الخروف الصغير .

الأشرف ومالك بن حيّ ويحيى بن أخطب فقالوا : إنكم تقرءون فى كتابكم عن جنة عرضها السماوات والأرض ، فإذا كانت سعة جنة واحدة كسبع سماوات وسبع أراضين ، فأين تكون الجنان كلها يوم القيامة ؟ . فقال أمير المؤمنين عمر : أما أنا فلا أعلم . فبينما هم فى ذلك إذ دخل الإمام كرّم الله وجهه فقال : فى أى شيء أنتم ؟ فالتفت اليهود إليه وذكروا المسألة . فقال لهم كرّم الله وجهه : خبرونى أنتم عن النهار إذا أقبل الليل أين يكون ، وعن الليل إذا أقبل النهار أين يكون ؟ .

قالوا : فى علم الله يكون ، فقال علىّ كرّم الله وجهه : كذلك الجنات فى علم الله تكون .

* * *

ومن فقهه كرّم الله وجهه ما أجاب به ابن عنيزة الشيبانى فيما كان يذكر عن أبيه عن جده ، فقال : جاء رجل إلى أمير المؤمنين على فقال : أخبرنى عن القدر . فقال الإمام : سر الله فلا تتكلف علمه . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر . فأجابه كرّم الله وجهه بقوله : بحر عميق فلا تلق بنفسك فيه . فراح يسأله أيضا : أخبرنى يا أمير المؤمنين عن القدر . فقال له : طريق مظلم فتجنب السير فيه . ومضى الرجل يسأل لا يكاد يكف عن السؤال . فقال له كرّم الله وجهه : أما إذ أبيت فإنى سائلك : أكانت رحمة الله للعباد قبل أعمال العباد ، أم كانت أعمال العباد قبل رحمة الله ؟ فقال الرجل مجيبا عن السؤال : كانت رحمة الله للعباد قبل أعمال العباد . فقال كرّم الله وجهه لمن حوله : قوموا فسلموا على أخيكم فقد أسلم . وقد كان من قبل غير مسلم .

* * *

ومن فقهه كرّم الله وجهه ما يرويه الثقات عن شريح بن هانئ ، من أن أعرابيا قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين فقال : أتقول إن الله واحد ؟ فحمل

الناس عليه قائلين : يا أعرابى أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من توزع القلب وتشتت الفكر ؟ فقال لهم كرّم الله وجهه : دعوه فإن الذى يريده الأعرابى هو الذى نريده من الناس . ثم قال متجها بالحديث إلى الناس جميعا فى شخص الأعرابى السائل : إن القول فى أن الله واحد يجىء على أربعة أوجه : وجهان منها لا يجوزان على الله عز وجل ، ووجهان يجوزان فيه ويثبتان له :

فأما الوجهان اللذان لا يجوزان عليه سبحانه فقول القائل : إن الله واحد . وهو يقصد بذلك باب الأعداد فهذا لا يجوز ، لأن ما لا ثانى له لا يدخل فى باب الأعداد . أفلا ترى أنه قد كفر من قال إنه تعالى ثالث ثلاثة .

وأما الوجهان اللذان يجوزان عليه ويثبتان له فقول القائل : إنه الواحد الذى ليس له فى الأشياء شبيه ولا نظير ، وكذلك ربنا جل ثناؤه وتقدست أسماؤه .

وإذا كان لقائل أن يقول فى هذا الباب شىء يتضح به المقام ، فإن لنا أن نقول : لعل الإمام كرّم الله وجهه قد استحضر فى تصوره الشريف وأجرى على خاطره المبارك قول الله جل ثناؤه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ ۝ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾(١)

ففى هذه السورة الشريفة كلمة أحد تستبدل فى فصيح الكلام بكلمة واحد ، فإن الواحد غير الأحد ، إذ كان الواحد يدخل فى عداد الاثنين والثلاثة والعشرة ، فأما الأحد فإنه لا يكون إلا مفردا بغير تكرار .

وقد جعل رسول الله ﷺ هذه السورة التى وصفت الخالق بصفة الأحدية تعدل ثلث القرآن . وليس ينبغى لك أن تغفل أو تذهل عن المراد بكونها تعدل ثلث القرآن فتظن أن تلك المعادلة ترجع إلى ثواب التلاوة ، على حين أنها ترجع إلى معنى أدق وأجل ، وهو أن القرآن الكريم يشتمل على أمور ثلاثة هى :

---

(١) سورة الإخلاص

العقائد ، والعبادات ، والمعاملات . وقد انتظمت سورة الإخلاص العقائد التى تليق بالله وتثبت له ، والتى لا تليق به فتنفى عنه . وبملاحظة هذا يتضح المعنى المراد فى الحديث النبوى الشريف بكون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن ، والله ولى التوفيق .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ما روى عن سفيان بن حيينة قال : كان لرجل امرأتان امرأة من الأنصار وامرأة من بنى هاشم ، فطلق الرجل امرأته بعد مدة . فذكرت الأنصارية المطلقة أنها فى عدتها وأقامت البينة عند أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ، وجعلت تسأل ميراثها من زوجها الذى مات . ولم يدر عثمان ما يحكم به ، فرد الأمر إلى على فقضى كرّم الله وجهه بأن تحلف المرأة أنها لم تحض بعد أن طلقها ثلاث حيضات ثم ترثه . فلما ذكر ذلك أمير المؤمنين عثمان قضاء على للهاشمية رضيته وقالت : إن حلفت الأنصارية كما قضى على ورثت .

غير أن المرأة الأنصارية تحرجت من اليمين فلم تحلف وتركت الميراث . يقول الثقات من أهل العلم وأهل السير : وأغلب الظن أن المراد بالهاشمية فى هذا الخبر السيدة أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وهى التى يعرفها الناس بأروى الصغرى .

ولعلك تتطلع إلى معرفة الرجل الذى تزوج هاشمية وأنصارية فجمع بين زوجتين ترى إحداهما أنها فى منزلة السيدة للأخرى إدلالا بنسبها فى بنى هاشم ، فذلكم الرجل هو ، حبان بن منقذ بن عمرو الأنصارى المازنى الصحابى الذى مات فى خلافة عثمان ، كما ذكر ذلك ابن عبد البر فى كتابه الاستيعاب فى معرفة الأصحاب .

* * *

ومن فقهه كرّم الله وجهه ما يرويه الرواة عن سلمان الفارسى يذكر فيه قدوم الجاثليق المدينة مع مائة من النصارى بعد وفاة رسول الله ﷺ ، فلما توجه الجاثليق إلى الإمام كرّم الله وجهه سأله : ألا أخبرتنى عن وجهه تعالى ؟ .

فدعا الإمام بنار وحطب ، فلما اشتعل الحطب بالنار سأل الإمام الجاثليق : أين وجه هذه النار ؟ فقال هى وجه من جميع حدودها . فقال الإمام كرّم الله وجهه : هذه النار مدبرة مصنوعة لا يعرف وجهها . وخالقها لا يشبهها ، فكذلك يقول القرآن العظيم : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾(١) .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — ما يسنده الرواة إلى الإمام جعفر الصادق قال : اشتكى رجل إلى أمير المؤمنين بطنه فقال له : سل امرأتك درهما من صداقها فاشتر به عسلا ثم اشرب به بماء السماء ، فإن الله يشفيك إن شاء الله . ففعل الرجل ما أمره به علي كرّم الله وجهه فبرىء وزالت عنه شكواه . ولم يكن لجلسائه بد من أن يسألوه عن سر هذه الفتوى كما عودهم ذلك وحرضهم عليه ثم رضيه منهم . فقام إليه أحدهم فقال : ما سر ذلك يا أمير المؤمنين ؟ أهو سر سمعته من رسول الله ﷺ ؟ فأجابه — كرّم الله وجهه — قائلا : لا لم أسمعه من رسول الله ﷺ ، ولكنى سمعت الله تعالى يقول فى كتابه العزيز : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾(٢) وكذلك قول الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾(٣) . ففى الآية الأولى اجتمع الهنىء

---

(١) البقرة ١١٥ (٢) النساء (٣) ق ٩

والمرءُ فيما سمحت به الزوجةُ من مهرها ثمنا لما يأكله مَن اشتكى بطنه . وفى الآية الثانية وصف الماء النازل من السماء بأنه مبارك فتهيأ بذلك المعنى الذى رآه الإمامُ شفاء لمن اشتكى بطنه ، إذْ كان قد أمره أن يتناول عسلا ممزوجا بماء السماء ، على أن يكون ثمن العسل مسموحا به من مهر الزوجة ، وهو بلا ريب استنباط صحيحٌ لا يسمو إليه ولا يظفر به إلا مثل الإمام كرّم الله وجهه فى شدة تدبره لكتاب الله ، مع شدة حرصه على أن يستخرج من شرف نظمه الحكم والأحكام ، فرضى الله عنه وأرضاه .

* * *

ومن أقضيته كرّم الله وجهه ما يرويه أهل العلم عن الإمام جعفر الصادق ، فقد سئل جعفر رضى الله عنه : لم باع أمير المؤمنين على أمهات الأولاد ؟ فأجاب الصادق : إنما باعهن فى فكاك رقابهن . فسأله السائل : وكيف ذلك ؟ فقال : أيما رجل اشترى جارية فأولدها لم يؤد ثمنها ولم يدع من المال ما يؤدى عنها ، فإنها تباع ويؤدى ثمنها لبائعها .

ولعل سائلا أن يقول : إن الولد يمنح أمه الحرية بعد أن يولد ، فكيف يسوغ بيعها وقد أصبحت حرة أم ولد ، وبيع الحرائر لا يجوز ؟

ومبلغ ما يمكن أن يقال جوابا عن هذا السؤال : إن ها هنا أمرين ، كلاهما له عند أهل الإسلام حرمة :

أحدهما : قضاء الدّين احتراما للملكية .

وثانيهما : احترام الحرية التى منحها المولود لأمه .

وتغليب أحد الأمرين على الآخر غير ميسور ، لأن الخطأ فيه تفويت لحق معترف به فى فقه الإسلام . ومعظم الظن أن فقهاء الأمة استبدت بهم الحيرة حول هذه القضية استبدادا جعلهم يلجئون إلى الحيلة التى تخرجهم من ظلمات الحيرة إلى نور اليقين ، فراحوا يذكرون حيلة ظنوها مخرجا من هذا الحرج الشديد وما هى بمخرج منه ولكنها موقعة فى سخط الله رب العالمين .

وجملة القول فى هذه الحيلة ما نرويه لك عن شيخ الإسلام ابن القيم فى كتابه « أعلام الموقعين » ، فذلك حيث قال رحمه الله :

ومن الحيل الباطلة لتجويز بيع أم الولد أن يملكها الرجل لولده الصغير ثم يتزوجها هو ، فإذا ولدت فإن أولادها يصبحون إخوة لمالكها ، وليس يسوغ للمسلم أن يملك أخاه ، ولذلك يصبحون أحرارا بمجرد الولادة ، شاء مالك الأمة أم أبى . ولعلك سائل بعد ذلك عن حكمة التشريع فى هذه القضية.

فاعلم — أعزك الله — أن الشارع الحكيم متشوف دائما إلى الحرية طامح إليها ، والدليل على ذلك يتمثل فى عدة أمور لا ندحة عن التعرض لها ببعض التفصيل عن إجمال ، والتوضيح عن إبهام :

أولها : أن الإسلام حرم الرق جميعا ولم يبح منه إلا ما هو مباح إلى الآن . وفحوى ذلك أنه صنع خير ما يطلب منه أن يصنع ، وأن الأمم الإنسانية لم تأت بجديد فى هذه المسألة بعد الذى تقدم به الإسلام قبل أربعة قرنا من الزمان.

فالذى أباحه الإسلام من الرق مباح اليوم فى أمم الحضارة التى تعاهدت على منع الرق منذ القرن الثامن عشر إلى الآن .

وثانيهما : أن الإسلام شرع العتق ولم يشرع الرق ، ثم أضاف إلى شريعته فى الرق نوافل وشروطا تدنو بالمجتمع الإسلامى إلى غاية الكمال ، فإذا كانت الشرائع الدولية لم تكلف الدولة فكاك رعاياها من الأسر فقد سبق الإسلام إلى فرض هذا الواجب على الدولة المسلمة ، فجعل من مصارف الزكاة تحرير الرقاب وعتق العبيد كما ترى ذلك فى الآية الشريفة من سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

---

(١) التوبة ٦٠

فكلمة الرقاب فى هذه الآية تعنى عتق العبيد ، وقد جعل الإسلام عتق العبيد — بحكم هذه الآية — مصرفا من مصارف الزكاة التى هى أخت الصلاة فى بناء الإسلام .

وإذ قد كان ارتباط الأسرى أمرا لا بد منه فى الحروب الحديثة ، فالإسلام لم يجعله حتما مقضيا فى جميع الحروب بل حرص على التخفيف من شدته كلما تيسرت إلى التخفيف سبيل . وقد جعل سبحانه المن فى تسريح الأسرى أفضل الخطتين اللتين انتظمتهما الآية الشريفة من سورة القتال ، حيث قال تعالى فى سورة محمد: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ • وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ • ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ • فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾(١). الآية.

فقد وكل القرآنُ العظيمُ إلى ولى الأمرِ النظر فى الأسرى ، يعمل فيهم بما يراه مصلحة للأمة بعد مشاورة أهل الحل والعقد . فإذا اقتضت مصلحة الأمة أن يأخذ منهم فداء أمر بأخذ الفداء ، وإذا اقتضت مصلحة الأمة أن يعفو عن أسرى الأعداء مقابل عفوهم عن أسرى المسلمين فذلك حق لا يأباه الإسلام ، على أنّ المنّ أفضلُ الطريقتين .

وأنت إذا رجعت إلى غزوة بدر فإنك سوف ترى صورة رائعة من قضاء رسول الله ﷺ فى الأسرى ، فقد تفضل بالمن على من رآه أهلا لذلك ، ثم

---

(١) محمد ١ — ٤

أخذ الفداء ممن يملك مالا ، ثم جعل فداء الأسير أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة والقراءة .

والأمر الثالث : أن الإسلامَ جعل من أقرب القربات إلى الله عتق العبيد ، كما جعل عتقهم تكفيرا عن السيئات . فالذى يظاهر من امرأته لا يعود إليها إلا إذا أعتق رقبة ، والذى يحنث فى يمينه يعتق رقبة ، والذى يفطر عامدا فى رمضان يعتق رقبة ، والذى يضرب عبده ضربا مبرحا يعتق رقبة ، والرجل الذى يتزوج أمة يعتقها إذا ولدت لأنها أصبحت أم ولد ، فلا يجوز بيعها ولا شراؤها .

وليس يخفى عليك بعد إلمامك بموقف الإسلام من تحرير الرقيق ، أن بيع أمهات الأولاد مناقض للشريعة ، وأن التحايل على تجويزه تحايل باطل . والإمام كرّم الله وجهه أجل قدرا وأشرف منزلة وأعظم فقها بالإسلام من أن يسوغ للمسلم بيع أم ولده ، لأن بيعها لا يعدو أن يكون عودة بها إلى رق جديد لعله أقسى من الرق الذى أنقذها منه الإسلام . ولهذا لا نجد ندحة عن القول بأن هذا القضاء إنما هو افتراء على الإمام كرّم الله وجهه ، وما أكثر ما افترى عليه المبغضون له والغالون فيه .

ومما يؤيد القول بأن بيع أم الولد افتراء على الإمام ، إبطال الفقهاء الحيلة التى يرى قصار النظر أنها تجيز بيع أمهات الأولاد .

وإذ قد أفضى بنا القول إلى باب الاحتيال فى شرائع الله ، فإننا ننتهز هذه السانحة لنروى لك — حفظك الله — ما يقوله الثقات من أهل العلم فى هذا الباب ، إنكارا للاحتيال على كل ما يتصل بقضية من قضايا الشريعة الإسلامية ، فذلك حيث يقول الثقات من أهل العلم رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين :

إن أكثر الحيل التى يذكرها القائلون بها لا تساير أصول الأئمة بل تناقضها أعظم مناقضة ، ومن الخطأ أعظم الخطأ التدليل بقول الله تعالى فى قصة أيوب : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَاتَحْنَثْ ﴾(١) فقد أذِنَ الله تعالى لنبيه أيوب أن يتحلل من يمينه بأن يضرب زوجته بحزمة من الريحان وفاء بيمينه التى كان قد عزم بها على أن يضرب زوجته . ذلك أن شريعة أيوب لم يكن فيها التكفير عن الحنث فى اليمين كما هو الأمر فى الشريعة المحمدية المسماح ، وإنما كان فى تلك الشريعة أن من حلف على شىء فلا بد أن يفعله . وفرق واضح بين إباحة الحنث والتكفير عنه ، وبين فعل المحلوف عليه مهما تكن المشقة فيه . فقصة أيوب لا تسوغ الحيلة ولا تناقض حكما شرعيا كما تناقض الحيلة فى بيع أم الولد حكماً شرعيا ، وهو حرص الشارع على تحرير العبيد .

* * *

ومن أقضيته — كرّم الله وجهه — قضاؤه فى المرأة التى أنكرت ولدها قائلة : إنه ليس ولدى . فذلك حيث يقول الثقة الذى روى هذه القصة :

سمعت غلاما بالمدينة يقول : يا أحكم الحاكمين احكم بينى وبين أمى . فقال له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : لماذا تشكو أمك يا غلام على هذه الصورة ؟ قال الغلام : يا أمير المؤمنين إنها حملتنى فى بطنها تسعة أشهر ثم أرضعتنى حولين كاملين ، فلما كبرت وعرفت الخير من الشر طردتنى وزعمت أنها لا تعرفنى . فاستدعى المرأةَ أميرُ المؤمنين عمر ثم سألها عمّا يقول الغلام . فقالت : يا أمير المؤمنين والذى احتجب بالنور فلا عين تراه ، إننى لا أعرف هذا الغلام ولا أدرى من أى الناس هو ، وهو يريد أن يفضحنى فى عشيرتى وأنا لا أزال بكرا لم أتزوج . فسألها عمر : هل لك شهود على ما تقولين ؟ فأجابت : نعم ، هؤلاء إخوتى . فاستدعاهم عمر فشهدوا عنده

(١) ص ٤١

بأن الغلام كذاب وأنه يريد أن يفضح أختهم فى عشيرتها وأنها جارية لم تتزوج . فقال عمر : انطلقوا بهذا الغلام إلى السجن حتى نسأل . فأخذوا الغلام إلى السجن ، وفيما هم فى الطريق إلى السجن تلقاهم الإمام كرّم الله وجهه فناداه الغلام : يا بن عم رسول الله ، إنى غلام مظلوم . ثم قص عليه ما كان قد قصه على عمر ، فقال على كرّم الله وجهه : ردوه إلى أمير المؤمنين عمر . فلما ردوه إليه قال لهم عمر : لقد أمرت به إلى السجن فلماذا رددتموه إلى ؟ فأجابوه : لقد سمعناك تقول لا تعصوا لعلى أمرا ، وقد أمرنا على أن نرده إليك وألا نذهب به إلى السجن . ثم جاء علىّ كرّم الله وجهه فقال : لأقضين اليوم بقضاء يرضى رب العالمين . ثم أخذ يسأل المرأة : ألك شهود ؟ قالت : نعم . ثم تقدم الشهود فشهدوا بأن المرأة ليست أما للغلام وإنما هو يريد أن يفضحها فى عشيرتها .. فقال الإمام على كرّم الله وجهه : أشهد الله وأشهد من حضر من المسلمين أنى قد زوجت هذا الغلام من هذه الجارية بأربعمائة درهم ، أدفعها من مالى الخاص . ثم نادى قمبرا مولاه أن يحضر الدراهم فأتاه بها ، فصبها فى يد الغلام قائلا له : صب هذا المال فى حجر امرأتك ولا أراك بعد ذلك إلا وبك أثر العرس . فقام الغلام فصب الدراهم فى حجر المرأة فقال لها : قومى معى إلى بيت الزوجية . فصاحت المرأة : النار النار يا بن عم رسول الله ، أتريد أن تزوجنى من ولدى ؟ هذا والله ولدى ، وقد زوجنى أخى هجينا فولدت منه هذا الغلام ، فلما كبر أمرونى أن أنتفى منه وأطرده مع أنه ولدى ، وفؤادى يحترق أسفا على ولدى . ثم أخذت بيد الغلام فانطلقت به . فنادى عمر بأعلى صوته : واعمراه ! لولا على لهلك عمر .

ففى هذه القصة يقضى الإمام على قضاء أيدته فيه عناية الله ، فرد الولد إلى أمه لأنه ولدها وهى أمه ، ولكن العصبية العربية ضد الأعاجم هى التى صنعت هذا البلاء فى القصة الأليمة .

ولكى يتضح لك الموضوع على ما ينبغى أن يتضح ، اعلم — رحمك الله — أن العرب كان الولد عندهم إما أن يكون صريحا ، وإما أن يكون هجينا ، وإما أن يكون مقرفا :

فإن جاء الولد من أب عربى وأم عربية فهو الصريح ، وإن جاء الولد من أب عربى وأم أعجمية فهو الهجين المحتقر عند العرب ، وإن جاء الولد من أم عربية وأب أعجمى فهو المقرف وهو العار الذى لا عار بعده .

فهذه الجارية كانت قد تزوجت من شاب أبوه عربى وأمه أعجمية فهو هجين محتقر ، ولذلك أمرها قومها بعد أن ولدت من هذا الهجين أن تتبرأ من ولدها فتبرأت منه .

فماذا يصنع الولد إلا أن يلجأ إلى أمير المؤمنين على ليرده إلى أمه ، ولكنه لم يرده إليها كأم بل رده إليها كزوج لزوجة حتى يتبين حقيقة الأمر . فلما شعرت المرأة أنها تغضب الله وأن مصيرها إلى النار إذا قبلت هذا الزواج ، رفضت الولد زوجا لها واعترفت بأنها أمه ، وأخذت الدراهم من على توسع بها على نفسها . وهو قضاء كريم رفع من المجتمع الإسلامى منكرا وقرر حقا وجمع شمل أم بولدها . ومثل الإمام كرّم الله وجهه يكون وسيلة إلى الخير : خير الدنيا وخير الآخرة جميعا ، والله ولى التوفيق .

* * *

ومن فقهه — كرّم الله وجهه — ما يروى عن سعيد بن المسيب عن حذيفة بن اليمان قال : لقى عمر بن الخطاب رضى الله عنه حذيفة رضى الله عنه فقال له عمر : كيف أصبحت يا حذيفة ؟ فقال حذيفة : كيف تريدنى أصبح ؟ أصبحتَ أكره الحق ، وأحب الفتنة ، وأشهد بما لم أره ، وأصلى على غير وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء .. فغضب عمر غضبا شديدا حتى كأنما فقئ فى وجهه حب الرمان ، ثم انصرف فمر بالإمام على كرّم الله

وجهه فقال له : ما أغضبك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : لقيت حذيفة بن اليمان فسألته كيف أصبح ؟ فقال : أصبحت أكره الحق . فقال على : صدق حذيفة ، أصبح يكره الموت والموت حق . فقال عمر : وقال حذيفة : إنه يحب الفتنة . فقال الإمام : صدق ، يحب المال والولد ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾[1] . فقال عمر . وقال حذيفة : أشهد بما لم أره . فقال الإمام : صدق ، يشهد بالوحدانية والموت والبعث والقيامة والجنة والنار والصراط ، وهو لم ير ذلك كله . وقال عمر : قال حذيفة : إنه يصلى على غير وضوء . فقال الإمام : صدق حذيفة ، إنه يصلى على رسول الله ﷺ . فقال عمر : يا أبا الحسن إن حذيفة قال أكبر من ذلك ، إن له فى الأرض ما ليس لله فى السماء . قال الإمام : صدق حذيفة ، لأن له فى الأرض زوجة وله ولد ، وتعالى الله عن الزوجة والولد . فقال عمر : كاد يهلك ابن أم عمر ، ولولا على لهلك عمر .

* * *

وأنت إذا تأملت فى هذه النماذج من أقضية الإمام كرّم الله وجهه ، فإنك لا ترى بدا من القول بأن عليا قد جمع الله له من الفقه فى الدين والبصر بروح الشريعة ما لم يجمعه لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، ويزكى لك هذا القول ما يذكره مسروق بن الأجدع التابعى الجليل ، من أن أصحاب رسول الله ﷺ أشبه شيء بالأخاذات .

فالأخاذة تكفى الراكب ، والأخاذة تكفى الراكبين ، والأخاذة لو نزل بها أهل الأرض لأصدرتهم .

وقد زاد مسروق رضى الله عنه هذا المعنى وضوحا فقال : لقد شاممت

---

(١) التغابن ١٥

أصحاب رسول الله ﷺ فوجدت علمهم انتهى إلى ستة ، هم : عمر ، وعلى ، وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وأبو الدرداء ، وزيد بن ثابت . ثم شاممت هؤلاء الستة فوجدت علمهم انتهى إلى على بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود — يعنى مسروق فى مبلغ ما نعلم أن ابن مسعود مرجع فى علوم القرآن .

وليس يغيب عنك ما قاله ابن الأثير من أن الأخاذات هى الغدران التى تأخذ ماء السماء فتحبسه على الشاربة .

علىّ وزير صدق لرسول الله

خير ما يفتتح به حديث هذا الفصل من الكتاب ، حديث نبوى شريف أخرجه أبو داوود والنسائى عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق .. إن نسى ذكّره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسى لم يذكره ، وإن ذكر لم يعنه) .

فقد تضمن هذا الحديث توجيها نبويا شريفا فى سياسة الأمم لمن أحب أن يرضى الله عنه ورسوله والمؤمنون وليس يرتاب مسلم فى أن رسول الله ﷺ قد اختاره الله من أشرف أمة هى الأمة العربية ، ثم من أشرف قبيلة فى هذه الأمة هى قبيلة قريش ، ثم من أشرف بيت فى هذه القبيلة هو بيت بنى هاشم . فهو — صلوات الله عليه — محوط بالشرف من جميع جهاته ، ثم هو بعد معصوم — بعصمة الله إياه — من أن يميل مع الهوى ، أو يتجهم سبيل الحق بحيث يحتاج إلى من يعينه على خير أو يصرفه عن شر . غير أنه مع ذلك بشر يجوز عليه أن ينسى كما ينسى البشر فيحتاج إلى من يذكره عن نسيان ، كما فى الحديث الذى أخرجه جامع الأصول عن أبى مسعود رضى الله عنه قال : صلى رسول الله — ﷺ — فزاد أو نقص ، فقيل : « يارسول الله أحدث فى الصلاة شىء » ؟ فقال : (وماذاك) ؟ قالوا : « صليت كذا وكذا » . فثنى رجليه واستقبل القبلة وسجد سجدتين ثم سلّم ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال : (إنه لو حدث فى الصلاة شىء لأنبأتكم به ، ولكنى بشر أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكرونى) .

وكما يجوز عليه أن ينسى فيحتاج إلى من يذكّره ، يجوز أن يعزب عن علمه — صلوات الله وسلامه عليه — بعض القضايا التى يحتاج معها إلى بصير بشئون الاجتماع البشرى ، يذكّره بما يستوجب قضاء ينتفع به الإسلام والمسلمون .

وقد كان الإمام علىّ كرّم الله وجهه هو ذلك البصير بشئون الاجتماع ، وكان — مع ذلك — أقدر الناس أو من أقدرهم على معرفة اتجاهات رسول الله ﷺ فى مختلف شئون الحياة . وقصة سفانّة بنت حاتم الطائى آية بينة .. على أن الإمام عليًّا كرّم الله وجهه ، كان بطانة خير ووزير صدق لرسول الله ﷺ .

وخلاصة قصتها — رضى الله عنها — ما يرويه ابن إسحاق فى أمر أخيها عدىّ بن حاتم رضى الله عنه ، فذلك حيث يقول عدىّ : ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ منى ومن قومى ، فقد كنت امرأً شريفا فى قومى وكنت نصرانيا ، فكنت فى نفسى على دين وكنت فى قومى ملكا .

فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته فقلت لغلامى الذى كان راعيا لإبلى : لا أبا لك أعدد لى أجمالا ذللا سمانا واحتبسها قريبامنىّ ، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فأخبرنى . فأعد الغلام لى الإبل ثم جاءنى ذات غداة فقال : ياعدىّ ما كنت صانعا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن ، فإنى قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا هذه جيوش محمد ، فجئت أخبرك فاصنع ما أنت صانع .

ولم أجد بدا من أن أغادر الأرض التى عشت عليها فلحقت بأهل دينى من نصارى الشام ، غير أن خيل محمد كانت قد خالفت طريقى فأصابت ابنة حاتم فيمن أصابت فقدموا بها على رسول الله ﷺ فى سبايا من طىّ ، وقد بلغ

رسول الله هربى إلى الشام . وقد كانت بنت حاتم فى حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تحبس فيها ، فحبست معهن أختى سفّانة(١) بنت حاتم .

وذات يوم مرّ رسول الله ﷺ ، فقامت إليه فقالت : « يارسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن على منّ الله عليك » . فقال لها رسول الله ﷺ : ومن وافدك ؟ فقالت : عدىّ بن حاتم أخى . فقال رسول الله : أهو الهارب من الله ورسوله ؟ قالت : نعم. ثم مضى رسول الله وترك المرأة ، حتى إذا كان من الغد مرّ بها ﷺ وقد يئست منه ، فأشار إليها علىّ كرّم الله وجهه أن قومى إلى رسول الله فكلّميه . فقامت إليه فقالت ما كانت تقوله من قبل : هلك الوالد وغاب الوافد . فقال لها رسول الله ﷺ : قد فعلت . فلا تعجلى بالخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة فيبلغك إلى بلادك ، فإذا وجدت هذا الثقة فأخبرينى .

تقول سفّانة : ثم قدم ركب من قضاعة فجئت إلى رسول الله ﷺ فقلت : قدم رهط من قومى لى فيهم ثقة وبلاغ . فكسانى رسول الله وحملنى وأعطانى نفقة ، فخرجت مع الرهط حتى قدمت الشام .

وهنا يقول عدىّ بن حاتم رضى الله عنه : بينا كنت فى أهلى ذات يوم نظرت إلى ظعينة تؤمنا ، فقلت فى نفسى : ابنة حاتم والله . فإذا هى هى . فلما وقفت علىّ جعلت تقول : أيها القاطع الظالم احتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والدك التى هى عورتك . قال عدىّ : أى أخيّة ، لا تقولى إلا خيرا . فوالله مالى من عذر . لقد صنعت ما ذكرت وأنا أستحق ما قلت . ولم يسع سفّانة إلا أن تنزل وتقيم عندى فقلت لها — وكانت امرأة حازمة — : ماذا ترين يا أخية فى أمر هذا الرجل ؟ فقالت : أرى والله أن تلحق به سريعا ، فإن يكن الرجل نبيّا فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فلن تذلّ فى عزه وأنت

(١) السفّانة — بتشديد الفاء المفتوحة — اللؤلؤة سميت بها بنت حاتم أخت عدى رضى الله عنه.

أنت . فقلت لها : والله إن هذا لهو الرأى . ثم خرجت حتى قدمت المدينة على رسول الله ﷺ فدخلت عليه وهو فى مسجده فسلمت عليه ، فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدىّ بن حاتم . فقام رسول الله ﷺ وانطلق بى إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بى إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها . فقلت فى نفسى : والله ما هذا بملك . ثم مضى بى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بى بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفا فقذفها إلىّ فقال لى : اجلس على هذه . فجلست عليها وجلس رسول الله بالأرض . فقلت فى نفسى : والله ما هذا بأمر ملك .

فلمّا اطمئن بى المجلس قال ﷺ: إيه يا عدىّ بن حاتم ، أسلم تسلم. قلت: إن لى دينا.قال : أنا أعلم بدينك منك . قلت : أنت أعلم بدينى منىّ ؟ قال : نعم . يرددها مرتين أو ثلاثة . ثم قال ﷺ : ألست ترأس قومك ؟ قلت : بلى . قال : ألست ركوسياً[1] ألست تأكل المرباع[2] ؟ قلت : بلى . قال : إن ذلك لا يحل فى دينك ، ففضفضت[3] لذلك . فقال لى ﷺ : يا عدىّ أسلم تسلم . ثم مضى يقول رسول الله : قد أرى أنه ما يمنعك أن تسلم إلا غضاضة تراها ممن حولى ، وأنك ترى الناس علينا إلبا مجتمعين . ثم قال ﷺ : (هل أتيت الحيرة يا عدىّ) ؟ قلت : لم آتها وقد علمت مكانها . قال : (يوشك أن ترتحل الظعينة من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت ، ولتفتحن على من حولى كنوز كسرى بن هرمز) .فقلت : كسرى بن هرمز ! فقال رسول الله : (كسرى بن هرمز مرتين أو ثلاثا ، وليَفيضنَّ المال حتى إن الرجل ليحزن أنه لا يجد من يقبل صدقته) .

---

(١) الركوسية : النصرانية أو الصابئة وهما ديانتان سابقتان على الإسلام ، وأهل الديانتين كلتيهما من أهل الكتاب .

(٢) [illegible] غنيمة يأخذه رئيس القوم الطاع فيهم دون أصحابه فى الجاهلية .

(٣) فضفضت [illegible] فى فمى [illegible] أجهر بالقول .

يقول عدىّ رضى الله عنه : لقد رأيت اثنتين .. الظعينة[1] ترتحل بغير جوار[2] حتى تطوف بالبيت ، وقد كنت فى أول خيل أغارت على كنوز كسرى بن هرمز ، وإنى لأحلف بالله لتجيئن الثالثة فيفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه .

وأنت حين تتأمل فى هذه القصة على ما ينبغى لها ، فإنك سترى مقدار الخير الذى أصاب المسلمين بتوجيه الإمام نظر رسول الله ﷺ إلى تكريم ابنة حاتم الطائى ، من طريق المن عليها من رسول الله ، وإعطائها نفقة تحملها إلى أخيها . وفى ذلك مصداق لهذا الحديث الذى جعلناه صدر هذا الفصل من كتاب الإمام كرّم الله وجهه .

---

(١) الظعينة : الهودج على البعير فيه المرأة أولا .

(٢) الجوار : الحماية والحراسة .

علىّ وإمارة المؤمنين

مما ينبغي التنبيه له والتنبيه إليه ، أن لقب الخليفة لم يظفر به من أصحاب رسول الله ﷺ إلا أبو بكر الصديق رضى الله عنه . فلما انتهى الأمر إلى عمر بن الخطاب تلقب بأمير المؤمنين . ولعل عمر رضى الله عنه قد شعر بما شعر به أبو بكر من تحرجه أن يرى نفسه قائما مقام رسول الله فى ولايته أمر الأمة الإسلامية ، فآثر لنفسه لقب أمير المؤمنين .

وبيان ذلك أن أبا بكر حين ولى الخلافة قال له أعرابى : أأنت خليفة رسول الله ﷺ ياأبا بكر ؟.. قال أبو بكر : لا . قال الأعرابى : فما أنت إذا ؟ قال أبو بكر : أنا خالفة رسول الله ﷺ .

يقول أبو بكر رضى الله عنه : إنه خالفة رسول الله وليس خليفة له ﷺ .

وأحسب أنك تتطلع إلى معرفة الفرق بين الخليفة والخالفة .. فاعلم رحمك الله أن الخليفة هو من يقوم مقام السالف ويسد مسده ، أما الخالفة .. فهو الذى يأتى بعد السالف وليس عنده غناؤه ولا معه خصائصه . فسيدنا أبو بكر — رضى الله عنه — لم يشأ أن يصف نفسه بأنه خليفة النبى وقائم مقامه ، وإنما وصف نفسه بأنه خالفة رسول الله بمعنى أنه مجرد آت بعده ، يقصد بذلك إلى التواضع وهضم النفس . وكل مسلم هو كذلك إذا قيس برسول الله ﷺ . ولئن كان سيدنا أبو بكر لم يستطع أن يتخلى عن هذا اللقب الشريف ، لقد استطاع عمر أن يستبدل بلقب الخليفة لقب أمير المؤمنين ، وعلى ذلك مضى الخلفاء الراشدون ومن جاء بعدهم ممن ولى أمر الأمة الإسلامية رضى الله عنهم .

ولعل من الحق علينا للخليفة أبى بكر رضى الله عنه ، أن نلفتك إلى ما يزيدك إيمانا بأنه كان عظيم الإجلال لرسول الله بقدر ما كان صادقا الصدق كله فى

اعتقاده أنه أقل من أن يكون خليفة لرسول الله ، حتى قال كلمته المأثورة عنه : « أنا خالفة رسول الله ولست خليفته ﷺ » . ذلك أنه حين تمت له البيعة فى السقيفة ورقى منبر رسول الله فى المدينة ، لم يشأ أن يقف على الدرجة التى كان يقف عليها رسول الله بل وقف على درجة أنزل منها . فإن أنت ضممت تلك الكلمات الشريفة إلى تصرفه هذا فى وقوفه على المنبر ، رأيت فعله رضى الله عنه مواكبا قوله فى الدلالة على إجلاله العظيم لمقام رسول الله ، ورؤيته نفسه مأموما لخير إمام وتابعا لأشرف متبوع .

وأحسب أنك لا تحتاج بعد ذلك إلى من يذكرك بأن لقب أمير المؤمنين حل محل لقب الخليفة منذ ارتضاه عمر لقبا لكل من تولى أمر الأمة الإسلامية حتى يوم الناس هذا ، وفى هذا دلالة تؤيد مع زميلات لها أن عمر بن الخطاب كان — من بعد النظر وقوة الإدراك وحسن التصرف — بمكان مكين ، كما يرشد إلى ذلك الحديث الذى أخرجه المرتضى الزبيدى فى كتابه « تاج العروس » : « قد كان فى الأمم محدثون — ملهمون — فإن يكن فى أمتى أحد فعمر بن الخطاب » .

غير أن من أهل العلم من كان يرى لونا من الغرابة فى تصرف عمر رضى الله عنه حيال علىّ كرّم الله وجهه .. ذلك أن هذا العالم كان يقول كلما سنحت له فرصة : إن أمير المؤمنين عمر لم يكن ليخفى عليه أن رسول الله ﷺ رشح للخلافة من بعده أبا بكر بتقديمه للصلاة ، ثم لم يكن ليخفى عليه أيضا أن نبى الله إنما قصد بهذا الترشيح أخذ الطريق على تشعب الآراء وتعدد المطامع التى توقظ العصبيات وتفسد ذات البين ، فى أمة تتلمظ إليها الأطماع وتتربص بها الأحقاد فى أكثر من مكان فى أرض الله . فلما لحق صلوات الله عليه بالرفيق الأعلى ، جاء من بعده أبو بكر على خلاف بين المهاجرين والأنصار كاد يقضى على الوحدة بالفرقة . وعلى السكينة والسلام بالقلق والخصام ، لولا أن

تداركت الأمة عناية الله عن طريق ترشيح رسول الله أبا بكر ، ومبادرة عمر إلى مبايعة أبي بكر . ولو افترض البصراء بشئون الاجتماع أن رسول الله ﷺ لم يرشح للخلافة أبا بكر ، لتضاربت الأهواء واستغلظ عود البلاء ، ولست تشك في أن هذه الصورة لم تكن لتتأبى على مدارك الصديق رضى الله عنه ، فلما مرض مرض الموت لم يجد بدا من الاقتداء برسول الله أو الاستئناس بعمله فرشح عمر خليفة من بعده . ثم رأى السابقين من أصحاب النبي يعاتبونه على ترشيحه عمر دون غيره ممن يشاركون عمر فى فضله ، على ما تشير إلى ذلك آخر خطبة خطبها رضى الله عنه فى مرضه الذى مات فيه ، فذلك حيث روى أبو العباس المبرد عن عبد الرحمن بن عوف قال : دخلت يوما على أبي بكر الصديق فى علته التى مات فيها فقلت لمأراك بارئا يا خليفة رسول الله ﷺ . فقال : أما إنى على ذلك لشديد الوجع ، والذى لقيته منكم يا معشر المهاجرين أشد علىّ من وجعى . إنى وليت أموركم خيركم فى نفسى ، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر من دونه .

وأنت إذا تأملت فى هذه الكلمات رأيت وجه الغرابة يتجلى فى إعراض عمر عن ترشيحه خلفا له ، مع جعله أمر الخلافة بين ستة من الصحابة بعضهم لبعض كفء .. ومن شأن هذا التكافؤ بينهم أن يدعوهم إلى التنافس ابتغاء الظفر بهذا المنصب الجليل يجمع الله به للمخلصين الصادقين شرف الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، وبذلك تمهد السبل للفرقة تصدع الشمل ، وللتنازع والخصام يحل محل الوفاق والوئام .

ولو أنه رضى الله عنه كان قد رشح عليًّا ، لوجد سندا شريفا لتصرفه هذا فى عمل رسول الله حين رشح أبا بكر ، ثم فى عمل أبى بكر حين رشح عمر . ثم إنه لو فعل لوجد فى علىّ من الخصائص والمميزات ما لم يشاركه فيه أحد من أصحاب رسول الله ، **فهو قريب من رسول الله ﷺ قرابتين .. قرابة عن**

طريق النسب الشريف ، ثم هو أيضا — قريب منه قربة عن طريق نشأته فى بيته وتأدبه ونهله من ينابيع النبوة . وليس لغير عليّ من أصحاب النبى هاتان الخصيصتان الشريفتان اللتان لا يتطاول منصب الخلافة إلى خير منهما لدنيا الإسلام والمسلمين . وقد تسأل رحمك الله — عن المعنى الذى سوغ لعمر رضى الله عنه الإغضاء عن عليّ حتى جعله واحدا من ستة ليس لأحدهم من الخصائص ماله هو كرّم الله وجهه ؟..

وإنه ليطيب لى أن أعيذك بالله تعالى من أن يمسك طائف من الشيطان يخيل لك أن عمر كان أسير هوى أو حليف نزوة ، فإن الرجل فوق ذلك وأجل من ذلك عند الله وعند رسول الله وعند عليّ نفسه ، وكذلك هو عند كل ذى دين يخشى الله ويتجهم العصبية المذهبية مؤثرا العدل والإنصاف على الجور والميل والاعتساف .

ونقف بك وقفتين لا نرى منتدحا عنهما فى هذا المقام .. إحداهما تتعلق بفضل عمر . وثانيتهما تتعلق بما عسى أن يكون قد اختلج فى نفسه فصرفه عن ترشيح عليّ لإمارة المؤمنين .

فأما الوقفة الأولى فخلاصتها : ماأخرجه جامع الأصول من أن عمر قال لأبى بكر : « يا خير الناس بعد محمد رسول الله » .. فقال أبو بكر : أما إذ قلت ذلك ، فلقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ماطلعت الشمس ولا غربت على رجل خير من عمر) .

وعن عمر رضى الله عنه قال : وافقت ربى فى ثلاث : تمنيت أن نؤمر بالصلاة فى مقام إبراهيم، فجاءت الآية الكريمة: ﴿ واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾(١) ثم تمنيت أن يحتجب نساء النبى ﷺ فجاءت الآية الكريمة :﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾(٢) .. الآية . ثم سألنا رسول الله الرأى فى

---

(١) البقرة ١٢٥ (٢) الأحزاب ٣٣

أسرى بدر فقلت يا رسول الله : تمكننا حتى نضرب أعناقهم . ولكن رسول الله أخذ الفدية فعاتبنا الله فى ذلك حتى قال ﷺ : (إن كاد ليصيبُنا فى خلاف عمر عذاب).

وقد روى الزبير بن بكار قال : خطب عمر أم كلثوم بنت علىّ فقال له إنها صغيرة ، فقال عمر: زوجنيها يا أبا الحسن فإنى أرصد من كرامتها ما لا يرصده أحد . فقال علىّ : أنا أبعثها إليك ، فإن رضيتها زوجتكها . فبعثها إليه فرضيها وتزوجها . ثم جاء إلى المجلس فى المدينة فجلس فى الروضة التى كان يجلس فيها المهاجرون الأولون فقال : رفئونى ، رفئونى . قالوا : بم يا أمير المؤمنين ؟.. فقال : تزوجت أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، إذ كنت سمعت رسول الله ﷺ يقول : (كل سبب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة ، إلا سببى ونسبى وصهرى) . فأحببت أن أكون كذلك من رسول الله ﷺ فتزوجت أم كلثوم .. فهذه فضائل جمعها الله لعمر ، وإنها لترق بالمسلم حتى تكاد تلحقه بعالم الملائكة فلا يكاد يخضع لهوى ولا يستأسر لنزوة .

هذا ، وأما المعنى الذى صرف عمر عن ترشيح علىّ لإمارة المؤمنين ، فمبلغ علمنا أن عمر رضى الله عنه كان يرى الغيرة من علىّ تكاد تأكل صدور منافسيه حسدا له وجحدا لفضله . ثم هو بعد غرض لثارات كثيرة فى بيوتات عربية قرشية جعلت الحاقدين عليه والمتربصين به أكثر عددا وأشد سلطانا وأوسع حيلة من المنتصرين له والقائمين معه . ولعل عمر رضى الله عنه كان قد بلغه الحديث الذى يذكره بعض أهل العلم فوثق به . ورأى أن فيه توجيها من رسول الله لا يجوز خلافه ، فذلك قوله ﷺ : (إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أمينا زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة ، وإن تؤمروا عليًّا — ولا أراكم فاعلين — تجدوه هاديا مهديا يأخذ بكم الطريق المستقيم) .

وأنت إذا تدبرت فى هذا الذى روينا لك من فضائل عمر ومن حسن تقديره لعلىّ فى فضله وفى منزلته بين معاصريه ، لم تشك فى أن عمر لم يصرفه عن إفراده بالترشيح لإمارة المؤمنين إلا ابتغاء الخير للأمة فى عاجل الأمر وآجله ، وماذلك عليك — إذا أحسنت النظر — ببعيد — والله الهادى إلى سواء السبيل .

الكبير ، أمين على وصفه لنفسه

الكبارة صفة فى الإنسان تجعله يحرص على تحصيل معالى الأمور وتجنب ما يغض من قدر الناس . وهذا الطراز من الناس لم تخل منه أمة فى جاهلية ولا إسلام ، لأن هاديتهم فى الحياة فطرة سوية تقوم فى النفس الإنسانية مقام الدين . فإذا صاحب هذه الفطرة السوية يحرم على نفسه كل ما يشين شرفه أو يؤذى مروءته ويشيع عنه سوء الأحدوثة بين الناس ، فإن هو لم يترك الكذب دينا تركه أنفه ، وإن هو لم يمتنع عن شرب الخمر دينا امتنع عن شربها سموا بنفسه عن أن يكون حيوانا يمشى على قدمين فى أرض الله ، وإن هو لم يأخذ بالأخلاق الفاضلة خضوعا لسلطان الدين فإنه يأخذ بها لأنها من مكارم الأخلاق ، على ما تشير إلى ذلك الكلمة التى قالها لرسول الله ﷺ شيخ بنى شيبان : والله يا أخا قريش لو لم يكن هذا الذى تدعونا إليه دينا ، لكان فى أخلاق الرجال حسنا .

وإذ قد كانت هذه الكلمات ذات أسناد موثوقة إلى أصحاب المروءات ، فإن مما لا يخفى عليك — حفظك الله — أن الإمام عليًّا — كرَّم الله وجهه — قد جمع الله له بين أمور ثلاثة ترتاد له شرف الفضيلة ، وتنأى به عن خسة الرذيلة : نسبه العريق فى بنى هاشم ، ونشأته الكريمة فى بيت عبد المطلب ، وتربيته الشريفة بين محمد بن عبد الله وخديجة بنت خويلد .

وفى ظل كل من هذه الأمور الثلاثة اعتنق كرَّم الله وجهه الإسلام فلم يسجد لصنم قط ، ولم يألف رذيلة قط . فإذا وصف نفسه فإنه بنفسه خبير ثم هو على ذلك أمين . ولهذا كان من الخير أن نسوق إليك وصفه لنفسه بلغته هو — كرَّم الله وجهه — فذلك حيث يقول :

« والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهدا ، أو أجر فى الأغلال مصفدا ، أحب إلىّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالما لبعض العباد ، أو غاصبا لشىء من الحطام . وكيف أظلم أحدا لنفس يسرع إلى البلى قفولها ، ويطول فى الثرى حلولها .

« والله لقد رأيت عقيلا أخى وقد أملق حتى استماحنى من بُرِّكم صاعا ، ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم كأنما سودت وجوههم بالعِظْلِم(١) ، وعاودنى مؤكدا وكرر علىّ القول مرددا ، فأصغيت إليه سمعى . فظن أنى أبيعه دينى وأتبع قياده مفارقا طريقتى ، فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها ، فضج ضجيج ذى دنف من ألمها ، وكاد أن يحترق من ميسمها ، فقلت له : ثكلتك الثواكل يا عقيل . أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه ، وتجرنى إلى نار سجرها جبارها لغضبه ؟

« أتئن — يا عقيل — من الأذى ، ولا أئن من لظى ؟ وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة فى وعائها ، ومعجونة شنئتها كأنما عجنت بريق حية أو قيئها ، فقلت : أصلة أم زكاة أم صدقة ؟ فذلك محرم علينا أهل البيت . فقال الطارق : لا ذا ولا ذاك ، ولكنها هدية . فقلت : هبلتك الهبول ، أعن دين الله أتيتنى لتخدعنى ؟ أمختبط أنت أم ذو جنة أم تهجر ؟ والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى الله فى نملة أسلبها جلب شعيرة ، ما فعلته . وإن دنياكم عندى لأهون من ورقة فى فم جرادة تقضمها . ما لعلى ولنعيم يفنى ولذة لا تبقى ؟

« نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل ، وبه نستعين » .

---

(١) العِظْلِم : — بكسر العين واللام — شىء تصبغ به ، ولعله النيلة التى تصبغ بها الثياب فى مصر كما ذكر صاحب المصباح .

ففى هذه الكلمات الشريفة : كلمة « السعدان » وهو نبت ذو شوك يقال له حسك السعدان ، كما يقال له حسكة السعدان . وهذا النبت من أفضل مراعى الإبل . وفيه جاء المثل : « فتى ولا كمالك ، ومرعى ولا كالسعدان » . وكلمة المسهد تعنى الممنوعة من النوم ، والأغلال القيود . والمصفد المقيد ، والحطام عرض الدنيا ومتاعها .

ثم قال كرّم الله وجهه : كيف أظلم الناس لأجل نفس تموت سريعا — يعنى نفسه . وكلمة أملق الرجل تعنى أنه افتقر . والعِظْلِم — بكسر العين واللام نبت يصبغ به الثوب أو غيره إذا أرادوا له أن يسود .

وقوله لأخيه : ثكلتك الثواكل دعاء عليه بالموت . والملفوفة فى وعائها نوع من الحلواء كان قد أهداها له الأشعث ، وكان — كرّم الله وجهه — يبغض الأشعث والأشعث يبغضه فظن الأشعث أنه يستميل الإمام بهذه الهدية ، ولذلك رد الإمام هديته ولولا ذلك لقبلها ، لأن رسول الله ﷺ قبل الهدية .

ولا بأس بقبول الهدايا ، وقد قبل هو نفسه كرّم الله وجهه هدايا جماعة من أصحابه . وقد دعاه بعض من كان يأنس إليه إلى حلواء عملها يوم نوروز فأكل ، ثم سأل صاحب الدار : لم عملت هذا ؟ فأجابه : لأنه يوم نوروز . فضحك الإمام وقال : « نوروزوا لنا فى كل يوم إن استطعتم » . وكانت هذه الكلمة دعابة منه لأصحابه ، والمداعبات من لطائف الأخلاق وسجاحة الشيم .

دعاء المؤمن ربه مرآة لنفسه

قيل لأحد العارفين : إنا نتعامل مع أصناف كثيرة من الناس ونحن لا ندرى من دخيلة أنفسهم شيئا ، فربما أخطأنا الطريق فى معرفتهم فاحتملنا بذلك أوزارا تنال منا فى دنيا أو دين . فبم تنصح لنا — وفقك الله للخير — إذا أقدمنا على التعامل مع الناس ؟ ولم يطل التأمل بالعارف طويلا حتى قال لهم : انظروا إلى هؤلاء فى أعقاب الصلوات وهم يدعون الله ، فإن العبد أصدق ما يكون إذا دعا ربه فى ملأ من الناس أو ناجاه بينه وبين نفسه . وعن هذه الطريق تعرفون الصالح من الطالح ، والصادق من الكاذب ، ومن يصلح لثقتكم ومن لا يصلح ، فتلك هى الطريق الفاردة بالقدرة على بيان أحوال العباد .

ولست ترتاب — رحمك الله — فى أن هذه الكلمات قائمة فى نفس العارف بالله على صفاء سريرة وطول تجربة وإخلاص فى بذل النصيحة . تأدبا بأدب رسول الله ﷺ فى حديثه الشريف : (الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) .

ولقد اختلف الناس اختلافا كثيرا حول الإمام — كرّم الله وجهه — بين غال فى بغضه غلوا أخرجه من الإسلام ، وبين غال فى حبه غلوا أخرجه من الإسلام أيضا . ولم يسلم من البلاء فى الصلة به — كرّم الله وجهه — إلا أولئك الذين وصفهم هو بقوله : « خير الناس النمط الأوسط ، يلحق بهم التالى ويرجع إليهم الغالى » .

وقد حرص هؤلاء السادة على أن يلتمسوا حقيقة نفس الإمام من ضراعته إلى الله تعالى على ملأ من أصحابه أو على خلوة بربه فى محرابه ، إذ كانت تلك

هى الطريقة المثلى فى تبيان الحقائق تمهيدا للأسوة به والسير مع خلصائه فى طريقهم إلى الظفر بمرضاة الله رب العالمين .

فمن دعواته التى تدل على صدق عبوديته لله قوله — كرّم الله وجهه :

« اللهم اغفرلى ماأنت أعلم به منى ، فإن عدت فعد علىّ بالمغفرة . اللهم إنى أعوذ بك أن أفتقر فى غناك ، أو أضل فى هداك ، أو أضام فى سلطانك ، أو أضطهد والأمر لك . اللهم اجعل نفسى أول كريمة تنتزعها من كرائمى ، وأول وديعة ترتجعها من ودائع نعمك عندى . اللهم إنا نعوذ بك أن نذهب عن قولك ، أو نفتتن عن دينك ، أو تتتابع بنا أهواؤنا دون الهدى الذى جاء من عندك .

اللهم صن وجهى باليسار ، ولا تبذل جاهى بالإقتار ، فأسترزق طالبى رزقك وأستعطف شرار خلقك ، وأبتلى بحمد من أعطانى وأفتتن بذم من منعنى ، وأنت من وراء ذلك كله ولى الإعطاء والمنع ، وأنت على كل شىء قدير .

اللهم إنك آنس الآنسين لأوليائك ، وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك ، تشاهدهم فى سرائرهم ، وتطلع عليهم فى ضمائرهم ، وتعلم مبلغ بصائرهم ، فأسرارهم لك مكشوفة ، وقلوبهم إليك ملهوفة ، إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك ، وإن صبت عليهم البلايا لجئوا إلى الاستجارة بك ، علما بأن أزمّة الأمور بيدك ، ومصادرها عن قضائك .

اللهم إن فههتُ[1] عن مسألتى أو عمهتُ[2] عن طلبى ، فدلنى على مصالحى ، وخذ بقلبى إلى مراشدى ، فليس ذلك بنكر من هداياتك ، ولا بدع من كفاياتك .

---

(١) الفهاهة : العىّ ، وهو العجز عن البيان .

(٢) العَمَه : التحير ، تقول العرب فلان فى عَمَه من أمره ، تعنى أنه متحير متردد .

اللهم احملنى على فضلك ولا تحملنى على عدلك ، يا أرحم الراحمين .

يقول — كرّم الله وجهه — فى وصفه لله عز وجل : إن الله تعالى يأنس أولياءه من الوحشة . والفعل من باب ضرب . فالعربى يقول : أنس فلان فلانا أنسا ، كما يقول ضربه ضربا ، والمعنى أنه أزال وحشته . ولما كان الإنسان محتاجا إلى من يخرجه من ضيق الوحشة إلى فرج الأنس ، كان فى أخلائه وأصدقائه كثير ممن يأنسه ويخرجه من ذل الوحشه إلى عز الأنس . ولا ريب فى أن الله تعالى إذا تجلى لأوليائه كان أعظم أنسا لهم ممن سواه .

وكما وصف الإمام رب العالمين بأنه أعظم أنسا لأوليائه من كل آنس ، كذلك وصفه بأنه سبحانه أبلغهم إحضارا لكفاية المتوكلين عليه وأقومهم بذلك فى غير تشبيه ولا تمثيل .

وكذلك وصفه بأنه سبحانه مطلع على غيبهم بصير بما يستقر فى أعماق نفوسهم ، فإذا استغاثوه أغاثهم ، وإذا سألوه أعطاهم ، وإذا لاذوا به حماهم . ثم دعا الإمام ربه بأن علمه بحاله يغنيه عن سؤاله ، فإذا منعه العى عن تجلية مسألته وشدة حاجته ، أو حملته الشدائد على الحيرة وعدم تبين الطريق ، فإنه سائل مولاه أن يدله على ما يعلمه سبحانه مصلحة له ، وأن يأخذ بقلبه إلى ما فيه رشده . ثم قرر — كرّم الله وجهه — حقيقة لكل من يرتاد سبل الخير ، فقال : إن من غير المنكر أن هدايتك يا ألله لعبادك قائمة ، وأن كفايتك لهم حاصلة .

غير أنه — كرّم الله وجهه — لفت إلى حقيقة لا تنبغى الغفلة عنها ، وهى أن يسأل المؤمن ربه فضله لا عدله ، فإن الفضل مظنة النجاة ، وأما العدل فإنه مظنة العطب . ولذلك كان أسلافنا يقولون فيما يأثره الثقات من الأدعية :

« اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك . ناصيتى بيدك ، ماض فىّ حكمك ، عدل فىّ قضاؤك . اللهم إنى أسألك بكل اسم هو لك سميت به

نفسك وأنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تعيذنى بفضلك من عدلك ، وأن تجعل القرآن العظيم شفاء صدرى ، وربيع قلبى ، ونور عينى ، وجلاء همى وغمى يا حى يا قيوم ياذا الجلال والإكرام .

تأديب علىّ عسكره بأشرف الأخلاق

كان الإمام كرَّم الله وجهه يدعو الله تعالى ويستعينه ، وفى دعائه هذا متخشعا ضارعا تأديب لجيشه عن طريق دعوته إياه إلى القدوة به . ثم يتجه بعد ذلك بالخطاب إلى جيشه ، فيجتمع لجيشه به أمران كلاهما يشتمل على خير كثير .. ذكر الله تعالى واللجأ إليه ، ثم النزول على وصايا الإمام التى لا مدد لها إلا من شرف الأخلاق ، ومن أدب الإسلام .

فأما دعوته جيشه إلى القدوة به فى ضراعته وخشوعه واستسلامه لأمر الله ، فذلك قوله فى ميدان الجهاد :

« اللهم إليك أفضت القلوب ، وامتدت الأعناق ، وشخصت الأبصار ، ونقلت الأقدام ، وأنضيت الأبدان . اللهم وقد صرح مكنون الشنآن ، وجاشت مراجل الأضغان . اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا ، وكثرة عدونا ، وتشتت أهوائنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » .

يقول — كرَّم الله وجهه — إن قلوبنا أصبحت خالية إلا من جلال الله تعالى والأمل فيه ، ثم يقول بعد إن أعناقنا امتدت إليه وحده تطلب عونه وتوفيقه ، وقد شخصت الأبصار فى غير حركة خشوعا لله ، وانتظارا للفرج وانجلاء الكرب . ثم يقول إن الأبدان أصبحت هزيلة من طول الهم ومشقات السفر وتهيب لقاء الأعداء ، ثم يشكو إلى الله تعالى أن الناس كانوا يضمرون التباغض بينهم ، فأما اليوم فقد أصبحت النيات معروفة ، والصدور مكشوفة ، وبغض الناس بعضهم بعضا على غاية الصراحة والوضوح ، تغلى الأضغان فى الصدور كما يغلى الماء على مواقد النار . ثم تخنقه العبرات — كرَّم الله وجهه — وهو يشكو إلى الله غيبه رسوله ﷺ ، لأنه لو كان موجودا حيا

بينهم ما حدث من الخلاف ما يقض المضاجع بالليل ويزعج السلامة والسلام بالنهار . وليس بعد تلك الشدائد التى أجملتها هذه الكلمات إلا أن يتدارك الله أهل الحق برحمته ، فيفتح بين القوم بالحق فإنه سبحانه خير الفاتحين .

هذا ، وأما اتجاهه إلى جيشه بالوصية مستعلنة صريحة ، فذلك قوله كرَّم الله وجهه :

« لا تقاتلوهم حتى يبدءوكم ، فإنكم — بحمد الله — على حجة ، وترككم إياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم عليهم . فإذا كانت الهزيمة عليهم بإذن الله فلا تقتلوا مدبرا ، ولا تصيبوا معورا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم، وسببن أمراءكم، فإنهن ضعيفات القوى والأنفس . ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وهن مشركات ، ولقد كان الرجل يتناول المرأة فى الجاهلية بالحجر أو الهراوة فيعير بها فى نفسه ، ويعيَّر به عقبه من بعده » .

ولا بد من وقفات حيال وصيته هذه — كرَّم الله وجهه — يتضح بها مبهم ، أو ينكشف مجمل ، أو يكتمل ما يحتاج إلى تكميل :

وأولى هذه الوقفات أنه نهى أصحابه عن البغى ، والابتداء بالحرب بغى بلا ريب . وقد روى عنه أنه قال : « ما نصرت على الأقران الذين لقيتهم فى مجال الجهاد إلا بأنى لم أبتدىء بالمبارزة . وذلك حق ينصره الواقع من حيث كان الباغى ظالما وكان المبغى عليه مظلوما . وسنة الله التى لا تتخلف أن ينصر المظلوم على ظالميه ، فذلك هو السر فى أنه أمر جيشه بعدم البدء بالقتال حتى لا يكونوا بغاة ظالمين فيتخلى الله تعالى عنهم إلى مناصرة المبغى عليهم من عباده المظلومين .

وثانية الوقفات نهيه كرَّم الله وجهه أصحابه عن قتل الذى أدبر تاركا الحرب ، ثم نهيه عن إتمام قتل الجريح .

ذلك أن قتال الذى لا سلاح معه كقتال الذى معه سلاح لا يستخدمه ..
كلاهما ينبغى أن يكون فى عصمة من القتل والاعتداء ، عصمة يقضى بها تمام المروءة ويدعو إليها شرف الإسلام . وكذلك كانت وصايا رسول الله ﷺ لجيوشه ألا يقتلوا شيخا كبيرا فانيا ، ولا طفلا ولا امرأة ، ولا يعقروا بعيرا إلا للأكل ، وأن يتركوا الرهبان الذين تفرغوا لعبادة الله فى الصوامع والديار فلا يهيجوهم ، بل يتركوهم وما تفرغوا له . وعلى هذه السنة مضى أبو بكر ومضى عمر وسائر أصحاب رسول الله . ولا ريب فى أن أمير المؤمنين عليًّا أحرص أصحاب رسول الله على الائتمار بأمر الله والمضى على سنة رسول الله ﷺ .

وإليك نص ما أخذه أصحاب رسول الله عن رسول الله ﷺ ، ونحن نسوق إليك هذا النص عن كتاب لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان يبعث به إلى أمراء الجيوش ويقول فيه : « بسم الله وعلى بركة الله وبمعونة الله ، فامضوا بتأييد الله ونصره . أوصيكم بتقوى الله ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تسرفوا عند الظهور على الأعداء ، وإياكم والمثلة ، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا أن تطئوا هؤلاء عند التقاء الزحفين وفى شن الغارات ، ولا تغلوا عند الغنائم ، ونزهوا الجهاد عن غرض الدنيا ، وأبشروا بالربح فى البيع الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم .

ومن أعجب ما يقف المسلم عنده متأملا فى ما أنعم الله به على الإمام علىّ من رحابة الصدر وشرف الخلق والتقيد بما كان يدعو الناس إليه ، ما يرويه الثقات عن زوجة كبير من كبراء البصرة .. فقد قالت هذه المرأة له — كرّم الله وجهه — بعد أن أظفره الله بأهل البصرة . فلما مر ببابها نادته قائلة له : يا علىّ لا مرحبا بك ، أيتم الله منك ولدك كما أيتمت أولادى من أبيهم . ولم يزد

— كرَّم الله وجهه — على المرأة ولا حرض عليها من يتولى تأديبها ، ولكنه وقف وأشار إلى ناحية من دارها . فلما فهمت إشارته سكتت هى وانصرف هو عنها على شدة دواعيه إلى أن يكشف سترها ويمهد السبيل للقسوة فى تأديبها جزاء وفاقا لما اقترفته مما يعرض للخطر أسرار الجيش . ذلك أنها كانت قد سترت عندها فى بيتها رجلين من أعداء أمير المؤمنين علىّ ، هما عبد الله بن الزبير ، ومروان بن الحكم . فلم يشأ — كرَّم الله وجهه — أن يفضح تصرفها علنا أمام الناس ، ولكنه استبدل بذلك أن يشير إليها إشارة تفهمها المرأة وحدها دون غيرها من سائر الحاضرين . فقد أشار للمرأة إلى الموضع الذى كانت المرأة قد جعلته مخبئا لأعداء الإمام ، فلما فهمت المرأة إشارته انصرفت ساكتة شاكرة لأمير المؤمنين شرف خلقه وعظيم حلمه وحسن معاملته إياها — كرَّم الله وجهه — ورضى الله عنه وأرضاه .

وثالثة الوقفات كلمته عن شرف الخلق العربى فى الجاهلية ، حيث ذكر أن الرجل إذا ضرب المرأة أصبحت تلك الضربة سبة عليه وعلى عقبه من بعده . وقد جاء الإسلام فأقر هذه المكرمة فكان تماما لمكارم الأخلاق ، كما قال رسول الله ﷺ : (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

الاجتهاد أصل فى التشريع

لا ينبغى أن يغيب عنك — حفظك الله — أن الاجتهاد فى تطبيق الأحكام أصل فى الشريعة المحمدية المسماح ، ثم لا ينبغى أن يغيب عنك — أيضا — أن الخلفاء الراشدين أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا قد اجتهدوا فى تطبيق الأحكام الشرعية ، فمنهم من أداه اجتهاده إلى الوقوف مع النص — كتابا أو سنة — ومنهم من أداه اجتهاده إلى اعتبار مصلحة الأمة فى تطبيق الأحكام . وقد كان الخليفة أبو بكر والإمام علىّ يقفان مع النص ، وكان أمير المؤمنين عمر وأمير المؤمنين عثمان يستصحبان المصلحة ، وهم جميعا مثوبون — أخطئوا أم أصابوا — بيد أن المخطئ له أجر واحد والمصيب له أجران اثنان .

ونضرب لك مثلا يتراءى فيه اختلاف المجتهد من أولئك السادة رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين ، وهذا المثل يقوم شامخ المعالم فى قسمة الفىء والصدقات بين المسلمين :

فقد كان أمير المؤمنين عمر — رضى الله عنه — يفضل فى العطاء بعض المسلمين على بعض ، فيفضل السابقين على غيرهم ، ويفضل المهاجرين من قريش على المهاجرين من غير قريش ، ثم يفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة ، ثم يفضل العرب على العجم ، ثم يفضل السادة على الموالى ..

ولم يكن الفاروق ليصدر فى هذا التفضيل عن هوى ، وإنما كان يصدر عما أداه إليه اجتهاده مما تستقيم به أحوال رعاياه ، على نحو ما فعل فى عام الرمادة من التجاوز عن قطع يد السارق .

وعلى غير هذا النهج كان الخليفة الأول أبو بكر أيام خلافته ، فكان يرى أن

يسوى بين المسلمين كافة فى العطية ، وقد كان استفتى الإمام عليًا فأفتاه بالتسوية فى العطاء .

فلما أفضت إمارة المؤمنين إلى الإمام علىّ — كرّم الله وجهه — عمل بما كان قد أشار به على أبى بكر ، فسوى فى العطاء بين أهل الإسلام على الرغم من نصحائه الذين يرون فى التسوية سببا يتذرع به أعداؤه إلى النيل منه والكيد له وتسليط الضغائن عليه . ولكنه أعار نصحاءه هؤلاء أذنا غير مصغية فجعل يلومهم أو يؤنبهم على نصحهم له ، مهما تكن غايتهم منه وإخلاصهم فيه .

فذلك حيث روى عنه الرضى أنه قال فى خطبة له — كرّم الله وجهه : أتأمروننى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليهم ؟ لا والله لا أقرب ذلك ولا أحوم حوله ما التمع نجم فى ليل أو أشرقت شمس فى نهار . ولو كان المال لى لسويت بينهم فى العطاء ، فكيف وإنما المال مال الله . ألا وإن إعطاء فى غير حقه تبذير وإسراف ، ولئن رفع صاحبه فى الدنيا ليضعنه فى الآخرة . ولئن أكرمه عند الناس ليهيننه عند الله . وما وضع امرؤ ماله فى غير حقه وعند غير أهله ، إلا حرمه الله شكرهم ، وكان لغيره ودهم ، فإن زلت به النعل يوما فاحتاج إلى معونتهم فإنهم شر خليل وألأم خدين .

هذا ، وغير ذى حاجة إلى مزيد بيان أن تصرف أمير المؤمنين عمر فى التفضيل بين الناس كان أدنى إلى القبول وأرضى للخاصة من الناس . ذلك أن الناس ليسوا جميعا فى منزلة واحدة يتساوى فيها الفاضل والمفضول والشريف والمشروف . فإذا جاء الإمام كرّم الله وجهه فتنكر لهذا العرف الذى كاد يلتحق بالأمور الفطرية ، فقد نصب نفسه هدفا لمذمة عدو أو ملامة صديق .

ولقد حدث أن جاء إليه من يستحق العطاء وكان معه غلام له عتيق ، فقال : ياأمير المؤمنين لقد جئت ومعى غلامى هذا الذى أعتقته منذ قليل .

فأجابه الإمام : نعطيه كما نعطيك . فقال الرجل : أيأخذ غلامى مثلما آخذ ؟ قال الإمام : نعم . ثم أمر له بثلاثة دنانير ولغلامه بثلاثة دنانير أيضا .

ولا شك أن الرجل قد انصرف عن هذا الموقف بهم مقعد مقيم ، ولئن كان هذا الرجل قد عصمته صحبته لرسول الله من أن يواجهه الإمام بما يكره من لغو القول وسوء الأدب ، لقد كان غيره من وجوه قريش على غير هذا الأدب . فأقبل على الإمام يواجهه بما يثير غضب الحليم . وأعنى بهذ الوليد بن عقبة بن أبى معيط الذى قال : ياأبا الحسن ، جنيت علينا جنايات لا نذكرها إلا لتوقظ الحفائظ وتثير الأحقاد ، وإنك لتعلم أنك قتلت أبى يوم بدر وخذلت أخى يوم الدار ، ونحن إخوتك ونظراؤك من بنى عبد مناف ، ومع ذلك نؤثر أن نكون معك على أعدائك على أن تترك لنا ما أصبناه من المال أيام عثمان وعلى أن تقتل قاتليه . ثم اعلم — ياأبا الحسن — أننا لو خفناك لتركناك ولحقنا بمعاوية فى الشام . فأجابه الإمام رضى الله عنه يقول : أما ماذكرتم من وترى[1] إياكم ، فاعلموا — يا بنى العاص — أن الحق هو الذى وترکم وجنى عليكم ، وأما تركى لكم ماأصبتم من المال فاعلموا أنه ليس لى أن أترك لكم حق الله ولا لغيركم . وأما قتلة عثمان فلو لزمنى قتلهم اليوم لقتلتهم بالأمس ، ولكن الذى لكم على أن أؤمنكم لأن خفتمونى ، والذى لى عليكم أن أسيّركم إذا خفتكم .[2]

فلما فرغ الإمام من حديثه إلى الوليد على هذه الصورة المنصفة ، لم يجد بدا من القيام إلى أصحابه فحدثهم بما قاله الإمام ، ثم افترقوا على إظهار العداوة وإشاعة الخلاف . وكان عمار بن ياسر حريصا على جمع الكلمة ورأب الصدع فقال لأصحابه : قوموا بنا إلى هؤلاء النفر من إخوانكم ، فإنه قد بلغنا

---

(١) تقول العرب : وترت الرجل ، قتلت حميمه فأردته منه .

(٢) يقول إذا خفتكم مقيمين معى فإننى أخرجكم إلى الجهاد .

عنهم ما نكره من الخلاف والطعن على الإمام ، وقد دخل أهل الجفاء بينهم وبين الزبير وطلحة . فقام أبو الهيثم وعمار وأبو أيوب وسهل بن حنيف فدخلوا على الإمام عليّ قائلين : ياأمير المؤمنين انظر فى أمرك ، فقد نقض قومك عهدك ، وأخلفوا وعدك ، وجعلوا يدعون سرًّا إلى رفضك ، وذلك أنهم كرهوا التسوية بينهم وبين الأعاجم فأنكروا ذلك أشد إنكار ، وأخذوا يعظمون عدوك ويظهرون الطلب بدم عثمان تفريقا للجماعة ، وتألفا لأهل الضلال .

فخرج الإمام إلى المسجد فصعد المنبر فقال : « نحمد إليكم الله الذى أصبحت نعمه علينا ظاهرة وباطنة وبغير حول منا ولا قوة . فأفضل الناس عند الله منزلة وأقربهم إليه وسيلة أطوعهم لأمره ، وأعلمهم بطاعته ، وأتبعهم لسنة رسوله ، وأحياهم لكتابه . ليس لأحد عندنا فضل إلا بطاعة الله وطاعة الرسول هذا كتاب الله بين أظهرنا ، وذلك عهد رسول الله فينا ، لا يجهل ذلك إلا جاهل عاند عن الحق ثم صاح بأعلى صوته ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾(١) . ثم قال : يامعشر المهاجرين والأنصار أتمنون على الله ورسوله بإسلامكم ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٢) . ثم قال غاضبا إن هذا الفىء ليس لأحد على أحد فيه أثرة ، فهو مال الله وأنتم عباد الله ، وهذا كتاب الله فمن لم يرض به فليتول كيف شاء .

ثم نزل عن المنبر فصلى ركعتين ، ثم بعث إلى طلحة والزبير فأتياه فقال لهما : نشدتكما الله هل جئتمانى طائعين للبيعة ، ودعوتمانى إليها وأنا كاره لها ؟ قالا : نعم . قال الإمام : فما دعاكما بعد إلى ما أرى ؟ قالا : أعطيناك بيعتنا على

---

(١) آل عمران ٣٢ (٢) الحجرات ١٧

أن لا تقضى الأمور ولا تقطعها دوننا ، وأن تستشيرنا فى كل أمر ولا تستبد بذلك علينا ولنا من الفضل على غيرنا ماقد علمت . فأنت تقسم القسم وتمضى الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا . فقال : لقد نقمتما يسيرا وأرجأتما كثيرا، فاستغفرا الله يغفر لكما . ثم سألهما قائلا : ماالذى كرهتما من أمرى ؟ قالا : خلافك عمر بن الخطاب فى القسم ، فقد جعلت حقنا فى القسم كحق غيرنا ، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله علينا .

ومازال الحوار بين الإمام وبينهما على نحو نكره أن نمضى فيه ، ونحن نحرص على أن نتأدب بأدب أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز حيث قال — رضى الله عنه : تلك فتنة عصم الله أيدينا منها فلا نخوض بألسنتنا فيها ، والله المسئول أن يتفضل فيرضى عنهم أجمعين .

ولقد كان الإمام — كرّم الله وجهه — يقيس الناس إلى نفسه فى شرف فطرته، وكمال عدالته ، وقوة زهادته ، فجعله ذلك حسن الظن بالأيام شأن الكبار دائما فى تعاملهم مع سواد الناس . وكانت قدرته على البيان النابع فى نفسه عن اقتناع يشبه اليقين ، يوحى إليه أن الناس يأخذون عنه ما يتحدث إليهم به فى مثل يقينه واطمئنانه ، على حين أن الناس فى معظم الأحيان عبيد الدنيا وزينتها ، على ما يقول الثقة البصير . إن آكد الأسباب فى تقاعد العرب عن الإمام على إنما هو أمر المال ، فإنه لم يكن يفضل شريفا على مشروف ، ولا عربيا على عجمى ، ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك ، ولا يستميل أحدا إلى نفسه كما كان يفعل معاوية — رحمه الله ، ولذلك تركه الناس كليا والتحقوا بمعاوية . فشكا الإمام ذلك إلى بعض ثقاته فقال له الثقة : ياأمير المؤمنين إنا قاتلنا أهل البصرة بأهل البصرة وأهل الكوفة ورأى الناس واحد ، وقد اختلفوا وتعادوا فضعفت النية وقل العدد . وأنت تأخذهم بالعدل ، وتعمل فيهم بالحق ، وتنصف الوضيع من الشريف ، فليس للشريف

عندك فضل منزلة على الوضيع ، فضجت طائفة ممن معك من الحق إذ عموا به ، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه ، ورأوا صنايع معاوية عند أهل الغناء والشرف ، فتاقت أنفس إلى الدنيا وقل من ليس للدنيا بصاحب ، وأكثرهم يجتوى الحق ويشترى الباطل ويؤثر الدنيا ، فإن بذلت المال للناس أمال إليك أعناق الرجال واستخلص لك ودهم ، والله يصنع لك ويكبت عدوك . وقد أجاب الإمام هذا الناصح الثقة قائلا له : أما ماذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل فإن الله يقول : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[1] وإنى لأخشى أن أكون مقصرا فيما ذكرت ، وأما ماذكرت من أن الحق ثقل عليهم ففارقونا ، فقد علم الله أنهم لم يفارقونا من جور إلى عدل ، ولم يلتمسوا إلا دنيا زائلة عنهم ، وليسئلن يوم القيامة عن فراقهم لنا ساعين إلى الدنيا أم قاصدين إلى مرضاة الله عز وجل . وأما ماذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال فإنه لا يسعنا أن نؤتى أحدا من الفيء أكثر من حقه ، وقد قال الله سبحانه : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[2] .

ولقد بعث الله محمداً فكثَّره بعد القلة ، وأعز فئته بعد الذلة ، وإن يرد الله أن يولينا هذا الأمر يذلل لنا صعبه ، ويسهل لنا حزنه ، وأنا قابل من رأيك ما كان لله رضى ، وأنت من آمن الناس عندى وأنصحهم لى وأوثقهم فى نفسى إن شاء الله .

ولقد كان الإمام علىّ — مع عدله وزهده — مثلا أعلى فى العزوف عن الدنيا ولزوم ما لا يصبر عليه إلا الصابرون ، حتى لقد كان أصحابه وأبناء أصحابه يعجبون من أمره ويخافون أن يحملهم على ما حمل عليه نفسه ، وذلك

(١) الحج ١٠ (٢) البقرة ٢٤٩

أمر شديد شاق . وإليك هذا الذى يرويه الثقات فى هذا المجال ، فيقول الشعبى : دخلت الرحبة بالكوفة وأنا غلام مع غلمان آخرين ، فإذا أنا بعلىّ — كرَّم الله وجهه — قائما على صبرتين(١) من ذهب وفضة ومعه مخفقة ، وهو يطرد الناس بمخفقته ثم يرجع إلى المال فيقسمه بين الناس ، ولم يحمل إلى بيته منه قليلا ولا كثيرا . فرجعت إلى أبى فقلت له : لقد رأيت اليوم خير الناس أو أحمق الناس . فسألنى أبى : من هو يا بنى ؟ قلت : هو ابن أبى طالب أمير المؤمنين . ثم قصصت على أبى ما كان يصنع الإمام ، فبكى أبى بكاء شديدا ثم قال : بل رأيت يا بنى خير الناس .

وكذلك روى محمد بن فضيل قال : انطلقت مع قنبر غلام علىّ فإذا هو يقول : قم ياأمير المؤمنين فقد خبأت لك خبيئا .. قال الإمام : وما هو ؟ قال قنبر : رأيتك ياأمير المؤمنين لا تترك شيئا إلا قسمته ، فأحببت أن أدخر لك هذا من بيت المال . فقال الإمام : ويحك يا قنبر ! لقد أحببت أن تدخل بيتى نارا عظيمة . ثم سل سيفه وأخذ يضرب به الغرارة(٢) ضربات كثيرة فانتثر ما فيها بين إناء مقطوع نصفه وإناء مقطوع ثلثه . ثم دعا بالناس فقال : اقسموا بالحصص بينكم . ثم قام إلى بيت المال فقسم ما وجد فيه . وقد كان الإمام مع هذا يأخذ من كل عامل نصيبا مما يعمل .. ولقد جاءه ذات يوم ابن أخيه عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب فقال له : لو أمرت لى ياأمير المؤمنين بمعونة أو نفقة ، فإنى لا أملك شيئا إلا أن أبيع دابتى . فقال له الإمام — كرَّم الله وجهه — : والله لا أجد لك شيئا إلا أن تأمر عمك أن يسرق فيعطيك . وقد كان — كرَّم الله وجهه — كثيرا ما يقول : ياأهل الكوفة ، إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتى وغلامى فلان ، فاعلموا أننى خائن .

---

(١) الصبرة : الكومة من الشىء بلا عدد ولا وزن .

(٢) الغرارة : كيس من صوف ونحوه توضع فيه الأشياء .

فهذه الكلمات ومثيلاتها كانت تعبيرا صادقا غاية الصدق عن سياسته لنفسه وتعامله مع الناس ، حتى قال فيه جعفر الصادق : ما تجاذب عليًّا فى ذات الله أمران إلا أخذ بأشدهما كلفة ، وأثقلهما وطأة .

وآية ذلك أنه كان يأكل من ماله فى المدينة مع أنه كان مقيما بالكوفة ، ثم هو — بعد — لا يطعم إلا ما يقيم أوده ويمسك عليه قوته ، يبتغى بذلك شرف الاقتداء برسول الله ﷺ ، فقد روى الثقات عن عقبة بن علقمة قال : دخلت على علىّ — كرّم الله وجهه — وهو بالكوفة ، فإذا بين يديه قعب لبن حامض آذتنى حموضته ، وفى يده رغيف يابس تبدو قشارة الشعير على وجهه . فرأيته يكسر الرغيف ويستعين أحيانا بركبته ، وإذا جاريته « فضة » قائمة على رأسه فقلت لها : أما تتقون الله فى هذا الشيخ ؟ ألا تخلتم له الدقيق ؟ فقالت الجارية : إنه أخذ علينا عهداً أن لا ننخل له دقيقا ما صحبناه . ولم يكن يسمع هذا الحوار بينى وبين الجارية ، فالتفت إليها يقول : ما تقولين يا فضة ؟ فقالت : سل الرجل يا أمير المؤمنين .. فسألنى فأجبته بما قلت للجارية من نخل الدقيق ، فلم يتمالك أن بكى ثم قال : بأبى وأمى من لم يشبع ثلاثا متوالية من خبز البر حتى فارق الدنيا . وهكذا كانت سيرته رضى الله عنه ، يتحرى أشد الأمرين وأثقلهما على نفسه فى مأكله ومشربه وملبسه ومركبه .

لقد كان الإمام — كرّم الله وجهه — ثقيل التبعات أمام الله وأمام الناس ، وكان عليه أن يتخفف من كل ما يهمه من أمر الدنيا وأمر الدين ، وكان من أشد شيء عليه أن يسمع متغاليا فى مدحه يحاول أن يرفعه فوق الناس .

فمن أسوأ صور الغلو فيه رضى الله عنه ما يذكره بعض هؤلاء الحمقى ، فيقول إنه نزل ذات يوم مع بعض أصحابه لصلاة العصر فإذا الشمس تكاد أن تغيب ، فدعا الله فرجعت كمقدارها من صلاة العصر . فلما فرغوا من الصلاة غابت الشمس .. وليس يرتاب ذو عقل فى أن هذه الدعوى قد اختلقها خيال مريض

يريد أن يفسد على المسلمين أمر الدنيا وأمر الدين . وإلا فكيف تمسك الشمس عن جريها إلى الغاية المقدورة لها ؟ والله تعالى يقول : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۝ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾(١) . فليس فى وسع عاقل مسلما أو غير مسلم أن يزعم أن عودة الشمس لإنسان مهما تكن منزلته عند الله رب العالمين .. وإذا زعم زاعم هذا الزعم فإنه إما ولى أحمق ، وإما عدو خبيث يتردى رداء الإسلام وهو أعدى أعداء الإسلام .

وأسوأ من هذه الصورة فى باب الغلو زعم من زعم أن الله تعالى حل فى بدنه ، كما قالت النصارى فى عيسى عليه السلام .

وقد كان — رضى الله عنه — عثر على قوم استحوذ عليهم الشيطان فغلوا غلوا شديدا ، حتى كفروا بالله وجحدوا ما جاء به رسول الله فاتخذوا الإمام إلها لهم وجعلوا يقولون له : أنت خالقنا ورازقنا . فنصحهم واستتابهم فلم يرتدعوا .

وذات يوم فى رمضان مر بهم وهم يأكلون نهارا ، فقال لهم : أمسافرون أنتم أم مرضى ؟ قالوا : لا مرضى ولا مسافرون . فسألهم : أفمن أهل الكتاب أنتم ؟ قالوا : لا . ثم قالوا : أنت أنت ، لم يزيدوه على ذلك . ففهم مرادهم من هذه الكلمة فنزل عن فرسه فألصق خده بالتراب ثم قال : « ويلكم ! إنما أنا عبد من عبيد الله فاتقوا الله وارجعوا إلى الإسلام » . فأبوا أن يقولوا له شيئا ، فأخذ يدعوهم مرارا بالله وهم لا يجيبون . فنهض عنهم ثم قال : شدوهم وثاقا . ودعا بالفعلة والنار والحطب ، ثم أمر بحفر بئرين يتصل أحدهما بالآخر عن فتحتين فى أسفلهما ، وألقى الحطب فى أحدهما وأشعل فيه النار فدخن عليهم ، وجعل الإمام يهتف بهم ويناشدهم أن يرجعوا إلى الإسلام وهم يأبون ذلك عليه ، فأمر بالحطب والنار

(١) يس ٣٧

فألقى عليهم فاحترقوا ، وفى ذلك يقول الشاعر :

لترمـى بى المنيــة حيث شاءت   إذا لم ترم بى فى الحفـــــرتين
إذا ما حشتـا حطبـا بنـــار   فذاك الموت نقـــدا غير ديـــن

ثم لم يبرح الإمام واقفا عليهم حتى صاروا حمما .. ومعروف عند أهل العلم أن أول من جهر بالغلو فى أيام الإمام هو عبد الله بن سبأ . فقد قام إليه وهو يخطب فقال له : أنت أنت . وجعل يكررها . فقال له : ويلك من أنا ؟ فأجابه : أنت الله . فأمر بأخذه وأخذ قوم كانوا معه على رأيه . ثم قال — كرّم الله وجهه — : يهلك فىّ رجلان .. محب يطريني فيضعني غير موضعي ويمدحني بما ليس فى ، ومبغض يرميني بما أنا منه برئ .. وذلك هو تأويل الحديث المروى عن رسول الله فى الإمام فقد قال له ﷺ : (إن فيك — يا علىّ — مثلا من عيسى بن مريم : أحبته النصارى فرفعته فوق قدره ، وأبغضته اليهود حتى بهتت أمه) .

وهنا نرى من الحق علينا أن نذكر لك حفظك الله ما يرويه الثقات أن عبد الله ابن عباس شفع فى عبد الله بن سبأ ، قائلا للإمام علىّ إنه تاب فاعف عنه يا أمير المؤمنين . فأطلقه الإمام بعد أن اشترط عليه أن لا يقيم بالكوفة . فقال له : أين أذهب ؟ فقال له : تذهب إلى المدائن . فنفاه إليها . فلما قتل الإمام أظهر ابن سبأ مقالته وصارت له طائفة وفرقة يصدقونه ويتبعونه . ثم قال ابن سبأ لما بلغه مقتل الإمام : والله لو جئتمونا بدماغه فى سبعين صرة لعلمنا أنه لم يمت ، وهو لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه . فلما بلغت تلك المقالة ابن عباس قال : لو علمنا أنه يرجع لما تزوجنا نساءه ولا قسمنا ميراثه .

وليس يرتاب الذين يتمثلون موقف الإمام أنهم لا يرونه إلا بين صديق أحمق وعدو خبيث ، وكل منهما يسهم بأوفر نصيب فى كل ما يجعل حياته ثقيلة الأعباء معقدة التبعات .

ذلك أن أنصار عثمان وذوى قرباه كانوا يكيدون للإمام ويتربصون به الدوائر ، لا تفتر لهم همة ولا يردعهم عن الكيد رادع ، ولم تكن خصومة القوم له خصومة مبدأ ينافخون عنه ، أو عقيدة ينتصرون لها ، ولكنها كانت خصومة مصلحة تطلب المال لا يعنيها أن يكون من باب حرام أو من باب حلال .

وهذا اللون من الخصومة هو شر الخصومات على الإطلاق .. ومما ضاعف البلاء بهذا اللون من الخصومة خصومة أخرى أنشأتها تسويته فى العطاء بين الفاضل والمفضول والشريف والمشروف ، حتى رأى الناس بعض أصحاب رسول الله يضيق صدره بهذه التسوية .

فإذا انضم إلى ذلك ما كان يحيط به القالون له والغالون فيه ، فإن البلاء يزداد شدة ونار الفتنة تزداد اشتعالا ، فإذا المعارك بينه وبين أعدائه فى ميادين القتال يستخدم فيها الخبثاء هذه الأساليب المثيرة للأحقاد ، فيزداد العلو طمعا فيه والصديق ضيقا به ونكوصا عنه ، وإذا هو على ذلك يتمنى أن يجد فرصة يفترصها فيتخفف بها مما يقاسيه من هم مقعد مقيم .. ومهما أسرف المسرفون فى التحامل على بعض أصحاب رسول الله ، فإن من الحق الذى لا ينبغى الضيق به أن لكل منهم من أدب رسول الله وتربيته إياهم نصيبا قل أو كثر .

وفيما كان الإمام يترقب فرصة تخمد بها نار الفتنة وتخفق فى أجوائها أعلام السكينة ، إذا كتاب إلى الإمام — كرّم الله وجهه — من معاوية يقول فيه — رحمه الله — : « أما بعد ... فإن هذا الأمر قد طال بيننا وبينك وكل واحد منا يرى أنه على حق فيما يطلب من صاحبه .. ولن يعطى واحد منا الطاعة للآخر . وقد قتل فيما بيننا بشر كثير ، وأنا أتخوف أن يكون ما بقى أشد مما مضى . وإنا سوف نسأل عن هذه المواطن ولا يحاسب غيرى وغيرك . وقد دعوتك إلى أمر لنا ولك فى حياة وعذر وبراءة ، وصلاح للأمة وحقن للدماء وألفة للدين وذهاب

للضغائن والفتن أن تحكم بينى وبينكم حكمين مرضيين أحدهما من أصحابى والآخر من أصحابك ، فيحكمان بيننا بما أنزل الله فذلك خير لى ولك وأقطع لهذه الفتن . فاتق الله فيما دعيت إليه وارض بحكم القرآن إن كنت من أهله والسلام . فأجاب الإمام على هذا الكتاب قائلا : « من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان : أما بعد فإن أفضل ما شغل المرء به نفسه ، اتباع ما حسن به فعله ، واستوجب فضله ، وسلم من عيبه . وإن البغى والزور يزريان بالمرء فى دينه ودنياه . فاحذر الدنيا فإنه لا فرح فى شىء وصلت إليه منها ، ولقد علمت أنك غير مدرك ما قضى فواته ، وقد رام قوم أمرا بغير الحق وتأولوه على الله فأكذبهم ومتعهم قليلا ثم اضطرهم إلى عذاب غليظ . فاحذر يوما يغتبط فيه من حمد عاقبة عمله ، ويندم فيه من أمكن الشيطان من قياده وغرته الدنيا فاطمأن إليها . ثم إنك قد دعوتنى إلى حكم القرآن ، ولقد أجبنا القرآن إلى حكمه ولسنا إياك أجبنا . ومن لم يرض بحكم القرآن فقد ضل ضلالا بعيدا » .

ولم يكن بد لمعاوية أن يكتب إلى الإمام فكتب إليه يقول :

« أما بعد عافانا الله وإياك فقد آن لك أن تجيب إلى ما فيه صلاح وألفة ما بيننا . وقد فعلت الذى فعلت وأنا أعرف حقى ولكنى اشتريت بالعفو صلاح الأمة . ولم أكن فرحا بشىء جاء ولا ذهب وإنما أدخلنى فى هذا الأمر القيام بالحق فيما بين الباغى والمبغى عليه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. فدعوت إلى كتاب الله فيما بيننا وبينك فإنه لا يجمعنا وإياك إلا هو ، نحيى ما أحيا القرآن ونميت ما أمات القرآن .. والسلام » .

ولم يشأ الإمام أن يرد على كتاب معاوية فاستبدل بالكتابة إليه عمرو بن العاص يعظه : أما بعد ، فإن الدنيا مشغلة عن غيرها ، ولن يصيب صاحبها منها

شيئا إلا فتحت له حرصا يزيده فيها رغبة .. ولن يستغنى صاحبها بما نال عما لم يبلغ .. ومن وراء ذلك فراق ما جمع . والسعيد من اتعظ بغيره ، فلا تحبط أبا عبد الله أجرك ، ولا تجارى معاوية فى باطلة والسلام .

فكتب عمرو إلى الإمام : أما بعد ، فقد أنصف من جعل القرآن إماما ودعا الناس لأحكامه ، فاصبر — أبا حسن — فإنا غير منيليك إلا ما أنالك القرآن والسلام .

وليس يخفى عليك — أعزك الله — المعنى الذى قصدنا إليه من إثبات هذه الرسائل فى هذا المقام ، فإن الناظر يدرك لأول وهلة أن العصبية القبلية هى التى كانت تجمع بين عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان . ولئن كان معاوية قد دعا الإمام إلى تحكيم القرآن لقد كان فى دعوته هذه يصدر عن عقيدة ، فأما عمرو فإنه كان يصدر عن مصلحة فيما يرى كثير من كتاب التاريخ ، وعلم ذلك عند علام الغيوب .

وأيا ما كان الأمر فإن الناس قد سعدوا أبلغ السعادة بما كان قد شاع بينهم من أمر التحكيم ، فجعلوا يروجون الأخذ به والمصير إليه حتى جاء إلى الإمام بعض خاصته قائلا له : يا أمير المؤمنين ما أرى الناس إلا قد سرهم أن يجيبوا إلى ما دعوا إليه من حكم القرآن . فإن شئت أتيت معاوية فسألته ماذا يريد . فأجابه الإمام : سآتيه . ثم أتاه فسأله : يا معاوية لأى شىء رفعتم هذه المصاحف ؟ قال : لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله بما فيها ، فابعثوا رجلا منكم ترضون به ونبعث نحن رجلا منا على أن نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله ولا يعدوانه ، ثم نتبع ما اتفقا عليه . فبعث الإمام قراء من أهل العراق وبعث معاوية قراء من أهل الشام واجتمعوا بين الصفين المتقاتلين ومعهم المصحف فنظروا فيه وتدارسوا ، واجتمعوا على أن يحيوا ما أحيا القرآن ويميتوا ما أمات .

ثم انصرف كل فريق إلى صاحبه ، فقال أهل الشام : إنا رضينا واخترنا عمرو بن

العاص . وقال القراء من أنصار الإمام : قد رضينا نحن أبا موسى الأشعرى . فقال لهم الإمام : إنى لا أرضى بأبى موسى . غير أن فريقا من أنصاره قالوا : لا نرضى إلا به لأنه كان قد حذرنا ما وقعنا فيه . فقال الإمام لهم : إنه ليس لى برضا ، وقد فارقنى وخذل الناس عنى وهرب منى ، ولكنى أرضى ابن عباس فأوليه ذلك . فقالوا : والله ما نبالى أن تكون أنت أو ابن عباس ، ولسنا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ليس إلى واحد منكما أدنى من الآخر .

وإن مما يأكل القلب حرقة وأسى أن يتمثل أحدنا الإمام — كرَّم الله وجهه — مكرها على أن يرضى الأشعرى نائبا عنه فى التحكيم بدلا من ابن عباس ، وقد سمع القوم من الإمام أنه لا يثق بأبى موسى الأشعرى وأنه ليس له برضا لأنه كان قد فارقه وخذل الناس عنه وهرب منه . ثم لأن أبا موسى لا يقوم لابن عباس مقام عمرو ابن العاص الذى رضيه معاوية . ذلك أن ابن العباس — إلى جانب عمرو — يحل كل عقدة يعقدها ويعقد كل عقدة يحلها ، ولكن أبا موسى ليس من ذلك فى شىء . فإصرار القوم على أبى موسى فى مواجهة ابن العاص مظنة مكر آثم أو غباء مبين ، وذلك أمر تضيق به الصدور ضيقا يضاعف الألم به ما يذكره الشعبى من قول بعض المنتصرين للحق فى ميدان القتال : والله لا يحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة . فهذه الصورة الشوهاء من المنطق المعادى للإسلام كان لها أسوأ الأثر فى نفس الإمام حتى قال : « أما وقد أبيتم إلا أبا موسى فاصنعوا ما شئتم » . وما إن سمع القوم هذه الكلمة حتى بعثوا إلى أبى موسى فى الشام وقد اعتزل القتال ، فأتاه مولى له فقال : إن الناس قد اصطلحوا . فقال أبو موسى : « الحمد لله رب العالمين » .. فقال له المولى : وقد جعلوك حكما . فقال أبو موسى : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ثم جاء حتى دخل عسكر الإمام وإذا أبيات من الشعر تجىء خلفه وفيها يقول الشاعر :

لو كان للقوم رأى يعصمون به — من الضلال رموكم بابن عباس
لله در أبيـــه أيمـــا رجـــل — ما مثله لفصال الخطب فى الناس
لكن رموكم بشيخ من ذوى يمن — لا يهتدى ضرب أخماس لأسداس

وبذلك استقر أمر التحكيم على رضا أهل الشام بعمرو ورضا أهل العراق بأبى موسى فأخذوا فى سطر كتاب الموادعة وفيه : « هذا ما تقاضى عليه علىّ أمير المؤمنين ومعاوية بن أبى سفيان .. إلى آخره » .

وقد كان من المتوقع القريب ألا يقبل معاوية هذا الكتاب على هذه الصورة فقال : بئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم قاتلته . وقال عمرو : نكتب اسم علىّ واسم أبيه . فلما أعيد الكتاب إلى الإمام أدركته فطرته الشريفة وعقيدته النقية فأمرهم بمحو لقب أمير المؤمنين على الرغم مما لفته إليه بعض أنصاره فى قوله للإمام : « لا ترفع من الكتاب لقب أمير المؤمنين فإنى أخشى إن رفعتموه ألا يعود أبدا » .

وهنا يذكر الثقات أن عمرو بن العاص هو الذى عاد بالكتاب إلى الإمام وهو الذى طلب منه أن يمحو اسمه من إمرة المؤمنين ، فقص الإمام عليه وعلى من حضر قصة صلح الحديبية قائلا لهم : لقد كنت أنا الذى كتب الكتاب بين المسلمين وبين المشركين ، وأنا ـــ اليوم ـــ أكتبه إلى أبنائهم كما كتب رسول الله إلى آبائهم . فقال عمرو : سبحان الله أتشبهنا بالكافرين ونحن مسلمون ؟ فأجابه الإمام : « يا عمرو متى لم تكن للكافرين وليا وللمسلمين عدوا ؟ » فقام عمرو مغضبا فقال : والله لا يجمع بينى وبينك مجلس بعد اليوم . فأجابه الإمام : أما إنى لأرجو أن يظهر الله عليك وعلى أصحابك .. فجاءت عصابة قد وضعت سيوفها على عواتقها فقالوا : يا أمير المؤمنين مرنا بما شئت . فقام الصحابى الجليل سهل بن حنيف فقال : أيها الناس اتهموا رأيكم ، فلقد شهدنا صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، ولو نرى قتالا لقاتلنا ثم لم نر فى ذلك الصلح إلا خيرا .

ولعلك تحب أن تلم بصورة الكتاب بين الإمام ومعاوية .. فإليك نصه.: هذا ما تقاضى عليه علىّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان . قاضى علىّ بن أبى طالب على أهل العراق ومن كان معه من شيعته من المسلمين ، وقاضى معاوية بن أبى سفيان على أهل الشام ومن كان معه من شيعته من المسلمين .. أننا ننزل عند حكم الله تعالى وكتابه فهو بيننا من فاتحته إلى خاتمته ، نحيى ما أحيا القرآن ونميت ما أمات القرآن ، فإن وجد الحكمان ذلك فى كتاب الله اتبعا ، وإن لم يجداه أخذا بالسنة العادلة غير المفرقة .

وقد أخذ الحكمان « عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص من علىّ ومعاوية ومن الجندين أنهما آمنان على أنفسهما وأموالهما وأهلهما والأمة لهما أنصار . وعلى الذى يقضيان عليه وعلى المسلمين من الطائفتين عهد الله أن يعملوا بما يقضيان عليه مما وافق الكتاب والسنة ، وأن الأمن والموادعة ووضع السلاح متفق عليه بين الطائفتين إلى أن يقع الحكم ، وعلى كل واحد من الحكمين عهد الله ليحكمن بين الأمة بالحق لا بالهوى على أن يكون أجل الموادعة سنة كاملة ، فإن أحب الحكمان أن يعجلا الحكم عجلاه ، وإن توفى أحدهما فلأمير شيعته أن يختار مكانه رجلا لا يألو العدل والحق . فإن توفى أحد الأميرين كان نصب غيره إلى أصحابه ممن يرضون أمره ويحمدون طريقته » .

فلما تم الكتاب وشهدت فيه الشهود وتراضى الناس ، خرج الأشعث مع آخرين بنسخة الكتاب يقرؤها على الناس ، فمر به على صفوف أهل الشام فقرأه لهم فرضوا به ، ثم مر به على صفوف أهل العراق فقرأه عليهم فرضوا به ، حتى إذا مر برايات عنزة من شيعة الإمام قرأه عليهم فقال فتيان منهم : « لا حكم إلا لله » ، ثم حملا بسيوفهما على أهل الشام فقاتلا حتى قتلا على باب رواق معاوية فهما أول من حكم ، ثم مر الأشعث بالكتاب على « مراد » فقال قائل منهم : « لا حكم إلا لله ولو كره المشركون » . ثم مر بالكتاب على رايات تميم

فقرأه عليهم فقال رجل منهم : « لا حكم إلا لله يقضى بالحق وهو خير الفاصلين » . فقال رجل منهم لآخر كلاما يحرضه على النيل من الأشعث ، فخرج إليه أحد بنى تميم قائلا له : أتحكمون الرجال فى أمر الله ؟ فأين قتلانا ياأشعث ؟ ثم شد بسيفه ليضربه به ولكنه خطاه وأصاب عجز دابته ، فصاح به الناس فكف ورجع الأشعث إلى قومه فأنبأهم بذلك . ثم ذهب إلى الإمام قائلا له : لقد عرضت الحكومة ياأمير المؤمنين على صفوف أهل الشام وصفوف أهل العراق فقالوا جميعا رضينا ، حتى مررت برايات بنى راسب ونبذ من الناس سواهم فقالوا لا حكم إلا لله . فيا أمير المؤمنين ما يستحق هؤلاء إلا القتل فاجمع أهل العراق وأهل الشام على هؤلاء الخارجين حتى تقتلهم .

فقال الإمام — كرّم الله وجهه — : هل هى غير راية أو رايتين ونبذ من الناس ؟ قال الأشعث : لا . قال الإمام : اتركهم إذن . وقد ظن رضى الله عنه أنهم قليلون لا يعبأ بهم . فما راعه إلا نداء الناس من كل جهة ومن كل ناحية : الحكم لله يا على لا لك . لا نرضى بأن يحكم الرجال فى دين الله . إن الله قد أمضى حكمه فى معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا تحت حكمنا عليهم ، وقد كنا زللنا وأخطأنا حين رضينا بالحكمين غير أنه قد بان لنا الآن أنا زللنا وأخطأنا فرجعنا إلى الله وتبنا ، فارجع أنت يا علىّ كما رجعنا وتب إلى الله كما تبنا وإلا برئنا منك . فقال الإمام : ويحكم أبعد الرضا والميثاق والعهد نرجع ؟ أليس الله يقول : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾(١) ويقول ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾(٢) . ثم أبى — كرّم الله وجهه — أن يرجع ، وأبت الخوارج إلا تضليل التحكيم والطعن فيه فبرئت من الإمام وبرئ الإمام منهم ، فقام إليه قائم فقال : ياأمير المؤمنين ،

(١) المائدة ١ (٢) النحل ٩١

أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ؟ فوالله إنى لأخاف أن يورث ذلا . فقال الإمام : أبعد أن كتبناه ننقضه ؟. إن هذا لا يحل .

وما كان الإمام ــ كرَّم الله وجهه ــ ليقبل التحكيم ويرحب به إلا وقد رأى فى شيعته الخور والفشل عن الحرب ، ولقد كانت همدان جاءت إليه تعده بأن تقف خلفه ركنا حصينا تبذل فى مناصرته النفس والنفيس . فلما رأى من همدان هذه العزائم الشريفة مع ما بدا فى صفوف أنصاره من الخور قبل التحكيم قائلا لهم لو كان هذا قبل تسطير الصحيفة لأزلت أعداءكم عن عسكرهم أو تنفرد سالفتى(١) ، فانصرفوا راشدين إن شاء الله .

وهكذا يحرص الإمام ــ كرَّم الله وجهه ــ أشد الحرص على أن يلزم النهج القويم مهما كلفه ذلك من المشاق التى لا يصبر عليها إلا الصابرون الصادقون . ولا ينبغى أن يغيب عنك من شئون الاجتماع أن ثمة فرقا بين اثنين قذفت بهما السياسة إلى ميادين الحرب وكل منهما يرجو الظفر بصاحبه ــ بيد أن أحدهما يتقيد فى تصرفاته بمنهاج ذى قداسة من دين أو قانون ، على حين أن الآخر لا يتقيد إلا بما يرجوه ويسعى إليه من الظفر بصاحبه والفوز بغايته ، مهما تكن السبيل إليه مشروعة أو غير مشروعة .

وأنت إذا تدبرت أمر الرجلين ظهر لك على غاية الجلاء أن أدنى الرجلين إلى الظفر بصاحبه والفوز بغايته ، هو أبعدهما عن التقيد بالمناهج المقدسة . وكذلك كان الإمام ــ كرَّم الله وجهه ــ مع أعدائه يعف ولا يعفون ، ويتقيد ولا يتقيدون ، وفى هذا المعنى يذكر الثقات من أهل العلم أن الناس فى أزمنة السوء ينسبون أصحاب الغدر إلى الفطنة والذكاء ، فيقولون لمن يخدع ويغدر ويمكر إنهم أذكياء أكياس عقلاء ، ثم ينسبون أصحاب هذه الأخلاق إلى حسن الحيلة وصحة التدبير . غير أن الذى تقلب فى الأمور وحنكته الخطوب والحوادث هو

(١) كناية عن القتل .

الذى ينتهز فرصتها فيبادر إلى افتراصها ، فإنه لا يتأثم ولا يتحرج .

وما كان الإمام — كرَّم الله وجهه — ليرضى أمرا ينكره شرف الفطرة ويضيق به أدب الإسلام ، وآية ذلك : أن أهل الشام ملكوا عليه — فى موقعة صفين — شريعة الماء وأرادوا قتله وقتل أهل العراق عطشا ، فضاربهم على الشريعة حتى ملكها عليهم وطردهم عنها . فرغب إليه أصحابه أن يقتلهم بسيوف الظمأ ويمنعهم الماء قائلين له : إنك إن فعلت أخذتهم أسرى قبضا بالأيدى دون حاجة إلى قتال . ولكن الإمام — كرَّم الله وجهه — أبى له شرف فطرته وقوة دينه أن ينزل على نصيحة أصحابه ، فقال لهم : إنى لا أستحل ذلك ، وفى حد السيف عنه غنى . ثم أفرج عن الماء لأعدائه ، وقد كانوا حراصا على أن يقتلوه مع أصحابه بسلاح الظمأ ، ثم لم يقنع بذلك حتى قاسم أهل الشام الشريعة شطرين بينه وبينهم ، وتلك مكرمة من أعظم مكارم الأخلاق .

وإذ قد كانت فضائل الإنسان تنبع فى نفسه من نبع واحد وتستند إلى أصل واحد ، فإن مما يجرى مع هذه الفضيلة فى قسمة الماء بينه وبين أعدائه فضيلة أخرى لا تقل شرفا عن صاحبتها ، وتلك هى أن بعض أنصاره استأذنه فى أن يبيِّت[1] معاوية رحمه الله ، فقال له الإمام : إن رسول الله — ﷺ — نهى أن يبيت المشركون ، فلا تبيتوا أنتم رجلا يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله .

وننتهز هذه السانحة لنذكرك أن هذه الأخلاق الشريفة التى كان يتعامل بها الإمام مع الناس ، قد أخذ أبناؤه وآل بيته منها بأوفر نصيب وأوفاه . ولذلك لم يستقم لهم أمر الحكم ولا أسلمت دنيا السلطان لهم قيادها ، إذ كان سلطان الحكم أدنى إلى أهل الدنيا منه إلى أهل الدين .

---

(١) التبيّت : تقول العرب ، بيّت فلان بنى فلان إذا أتوهم بياتا فكبوهم وهم غافلون من غير أن يعلموا فيؤخذون بغتة ، فذلك هو البيات وهو منهى عنه حتى مع المشركين ، لأنه ليس من أخلاق الإسلام .

ذلك أن الدين يفرض على صاحبه أسلوبا فى التعامل مع الناس يقيد حريته فى الأخذ بما يدنيه من غايته المطلوبة له ، على أن تكون تلك الغاية بمنأى عن كل ما يشين المروءة أو يعاند الدين .

وغير تلك الطريقة طريقة أصحاب الدنيا وطلاب الحياة ، فإنهم يضعون نصب أعينهم الظفر بمنافسيهم والفوز دونهم بالسلطان لا يتحرون فى ذلك حلالا ولا يتحرجون من حرام ، وإنهم ليعلمون أن الناس معهم بمشاعرهم ومصالحهم ماداموا قد أدركوا غايتهم وظفروا بالسلطان .. وقد مهد لهذا اللون من الناس الشاعر العربى السبيل إلى ما يسوغ هذا السلوك الذى لا يعنيه الحلال والحرام وإنما يعنيه شيء واحد ، أن الناس يقفون معه وقد نسوا ما اجترح من سيئات واقترف من خطايا ، فذلك حيث يقول شاعرهم :

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى — ولأم المخطىء الهبل

وتلك هى حال الإمام — رضى الله عنه — مع أعدائه ، فقد كان يتقيد بأدب الله وأدب رسوله بمقدار ما كان أعداؤه لا يعنيهم هذا الأدب فى كثير ولا قليل .

ومصداق ذلك موقفه مع أهل الشام فى قسمته الماء بينهم وبينه ، مع أنهم حاولوا أن يقتلوه مع أصحابه ظمئا حين تمكنوا من السيطرة على الشريعة .

ومصداق ذلك أيضا نهيه أولياءه عن الغدر بأعدائه ، مع أنهم كانوا حراصا على الغدر به .

ومصداق ذلك أيضا قبوله أبا موسى الأشعرى فى التحكيم بينه وبين معاوية ، مع العلم بأن أبا موسى ليس كفئا لعمرو بن العاص فى رأى الذين عايشوا الرجلين وعرفوا ما عند أبى موسى من سلامة الصدر وشدة الحرص على إصلاح ذات البين بين المسلمين . إذ كان قد حمد الله على نعمائه حين انتهى إليه نبأ رفع المصاحف ابتغاء الاحتكام إلى ما جاء فى الكتاب العزيز من تفضيل الحلم على الجهل ، وإيثار السلام على الخصام . فلما قيل له إنك أحد الحكمين اعتبر ذلك مصيبة

يسترجع معها المسلم ، فقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .. والذين يتأملون فى هذه الكلمات سرعان ما يواقع ظنونهم أن أبا موسى لم يكن صالحا لهذه المهمة الخطيرة ، وخاصة أن معه عمرو بن العاص الذى كان يتعصب لمعاوية ويقف إلى جانبه رغبة أو رهبة . على أن التفاوت بين الرجلين لم يكن أمرا خفيا على ما يقول الثقات من أن سيدا من سادات العرب قام إلى أبى موسى لما أراد المسير ، فقال له : يا أبا موسى إنك على وشك المسير إلى التحكيم ، فاعلم أنك قد قلدت أمرا عظيما لا يجبر صدعه ولا تستقال فتنته ، ومهما ثقل من شىء يثبت حقه وتبدو صحته وإن كان باطلا . ثم اعلم — يا أبا موسى — أنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكهم معاوية ، ولا بأس على أهل الشام إن ملكهم علىّ . وتذكر — يا أبا موسى — أنه قد كانت منك تثبيطة أيام الكوفة ، فإن تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقينا والرجاء منك يأسا . ثم قال له شريح فى ذلك شعرا :

أبا موسى رميت بمكر عمرو ... فلا تضع العراق فدتك نفسى
ولا يخدعك عمرو إن عمرا ... حليف المكر مطلع كل شمس
له خدع يحار العقل فيها ... مموهة مزخرفة بلبس
وإن غدًا يجىء بما عليه ... كذاك الدهر من سعد ونحس
فلا تجعل معاوية بن حرب ... لهذا الأمر رأسا أى رأس
هداه الله للإسلام فردا ... سوى عرس النبى وأى عرس

فهذه العظة لأبى موسى من شريح بن هانئ يدلان على أن الرجل كان طيب القلب سليم دواعى الصدر .. والمؤمن أبدا غر كريم .

فلما سار أبو موسى سار معه وجوه القوم ، وكان آخر من ودعه الأحنف بن قيس فأخذ بيده ثم قال له : « يا أبا موسى اعرف خطب هذا الأمر واعلم أن له ما بعده . واذكر أنك إن أضعت العراق فلا عراق . فاتق الله تجمع لك التقوى دنياك وآخرتك .. وإذا لقيت عمرا — غدا — فلا تبدأه بالسلام وإن كان

سنة ، ولا تعطه يدك فإنها أمانة ، وإياك أن يقعدك على صدر الفراش فإنها خدعة ، ولا تلقه إلا وحده ، واحذر أن يكلمك فى بيت فيه مخدع تخبأ فيه لك الرجال والشهود .. فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعليّ ، فليتخذ أهل العراق من قريش الشام من شاءوا ، أو فليتخذ أهل الشام من قريش العراق من شاءوا » .

فلما فرغ الأحنف من نصيحته لم يزد أبو موسى على أن قال له : « قد سمعت ما قلت » .. ولم يجد الأحنف فى هذه الكلمة ما يدل على أن عليًّا فى موضع الضن من صدر أبى موسى ، فرجع يقول للإمام : أى أننا بعثنا رجلا لا ينكر خلعك . قال الإمام ما يقوله ربيب محمد رسول الله : « الله غالب على أمره » .

ولقد كان طبيعيا أن يشيع أمر الأحنف وأبى موسى فى الناس ، حتى يقول أحد الشعراء الفحول من شيعة الإمام :

لعمرك لا ألفى مدى الدهر خالعا ... عليًّا بقول الأشعرى ولا عمر

فإن يحكما بالحق نقبله منهما ... وإلا أثرناها كراغية البكر(١)

ولسنا نقول الدهر ذاك إليهما ... وفى ذاك لو قلناه قاصمة الظهر

ولكن نقول الأمر والنهى كله ... إليه وفى كفيه عاقبة الأمر

وما اليوم إلا مثل أمس وإننا ... لفى وشل الضحضاح أو لجة البحر

* * *

فلما سمع الناس هذا الشعر شحذهم على أبى موسى ، واستبطأه القوم وظنوا به الظنون . ومكث الرجلان أبو موسى وعمرو بدومة الجندل لا يقولان شيئا ، وكان سعد بن أبى وقاص قد اعتزل عليًّا ومعاوية . وكان رجلا له بأس ورأى ومكان فى قريش ولم يكن له هوى فى على ولا فى معاوية .. وذات يوم أقبل راكب من بعيد فإذا هو عمر بن سعد بن أبى وقاص فقال له سعد : مهيم(٢) . فقال : التقى الناس

(١) يريد : أوقدنا نار الحرب مشئومة على المسلمين أجمعين

(٢) مهيم : كلمة استفهام ما حالك ما شأنك :.

بصفين فكان بينهم ما قد بلغك حتى تفانوا ، ثم حكموا عبد الله بن قيس وعمرو ابن العاص ، وقد حضر ناس من قريش عندهما وأنت من أصحاب رسول الله ومن أهل الشورى ، وأنت الذى أمر النبى بأن تتقى دعوتك ولم تدخل فى شيء مما تكره الأمة ، فاحضر دومة الجندل فإنك صاحبها غدا . فقال أبوه له : مهلا يا عمر ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (تكون بعدى فتنة خير الناس فيها الخفى) . وهذا أمر لم أشهد أوله فلا أشهد آخره ، ولو كنت غامسا يدى فى هذا الأمر لغمستها مع علىّ بن أبى طالب . وإنك قد رأيت أباك كيف وهب حقه من الشورى وكره الدخول فى الأمر .. وعند ذلك ارتحل عمر وقد استبان له أمر أبيه . وكان الجند قد أبطأ على معاوية فبعث إلى رجال من قريش كرهوا أن يعينوه فى حربه ، قائلا لهم : إن الحرب قد وضعت أوزارها والتقى هذان الرجلان فى دومة الجندل فاقدموا على . فأتاه عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأبو الجهم بن حُذيفة العدوى ، وأتاه المغيرة بن شعبة وكان مقيما بالطائف لم يشهد الحرب فقال له : ما ترى يا مغيرة ؟ قال : يا معاوية لو وسعنى أن أنصرك لنصرتك ، ولكن على أن آتيك بأمر الرجلين . فرحل حتى إلى دومة الجندل فدخل على أبى موسى — كالزائر له — فقال : يا أبا موسى ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء .. قال أبو موسى : أولئك خير الناس خفت ظهورهم من دمائهم ، وخمصت بطونهم من أموالهم . ثم أتى المغيرة عمرو بن العاص فقال : يا أبا عبد الله ، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء ؟ قال : أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلا . وعند ذلك رجع المغيرة إلى معاوية فقال له : قد ذقت الرجلين .. أما عبد الله بن قيس فخالع صاحبه عليًّا وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الأمر وهواه عبد الله بن عمر ، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى تعرف ، وقد ظن الناس أنه يرومها لنفسه وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه .

ثم يروى الثقة بعد أن ساق هذا الكلام فيقول : وعلى حين غفلة إذا صوت عبد الله بن عمرو بن العاص ينطلق من مكان خفى فيقول له : فأين أنت يا أبا موسى من معاوية ؟ فأبى عليه أبو موسى . فقال عبد الله بن عمرو : ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوما ؟ قال : بلى . قال : اشهد . ثم قال : فما يمنعك من معاوية وهو ولى عثمان ، ثم إن بيت معاوية من قريش ما قد علمت . فإن خشيت أن يقول الناس ولى معاوية الأمر بلا سابقة .. فإن لك حجة أن تقول وجدته ولى عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير ، مع أنه أخو أم حبيبة أم المؤمنين وزوج النبى ، وقد صحبه وهو أحد الصحابة . فقال أبو موسى : اتق الله يا عمرو .. أما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا الأمر ليس على الشرف يولاه أهله ، ولو كان على الشرف يتولى الناس إمرة المؤمنين لكان أحق الناس بهذا الأمر أبرهة بن الصباح ، إنما هو لأهل الدين والفضل .. مع أنى لو كنت أعطيه أفضل قريش شرفا لأعطيته علىّ بن أبى طالب . وأما قولك إن معاوية ولى عثمان ، فإنى لم أكن أوليه إياه لنسبته من عثمان وأدع المهاجرين الأولين . وأما تعريضك لى بالإمرة والسلطان .. فوالله لو خرج لى من سلطانه ما وليته وما كنت أرتشى فى الله ، ولكنك إن شئت أحيينا سنة عمر بن الخطاب . فقال عمرو بن العاص : إن كنت إنما تريد بإحياء اسم عمر بن الخطاب أن تبايع ابن عمر لدينه فما يمنعك من ابنى عبد الله بن عمرو وأنت تعرف فضله وصلاحه . فقال أبو موسى : إن ابنك لرجل صدق — يا عمرو — ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة . ولا بأس أن نروى لك بعض كلمات فى هذا المعرض وربما انتفع بها الذين يحرصون على أمانة التاريخ ، فقد ذكر الثقات من أهل المعرفة أن أبا موسى الأشعرى كانت فيه غفلة كان ينتهزها ابن العاص كلما امتهدت إلى ذلك سبيل .

ومهما يكن من أمر فقد التقى الحكمان فى دومة الجندل ، وبدأ دهاء عمرو يؤتى أكله . وكان أول ذلك أن عمرا أخذ يقدم أبا موسى فى الكلام قائلا له : إنك

صحبت رسول الله ﷺ قبلى ، وأنت — مع ذلك — أكبر منى سنا فتكلم أنت ثم أتكلم أنا . فجعل ذلك سنة وعادة بينهما . ولم يكن الأمر يعدو أن يكون مكرا وخديعة ومقدمة لخطة رسمها عمرو بدهاء وإحكام يقومان على نظر بعيد حين تسنح الفرصة ، وذلك أن يكون أبو موسى قد ألف تقدم عمرو فى الكلام كما يكون الناس قد ألفوا ذلك منهم فلا يستغربون . ثم بالغ عمرو فى إحكام الخطة فكان يعطيه التقدم فى الصلاة وفى الطعام فلا يأكل حتى يأكل ، وإذا تحدث إليه خاطبه بأجل الأسماء فيقول له يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى اطمأن إليه أبو موسى وظن أنه لا يغشه . فلما امخضت الزبدة بينهما ، قال له عمرو : أخبرنى ما رأيك يا أبا موسى . قال : أرى أن أخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين يختارون من شاءوا . قال عمرو : الرأى — والله — ما رأيت . فأقبل إلى الناس وهم مجتمعون فتكلم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن رأيى ورأى عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به شأن هذه الأمة . فقال عمرو : صدق أبو موسى . ثم قال : تقدّم فتكلم يا أبا موسى . فقام ليتكلم فدعاه ابن عباس قائلا له : ويحك ، والله إنى لأظنه خدعك ، إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه قبلك ليتكلم به ثم تكلم أنت بعده . فإنى لا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه فإذا قمت به فى الناس خالفك . ثم قام أبو موسى فقال : لقد اجتمع رأيى ورأى صاحبى على خلع علىّ ومعاوية وأن نستقبل هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين وإنى قد خلعت عليًّا ومعاويةَ جميعا فاستقبلوا أموركم وولوا من رأيتموه لهذا الأمر أهلا . ثم تنحّى ، فقام عمرو فقال : إن هذا قد خلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبّت صاحبى معاوية فى الخلافة فإنه ولى عثمان وأحق الناس بمقامه . فلما فرغ الرجلان قام رجل على عمرو فقنعه بالسوط وحمل ابن عمرو على الرجل فقنعه بالسوط فقام الناس فحجزوا بينهما .

وقد كان علىّ عند التحكيم مقيما بالكوفة فلما بلغه حكم الحكمين وجم له وخطب الناس فقال : الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل . ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما قد نبذا حكم الكتاب وأحييا ما أمات واتبع كل منهما هواه وحكم بغير حجة ولا بينة ولا سنة ماضية فكلاهما لم يسترشد الله فاستعدوا للجهاد وتأهبوا للسير . ومن هنا بدأت الفتنة أشد ما كانت بلاء على الإسلام والمسلمين . ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وهو ولى التوفيق .

عليّ بين الغلاة والقلاة

إن من الحق أن نقضى حق هذا العنوان بتوضيح معنى الكلمتين فيه :ــ « غلاة » و « قلاة » ، فنقول وبالله نتأيد ومنه ــ سبحانه ــ نستمد المعونة والتوفيق : إن كلمة « غلاة » جمع غال على مثال قاض ، والمراد بالغال هنا كل من جاوز حد الاعتدال فى حب الإمام عليّ كرّم الله وجهه . وعلى هذا النحو كلمة « قلاة » فإنها جمع قال على مثال قاض أيضا ، والمراد بالقال هنا كل من أبغض ــ أشد البغض ــ عليًّا رضى الله عنه .

ثم إن شر ما تمخضت عنه محنة التحكيم بين عليّ كرّم الله وجهه وبين معاوية رضى الله عنه ، مولودان شائهان كان لهما أسوأ الأثر فى حياة الأمة الإسلامية ، فعنهما إنصدع صفها وتشتت شملها وتفرقت كلمتها ، حتى طمع فيها أعداؤها ويئس منها أولياؤها .

وهذان المولودان الشائهان يحمل أحدهما راية الغلو فى حب عليّ ، ويحمل الآخر راية الغلو فى بغضه ، فكلاهما عدو له ــ كرّم الله وجهه ــ ، وكلاهما موضع لسخط الله وبلاء على الإسلام والمسلمين .

ولست تجد أسلوبا صالحا لوصفهما فى العاجل والآجل ، إلا أن تضعهما فى نطاق الآية الكريمة من سورة الحج ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾(1) .

وعلى أن كتابنا هذا ليس كتاب تاريخ لا نجد ندحة عن الإلمام بحديث عن

(1) الحج ١١

الطائفتين : طائفة الشيعة ، وطائفة الخوارج . والله المسئول أن يعصمنا من الزلل وأن يجنبنا الخطل إنه أعظم مأمول وأكرم مسئول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

فأما طائفة الشيعة فإنا نعنى بهم فى هذا الحديث « الغلاة » الذين وضعوا عليًّا فى منزلة الألوهية ، على ما يقرر ذلك العلامة الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل . فيذكر أن من طوائف الشيعة الغلاة النُّصَيْرِيَّة ، ثم يذكر عن النُّصَيْرِيَّة أنهم يقولون : إن فى علىّ جزءا إلٰهيا وقوة ربانية . وهم يستدلون على ذلك بقلعه باب خيبر إذ كانت القوة البشرية لا تستطيع ذلك ولا قبل لها به . وثمة طائفة أخرى تدعى « الإسحاقية » ، والفرق بين النصيرية والإسحاقية — فيما ذكر الشهرستانى — أن النصيرية أميل إلى تقرير الجزء الإلٰهى فى علىّ ، وأما الإسحاقية فإنهم أميل إلى تقرير الشركة فى النبوة بين محمد وعلىّ .

ولست ترتاب فى أن أولئك وهؤلاء ينتظمهم الحديث النبوى الشريف الذى أخرجه عبد الرحمن بن علىّ الشيبانى فى التيسير ، عن معاوية رضى الله عنه وفيه يقول : قام فينا رسول الله — ﷺ — فقال : (ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة : ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة) ، وهى الجماعة . وقد زاد فى رواية : (..... وسيخرج من أمتى أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكَلَب(١) بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله .

ففى هذا الحديث بيان من رسول الله ﷺ لأمرين :

أولهما : أن الفرقة الناجية فى الأمة المحمدية هى الفرقة التى تلزم جماعة المسلمين . ولن تجتمع هذه الجماعة إلا على حق يستند إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله — ﷺ — ثم إلى اجتهاد أئمة الأمة وولاة الأمر فيها من العلماء والأمراء رضى الله عنهم .

(١) داء يصيب الكلب فلا يعض معه إنسانا إلا صار به كلبا مسعورا .

وثانى الأمرين : أنه — ﷺ — لفت أمته لفتا يستدعى الحذر ، فبين أن فى هذه الأمة من سيخرج على جماعتها خروجا يسوقه إليه هَواه . وأن هذا الهوى يجرى فيه كما يجرى الكَلَب فى جسد من عضه الكلب المسعور ، فتعرض له أعراض رديئة فاسدة قاتلة لا يستعصى عليها فى الجسم الإنسانى شىء إلا اصابته بدائها ، سواء فى ذلك العروق والمفاصل وكل ما يجرى فيه دم الإنسان ، فإذا الإنسان الذى كرمه ربه بالعقل والمروءة والوقار ينبح نباح الكلب حتى لا يشك من يسمع صياحه فى أنه إنما يسمع صياح كلب عقور .

وأنت إذا تمثلت هذا الحديث النبوى الشريف — على ما ينبغى له من عناية واهتمام ، فإنك لا تشك فى أن الغالين فى حب علىّ كرَّم الله وجهه كالقالين له كلاهما يدخل فى نطاق هذا الحديث النبوى الشريف ، وكلاهما هنالك لا محالة .

كما يؤكد هذا المعنى حديث آخر : (يهلك فيك — يا على — اثنان : محب غال ومبغض قال) .

وقد كانت مبادئ أولئك الغلاة من الشيعة مهدا لدعوة ثورية ، تتغيا الهدم ممعنة فى العمل على سحق تعاليم الإسلام سعيا إلى تحطيم السلطة السياسية الإسلامية التى تقوم على تلكم التعاليم .

وكانت الطائفة الإسماعيلية الباطنية أنشطَ طوائف الشيعة هؤلاء فى نشر تعاليم الهدم لسلطان الإسلام . وإلى تلك الطائفة الغالية ينتمى أعظم الدعاة الثوريين المتآمرين ، وهو عبد الله بن ميمون القداح سليل فقيه ملحد من جنوب فارس يدعى ميمون بن ديصان . وما كان ابن ميمون هذا يبحث عن أنصاره بين الشيعة الخلص ، ولكنه كان يلتمسهم بين الملحدين والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية والحاقدين من كل جنس وكل مذهب وكل ملة ، وإلى هؤلاء أفضى بسره وخفى عقيدته ، وهى أن الأديان والأخلاق ليست إلا ضلالا وسخرية من البشر .

وغير خفى على البصراء أن ذلك الفوضوى الملحد كان يتجنب الاستعانة بالنفوس المخلصة والعقول الكبيرة ، إذ كان دعاته يحرصون على إخفاء حقيقة عواطفهم وعقائدهم فيحادثون كل طبقة باللغة التى تفهمها وعلى المعانى التى تروقها فتستأسر لها . وربما لجئوا إلى أعمال الشعوذة التى قد يعتبرها عامة الناس وسفلة القوم معجزات أو كرامات . ولقد أسفرت هذه الوسائل عن نتيجة عجيبة هى أن جمهرة عظيمة من رجال يعتنقون مذاهب مختلفة كانوا يعملون معا لإدراك غاية لا يعلمها إلا القليل أو أقل القليل منهم . وحق علينا لك أن نلفتك إلى أن الشيعة الإسماعيلية فيهم مخلصون غيارى على الإسلام والمسلمين ، كما أن فيهم ملاحدة باطنيين يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين .

ومن هؤلاء الباطنية الملحدين الجمعية السرية الهائلة التى يطلقون عليها اسم « الفداوية » . وقد كان الفداوية هؤلاء يربون منذ الحداثة على المخاطرة والتضحية المطلقة واحتقار الحياة الدنيا التى ينبغى الفرار منها والزهد فيها إلى الحياة الآخرة ذات النعيم الخالد الذى لا يحول ولا يزول . فكان زعماء الجمعية الفداوية المقدسون يربون أعضاء جمعيتهم تربية لا يملكون معها لأنفسهم وسيلة من وسائل الاختيار . ذلك أنهم كانوا ينشئون حول قلاعهم الحصينة فى رءوس الجبال حدائق غناء ذات بهجة ، وقد غرست فيها أطيب الفواكة وأزكى الأزاهر والورود ، إلى جانب الفوارات والشلالات البديعة ، ثم يزينون ذلك كله بأنفس الرياش والبسط ، وقد غصت بالفتيات وهن يطفن بأقداح ذهبية من الخمر . وكل من تلوح فيه النجابة والإخلاص من الفتية الفداوية يدعونه إلى مجلس شيخ الجبل ، ثم يسقونه جرعة من شراب مخدر لعله هو الحشيش ، ثم ينقل — خفية — إلى إحدى هذه الحدائق الغناء ويزج به إلى إحدى الأبهاء الضخمة فينام بضربة المخدر ، ثم يستيقظ على ألحان الموسيقى الشجية وخرير الفوارات الشاعرة . ثم يسقونه المخدر ثانية لينقلوه خفية أيضا إلى مجلس شيخ الجبل ، فإذا انتبه أكد له

الشيخ أنه لم ينتقل عن مكانه وأن الذى رآه إنما هو الفردوس بكل ما فيه من لذائذ ومتع . ثم يلفته إلى أنه يفوز بهذا الفردوس إلى الأبد إن هو أحسن طاعته لقادته وبذل نفسه فى سبيل الله .

وأمام هذه الصورة العجيبة التى لا يرقى إليها الخيال ، لا يجد إبليس مندوحة عن التخلى عن أحابيله ومكايده لأولئك الخبثاء الذين يتآمرون ذلك التآمر . ويدبرون هذا التدبير . ولك بعد ذلك أن تتخيل المجتمع الإنسانى الذى تتسلط عليه هذه الأفكار بتلك الخطط التى لا تستقيم معها حياة ولا يبقى فى سلطانها أحياء .

هذا وأما الخوارج فإليهم الإشارة فى قصة يرويها الإمام ابن كثير ، وفيها أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم إلى أصحابه من بيوت بعض نسائه ، فقام وقاموا معه فانقطعت نعله فتخلف عليها علىّ يخصفها . فمشى رسول الله ﷺ ومشى معه أصحابه ، ثم قام ينتظر عليًّا وقام أصحابه معه . فقال ﷺ : (إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله) . فاستشرف أصحابه لهذه البشرى وفيهم أبو بكر وعمر ، فقال — صلوات الله عليه —: لستم أنتم ولكنه خاصف النعل . يعنى ﷺ عليًّا — كرّم الله وجهه — . وقد شرح أهل الحديث الذين يقاتلهم علىّ على تأويل القرآن كما قاتلهم النبى على تنزيله ، فقالوا : إن هؤلاء المتأولين هم الناكثون طلحة والزبير ، ثم القاسطون أنصار معاوية ، ثم المارقون الخوارج على أهل الإسلام .

ومن الحق علينا لمن يقرأ كتابنا هذا أن نذكر له مبدأ ظهور الخوارج شيئا من سيرتهم ، فنقول وبالله نتأيد ومنه تعالى نستمد المعونة والتوفيق .

حين استعرت نار الحرب بين أنصار الإمام علىّ من أهل العراق وأنصار معاوية من أهل الشام ، قام عبد الله بن عمرو بن العاص ثم نادى : ياأهل العراق أنا عبد الله بن عمرو بن العاص ، إنه قد كانت بيننا و بينكم أمور للدين أو

للدنيا ، فإن تكن للدين فقد أعذرنا وأعذرتم ، وإن تكن للدنيا فقد أسرفنا وأسرفتم . وقد دعوناكم إلى أمر لو دعوتمونا إليه لأجبناكم ، فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذاك من الله ، فاغتنموا هذه الفرصة عسى أن يعيش فيها المحترق وينسى فيها القتيل ، فإن بقاء المهلك بعد الهالك قليل . فأجابه سعد بن قيس الهمدانى فقال بلسان أهل العراق : ياأهل الشام إنه قد كانت بيننا وبينكم أمور حامينا فيها على الدين والدنيا وقد سميتموها غدرا وسرفا ، وأنتم اليوم تدعوننا إلى ما قاتلناكم عليه أمس ، وما كان لأهل العراق أن يرجعوا إلى عراقهم ولا لأهل الشام أن يرجعوا إلى شامهم بأمر أجل من أن يحكم فيه بما أنزل الله سبحانه .

فقام الناس إلى علىّ كرّم الله وجهه فقالوا له : أجب القوم إلى المحاكمة . ثم قام الأشعث فخطب أصحابه من كندة ثم قال : « يا معشر المسلمين قد رأيتم ما قد كان فى يومكم هذا من القتال والقتل وما فنى فيه من العرب ، وقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيت مثل هذا اليوم قط . ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا إن تواقفنا غدا فلا مندوحة من فناء العرب وضيعة الحرمات . أما والله لا أقول هذه المقالة جزعا من الحرب ، ولكننى رجل مسن أخاف على النساء والذرارى إذا فنينا . اللهم إنك تعلم أنى قد نظرت لقومى ولأهل دينى فلم أقصر ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

وقد مضى القوم يتناقلون كلمات الأشعث الكندى فيقولون : لئن التقينا غدا لتميلن الروم على ذرارى أهل الشام ونسائهم ، وليميلن فارس على ذرارى أهل العراق ونسائهم . وإنما يتـقى هذا الخطر المتربص ذوو الأحلام والنهى . وعن هذه الكلمة رفعت المصاحف على أطراف الرماح ، وثار أهل الشام فى سواد الليل ينادون : يا أهل العراق من لذرارينا إذا قتلتمونا ومن لذراريكم إذا قتلناكم ؟ فالله الله فى البقية منا ومنكم . ثم أصبحوا وقد رفعوا المصاحف على رءوس الرماح ، ومصحف دمشق الأعظم يحمله عشرة رجال على رءوس الرماح وهم ينادون :

كتاب الله بيننا وبينكم . ومن هنا انطلق القوم إلى التحكيم فى كتاب وقعه الإمام — كرَّم الله وجهه — ومعاوية غفر الله له .

فلما تم الكتاب وشهدت فيه الشهود وتراضى النـاس ، خرج الأشعث بنسخة الكتاب يقرؤها على الناس ويعرضها عليهم . فمر على صفوف من أهل الشام فأسمعهم إياه فرضوا به ، ثم مرّ به على صفوف من أهل العراق فأسمعهم إياه فرضوا به . حتى إذا مر برايات قبيلة عنـزة وقرأه عليهم قال فتيـان منهم : « لا حكم إلا لله » . ثم حملا على أهل الشام بسيفيهما فقاتلا حتى قُتِلا على باب رواق معاوية .

ثم مر الأشعث بنسخة الكتاب على قبيلة مراد فقال رئيسهم :

مالعليٍّ فى الدمـاء قد حكـم   لو قاتل الأحـزاب يومـا ماظلـم

ثم أخذ يهتف : « لا حكم إلا لله ولو كره المشركون » . فهذا هو مبدأ ظهور الخوارج . ومع ذلك الجو المفعم بالخلاف مضى التحكيم إلى غايته فحكم القوم أبا موسى وعمرو بن العاص .

هذا ما يتعلق بالغلاة فى حب علىّ وهم الشيعة ، وأما ما يتعلق بالغلاة فى بغضة وهم الخوارج ومن ظاهرهم ، فإن أصدق حديث عنهم حديث رسول الله ﷺ فقد أخرج ثقات المحدثين — وفى طليعتهم البخارى ومسلم — أن عليًّا كرَّم الله وجهه — قال : « إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثا ، فوالله لأن أخرّ من السماء أحب إلىّ من أن أقول عليه ما لم يقل ، وإذا حدثتكم فيما بينى وبينكم فإن الحرب خدعة . وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (سيخرج قوم فى آخر الزمان حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام ، يقولون من خير قول البرية ، ويقرءون القرآن لا يتجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية) .

ففى هذا الحديث بين رسول الله ﷺ خصائص الخوارج بيانا لا يشوبه غموض ولا إبهام .

وقد ألزمهم النبى ﷺ صفة المروق من الدين حتى سارت فى دنيا الإيمان والمؤمنين مسير الأمثال السائرة والحكم المسلمة ، فإذا طرقت كلمة المروق مسامع الناس لم تكن لها دلالة إلا على الخوارج .

وإلى جانب هذه الصفة شعار للخوارج يجتمعون تحت لوائه ويحتكمون إلى منطقه وإن يكن منطقا غير مفهوم ولا مسلم عند أرباب العقول ، ذلك أنهم لزموا هذه الكلمة التى ترشد إليهم وتدل عليهم وهى كلمة « لا حكم إلا لله » . وفى تسفيه هذه الكلمة يقول — كرّم الله وجهه — : « إنها كلمة حق يراد بها باطل . نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون : « لا إمرة إلا لله » . وأنه لا بد للناس من أمير برٍّ أو فاجر يعمل فى إمرته المؤمن ويستمتع الكافر ، ويجمع به الفىء ، حتى يستريح البر ويستراح من الفاجر » .

ويروى الثقات من أهل العلم أن الإمام حين سمع تحكيمهم قال : « حكم الله أنتظر فيكم » . ثم قال : « أما الإمرة البرة فيعمل فيها التقى ، وأما الإمرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقى إلى أن تنقطع مدته وتدركه منيته » .

إن أحدا من أهل البصر بشئون الاجتماع البشرى لا يرتاب فى أن عليًّا — كرّم الله وجهه — قد لقى من العنت وشدة الهول ما تنوء به شم الجبال وهو يتعامل مع القالين له ، حتى لقد كان — رضى الله عنه — أحق بقول الشاعر :

لقد زادنى حبا لنفسى أننى بغيض إلى كل امرئ غير طائل
وأنى شقى باللئام ولن ترى شقيا بهم إلا كريم الشمائل

والذين يطالعون كتب التاريخ — فى تدبر واستبصار — لا يسعهم إلا الإيمان البصير بأنه — كرّم الله وجهه — سلك كل السبل إلى اقناعهم ورجعهم إلى الصواب الذى هربوا منه وتنكروا له ، ولكنه لم يجد إلى اقناعهم سبيلا . وقد كان مع أهل بيته الميامين حريصا على جمع الكلمة ، ولم الشمل ، ووحدة الصف ، يحاول ذلك حينا بالحجة النيرة والبرهان الساطع ، يتحدث إليهم خطيبا بينهم ،

وحينا يبعث إليهم برجل من أهل البيت الهاشمي يحادثهم ويحادثونه ويجادلهم ويجادلونه على ما يزكى ذلك المؤرخ البصير والمحدث الثقة صاحب كتاب « صفين » ، فذلك حيث قال رحمه الله : « لما رجع عليّ — كرَّم الله وجهه — من صفين إلى الكوفة ، أقام الخوارج حتى استجمعوا ثم خرجوا إلى صحراء حروراء وهناك تنادوا : « لا حكم إلا لله ولو كره المشركون » . ألا إن عليًّا ومعاوية قد أشركا بالله رب العالمين . ولم يسع الإمام — كرَّم الله وجهه — إلا أن يرسل إليهم عبد الله بن عباس فنظر فى أمرهم وكلمهم ، ثم رجع إلى الإمام فسأله : ماذا رأيت ؟ قال ابن عباس : والله ما أدرى ما هم . قال على : أرأيتهم منافقين ؟ قال ابن عباس : والله ما سيماهم بسيما المنافقين لأن بين أعينهم أثر السجود ، ولكنهم يتأولون القرآن .

وعلى أثر هذا الحوار بين الإمام وابن عمه ، أصدر — كرَّم الله وجهه — كلمة تقوم مقام القانون فى الدول المعاصرة : « دعوهم لا تتعرضوا لهم ما لم يسفكوا دما أو يغصبوا مالا » . ثم أرسل إليهم — كرَّم الله وجهه — يقول لهم : ما هذا الذى أحدثتم وماذا تريدون ؟ قالوا: نريد أن نخرج نحن وأنت ومن كان معنا بصفين ثلاث ليال ونتوب إلى الله من أمر الحكمين ، ثم نسير إلى معاوية فنقاتله حتى يحكم الله بيننا وبينه .

وأنت لا ترتاب — أعزك الله بالحق — فى أن الإمام لو استجاب لهذا الرأى فخرج على ما اقترح المتأولون ، لكان انتصاره على معاوية أمرا محتوما لا شك فيه . ولكنه أبى هذا وأنكره وضاق به صدرا بين الإقبال عليه والإعراض عنه . ولو أنه كان من الذين يحسنون المكر ويسلكون سبيل الدهاء لقبل هذا الاقتراح ، ولكنه كان وفيا للحق لا يطلب النصر بأى ثمن ومن أية طريق .. ولكنه يطلبه من الطريق المشروعة التى تسيغها المروءة ويرضاها الإسلام . فذلك هو المنهاج الذى وضعه وألزم نفسه السير فى طريقه والاستنارة بهداه حيث قال فى خطبته : « إن

الوفاء توأم الصدق . لا أعلم جنة أوقى منه ، ولا يغدر من علم كيف المرجع ، ولقد أصبحنا فى زمان اتخذ أكثر أهله الغدر كيسا وعقلا ، ثم نسبهم أهل الجهل فى زمانهم إلى حسن الحيلة . ولقد يرى الذى تحول وتقلب فى الأمور ، وحنكته الخطوب والحوادث وجه الحيلة واضح المعالم ، غير أنه لا ينتهز فرصتها ولا يبادر إلى اغتنامها من له فى الدين حجة تلزمه التقوى وتمنعه الخداع .

ولئن كانت هذه الكلمات الشريفة تستهدف أشرف مكارم الأخلاق ، إنها لتحول فى الوقت نفسه بين القائد وبين الانتصار . ذلك أن الحرب خدعة ، فإذا التقى قائدان لحركتين متناقضتين وأحد القائدين يلتزم قانون الأخلاق والآخر يطلب النصر على أى وجه ومن أية طريق ، إنك لا ترتاب فى أن صاحب القانون الخلقى الرفيع غير قادر على أن يثبت لخصمه الذى لا يبالى قانونا ولا يتقيد بتشريع . وكذلك كان سلوك الإمام — كرّم الله وجهه — وتلك كانت سجيته وشيمته . فقد ملك أهل الشام عليه الماء بصفين وأرادوا قتله وقتل أهل العراق عطشا ، فضاربهم الإمام على مورد الشاربة حتى ملكه . فقال له جنده وشيعته : اقتل خصومك بسيوف العطش وامنعهم الماء تأخذهم قبضا بالأيدى . ولكنه رفض ذلك لأنه تصرف يأباه الإسلام من حيث أن الجميع كانوا يستظلون بالعلم الذى يحمل شعار الإسلام : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وليس يليق بمن ينتصر للإسلام أن يخرج على الإسلام وهو يزعم أنه وليه يتأدب بأدبه ويتحرى مرضاة الله فيه .

ولقد ورث عن الإمام هذا الخلق الشريف أبناؤه من بعده فى أخبار كثيرة ليس إلى حصرها سبيل . فقد كان القوم أصحاب دين وليسوا من الدنيا فى شىء . وإذا طلبوها فإنما يطلبونها ليقيموا عمود الدين بالإمرة فى الدنيا ، فلم يستقم لهم ذلك لأن الدنيا أميل إلى أهلها منها إلى الزاهدين فيها .

ومهما يكن الغدر وسيلة إلى تحقيق الأطماع فقد كان الإمام عليّ يرفضه ، لقول رسول الله ﷺ : (لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة) .

ومن هنا حرص أشد الحرص على أن يتعامل مع الناس فى صراحة ووضوح ، فلا يقابل أهل الغدر بالغدر ، وقد يغضى عن أهل الشر رجاء أن يهديهم الله سواء السبيل . ولو شئت أن تعرف طرفا من فضائله فى وصف بعض أحفاده له ، لكان عليك أن تبحث فى بطون الكتب عن الكلمات الشريفة التى وصفه بها جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين . فذلك حيث يروى الثقات أنه قيل لجعفر الصادق : إن قوما ها هنا ينتقصون عليًّا — كرّم الله وجهه — فقال : بم ينتقصونه لا أبا لهم ؟ وهل فيه موضع نقيصة ؟ والله ما عرض لعليّ أمران كلاهما لله طاعة إلا عمل بأشدهما وأشقهما . ولقد كان يعمل العمل كأنه قائم بين الجنة والنار ينظر إلى ثواب هؤلاء فيعمل له ، وينظر إلى عقاب هؤلاء فيعمل له . وإن كان ليقوم إلى الصلاة فيقول : ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(1) . فإذا تلا تلك الآية — مفتتح الصلاة — تغير لونه حتى يعرف ذلك فى وجهه . ولقد أعتق ألف عبد من كدّ يده كلهم يعرق فيه جبينه وتحفى فيه كفه . ولقد بشرو مبشر بعين نبعت فى ماله فلم يزد على أن قال : بشر الوارث ، بشر الوارث . ثم جعل العين صدقة على الفقراء والمساكين وابن السبيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، رجاء أن يصرف الله النار عن وجهه ويصرف وجهه عن النار .

ولقد روى عنه الثقات كلمته : « لا والله لا يحبنى كافر » ، وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كنا بنور إيماننا نحب عليّ بن أبى طالب ، فمن أحبه عرفنا أنه منا ، وإلا عرفنا أنه ليس منا بسبيل .

* * *

(1) الأنعام ٧٩

أما وقد انتهى بنا القول فى الخوارج إلى هذا الرأى ، فإن من الحق الذى لا نجد عنه محيصاً أن نتوج هذا الحديث بكلمات لعالم أزهرى جليل القدر ، ملم بأكثر العلوم الإسلامية التى تقوم على التحرى لصحة السند وصدق الخبر وشرف الغاية ، فنقول والله تعالى المستعان :

قال العالم العلامة سيد بن على المرصفى فى كتابه رغبة الآمل : الخوارج جمع الخارجة ، وهم الطائفة الذين نزعوا أيديهم عن طاعة ذوى السلطان من أئمة المسلمين بدعوى ضلالتهم وعدم انتصارهم للحق . ولهم فى ذلك مذاهب ابتدعوها وآراء فاسدة اتبعوها . واعلم — رحمك الله — أن أبا العباس المبرد أطلق لسانه فى أخبار الخوارج فأوردها منتثرة النظام دون أن يجعل لكل طائفة حدا تنتهى إليه . فبينا هو يحدث عن طائفة إذا هو يثب فيحدث عن طائفة أخرى فى غير عصرها .

وقد ذكر فى كتابه الكامل « الصُّفرية » ،وهى — بضم الصاد — نسبة إلى صفرة ألوانهم من كثرة صيامهم النهار وقيامهم الليل .

ثم لما عزم هؤلاء الخوارج على أن يبايعوا لواحد منهم يدعى عبد الله بن وهب الراسبى ، وقد آثروه على غيره على الرغم من قوله لهم : يا قوم دعوا الرأى يغب ، وإياكم والرأى الفطير والكلام القضيب ، فإن غبوب الرأى يكشف للمرء عن فضه(١) ، وازدحام الجواب مضلة للصواب .

وقد كان عبد الله بن وهب الراسبى ذا رأى وفهم وشجاعة ولسان ، ولكن الرجل على شدة تمسك القوم به رفض أن يلى أمورهم لأنهم لا يكادون يثبتون على رأى ، مع سوء تأويلهم لكتاب الله وخضوعهم لأهوائهم دون هدف واضح ولا غاية مستبصرة .

---

(١) فض الأمر : أصله ومرجعه .

وإذا أردت أن تدرك مبلغ التناقض وسوء التأويل فى تصرف هؤلاء المساكين ، فإليك ما يرويه الثقات من أصحاب الأخبار :

أقبل ذات يوم عالم سلفى جليل فى رفقة له يطلبون غاية لهم تعينهم على معاشهم ومعادهم ، وفيما هم فى الطريق إلى غايتهم أحسوا الخوارج فخافوهم، ولكن العالم الجليل الذى كان معهم طمأنهم طالبا إليهم أن يدعوا الأمر له دون أن يشاركوا فيه . ومضى الركب حتى إذا بلغوا موقف الخوارج ومركز قيادتهم سألوهم : ما أنتم ؟ فقال الرجل العالم المجرب : نحن مشركون مستجيرون لنسمع كلام الله ونعرف حدوده . فقالوا له : قد أجرناك أنت وأصحابك. فقال لهم الرجل : علمونا . فجعلوا يعلمونه أحكامهم وجعل هو يقول : قد قبلت أنا ومن معى . قالوا : فامضوا إذن فى رعاية الله فإنكم إخواننا.

قال الرجل ليس ذاك لكم إذ كان الله تعالى يقول : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(1) .

وقال الخوارج : ذاك لكم إذن أن نصاحبكم إلى غايتكم . فساروا بأجمعهم معهم حتى بلغوهم المأمن .

فهؤلاء قوم أنجاهم من الخوارج قولهم لهم نحن مشركون . ولو قالوا لهم نحن مسلمون لقتلوهم . وذلك بلا ريب عجيب فى منطق العقل ومنطق الإسلام .

وقد ذكر أهل العلم — فيما يشبه التواتر — أن عليًا — كرّم الله وجهه — كان قد وجه إليهم عبد الله بن عباس ليناظرهم ، فلما بلغ محلهم قال لهم : ما الذى نقمتم على أمير المؤمنين ؟ قالوا : قد كان للمؤمنين أميرا ، فلما حكم فى دين الله خرج من الإيمان ، فإذا اعترف بكفره وتاب إلى ربه ، عدنا له بررة أوفياء.

---

(1) التوبة ٦

قال ابن عباس : لا ينبغى لمؤمن أن يقر على نفسه بالكفر إذا علم من نفسه أن إيمانه بالله لم تخالطه شبهة ولم يمازجه ريب . قالوا له : إنه قد حكم . قال ابن عباس : إن الله قد أمرنا بالتحكيم فى قتل صيد فى الحرم وحال الإحرام ، فذلك قوله سبحانه : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾(١) . فكيف فى إمامة قد أشكلت على المسلمين ؟ فقالوا : لقد حكم علىٌّ فلم يرض بالحكم . فقال ابن عباس : إن الحكومة مثل الإمامة فإذا فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقوالهما . فقال الخوارج بعضهم لبعض : إن هذا من قريش فهو من القوم الذين قال الله فيهم : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾(٢) .

وإذ قد كان الشىء يذكر بالشىء ، فقد جاء فى الحديث أن رجلا أعرابيا أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : إنى أصبت ظبيا وأنا محرم . فالتفت عمر إلى عبد الرحمن بن عوف قائلا له : قل ! فقال عبد الرحمن : يهدى شاة . فقال عمر للأعرابى : أهد شاة . فقال الأعرابى : والله ما درى أمير المؤمنين ما فيها حتى استفتى غيره . فخفقه عمر بالدِّرة وقال : أتقتل فى الحرم وتغمص الفتيا ؟ إن الله عز وجل قال : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾(٣) . فأنا عمر ابن الخطاب وهذا عبد الرحمن بن عوف وقد حكمنا .

ومن طريف أخبار الخوارج قول أحدهم ، وكان من الذين قعدوا عن الخروج إلى الحرب :

أبا خالد فانفر فلست بخالـــد   وما جعل الرحمن عذرا لقاعد
أتزعم أن الخارجــى على الهدى   وأنت مقيم بين لص وجاحــــد

فكتب إليه أبو خالد شعرا يقول فيه ردا على شعره :

لقـــد زاد الحيـــاة إلى حبـــا   بنــــاتى إنهن من الضعـــاف

(١) المائدة ٩٥   (٢) الزخرف ٥٨   (٣) المائدة ٩٥

أحاذر أن يرين الفقر بعدى … وأن يشربن رنقا بعد صاف
وأن يعرين إن كُسِيَ الجوارى … فتنبو العين عن كرم عجاف
ولولا ذاك قد سومت مهرى … وفى الرحمان للضعفاء كاف
أبانا من لنا إن غبت عنا … وصار الحى بعدك فى اختلاف

وليس يخفى عليك — حفظك الله — أن القوم كان يتربص بعضهم ببعض ويختلف بعضهم مع بعض ، فإذا قال أبو خالد أحد القعدة من الخوارج هذا الشعر الذى مر بك آنفا ، فلا يدعه الخوارج يمر فى الناس حتى يعارضوه بشعر مثله . ففى ذلك قال عمران بن حطان يحرض على الخوارج وبذل النفس فى سبيل مبادىء أولئك الملاعين من الخوارج :

لقد زاد الحياة إلى بغضا … وحبا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشى … وأرجو الموت تحت ذرا العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفى … كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإنى … لها والله رب البيت قال

وحق لك علينا أن نلفتك إلى أن أبا بلال الذى يتغنى بحبه الخوارج هو مرداس بن أديه ، وفيه يقول عمران بن حطان يرثيه بعد أن قتل :

يا عين بكى لمرداس ومصرعه … يارب مرداس اجعلنى كمرداس
تركتنى هائما أبكى لمرزأتى … فى منزل موحش من بعد إيناس
أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه … ما الناس بعدك يا مرداس بالناس
أما شربت بكاس دار أولها … على القرون فذاقوا جرعة الكاس
فكل من لم يذقها شارب عجلا … منها بأنفاس ورد بعد أنفاس

هذا وقد كان القوم يطاردون وفى ذورتهم عمران بن حطان ، وكان عمران هذا عالما أديبا شاعرا .. وذات يوم عرف أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان منزل عمران بن حطان فقال لأحد بطانته : اذهب إليه فجئنى به .

فذهب الرجل إليه فقال له : إن أمير المؤمنين قد أحب أن يراك . فقال عمران : لقد أردت أن ألقاه ولكننى لم أستطع ذلك ، فإنى لأحمد الله أننى لم أقابل هذا الرجل عبد الملك بن مروان . ثم أنشد يقول :

لو كنت مستغفرا يوما لطاغية كنت المقدم فى سرى وإعلانى
لكن أبت لى آيات مطهرة عند التلاوة فى طه وعمران

ثم ارتحل الرجل حتى نزل بصديق له من بنى كلاب يدعى « زفرة » ، وكان عمران يطيل الصلاة وكان غلمان من ذوى قرباه يضحكون منه ، فأتاه رجل ذات يوم فسلم عليه ثم قال له : إن كنت خائفا آمناك ، وإن كنت فقيرا جبرناك . فلما أمسى هرب وخلف رقعة يقول فيها :

مازلت تسألنى حولا لأخبركم والناس من بين مخدوع وخداع
فاكفف لسانك عن لومى ومسألتى ماذا تريد إلى شيخ لأوزاع

وعلى فحش مسلك هؤلاء القوم وإزعاجهم الآمنين ، كانوا يسيئون أبلغ الإساءة إلى كتاب الله الكريم فيتناولونه على غير وجهه . ذلك أنهم كانوا يقتلون أطفال المسلمين ، فإذا لامهم على ذلك لائم فزعوا إلى كتاب الله يلتمسون فيه مايصلح فى سوء نظرهم وسفه أحلامهم أن يكون سندا لهم فى تصرفهم الشنيع .

وذات يوم خطب خطيب يشهر بالخوارج ويرميهم بأنهم أعداء الله وأنهم سلكوا مسالك لا تقبلها مروءة ولا يرضاها دين .

وما إن سمع القوم بهذا التشهير ورأوه يجرى على ألسنة الناس حتى قام خطيبهم يقول : إننا حين نفعل ذلك إنما نستند إلى الآية الشريفة التى تقول على لسان نوح عليه السلام : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۞ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾(١).

(١) نوح ٢٦ ، ٢٧

قال الخارجي : فنحن حين نقتل الأولاد نحمى المجتمع من كفرهم وشرهم إذا كبروا ، إذ قد كان الله تعالى قد أخبرنا أن أولاد الكافرين سيكونون كافرين مثل آبائهم .

ولست ترى — حفظك الله — تأويلا للقرآن أسوأ من هذا التأويل الذى لا تنصره لغة ولا يسوغه دين .

ومن أعجب العجب فى حديث هؤلاء الخوارج ما يذكره صاحب الكامل عن مرداس أبى بلال ، فقد كان رجلا تعظمه الخوارج ، فلقيه ذات يوم صاحب خبر وكان له جواسيس يأتونه بأخبار الأمير عبيد الله بن زياد ، فقال صاحب الخبر لأبى بلال : لقد سمعت الأمير البارحة يذكر البلجاء وأحسبها ستؤخذ إلى السجن أو إلى القتل . وقد كانت البلجاء هذه شديدة التعصب للخروج على أمراء المؤمنين وعمالهم ، فذهب أبو بلال إلى البلجاء يحذرها أو يبشرها أو ينصح لها فقال لها : استترى يا بلجاء فإن هذا المسرف على نفسه قد ذكرك ، وإنى أخاف عليك . قالت : إن يأخذنى فهو أشقى بى ، فأما أنا فلست أحب أن يعنت إنسان بسببى . وقد كان ما توقعه أبو بلال فقد وجه إليها عبيد الله بن زياد فأتى إليه بها ، فقطع يديها ورجليها ورمى بها فى السوق ، فعل الحاكم الأحمق الذى يدعو الناس إلى شدة المقت له والخروج عليه حتى يتمنوا أن يزول سلطانه على أى وجه وبأى أسلوب . وقد كان من الذين دعاهم الحقد إلى الخروج على الأمير .. أبو بلال ، إذ مر بها وهى ملقاة فى السوق والناس مجتمعون عليها بين شامت وساخط ، فسأل أبو بلال : ما هذا ؟ فقالوا : تلك هى البلجاء . فعرج إليها فنظر ثم عض على شفته ثم قال : إن هذه لأطيب نفسا عن بقية الدنيا منك يا مرداس . ثم إن عبيد الله بن زياد تتبع الخوارج فحبسهم وحبس مرداسا معهم ، فرأى صاحب السجن شدة اجتهاده وحلاوة منطقة فأثر ذلك فى نفسه تأثيرا شديدا ، فعرض عليه أن يوليه

معروفا ، فقال له : أفرأيت إن تركتك تتصرف ليلا إلى بيتك ، أتعود بعد أن تقضى حاجتك من رؤية أولادك ؟ فأنعم له مرداس وشكر له حسن صنيعه . وكان يفعل ذلك فى كل ليلة يذهب إلى بيته ثم يعود إلى سجنه تحقيقا لما وعد به حارسه . وذات يوم كلم عبيد الله بعض الحمقى من بطانته قائلين له : اقمع النفاق قبل أن ينجم ويستفحل ، فإن كلام هؤلاء الخوارج إلى الناس أسرع إلى القلوب من النار إلى يابس الحطب .

فلما كان ذات يوم قتل رجل من الخوارج رجلا من الشرطة ، فقال ابن زياد : ما أدرى ما أصنع بهؤلاء ؟ وإنى كلما أمرت رجلا من الشرطة بقتل رجل منهم فتكوا بالقاتل . والله لأقتلن من فى حبسى منهم أجمعين . ومضى السجان على عادته مع مرداس فأخرجه إلى منزله كما كان يفعل ، وقد شاع فى الناس أمر الوالى بعزمه على قتل من فى سجنه أجمعين . فلما كان السحر تهيأ مرداس للرجوع إلى الحبس فقال له أهله : اتق الله فى نفسك فإنك إن رجعت قتلت وأهلك فى حاجة إليك . فقال مرداس : لا والله ما كنت لألقى الله غادرا . فرجع إلى السجان فقال له : إنى علمت ما عزم عليه صاحبك . فأجابه السجان : ثم رجعت مع علمك هذا ؟ قال : نعم . وإذا زميل للحارس يجيء فيخبر عن مرداس قائلا : لقد مر مرداس بأعرابى يهنأ بعيرا له ويطليه بالقطران من الجرب ، فتحرك البعير من حرارة القطران حركة المألوم . وعند ذلك سقط مرداس مغشيا عليه فظن الأعرابى أنه قد صرع ، فذهب إليه وقرأ فى أذنه بآيات من القرآن . فلما أفاق قال له الأعرابى : لقد قرأت فى أذنك . فأجابه مرداس : ليس بى ما خفته على من الصرع ، ولكنى رأيت بعيرك هرج من القطران فذكرت به قطران جهنم فأصابنى ما رأيت . فقال له حارسه : أنت والله رجل طيب ولن أفارقك أبدا .

وقد كان مرداس قد شهد موقعة صفين مع الإمام على — كرّم الله وجهه — ولكنه أنكر التحكيم ونجا من كل ما كان يحيط به من أسباب الموت . فلما خرج من حبس ابن زياد ورأى أنه جاد فى طلب الخوارج ، عزم على المعالنة بالخروج قائلا لأصحابه : والله ما يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين . والله إن الصبر على هذا لعظيم، وإن تجريد السيف وإخافة السبيل لعظيم أيضا .. ولكنا ننتبذ عنهم ولا نجرد سيفا ولا نقاتل إلا من قاتلنا . فاجتمع إليه أصحابه زهاء ثلاثين رجلا حالفهم وحالفوه على الموت فى انتصارهم لفكرهم الجائر وتصرفهم الباطل وتنكرهم للإسلام والمسلمين . حتى كانت الطامة التى شقيت الدنيا بها إلى اليوم ولا تزال تشقى بها حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهذه الطامة العظيمة والفجيعة الأثيمة هى قتل الإمام بأيدى أولئك الفجرة الخارجين .

ولعل أول نذير بقتل الإمام كرّم الله وجهه ، تلك الخطبة التى توجه بها إلى الخوارج قائلا فى صرامة الذى لا يخشى إلا ربه : أصابكم حاصب ، ولا بقى منكم آثر يأثر الحديث . أبعد إيمانى بالله وجهادى مع رسول الله ﷺ ، أشهد على نفسى بالكفر كما تطلبون ؟ لقد ضللت إذن وما أنا من المُهْتَدِين . ألا فأوبوا شر مآب .. وارجعوا على أثر الأعقاب .

أما إنكم ستلقون بعدى ذلا شاملا ، وسيفا قاطعا ، وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة .

ففى هذه الكلمات يقول الإمام كرّم الله وجهه لهؤلاء البغضاء إلى الله ورسوله والمؤمنين : ارجعوا شر مرجع . ثم يقول لهم داعيا عليهم : لا بقى منكم مخبر ، ثم يقول لهم أيضا : عودوا على أثر الأعقاب . وقد أخذ الإمام كلمته هذه من قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ ﴾(١) . الآية .

(١) الأنعام ٧١

ولست تحتاج إلى من يذكرك بأن الخوارج هؤلاء قد وقع لهم ما دعى به الإمام عليهم بعده ، الذل الشامل ، والسيف القاطع ، ومازالت حالهم تضمحل حتى أفناهم الله وأفنى جمهورهم بعد أن شمت بهم العدو ، وزهد فى مودتهم الصديق .. وذلك شأن الغلاة فى كل زمان ومكان .

ومن أعجب ما يأثره الثقات من حديث الخوارج ، أنه كان قد انتهى إلى الإمام قولة خطيب يتوجه بها إليه : « يا أمير المؤمنين قد هلك القوم بأجمعهم » . فقال كرّم الله وجهه : « كلا والله إنهم نطف فى أصلاب الرجال وقرارات النساء . كلما نجم منهم قرن قطع حتى يكون آخرهم لصوصا سلابين » .

ومع أن الإمام رضى الله عنه وصف هؤلاء القوم بما يسلكهم مع الشياطين ، إلا أنه كرّم الله وجهه نهى عن قتالهم متجها بالحديث إلى الذين يستمعون القول فيتدبرونه : « لا تقاتلوا الخوارج من بعدى ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه » . وقد كان أمرا سائغا أن يتوقع أهل النظر البعيد شرا للإمام على أيدى الخوارج ، فذهب إليه من يحذره من الخوارج ويذكر له أنهم أهل خيانة وغدر ، وربما يفكرون فى اغتياله ليخلو لهم الطريق إلى ما يريدون من فتك وقطع طريق . فلما بلغ الإمام هذا التحذير قال كلمته واثقا بقدر الله وبأنه لا يرد الحذر القدر ، فذلك حيث قال : « إن على من الله جنة حصينة ، فإذا جاء يومى انفرجت عنى وأسلمتنى ، فحينئذ لا يطيش السهم ولا يبرأ الكلم » .

ثم أنشد شعرا يقول فيه كرّم الله وجهه ورضى الله عنه :

أى يومىَّ من الموت أفر   يوم لا يقدر أم يوم قدر
يوم لا يقدر لا أرهبه   ومن المقدور لا ينجو الحذر

﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾

لقد انفرجت الجنة عن الإمام وأسلمته إلى قاتليه من كلاب النار .

ففى سنة أربعين من الهجرة الشريفة ، وفى يوم جمعة من شهر رمضان قُتل الإمام كرّم الله وجهه .

وتفصيل الخبر فى ذلك أن جماعة من الخوارج اجتمعوا فتذاكروا أمر الناس وعابوا على ولاتهم ما شاء لهم الهوى أن يعيبوا ، ثم ذكروا أسلافهم الذين قتلوا من قبل فى معركة النهروان فترحموا عليهم وهم يقولون : ما نصنع بالبقاء بعدهم ؟ وهم الذين كانوا دعاة الناس إلى عبادة الله لا يخافون فى ذلك لومة لائم . فحبذا لو بعنا أنفسنا لله فأتينا أئمة الضلال فالتمسنا قتلهم ، إذًا لأرحنا منهم البلاد ولأخذنا بثأر إخواننا . فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم على بن أبى طالب . وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان . وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص . ثم تعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذى توجه إليه يقتله أو يموت دونه . فأخذوا أسيافهم فسقوها سما قاتلا وتواعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان أن يثبت كل واحد منهم على صاحبه الذى توجه إليه . وأقبل كل رجل منهم إلى المصر الذى فيه صاحبه .

فأما ابن ملجم المرادى فكان عداده فى كنده ، فخرج فلقى أصحابه بالكوفة وكاتمهم أمره كراهة أن يظهروا شيئا من أمره . ثم لقى ابن ملجم فى ذلك اليوم امرأة تدعى قطام وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهر وقد كانت المرأة فائقة الجمال . فلما رآها ألبست بعقله ونسى حاجته التى جاء لها ، ثم خطبها ليتزوجها فقالت له : لا أتزوجك حتى تشفينى . قال : وما يشفيك ؟

قالت : ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على بن أبى طالب . قال : هو مهر لك . فقال لها: التمس غرته ، فإن أصبت شفيت نفسك ونفسى ويهنؤك العيش ، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها . فأجابها : والله ما جاء بى الخارجى إلى هذا المصر إلا قتل على ، فلك ما سألت . قالت : اطلب لك من يسند ظهرك ويساعدك على أمرك . فبعثت إلى رجل من قومها يقال له وردان فكلمته فأجابها . ثم ذهب ابن ملجم إلى رجل من أشجع يقال له شبيب بن بجرة فقال له : هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : قتل على بن أبى طالب . فقال له الرجل : ثكلتك أمك . لقد جئت شيئاً إدًّا ، كيف تقدر على على ؟ قال : أكمن له فى المسجد ، فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه . فإن نجونا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا ، وإن قُتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها . قال الرجل : ويحك ! لو كان غير على لكان أهون على . لقد عرفت بلاءه فى الإسلام وسابقته مع رسول الله ﷺ ، وما أجدنى أنشرح لقتله . قال : أما تعلم أنه قتل أهل النهر العباد الصالحين ؟ قال : بلى أعلم . قال : فنقتله بمن قتل من إخواننا . فأجابه إلى ما دعاه إليه . ثم جاءوا قطام وهى فى المسجد الأعظم معتكفة ، فقالوا لها : لقد اجتمع رأينا على قتل على . فقالت المرأة :إذا أردتم ذلك فأتونى . ثم عاد إليها ابن ملجم فى ليلة الجمعة التى قُتل فى صبيحتها علىّ سنةَ أربعين فقال : هذه الليلة التى أوعدت فيها صاحبى أن يقتل كل منا صاحبه . فدعت لهم بالحرير فعصبتهم به ، وأخذوا أسيافهم وجلسوا فى مواجهة السدة التى يخرج منها على . فلما خرج ضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه فى عضادة الباب ، وضربه ابن ملجم فى قرنه بالسيف . وهرب وردان حتى دخل منزله فدخل عليه رجل من بنى أبيه وهو ينزع الحرير عن صدره ، فقال:ما هذا الحرير والسيف ؟ فأخبره بما كان وانصرف . فجاء فعلًا به وردان فقتله ، ثم خرج شبيب نحو

أبواب كندة فى الغلس ، وصاح الناس فلحقه رجل من حضرموت يقال له عويمر وفى يد شبيب السيف ، فأخذه وجثم عليه الحضرمى . فلما رأى الناس قد أقبلوا فى طلبه وسيف شبيب فى يده ، خشى على نفسه فتركه ونجا شبيب فى غمار الناس ، فشدوا على ابن ملجم فأخذوه . إلا أن رجلا من همدان يكنى أبا أدماء أخذ سيفه فضرب رجله فصرعه . وتأخر على وتقدم جعدة بن هبيرة فصلى بالناس الغداة : ثم قال كرّم الله وجهه : على بالرجل . فأدخل عليه فقال له : ألم أحسن إليك ؟ قال : بلى أحسنت . قال : فما حملك على هذا ؟ قال : لقد شحذت سيفى أربعين صباحا وسألت الله أن يقتل به شر خلقه . فقال كرّم الله وجهه : لا رآك الله إلا مقتولا به ، ولا أراك إلا من شر خلقه .

ومما يذكر فى هذا المقام أن محمد بن الحنفية قال : كنت أصلى تلك الليلة التى ضرب فيها على فى المسجد الأعظم ، وكان معى كثير من أهل الكوفة يصلون قريبا من السدة ، ما هم إلا قيام وركوع وسجود وما يسأمون من أول الليل إلى آخره . فلما خرج على لصلاة الغداة جعل ينادى : أيها الناس الصلاة . الصلاة . فنظرت إلى بريق وسمعت الكلمة : « الحكم لله يا على لا لك ولا لأصحابك » . ثم رأيت سيفا ، ثم سمعت عليا يقول : لا يفوتنكم الرجل . وشد الناس عليه من كل جانب ، ثم لم أبرح حتى أخذ ابن ملجم وأدخل على علىّ ، فدخلت فيمن دخل من الناس فسمعت عليا يقول : « النفس بالنفس ، إن أنا مت فاقتلوه كما قتلنى ، وإن بقيت رأيت فيه رأيى » .

ثم دخل الناس على الحسن بن على فزعين لما حدث ، فبينما هم عنده وابن ملجم مكتوف بين يديه ، إذ قالت أم كلثوم بنت على وهى تبكى : يا عدو الله إنه لا بأس على أبى ، وإن الله مخزيك . فقال الملعون : فعلى من تبكين ؟ لقد اشتريت السيف بألف ، وسقيته السم بألف ، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل الكوفة ما بقى منهم أحد .

ويذكر أهل الثقة أن جندب بن عبد الله دخل على عليّ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن فقدناك — ولن نفقدك — أفنبايع الحسن ؟ فقال كرّم الله وجهه : « لا آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر » . ثم دعا الإمام حسنا وحسينا فقال لهما : « أوصيكما بتقوى الله ، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تبكيا على شيء زوى عنكما ، وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، وأغيثا الملهوف ، واصنعا للآخرة وكونا للظالم خصما ، وللمظلوم نصرا ، واعملا بما فى الكتاب ، ولا تأخذكما فى الله لومة لائم . ثم نظر إلى ابنه محمد بن الحنفية فقال : هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : نعم . قال على : فإنى أوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك ، فاتبع أمرهما ، ولا تقطع أمرا دونهما . ثم قال للحسن والحسين : أوصيكما به فإنه ابن أبيكما ، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه . ثم قال للحسن : أوصيك أى بنى — بتقوى الله وإقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة عند محلها ، وحسن الوضوء فإنه لا صلاة إلا بطهور ، ولا تقبل صلاة من مانع زكاة . وأوصيك بغفر الذنب ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، وحلم عند الجهل ، والتفقه فى الدين ، والتثبت فى الأمر ، والتعاهد للقرآن ، وحسن الجوار ، واجتناب الفواحش ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر . ثم أوصيك يا حسن وجميع ولدى وأهلى بتقوى الله ربكم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا فإنى سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : « إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام » . انظروا إلى ذوى أرحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب . الله الله فى الأيتام فلا تعنوا أفواههم ، ولا يضيعن بحضرتكم . والله الله فى جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ﷺ . والله الله فى الزكاة فإنها تطفىء غضب الله . والله الله فى ذمة نبيكم فلا يظلمن أظهركم . والله الله فى أصحاب نبيكم فإن رسول الله أوصى بهم .

والله الله فى الفقراء والمساكين فأشركوهم فى معايشكم . والله الله فيما ملكت أيمانكم ، وقولوا للناس حسنا ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب . حفظكم الله من أهل بيت وأستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله ، ثم أنهاكم عن المُثلة . ثم سكت عن الحديث رضى الله عنه فلم ينطق إلا بلا إلٰه إلا الله محمد رسول الله حتى قبض وهو يقول : « يا بنى عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين فتقولون قتل أمير المؤمنين . ألا لا يقتلن إلا قاتلى . انظر يا حسن إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة ، ولا تمثل بالرجل فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إياكم والمثلة ، ولو كانت بالكلب العقور » .

فلما قبض رضى الله عنه بعث الحسن إلى ابن ملجم فقال للحسن : هل لك فى خصلة فيها خير لك ومسرة لقلبك ؟ قال الحسن : نعم . قال ابن ملجم : ألقمنى أذنك . قال الحسن رضى الله عنه : أما هذه فلا . فقال له جلساؤه : لعل فى خبره خيرا فألقمه أذنك . قال الحسن : إنه يريد أن يقضها والخبيث لا أمان له . وقد انتهز ابن ملجم هذه الساعة قال : « والله الذى لا إلٰه إلا هو لو مكننى منها لأخذتها من صماخها . ومضى ابن ملجم يقول فى صوت خفيض يسمعه الحسن دون جلسائه : إنى والله ما أعطيت الله عهدا إلا وفيت به ، ولقد كنت قد أعطيت الله عهدا عند الحطيم أن أقتل عليا ومعاوية أو أموت دونهما ، فإن شئت خليت بينى وبين العهد الذى أعطيته ربى ، ولك عهد الله أن أقتل معاوية . فإن لم أقتله أو قتلته ثم بقيت أن آتيك حتى أضع يدى فى يدك فإما قتلتنى وإما تركتنى لأنى قد ثأرت لك . ولم يسمع الحسن إلا أن يقول له : لا والله حتى تعاين النار . ثم قدمه فقتله ، ثم أخذه الناس فأدرجوه فى الحصير ثم أحرقوه بالنار .

هذا .. وأما البرك الذى كان قد أخذ على عاتقه قتل معاوية فإنه فى تلك الليلة التى ضرب فيها على قعد لمعاوية بالشام ، فلما خرج ليصلى الغداة شد عليه بسيفه فوقع السيف فى إليته . فأخذ إلى معاوية فقال له : إن عندى خبرا يسرك ، فإن أخبرتك فهل ينفعنى ذلك عندك ؟ قال معاوية : نعم . قال البرك : إن أخا لى قتل عليا الليلة . قال معاوية : لعله لم يقدر على ذلك . قال بلى ، إن عليا يخرج ليس معه من يحرسه . فأمر به معاوية فقتل . ثم بعث إلى الساعدى الطبيب فلما نظر إلى معاوية قال : اختر إحدى خصلتين إما أن أحمى حديدة فأضعها موضع السيف ، وإما أن أسقيك شربة فيها دواؤك ولكنها تقطع منك الولد ، فإن ضربتك مسمومة . فقال معاوية — غفر الله له — : أما النار فلا صبر لى عليها ، وأما انقطاع الولد فإن فى يزيد وعبد الله ما تقرّ به عينى . فسقاه الطبيب تلك الشربة فبرأ ولم يولد له بعدها . ثم أمر معاوية بعد ذلك بالمقصورات وحرس الليل وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد .

وأما عمرو بن بكر الذى كان قد أخذ على عاتقه قتل عمرو بن العاص فقد ذهب إلى مصر وراح يرصد عمرو بن العاص فى الليلة المحددة ، غير أن عمرا لم يخرج للصلاة لأنه كان يشتكى بطنه فأناب عنه خارجة بن حذافة صاحب شرطته ، فخرج ليصلى فشد عليه وهو يعتقد أنه عمرو بن العاص فضربه فقتله ، فأخذه الناس فانطلقوا به إلى عمرو يسلمون عليه بالإمرة . فقال الرجل : من هذا الذى تسلمون عليه بالإمرة ؟ فأجابوه بأنه عمرو بن العاص أمير مصر . فقال : فمن قتلت إذن ؟ قالوا : قتلت خارجة بن حذافة صاحب شرطة عمرو . قال : أما والله ما ظننته غيرك يا عمرو بن العاص . فقال عمرو : لقد أردتنى ولكن الله أراد خارجة ، فقدمه عمرو فقتله فبلغ ذلك معاوية فكتب إلى عمرو :

نجوت وقـد بل المرادى سيفـه ... من ابن أبى شيخ الأباطح طالب
ويضربنى بالسيف آخر مثلـه ... فكانت علينا تلك ضربة لازب
وأنت تناغـى كل يوم وليلـة ... بمصرك بيضا كالظبـاء السوارب

وهنا قال ابن أبى ميامى المرادى فى قتل على :

ولم أر مهرا ساقـه ذو سماحـة ... كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثـة آلاف وعبـد وقينـة ... وقتـل على بالحسام المسمـم
فلا مهـر أغلى من على وإن غلا ... ولا قتل إلا دون قتل ابن ملجم

وقال أبو الأسود الدؤلى يرثى عليا :

أفى شهـر الصيـام فجعتمونـا ... بخير النـاس طرا أجمعينـا
قتـلتم خير من ركب المطايـا ... ورحلها ومـن ركب السفينـا
إذا استقبلت وجـه أبى حسين ... رأيت البـدر راع الناظرينـا
لقد علمت قريش حيث كانت ... بأنك خيرها حسبـا ودينـا

عند الشدائد تذهب الأحقاد

لا يزال الناس تحركهم الخصومات فتحبب إليهم الباطل وتبغض إليهم الحق ، فإذا استأثرت رحمة الله بأحد الخصمين خبت نار الخصومة فى صدر صاحبه ، ثم اعترف له بما كان يمتاز به من جلائل الأعمال وحمائد الخصال .

وكذلك كان سلوك أمير المؤمنين معاوية بإزاء على — كرّم الله وجهه — فقد سمع رجلا يقول له : جئتك يا معاوية بعد قتل أبخل الناس على بن أبى طالب . فتغير وجه معاوية ثم قال له : ويحك ! كيف تقول هذا ؟ كيف تقول إنه أبخل الناس وهو الذى لو ملك بيتا من تبر وبيتا من تبن . لأنفد تبره قبل تبنه ؟ ثم هو الذى كان يكنس بيوت الأموال ويصلى فيها ، ثم هو الذى قال : يا صفراء ويا بيضاء غرا غيرى . ثم هو الذى لم يخلف ميراثا وقد كانت الدنيا كلها بيده إلا ما كان من الشام .

ولقد كان الإمام على كرّم الله وجهه على ما وصفه الشعبى فقال : إنه أسخى الناس ، وإنه على الخلق الذى يحبه الله من السماحة والسخاء ، فما قال لسائل قط « لا » . ولقد يذكر الناس أن أهل البصرة حاربوه وضربوا وجوه أولاده بالسيف ثم سبوه ولعنوه ، فلما ظفر بهم رفع السيف عنهم ، ثم نادى مناديه فى أقطار العسكر : لا ، لا تتبعوا موليا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا مستأسرا . ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن تحيز إلى عسكر على فهو آمن . وغير خفى أنه فى هذه الأخلاق الكريمة لم يكن مبتدعا ولكنه كان متبعا سنة رسول الله ﷺ يوم فتح مكة ، فإنه عفا والأحقاد لمّا تبرد والإساءة لما تختف معالمها . ولو أنك تركت ذلك كله إلى سجاحة الأخلاق وبشر الوجه وطلاقة المحيا ، لرأيت أنه المضروب به المثل فى كل ذلك حتى عابه به

أعداؤه ، فقال عمرو بن العاص لأهل الشام : إنه ذو دعابة شديدة . ولقد كان الإمام مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذى لبدتين قد مسه الطوى ، إذ كانت هيبته تلك هيبة التقوى . وقد بقى هذا الخلق الشريف متوارثا متناقلا فى محبيه وأوليائه وآل بيته حتى يوم الناس هذا ، ومن له أدنى معرفة بأخلاق الناس وعوائدهم يعرف ذلك له كما يعرف الصفاء للسماء واللطف للهواء .

وأنت إذا شئت معنى الزهد فى الدنيا فرحت تلتمسه فيه فإنك ستراه سيد الزهاد وبدل الأبدال ، وإليه تشد فى ذلك الرحال ، فإنه ما شبع من طعام قط . وكان أخشن الناس مأكلا وملبسا ، حتى قال فى ذلك عبد الله بن أبى رافع : دخلت على الإمام يوم عيد فقدم جرابا مختوما فوجدنا فيه خبز شعير يابسا مرضوضا ، فتقدم فأكل . فقلت : يا أمير المؤمنين كيف تختمه على هذه الصفة فيه ؟ فقال كرّم الله وجهه : لقد خفت هذين الولدين أن يخلطاه بسمن أو زيت . وكان ثوبه مرقوعا بجلد تارة وبليف أخرى . وأما العبادة فكان أعبد الناس وأكثرهم صلاة وصياما ، ومنه تعلموا صلاة الليل وملازمة الأوراد .

وأحب إلى ألفتك — حفظك الله — إلى أن هذه الكلمات التى سقناها إليك فى هذا الفصل هى من الرواة الثقات من أوليائه وأعدائه على سواء ومما ينبغى أن تلقى بالك إليه أن بعض الذين وصفوه للنيل منه كانوا يقفون عند الظاهر مما يحتمله اللفظ من المعانى ، كما تراهم يقولون : إنه لا رأى له . فاعلم رحمك الله أن أعداءه إنما قالوا ذلك فيه لأنه كان متقيدا بالشريعة لا يرى خلافها ولا يعمل بما يقتضى الدين تحريمه ، على ما قال هو نفسه : لولا الدين والتقى لكنت أدهى العرب . على حين أن غيره من الخلفاء كان يعمل بمقتضى ما يستصلحه . ولست ترتاب فى أن من يعمل بما يؤدى إليه اجتهاده دون قيود إنما تكون أحواله الدنياوية أقرب إلى الانتظام منها إلى الانتشار ، ومن تقيد بالشرع أو بالقانون كانت أحواله الدنياوية أقرب إلى الانتشار منها إلى الانتظام .

أعذب الشعر أرضاه للحق

تلك القضية فى هذا العنوان ليست إلا نسخا لقضية تشابهها . يقول القائل « أعذب الشعر أكذبه » . ذلك أن حلاوة الشعر العربى ماثلة فى سمو خياله وحسن نظمه وشرف غايته . والكذب على قبح سيرته وشؤم مجاله يناقض الجمال أشد مناقضة ، إلا عند أولئك الذين يطيب لهم أن يرتعوا فى مراتع خيال شائه الصورة وخيم الظلال .

ومبلغ علمى بك أسعدك الله أنك تكره الكذب فى مختلف صوره وشتى مساراته ، ذلك أن الكذب يهدى إلى الفجور وأن الفجور يهدى إلى نار الدنيا ونار الآخرة . ولقد يعرف الناس كما تعرف أنت أن من أهل المروءات من يأثر الناس عنه الكلمة التى تقول : لو لم أترك الكذب إرضاء للدين لتركته إرضاء للمروءة . فتأمل هذه المعانى — وأنت تقرأ للشريف الرضى شعرا يرثى فيه واحدا من سواد الناس لا يمتاز بفضيلة ترفع من قدره أو تعلى من ذكره ، فتراه يقول فى رثاء صديقه هذا :

أعلمت من حملوا على الأعواد ... أرأيت كيف خبا ضياء النادى
جبل هوى لو خر فى البحر اغتدى ... من وقعه متتابع الإزباد
ما كنت أدرى قبل حطك فى الثرى ... أن الثرى يعلو على الأطواد

وأنت إذا تأملت ذلك القول على ما ينبغى له بالإضافة إلى المقول فيه ، رأيت أن هذا الشعر غير خليق بمن قيل فيه . ولو قد كان لشعر أن يختار أحق الناس به لكان لهذه الأبيات أن تختار الإمام عليا كرّم الله وجهه دون سواه من الأشراف والأبطال الذين تلدهم الأيام ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد استشهد الإمام بضربة سيف من غادر فاجر ثم دفن ، لعلك تتطلع إلى شعر قيل فيه يتراءى جماله وعذوبته فى الصدق أبعد ما يكون من الكذب، حيث قال شاعر عربى عريق العروبة شديد الولاء للإمام من أهل العراق:

يا قبر سيدنا المجن له ... صلى الإله عليك يا قبر
ما ضر قطراً أنت ساكنه ... ألا يحل بأرضه قطر
فليندين سماح كفك فى الثرى ... وليورقن بجنبك الصخر

ونفترص بك هذه الفرصة لنذكرك بما لا يليق بك أن تغفل عنه وهو أن وحدة الفكر التى تتراءى فى أبناء الأمة العربية الإسلامية ، ليست لها أسباب دعت إليها وحملت عليها إلا أدب الإسلام وثقافته القائمة فى صدور المسلمين على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، ثم على المأثور من تصرف أسلافنا الصالحين . ولذلك يستحسن المسلم أمراً من الأمور أو تصرفاً من التصرفات ، فإذا كل مسلم يشاركه فى هذا الاستحسان مهما اختلفت بالمسلمين بيئاتهم المنزلية والإقليمية . وآية ذلك ماثلة فى العاطفة نفسها هى التى أوحت إلى الشاعر المصرى الذى ينتسب إلى دار العلوم انتساب معرفة وثقافة ، وأعنى به المرحوم الأستاذ محمد عبد المطلب ، فذلك حيث قال :

أعرنى ذات أجنحة لعلى ... بها ألقى على السحب الإماما
إمام بنى الهدى وهو ابن تسع ... وأول مسلم صلى وصاما
أبا السبطين كيف تفى المعانى ... نثاراً فى مديحك أو نظاما
مقامك دونه نُجُبُ القوافى ... وإن كانت مسومة كراما
بنفسى إذ تجود بغير نفس ... تخاف على الحنيفة أن تضاما
ألا تبت يد بالغدر ثارت ... تمد إلى أبى حسن حساما
لو ان السيف كان له خيار ... لعرد عنه وانثلم انثلاما
ولكن القضاء جرى برزء ... به انحلت عرى الصبر انفصاما
إلى دار السلام مضى على ... وجاور فى منازلها السلاما

فهذا شعر تتراءى عذوبته فى الصدق وليس فى الخيال المريض .

وننتهز بك هذه السانحة لنلفتك إلى رواية كذوب تقرر للتافهين من خلق الله أن الإمام — كرّم الله وجهه — وضع فى صندوق وحمل على بعير ثم أرسل البعير يسير حيث يشاء . ووجه الكذب فى هذه الرواية البغيضة يرشد إليه ما رواه ابن أبى الحديد مما نؤثر أن نرويه لك عن كتابه شرح نهج البلاغة ، فذلك حيث قال : إن أولاد الرجل أعرف بقبره . وأولاد كل الناس أعرف بقبور آبائهم من الأجانب . وقد سئل الحسين بن على رضى الله عنهما : أين قبرتم أمير المؤمنين ؟ قال رضى الله عنه : خرجنا به ليلا من منزله بالكوفة حتى مررنا به على مسجد الأشعث ، حتى انتهينا به إلى الظهير بجانب العرى وهناك قبر كرّم الله وجهه .

وهذا القبر هو الذى زاره بنوه لما قدموا إلى العراق وفى طليعتهم جعفر الصادق بن محمد الباقر . وقد مضى على أثر جعفر الصادق فى زيارة القبر الشريف كل أولاد وأحفاد وأولياء الإمام .

على أن من أهل العلم من يذكر أن قبره الذى يزوره الناس اليوم إنما هو قبر المغيرة بن شعبة ، وهو كما ترى كلام لا يوثق به ولا يطمئن إليه ، ولعله أدنى إلى كلام الأعداء الكاشحين منه إلى كلام الأولياء الصالحين . وأيًّا ما كان الأمر فقد مضى الإمام إلى غاية ينتهى إليها بنو آدم بغير فرق بين أمير ومأمور ورئيس ومرءوس ، غير أنه مضى وقد خلف موته على هذه الصورة الأسيفة فتنا كثيرة عصفت بالأمة ، وافترصت فرصتها شياطين الإنس والجن يفسدون على البشرية سلام الدنيا وسلامة الدين .

ولو كان للإمام كرّم الله وجهه وللخلفاء الراشدين من قبله أن يسنوا للأمة تزكية من يخلفهم ويقوم بأمر الأمة من بعدهم ، لقد كان من شأن ذلك أن يلطف نار الفتن التى استعرت فى العالم الإسلامى ينفخ فى نارها الحرص على

الجاه والجشع إلى السلطان . ولكنهم جميعا — رضى الله عنهم — ضاقوا ذرعا بالكسروية والقيصرية فآثروا أن يتركوا الأمر شورى ، كما أراد للأمة الإسلامية رسول الله ﷺ . والله المسئول أن يجمع الكلمة ويلم الشمل ويوحد الصف على خطة فى الحكم تسعد بها دنيا المؤمنين ، ولا يضيق بها صدر الإسلام الحنيف . ولعلك سائل بعد ذلك عن السر الذى دفعنا إلى أن نقول هذه الكلمات ، وهو سر لا يمكن حجبه ولا يليق الضن به لأنه مكشوف معروف ، وهو أن الإمام الحسن بن على لحق بأبيه شهيدا أيضا كما لحق هو وأبوه بالشهداء من قبله .. عمر وعثمان وسائر الذين اختلفوا اختلافا أليما ، يثير المرارة فيه ما يتمثله أحدنا فى كلمة أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه وهو يقول : لقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نأخذ بنصال السهام إذا غشينا مجتمعات الناس خشية أن تصيب النصال بالأذى المسلمين ، غير أننا اليوم يسددها بعضنا فى صدور بعض .

كان أبو سعيد يقول هذه الكلمات وهو لا يملك دمعه من شدة ما كان يتمثل أمر رسول الله حازما صريحا يستبقى للناس الأمن والسكينة والسلام . ولئن كان أبو سعيد الخدرى قد استسلم لأسى عنيف ودمع غزير ، إننا لا نستطيع ذلك لأننا لا نطمع فى أن نسمو إلى الآفاق العليا التى كان يعيش فيها بأرواحهم وذكرياتهم أصحاب رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم .

وإذا كان لا بد من كلمة تمضى بصاحبها فى هذه الطريق الشريفة ، فهى أن نعاهد الله تعالى على الدأب لدعم قواعد العدل ورفع ألوية السلام .

الإمام الحسن فى منصب أبيه

كان أمرا محتوما على الأمة بعد رحيل الإمام إلى الله رب العالمين أن تبايع للحسن بن علىّ بالخلافة ، وقد كان أول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة فقال له : ابسط يدك أبايعك على كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيه ﷺ وقتال المُحلّين . فقال له الحسن — رضى الله عنه — لا يريد القتال ولكنه يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية ، ثم يدخل فى الجماعة . وعرف الحسن أن قيس بن سعد لا يوافقه على رأيه فعزله وأمر عبد الله بن عباس . فلما علم عبد الله بن عباس بالذى يريد الحسن أن يأخذه لنفسه ، كتب إلى معاوية يسأله الأمان ويشترط لنفسه ، فأجابه إلى ذلك معاوية . ثم خرج الحسن بالناس حتى نزل المدائن ، وبعث قيس بن سعد على مقدمته فى اثنى عشر ألفا ، وأقبل معاوية فى أهل الشام حتى نزل مسكن . فبينما الحسن فى المدائن إذ نادى مناد فى العسكر : ألا إن قيس بن سعد قد قتل فانفروا . فنفر الناس ونهبوا سرادق الحسن حتى نازعوه بساطا كان تحته ، وخرج الحسن حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن . فلما رأى الحسن تفرق الأمر عليه بعث إلى معاوية يطلب الصلح ، وبعث معاوية إليه عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة بن جندب فقدما على الحسن بالمدائن فأعطياه ما أراد وصالحاه . ثم قام الحسن فى أهل العراق فقال : يا أهل العراق إنه يسخى نفسى عن الإمارة ثلاث ، قتل أبى وانتهاب سرادق ومنازعتى بساطا كان تحتى . ثم دخل الناس فى طاعة معاوية ، ودخل معاوية الكوفة وقد كتب الحسن إليه فى الصلح وطلب الأمان . ثم قال الحسن للحسين وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب : إنى قد كتبت إلى معاوية فى الصلح . فقال له الحسين : نشدتك الله أن تصدق أحدوثة معاوية وتكذب

أحدوثة على . فقال له الحسن : اسكت فأنا أعلم منك . فلما انتهى كتاب الحسن بن على إلى معاوية . وأرسل معاوية عبد الله بن عامر ـــ كتب الحسن إلى قيس بن سعد وهو على مقدمته فى اثنى عشر ألفا يأمره بالدخول فى طاعة معاوية . فقام قيس بن سعد فى الناس فقال : يا أيها الناس اختاروا إما الدخول فى طاعة إمام ضلالة ، وإما القتال مع غير إمام . فقالوا : بل نختار أن ندخل فى طاعة إمام ضلالة ولا نقاتل مع غير إمام . ثم بايعوا لمعاوية وانصرف عنهم قيس ابن سعد .

فى هذه السنة سنة ٤٠ بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء ، وقد كان علىّ كرّم الله وجهه يدعى بالعراق « أمير المؤمنين » وكان معاوية يدعى بالشام « الأمير » ، فلما قبض على كرّم الله وجهه ودخلت سنة إحدى وأربعين دُعى معاوية أمير المؤمنين ، وسلم الحسن فيها الأمر إلى معاوية فدخل الكوفة وبايعه أهلها بالخلافة ، ثم لم يلبث الحسن رضى الله عنه إلا قليلا حتى طعن طعنة أشوته فنالت منه ولكنها لم تصب مقتله .

كذاك يكون ربيب النبوة

إن أولى الناس برسول الله ﷺ من يحكم نفسه ويسمو بها فوق الأحقاد إيثارا لمكارم الأخلاق . وكذلك كان أمير المؤمنين كرّم الله وجهه ، فما يعرف التاريخ أنه خضع لنزوة أو استسلم لشهوة ، شأن أحرار النفوس الذين نشأهم بيت النبوة فى ظلال وارفة من كرم المروءة وأدب الإسلام . وآية ذلك الذى نقول ما يرويه الثقات من البصراء بأحداث التاريخ أن حجر بن عدى الكندى، خرج فى أصحاب له يظهرون البراءة من أهل الشام وفى طليعتهم معاوية ، فأرسل الإمام كرّم الله وجهه إليهم يقول لهم : كفوا عما بلغنى عنكم . فجاء إليه القوم مع زعيمهم حجْر فقالوا : يا أمير المؤمنين ، ألسنا على الحق ؟ قال بلى . فقالوا : أليسوا هم مبطلين ؟ قال الإمام : بلى هم مبطلون . فسأله القوم : لم منعتنا من شتمهم إذن ؟ قال : كرهت لكم أن تكونوا لعانين شتامين . وخير لكم أن تصفوا مساوىء أعمـــالهم فتذكـــروا من سيرتهم ما يقوم مقام شتمهم ، فذلك أصوب فى القول وأبلغ فى العذر . وحبذا لو استبدلتم بذلك كله دعاء صالحا لهم : « اللهم احقن دماءهم ودماءنا . وأصلح ذات بينهم وبيننا . اللهم وأهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق منهم من جهله ، ويرعوى عن الغى من لهج به . ولم يسع القوم إلا أن يجيبوا الإمام بقولهم : نقبل عظتك ونتأدب بأدبك . ثم يقول له أحدهم فى لهجة الخطيب : والله يا أمير المؤمنين إنى ما أحببتك ولا بايعتك على قرابة بينى وبينك ، ولا على إرادة مال تؤتينيه ، ولا التماس سلطان ترفع ذكرى به . ولكننى أحببتك بخصال خمس : أنك ابن عم رسول الله ﷺ وآله ، وأنك أبو الذرية التى بقيت فينا من رسول الله ، وأنك أسبق الناس إلى الإسلام ، وأعظم

المهاجرين سهما فى الجهاد . ولو أننى كلفت نقل الجبال الرواسى أو نزح البحور الطوامى فى أمر أقوّى به وليك وأهين عدوك .. ما رأيت أنى قد أديت كل الذى يحق على من حقك . فقال كرّم الله وجهه باسطا يديه إلى السماء : اللهم نور قلبه بالتقوى واهده إلى صراطك المستقيم . ثم التفت إلى القوم يقول لهم : ليت أن فى جندنا مئة مثل هذا . فقال حجر بن عدى : لو كان ذلك لصح جندك وقل فيهم من يغشك . ثم وقف حجر وجعل يقول : يا أمير المؤمنين نحن بنو الحرب وأهلها الذين نلقحها ونتنجها ، وقد ضارستنا وضارسناها ، ولنا أعوان وعشيرة ذات عدد ، ورأى مجرب وبأس محمود ، وأزمتنا منقادة لك بالسمع والطاعة . فإن شرقت شرقنا وأن غربت غربنا ، وما تأمرنا به فعلنا . فقال له كرّم الله وجهه : أكل قومك يرى مثل رأيك ؟ قال الرجل : ما رأيت منهم إلا حسنا ، وهذه يدى عنهم بالسمع والطاعة وحسن الإجابة .

وإذا كان لكل موقف عبرة ، فإن عبرة هذا الموقف أن الذين نهى الإمام عن سبهم أطلقوا ألسنتهم فى سبه حتى كانوا يسبونه على منابر الجمعة . ومن العجيب فى هذا أنه أباح لأوليائه أن يسبوه على قدر ما حذرهم أن يتبرءوا منه . فذلك قوله كرّم الله وجهه : « أما إنه سيظهر عليكم بعدى رجل سيأمركم بسبى والبراءة منى . أما السب فسبونى فإنه لى زكاة ولكم نجاة ، وأما البراءة فلا تتبرءوا منى فإنى ولدت على الفطرة ، وسبقت إلى الإيمان والهجرة » . وأحسب أن مما تتم به الفائدة فى هذا الموقف الأليم أن أقف بك عدة وقفات حول وصية أمير المؤمنين أولياءه بهذه الكلمات .

وأولى هذه الوقفات أن ما توقعه كرّم الله وجهه قد وقع على أسوأ صورة وفى أوقح أسلوب . ولعلك سائل عن السر فى قدرة الإمام على استجلاء الغيب حتى وقع ما كان قد وقع . وجواب سؤالك هذا أنه كرّم الله وجهه كان

محدثا . والمحدث — على مثال محمد — هو الذى يلقى فى نفسه الشيء فيخبر به على سبيل الفراسة . وذلك نوع يخص الله به من يشاء من عباده الذين اصطفاهم مثل عمر رضى الله عنه ، وقد جاء الحديث الشريف بهذا المعنى فقال صلوات الله عليه : (قد كان فى الأمم محدثون وفى أمتى منهم عمر بن الخطاب) . ولست تستبعد — هداك الله للصواب — أن يكون الإمام كرّم الله وجهه من الذين اصطفاهم الله فألهمهم ما يكون على ما يكون ، وإما أن يكون رضى الله عنه قد قاس الأشباه والنظائر بعضها إلى بعض ، فهدته فطرته السوية وفراسته النقية إلى ما سيكون من أمره بين الذين غلبوه على الخلافة واستأثروا دونه بإمارة المؤمنين .

وثانية الوقفات : أن بنى أمية سامحهم الله كانوا يأمرون الناس بسب على والبراءة منه ، حتى لقد ذكروا أن خالدا القسرى أحد ولاتهم على العراق فى خلافة هشام بن عبد الملك كان يلعن عليا على المنبر فيقول : اللهم العن على بن أبى طالب بن عبد المطلب صهر رسول الله ﷺ وآله . وما زال الأمر على ذلك حتى إذا ولى الإمرة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أمر بترك ذلك ، ووضع مكانه الآية الشريفة :

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(١) .

ومما يأثره الثقات عن عمر بن عبد العزيز فى هذا الموطن أنه قال : كنت غلاما أقرأ القرآن على بعض ولد عتبة بن مسعود ، فمر بى يوما وأنا ألعب مع الصبيان ونلعن عليا عليه السلام . فلما دخل المسجد تركت الصبيان وجئت إليه لأدرس عليه وردى . فلما رآنى قام فصلى وأطال فى الصلاة كالمعرض

(١) النحل ٩٠

عنى . فلما انفتل من صلاته كلح فى وجهى ، فقلت له : ما بال الشيخ ؟ فقال لى : أنت اللّاعن عليا منذ اليوم ؟ قلت : نعم . قال : فمتى علمت أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضى عنهم ؟ فقلت : وهل كان على من أهل بدر ؟ فأجابنى : ويحك ! وهل كانت بدر كلها إلّا له ؟ فقلت : لن أعود . فقال : آ الله أنك لن تعود ؟ قلت : نعم . فأمسكت لسانى بعد . ثم كنت أحضر تحت منبر المدينة وأبى يخطب يوم الجمعة وهو حينئذ أمير المدينة ، فكنت أسمع أبى يمر فى خطبته تهدر شقاشقه[1] ، حتى يأتى إلى لعن على عليه السلام فيجمجم وقد عرض له من الفهاهة والحصر ما الله به عليم . وكنت أعجب من ذلك حتى قلت له يوما : أنت أفصح الناس يا أبى ، فما بالى أراك أفصح خطيب يوم حفلك ، حتى إذا مررت بلعن هذا الرجل صرت عييا ألكن ، فقال : يا بنى ، إن الذين تراهم تحت منبرنا من أهل الشام وغيرهم لو علموا من فضائل هذا الرجل ما يعلمه أبوك ، لم يتبعنا منهم أحد . فوقرت كلمته فى صدرى — مع ما كان قاله لى معلمى — فأعطيت الله عهدا لئن كان لى فى هذا الأمر نصيب — لأغيرنه . فلما من الله بالخلافة أسقطت ذلك وجعلت مكانه الآية من سورة النحل .

وفى فضل عمر بن العزيز قال كثير يمدح عمر ، ويذكر قطعه النسب عن على — كرّم الله وجهه — :

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف	بريئا ولم تقبــــل إساءة مجرم
وكفرت بالعفو الذنوب مع الذى	أتيت فأضحى راضيا كل مسلم
ومازلت تواقا إلى كل غايــة	بلغت بها أعلى العلاء المقدم
فلما أتاك الأمر عفوا ولم يكن	لطالب دنيا بعـده من تكلـم
تركت الذى يفنى لأن كان بائدا	وآثرت ما يبقى برأى مصمـم

(١) الشقشقة : تتابع الكلمات فى فم الخطيب إذا بلغ غاية الحماسة .

والوقفة الثالثة حول الفرق بين سبه وبين البراءة منه — كرّم الله وجهه — ، وجملة القول فى ذلك أن فى سب الشريف انتشار صيت وعلو ذكر ، وفى ذلك ما يشير إلى الزكاة من حيث كان بعد الصيت كناء الرزق كلاهما فيه معنى السعة والازدياد . وربما كان السب عصمة للدم فى عهود الظلمة ، وقد رخص القرآن الكريم للمسلم أن يقول كلمة الكفر إذا أكره عليها .

وبهذا يتضح الفرق بين السب الذى أباحه الإمام لأوليائه حرصا عليهم ونأيا بهم عن مواطن الشدائد والمشقات ، على حين أنه كرّم الله وجهه حذر من البراءة منه . إذ كانت البراءة قد وردت فى القرآن الكريم مقترنة بالمشركين على ما يقوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(١) . وعلى ما يقول أيضا : ﴿ إِنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾(٢) . فقد صارت البراءةُ بحسب العرف الشرعي مطلقة على المشركين خاصة ، فوجب أن يحمل النهى عن التبرى منه على التحريم .. وذلك السبب غير موجود فى سبه رضى الله عنه وأرضاه .

ورابعة الوقفات : حول الرجل التقى حجر بن عدى الكندى ، فقد طلب إليه أحد ولاة الدولة الأموية أن يسب عليا ولكنه أبى مؤثرا غضب الحاكم على النيل من أمير المؤمنين على . وما كان لحجر بن عدى فى قوة خلقه وشرف مروءته إلا أن يقف مع الشدة التى كانت سببا فى الانتقام منه شر انتقام . ذلك أنه كان قد وقف إلى جانب الإمام على حبيبا إليه ، مدافعا عنه ، محرضا على أعدائه ، فلما مات كرّم الله وجهه وأفضت إمارة المؤمنين إلى معاوية — رحمه الله — ، دعا به مع أصحابه ثم أمر بقتلهم بعد أن تنشر بين أيديهم أكفانهم وتحفر لهم قبورهم .. فلما قدم حجر إلى السيف جزع جزعا شديدا ، فقيل

(١) التوبة ١ (٢) التوبة ٢

له : أمثلك يجزع من الموت ؟ .. فقال : وكيف لا أجزع وأمام عيني سيف مشهور ، وكفن منشور ، وقبر محفور ؟ ثم قتل رضي الله عنه وأرضاه . ولعل أمير المؤمنين معاوية — رحمه الله — قد طارده شبح حجر الكندي في يقظته ومنامه ، فكان لا يفتأ يقول : يا حجر بن عدي إن يومي بك عند الله لطويل . ولسنا نملك إزاء هذه الفتن الهوجاء إلا أن نفوض إلى الله الأمر ، داعين أنفسنا ومن يأخذ عنا إلى التصديق بالحديث الشريف .. (إن للمجتهد المخطئ أجرا ، وللمجتهد المصيب أجران) .

وعلم السرائر عند الله وحده علّام الغيوب ..

الخلافة بعد رسول الله ثلاثون

أخرج أبو داود والترمذى عن سفينة مولى رسول الله — ﷺ — أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة ، ثم ملك بعد ذلك) وقد أخبرنا من خبره عندنا كالعيان(١) أنه عنى بتحقيق هذا الحديث عناية استغرقت أمدا طويلا ، وأنه حسب مدة أبى بكر ومدة عمر ومدة عثمان ومدة على ثم أضاف إليهم الحسن بن على ، فإذا جملة السنين ثلاثون سنة . وليس يرتاب أهل الإنصاف فى أن هذا الحديث ينبغى أن يسلك فى عداد معجزات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد يكون من الحق لمن يقرأ لنا أن يطمح إلى معرفة الفرق بين الخلافة والملك .. وجملة القول فى ذلك الفرق أن الخلافة تتغيا الرحمة وأن الملك يرى الرحمة خورا لا ينبغى اللجوء إليه لما فيه من انتشار الأمر وانتثار النظام . وقد تكون القسوة أقل ضحايا وأخف أعباء من التسامح الذى يغرى بالخروج على النظام أهل الفساد .

وغير خفى على المتأمل أن الأخذ بحساب العربى الصديق ، يفضى إلى اعتبار أمير المؤمنين معاوية رجل ملك وليس رجل خلافة .

وعلى أننا نحرص أشد الحرص على توقير أصحاب رسول الله ، نرى من الحق علينا أن نقرر أن أمير المؤمنين معاوية قد أخطأ الطريق فى قتله حجر بن عدى وأصحابه على الصورة التى قتلوا عليها ، بين أسياف مشهورة ، وأكفان منشورة ، وقبور محفورة .

---

(١) هو الأستاذ دكتور محمد عبده يمانى وزير الإعلام السابق فى المملكة العربية السعودية .

على أننا لا نكره أن يجيء إلينا من يستطيع تزييف هذه الواقعة ونسبتها إلى الاختلاق ، استرضاء للغلو فى بغض معاوية رحمه الله ، أو استرضاء للغلو فى حب على كرّم الله وجهه ورضى عنه .. وليس ذلك على كتاب التاريخ ببعيد .

وما أصدق ما قاله الأستاذ الأمريكى لوثروب ستودارد : « إن معظم التاريخ فروض ، وبقيته استنتاج من هذه الفروض » .

وقد يستند المؤرخون إلى حجة تنهض دليلا على أن معاوية ملك وليس خليفة .. وتلك الحجة هى أن معاوية عقد البيعة لابنه يزيد ثم حمل الناس عليها رغبا أو رهبا . والبيعة على هذه الصورة خصيصة الملك وما هى من الخلافة بمكان قريب أو بعيد . ونحب أن نذكر الغيارى على الحق بأن معاوية — غفر الله له — لم يكن يملك إلا أن يفعل ما فعل ، إما نظرا لولده الذى هو امتداد لحياته ، وإما خشية من بنى أبيه ومن الطامعين فى عطائه وهم الذين وقفوا معه وبذلوا غوالى دمائهم من أجله .. ويؤنسك بهذا الذى نقول أن العصبية القبلية ذات سلطان لا يستطيع أقدر الناس أن يتفلت منه أو يتنكر له . فلو أنه لم يبايع ليزيد وبايع للحسن بن على — على شرفه وفضله فى نفسه وفى آبائه — لفتكت بمعاوية العصبية القبلية التى لا يعيبها النفوذ والسلطان .

وليس لك أن تستبعد هذا الفرض ، فإن فى التاريخ ما يؤكد لك هذا الذى نقول ، وذلك أن المأمون بن هارون الرشيد كان قد بايع بولاية العهد من بعده عليا الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر ، ثم طرح لبس السواد ولبس الخضرة هو وجنده . فلما جاء الخبر بذلك أهل بغداد راودوا منصور بن المهدى على الخلافة فأبى ، فراودوه على أن يكون نائبا للمأمون فأجابهم إلى ذلك ، ثم قتلوا عليا بن موسى الكاظم . وقد استعرت نار الفتنة فى بغداد فلم يهنأ للمأمون عيش ، ولم يظفر الرضا الكاظمى بحياة ، ولم تستقر فى جوانب الدولة العباسية حياة آمنة على نفس أو عرض أو مال .

على أن يزيد بن معاوية سلك سبيلا تؤهله إلى منصبه الذي أراده له أبوه ، ذلك أن معاوية أحب أن يقدم يزيد على جيش الصيف لغزو بلاد الروم . فدعا بابن عباس قائلا له : إن أحببت خرجت مع ابن أخيك يزيد يأنس بك ويستشيرك ، فيشير عليك ويكفيك أن يدخل الناس بينك وبينه فيشغلوا كل واحد منكما عن صاحبه . ثم لعلك تقل من ذكر حقك فى الخلافة فإذا الخير بين يديك كثير ، وكل آت قريب .

ولم يسع يزيد إلا أن يصدع بأمر أبيه فخرج على جيش الصائفة ومعه ابن عباس — رحمه الله — . فلما خرج يزيد على رأس الجيش كان فيه صاحب رسول الله أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، وكان الرجل قد مرض مرضا ظن معه أنه لاحق بالرفيق الأعلى .. فلما جاءه يزيد يعوده فى مرضه سأله عن حاجته التى تقر عينه وترضى نفسه ، وربما أعانته على احتمال أعباء المرض الذى كان يعانيه . وما أن سمع أبو أيوب سؤال يزيد حتى قال له : « أما دنياكم فلا حاجة لى فيها ، ولكنى أحب أن تقدمنى فى بلاد الروم ما استطعت ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يدفن عند سور القسطنطينية رجل صالح) وإنى لأرجو أن أكون ذلك الرجل . ولم ير يزيد مندوحة عن تنفيذ وصية أبى أيوب .. فلما مات أمر يزيد بتكفينه ثم حمل على سريره والكتائب تحيط به عن يمين وشمال ، وكان القيصر فى منظرته يرى فأرسل إلى يزيد يقول له : ما هذا الذى أرى ؟ .. فأجابه يزيد : هذا صاحب نبينا ﷺ ، وقد طلب إلينا أن ندفنه فى هذه البلاد ولا مندوحة لنا عن تنفيذ وصيته . فأرسل إليه القيصر يقول : العجب كل العجب من نسبة الناس أباك إلى الدهاء ، وهو يرسلك فتعمد إلى صاحب نبيك فتدفنه فى بلادنا ، فإذا خرجت عنها أخرجنا صاحبكم إلى الكلاب . فبعث إليه يزيد : إنى والله ما أردت أن أودع صاحبى بلادكم حتى أودع كلامى آذانكم .. والله لئن بلغنى أنكم نبشتم قبره لأقتلن

كل نصرانى بأرض العرب ، ثم لأهدمن كل كنيسة ينالها سلطان المسلمين .. ولم يسع القيصر إلا أن يبعث إليه برسالة يقول فيها :

« وحق المسيح ، لأحفظنه بيدى . ولقد كان أبوك أعلم الناس بك » .

وننتهز بك هذه السانحة لنؤكد لك أن الغض من قدر معاوية فى هذا التصرف مع يزيد ليس له وجه مقبول . بل ربما كان لمعاوية — رحمه الله — سند فى تصرفه يستمد قوته من الحرص الشديد على مصلحة الأمة ، من حيث كانت مبايعة يزيد بالملك أمرا قاطعا للشغب ، أخذا للطريق على البلبلة وإثارة الفتن ، وبخاصة أن الراية التى كان المسلمون يلتفون حولها قد نكست وزال وجودها بموت أمير المؤمنين على ، الذى كانت تلتف من حوله القلوب وتنشرح لأمره الصدور ، والذى كان يحبه أولياؤه أقوى محبة ويهابه أعداؤه أعظم هيبة . ومع ذلك فقد مضى القوم إلى الله وهم فى رحابه محوطون بالحصانة التى تفرض علينا صيانة حرماتهم ، والامتناع من التعرض لهم بسوء نزولا على ما أمر به رسول الله فى حديثه الشريف : (لا تسبوا الأموات فإنهم أفضوا إلى ما قدموا) . فإن كانوا قد أفضوا إلى رضوان الله فسبهم عناد لأمر الله ، وإن كانوا قد أفضوا إلى سخط الله فسبهم لا يساوى شيئا إلى جانب سخط الله ، فذلك هو أدب رسول الله الذى لا خير فى تجهمه والتنكر له ، مهما كانت العواطف من الحب والبغض مستولية على النفوس .. والله ولى التوفيق .

﴿ خلق الإنسان علّمه البيان ﴾

ما أكثر ما يجد الإنسان نفسه مستأسرا لكلام يسمعه من خطيب أو يقرؤه لكاتب. فإن أنت سألته عن سر استشساره لما يسمع أو يقرأ لم يجبك بأكثر من أنه يذوق بيانا لا سبيل له إلى التعبير عنه . وربما أجابك بأن هذا البيان الذى استأسر له تحول فى نفسه من الإعجاب به إلى التعجب منه . ومن هذا القبيل الخطب والوصايا والمواعظ التى جمعها الشريف الرضى لأمير المؤمنين — كرّم الله وجهه — . وإليك هذه الكلمات التى وصف بها الإمام رسول الله ﷺ حيث يقول : « مستقره خير مستقر ، ومنبته أشرف منبت فى معادن الكرامة ومعاهد السلامة. قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار ، وثنيت إليه أزمة الأبصار . دفن الله به الضغائن ، وأطفأ به الثوائر ، وألف به إخوانا ، وفرق به أقرانا ، وأعز به الذلة ، وأذل به العزة . كلامه بيان ، وصمته لسان ، صلى الله عليه وآله وسلم » .

ثم إليك كلمات الإمام فى أهل البيت حيث قال : أيها الناس انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم ، واتبعوا أثرهم ، فلن يخرجوكم من هدى ، ولن يعيدوكم فى ردى . فإن لبدوا فالبدوا ، وإن نهضوا فانهضوا ، ولا تسبقوهم فتضلوا ، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا . لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله وعليه وآله فما أرى أحدا يشبههم منكم . لقد كانوا يصبحون شعثا غبرا ، وقد باتوا سجدا وقياما يراوحون بين جباههم وخدودهم ، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم . إذا ذكر الله تعالى هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم ، ثم مادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف ، خوفا من العقاب ورجاء للثواب .

فهذا بيان شريف تجد فى نفسك من الإعجاب به والأريحية له ما لا تستطيع أن تعبر عنه إلا بمثل بيان أمير المؤمنين ، وهيهات .

وليس يغيب عن فطنتك أن هذه الكلمات صورة صادقة لأمير المؤمنين كرّم الله وجهه .

وباستصحاب هذه المعانى لا يسعك إلا أن تراه بين إمرتين كلتاهما تطمح إلى الاستئثار به ، وهما إمرته أهل البيان ، وإمرته أهل السلطان .

ولئن كنا قد أعطيناك صورة لبيانه فى قدرته الفائقة على الوصف ، إن من الحق أن نعطيك صورة لبيانه فى قدرته على العظة والإرشاد ، فذلك حيث قال كرّم الله وجهه يوصى أصحابه :

أيها الناس ، تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها ، واستكثروا منها ، وتقربوا إلى الله بها فإنها كانت على المؤمنين كتابا موقوتا . ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سئلوا ﴿ ما سَلَكَكُمْ فِى سَقَرٍ ٥ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾(١) .

ألا وإن الصلاة لتحتّ الذنوب حتَّ الورق ، وتطلقها إطلاق الرِّبَق(٢) . وقد شبهها رسول الله ﷺ بالنهر يكون على باب الرجل فهو يغتسل منه فى اليوم والليلة خمس مرات ، فما عسى أن يبقى عليه من الدرن . وقد عرف حقها رجال من المؤمنين الذين لا تشغلهم عنها زينة متاع ، ولا قرة عين من ولد ولا مال .

وكان رسول الله ﷺ نصباً بالصلاة بعد التبشير له بالجنة ، لقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً

---

(١) المدثر ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) الربق : جمع ربقة على مثال حكم جمعا لحكمة . والربقة هى حبل تشد به البهيمة أو يوضع فى عنق الأسير .

نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾(١) . فكان صلوات الله عليه يأمر بها أهله ويصبر عليها نفسه .

ثم إن الزكاة جعلت مع الصلاة قربانا لأهل الإسلام ، فمن أعطاها طيب النفس بها فإنها تجعل له كفارة ومن النار حجازا ووقاية ، فلا يتبعنها أحد نفسه ، ولا يكثرن عليها لهفة ، فإن من أعطاها غير طيب النفس بها فهو جاهل بالسنة ، مغبون الأجر ، خال العمل ، طويل الندم . ثم عليكم بأداء الأمانة فقد خاب من ليس من أهلها .

إنها عرضت على السماوات المبنية ، والأراضين المدحوة ، والجبال ذات الطول المنصوبة ، فلا أطول ولا أعرض ، ولا أعلى ولا أعظم منها . ولو امتنع شيء بطول أو بعرض أو عز أو قوة لامتنعن ، ولكن أشفقن من العقوبة وعقلن ما جهل من هو أضعف منهن وهو الإنسان ، على ما يقول تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾(٢) .

فهذه الكلمات من أمير المؤمنين عليّ ، آية على أن له حظًا من خشية الله ومن الفقه بالقرآن ، لا يشاركه فيه أحد من أصحاب رسول الله .

ولا يغيبن عنك — حفظك الله — أن الصلاة قد جاء فضلها الكثير الذى يعجزنا حصره . ولو لم يكن إلا ما ورد فى الكتاب العزيز من تكرار ذكرها وتأكيد الأمر بها والمحافظة عليها ، لكان بعضه كافيا . وقد قال رسول الله صلوات الله عليه : (علَم الإيمان الصلاة ، فمن فرغ لها قلبه وقام بحدودها فهو المؤمن) . وقالت أم المؤمنين أم سلمة : كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه ، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولن نعرفه » . وقد سئل

---

(١) طه ١٣٢ (٢) الأحزاب ٧٢

الحسن البصري — رحمه الله — : ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوها ؟ قال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره .

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ ، أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

وقال الإمام — كرّم الله وجهه — : « لا يزال الشيطان مذعورا من المؤمن ما حافظ على الصلوات ، فإن ضيعهن تجرأ عليه وأوقعه فى العظائم » .

وليس يخفى عليك ما أشار به الإمام إلى اقتران الصلاة بالزكاة ، من حيث كانت الصلاة مظهرا من مظاهر العبودية لله وحده لا شريك له ، ومن حيث كانت الزكاة مظهرا من مظاهر التواد والتراحم بين المسلمين . ولقد صدر أسلافنا عن ذلك التوجيه الكريم بما لا يشاركهم فيه أحد . من الحرص على مرضاة الله رب العالمين فى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

والقدوة التى لا تعدلها قدوة فى هذا المعنى الشريف ، هو رسول الله ﷺ .. إذ أمر بعض نسائه أن تقسم شاة على الفقراء . فقالت : يا رسول الله لم يبق منها غير عنقها . فقال لها : (كلها بقى غير عنقها) .

وقد كان الرجل من السلف الصالح يضع الصدقة ثم ينتصب قائما بين يدى السائل الفقير ويسأله أن يتقبلها ، حتى يصير هو فى صورة السائل ويصبح السائل فى صورة المتصدق .

ولا يرتاب ذو عقل ودين فى أن هذه الصورة الشريفة للإمام فى كلامه وسكوته وعبادته وزهادته ، لم تكن لتجتمع فى صدره الشريف مع المكر والغدر . ولذلك صرح هو بهذه النتيجة فقال : والله الذى لا إله إلا هو لولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس . ولكن كل غدرة فجرة ، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة .

ومبلغ علمى بك — رحمك الله — أنك لا تجهل النبع الشريف الذى استقى منه الإمام كل ما يعرفه له الناس من فضل فى شئون الدنيا وشئون

الدين : وذلك النبع الشريف هو محمد رسول الله الذى كان قدوة لأمير المؤمنين حتى كانت سيرته أشبه بسيرته فى سائر أحواله ، على ما يذكر ذلك المعتدلون فى حبه أبعد ما يكونون عن الإفراط الذى يلحقهم بالغلاة وعن التفريط الذى يلحقهم بالخوارج .

ولعل أقرب صورة يتجلى فيها وجه الشبه بين الإمام وبين رسول الله ﷺ ، هى أنه كان يتقيد بالنص الشرعى إلا إذا دعت مصلحة للأمة إلى الاجتهاد وإعمال الرأى . وكذلك كان رسول الله ﷺ فإنه كان يعمل بالنص والتوقيف من طريق الوحى . وقد أذن الله تعالى لرسوله ﷺ أن يحكم فى الشرعيات وغيرها بما يؤديه إليه اجتهاده ويحمله عليه رأيه فى ابتغاء الخير للأمة ، على ما تشير إلى ذلك الآية الشريفة : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾(١) . ففى هذه الآية بيان من الله تعالى بأن لرسوله ﷺ أن يحكم بما يراه من المصلحة دون أن ينتظر الوحى . فإذ قد كان رسول الله ﷺ قد اجتهد وأعمل رأيه ، فإن عليا اقتدى برسول الله فاجتهد وأعمل رأيه ، مع ملاحظة أن الفرق بين الاجتهادين هو الفرق بين المنزلتين . فإذا اجتهد رسول الله ثم أخطأ ، فإن الله تعالى لا يقره على هذا الخطأ . وهذا القدر من عناية الله تعالى بنبيه غير ثابت لعلىّ ، فإنه قد يخطئ فيتحمل نتيجة خطئه .

فقد يطلب حريص على المعرفة ثمرة تترتب على هذا الفرق بين الاجتهادين ، إذ لا يخفى أن لكل خلاف ثمرة ومجالا تظهر فيه هذه الثمرة . وثمرة الخلاف فى هذا الموطن أن الإنسان غير المعصوم قد يعمل برأيه وبما يرى فيه صلاح ملكه وتمهيد أمره وتوطيد قاعدته ، لا يبالى وافق الشريعة أم لم يوافقها . فأما الذى ثبتت له العصمة وهو محمد رسول الله وحده ، فإن الله تعالى لا يتخلى عنه ولكنه يتداركه

---

(١) النساء ١٠٥

دائما بمزيد لطفه وجميل عنايته ، فإن أصاب أقره مقدورا ، وإن أخطأ صوب له الخطأ وربما عاتبه عتابا يليق بمنزلته ، على ما يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾(١) .

وإذ كان الحديث يدعو إلى الحديث فإن الحديث عن الإمام كرّم الله وجهه لا يكاد يقف عند غاية، إذ كانت فضائله ومناقبه كالنهر يمد أوله آخره ويستدر آخره أوله، فلا يكاد يجد المرء موقفا يلوذ عنده بالصمت حتى يستريح ويريح . وكذلك يكون من الحق علينا أن ندون هنا في هذا الحديث عن الإمام ما يذكره ثقات العلماء من أن هناك شبها شديدا بين سيرة رسول الله ﷺ وبين سيرة الإمام كرّم الله وجهه .

فمن ذلك أن رسول الله ﷺ كان ضائق الصدر بالمنافقين وسوء سلوكهم وخبث طواياهم . كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في كثير من آياته بل في بعض السور كاملة كسورة براءة وسورة المنافقين ، وكذلك كان الإمام ضائق الصدر كثير الشكوى من منافقي أصحابه ، وكان كثيرا ما يعلن ألمه من إيذائهم له والتوائهم عليه .

هذا ما يتعلق بأمر الشريعة .. وجملة القول في ذلك أن الإمام كرّم الله وجهه تابع لرسول الله وآخذ عنه ومقتد به ، فهو واحد من المسلمين ينطبق عليه ما ينطبق على كل واحد منهم ، إلا ما يتصل بأمور الشريعة حيث القدرة على الاجتهاد ، وإلا ما يتصل بأمر العصمة فإنها شرف لرسول الله ﷺ وحده .

وأما ما يتعلق بشئون التعامل مع الناس فإن الثقات من أهل العلم يقررون أن الرجلين محمدا وعليا تتشابه أحوالهما في أكثر الأمور ، لأن حرب رسول الله ﷺ مع المشركين كانت سجالا . انتصر هو يوم بدر وانتصر المشركون عليه يوم أحد . وكان يوم الخندق كفافا خرج هو وهم سواء لا عليه ولا له ، فإنهم قتلوا رئيس الأوس سعد بن معاذ وقتل منهم فارس قريش عمرو بن عبد

(١) التوبة ٤٣

ود ، وانصرفوا بغير حرب . ثم حارب بعدها رسول الله قريشا يوم الفتح فكان الظفر له . وهكذا كانت حروب على كرّم الله وجهه .. انتصر يوم الجمل ثم خرج الأمر بينه وبين معاوية على سواء ، وقد قتل من أصحابه رؤساء ومن أصحاب معاوية رؤساء ، ثم انصرف كل واحد من الفريقين بعد الحرب على مكانه . ثم حاربا بعد صفين أهل النهروان فكان الظفر له . وقد يأخذك العجب إذا لاحظت أن أول حروب رسول الله ﷺ كانت بدرا وكان فيها هو المنصور ، ثم كان من صحيفة الصلح والحكومة يوم صفين نظير ما كان من صحيفة الصلح والهدنة يوم الحديبية . ثم دعا معاوية فى آخر أيام على إلى نفسه وتسمى بالخلافة ، كما أن مسيلمة دعا إلى نفسه فى آخر أيام رسول الله ﷺ وتسمى بالنبوة ، وقد اشتد أمر معاوية على علىّ كما اشتد على رسول الله ﷺ أمر مسيلمة .

وقد مات على شهيدا بالسيف ، ومات رسول الله ﷺ شهيدا بالسم . ومن التشابه العجيب فى سيرة الرجلين أن رسول الله ﷺ لم يتزوج على خديجة أم أولاده حتى ماتت ، وكذلك علىّ لم يتزوج على فاطمة أم أشرف أولاده حتى ماتت . وقد مات رسول الله ﷺ عن ثلاث وستين سنة ، وكذلك على مات عن مثلها .

هذا وليس يسع مثلى أن أستوعب الحديث عن الإمام كرّم الله وجهه ، ولو أننى طاوعت نفسى لخرجت إلى ميادين واسعة لم يحملنى على الإمساك عن التجوال فيها إلا ثقتى بأن فضله كرّم الله وجهه لا يكاد يطمع فى تجليته للناس بيان . ذلك أن له فى كل أفق مطلعا يحتاج إلى كتاب ، ولهذا كان من الحق علينا ولمن يقرأ لنا أن نمسك عن الحديث المستوعب إلى كلمات قالها فى شأنه من هو أقرب إليه نسبا ، وأبصر به علما ، وأكثر له وفاء ، فذلك حيث نأخذ بيدك حفظك الله إلى هذا العنوان الجديد لنروى لك فى ظله ما يقوله الثقات من الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

الحيل الشرعية بين الحظر والإباحة

أسلفنا لك — رحمك الله — أن بعض أهل الإسلام ، كانوا يلجئون إلى الحيلة التي تجيز لهم شرعا بيع أمهات الأولاد . وفى هذا الفصل من هذا الكتاب ننتهز بك فرصة نحدثك فيها عن الحيل الشرعية بين فقهاء الإسلام .

وأول ما نبدأ به هذا الحديث تبيان حقيقة الحيلة ، إذ كان الحكم على أمر من الأمور يقتضى تصور ماهيته ليتسنى الحكم له أو عليه كما هو مقتضى المعقول والمنقول .

والحيلة — فيما ذكر الإمام الشاطبى — هى تقديم عمل ظاهر الجواز لإبطال حكم شرعى وتحويله فى الظاهر إلى حكم آخر . ومثاله أن يعمد إنسان له مال تجب فيه الزكاة فيهب ماله عند رأس الحول فرارا من الزكاة . وليس يخفى عليك أن الهبة جائزة فى الشريعة على أهلها ، كما أنه لا يخفى عليك أن صاحب المال لو وضع الزكاة من غير هبة لكان أمرا ممنوعا محرما . فإذا جمع صاحب المال بين الأمرين على قصد التخلص من الزكاة فقد صار مال الهبة المنع من أداء الزكاة ، وهو مفسدة عظيمة لضمير المسلم ، وضرر بليغ للذين استهدفت مصلحتهم الآية الكريمة من سورة التوبة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينَ ﴾[1] الآية الستون . وقد زاد هذا المعنى الذى ذكره الشاطبى شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية ، حيث قال ما نؤثر أن نرويه عن كتابه أعلام الموقعين :

إن تحريم الحيل يدل عليه الحديث الصحيح ، وهو قوله ﷺ : (لا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع ، خشية الصدقة — يعنى الزكاة) .

---

(١) التوبة ٦٠ .

فهذا الحديث نص فى تحريم الحيلة المفضية إلى إسقاط الزكاة أو تنقيصها بسبب الجمع والتفريق ، فإذا باع بعض النصاب قبل تمام الحول تحيلا على إسقاط الزكاة فقد فرق بين المجتمع ، فلا تسقط الزكاة عنه بالفرار منها .

ومما يدل على تحريم الحيل — أيضا — قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾[1] . فقد ذهب المفسرون من السلف ومن جاء بعدهم إلى أن معنى الآية : لا تعط يا محمد عطاء تطلب أكثر منه ، وهو أن تهدى ليهدى إليك أكثر من هديتك .

وهذا كله يدل على أن صور العقود غير كافية فى حلها وحصول أحكامها إلا إذا لم يقصد بها قصد فاسد . وكل ما يشترط فى العقد مما يؤدى إلى الفساد فقصده حرام فاسد ، واشتراطه إعلان للفساد ، وقصده ونيته غش ومكر وخداع ، فقد يكون أشد فسادا من الاشتراط ظاهرا من هذه الجهة ، والاشتراط الظاهر أشد فسادا منه من جهة إعلان المحرم وإظهاره .

ومما يدل على التحريم — أيضا — أن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعوا على تحريم هذه الحيل . ولا شك فى أن إجماعهم — رضى الله عنهم — حجة قاطعة ، بل هى من أقوى الحجج وآكدها ، ومن جعلهم بينه وبين الله فقد استوثق لدينه .

يدل على ذلك الذى نقول أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، خطب الناس ذات يوم على منبر رسول الله ﷺ فقال :

لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما بالحجارة . وقد أقره على ذلك سائر الصحابة . وكذلك أفتى عثمان وعلى وابن عباس وابن عمر بأن المرأة لا تحل بنكاح التحليل ، كما روى ذلك عن غير واحد من أعيان الصحابة كأبى بن كعب وابن مسعود وعبد الله بن سلام وابن عمر وابن عباس ، أنهم

نهوا المقرض عن قبول هدية المقترض ، وجعلوا قبولها من باب الربا .

على أن الذين ذكروا الحيل لم يقولوا إنها كلها جائزة ، ثم قد تكون طريق الاحتيال محرمة وقد تكون مكروهة . والحيل فى جميع صورها لا يحل لمسلم أن يفتى بها فى دين الله .

ومما يدل على بطلان الحيل وتحريمها أن الله تعالى إنما أوجب الواجبات وحرّم المحرمات من أجل أنها تتضمن مصالح عباد الله فى معاشهم ومعادهم . فالشريعة لقلوبهم بمنزلة الغذاء الذى لا بد لهم منه وبمنزلة الدواء الذى لا يندفع الداء إلا به . فإذا احتال العبد على تحليل ما حرم الله وإسقاط ما فرض الله وتعطيل ما شرع الله كان ساعيا فى دين الله بالفساد .

وبيان ذلك من عدة وجوه :

أحدها : إبطالها ما فى الأمر المحتال عليه من حكمة الشارع .

وثانيها : أن الأمر المحتال به ليس له عنده حقيقة ولا هو مقصوده .

وثالثها : نسبته إلى الشارع الكريم وإلى شريعته ما لم يشرعه ، ولو أن رجلا تحيل حتى قلب الغذاء والدواء إلى ضده ، فجعل الغذاء دواء والدواء غذاء لأهلك الناس بهذا التصرف .

ومن أعجب العجب أن يلتمس أرباب الحيل إسنادا لها من كتاب الله وسنة رسول الله وأقوال الصحابة وأئمة الإسلام . فتراهم يقولون : إن الله تعالى قال لأيوب : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾(١) . فهذا ما فى القرآن مما يشير إلى جواز التحليل .

ولعلك تريد أن ترى وجه الحيلة فيما ساقه القائلون بها عن طريق هذه الآية ، فاعلم رحمك الله أن العلامة البيضاوى روى فى تفسيره أن زوجة أيوب ذهبت لحاجة فأبطأت على زوجها المريض ، فحلف إن برىء ليضربنها مائة

---

(١) ص ٤٤

ضربة . فحلل الله له يمينه بذلك على أن يجمع فى حزمة واحدة مائة عود ريحان ثم أن يضربها بهذه الحزمة ، فيكون كأنه ضربها مائة ضربة .

وقد أخبر الله تعالى فى كتابه العزيز عن نبيه يوسف عليه السلام ، أنه جعل صواعه فى رحل أخيه لكى يتوصل بذلك إلى أخذ بنيامين من بين إخوته ، ثم أخبر تعالى أن ذلك كان برضاه وبإذنه على ما تشير إلى ذلك الآية الشريفة : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾(١) .

يقول تعالى إنه علم يوسف هذا التدبير الذى حصل بسببه على أخيه ، ولم يكن ليستطيع أن يأخذه على مقتضى شريعة ملك مصر لأن فيها ضربا وتغريما ، فهذا ما يتصل بالقرآن من تجويز الاحتيال وهو واضح لمن تدبر القرآن .

وأما ما يتصل بالسنة النبوية الشريفة ، فقد جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال له : احملنى يا رسول الله ، فقال له النبى : ما عندى إلا ولد ناقة . فقال الرجل : ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال ﷺ : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟

وأما ما يتصل بالسلف الصالح فقد رأت امرأة عبد الله بن رواحة عبد الله خارجا من عند جارية له ، فظنت أنه كان معها فغارت وغضبت لكرامتها أن يتركها ويذهب إلى جاريتها . فذهبت إليه مغضبة تقول له : لو وجدتك مع هذه الجارية التى كنت معها مرة أخرى لوجأت عنقك . فأنكر عبد الله بن رواحة رضى الله عنه أنه قد كان مع جاريته على الصورة التى كرهتها زوجته . فقالت له زوجته : إن كنت صادقا فاقرأ على شيئا من القرآن ، فقال أبياتا من الشعر تعمد أن يخلع عليها طريقة تلاوة القرآن حتى تظن الزوجة أنها من القرآن وهى ترى أن القرآن لا يقرؤه المسلم إلا وهو طاهر غير جنب . فمضى عبد الله يقول :

---

(١) يوسف ٧٦

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة كرام ملائكة الإله مسومينا

فلما سمعت المرأة هذا الشعر يقرؤه زوجها على طريقة تلاوته لكتاب الله الكريم ، قالت : آمنت بكتاب الله وكذبت بصرى . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فضحك ولم ينكر على عبد الله ما صنع . وهذا تحيل من عبد الله بإظهار القراءة يوهم بذلك أن هذا الشعر قرآن لكى يتخلص من سوء ظن زوجته به وعاقبة غيرتها عليه . وهذا بلا ريب احتيال لطيف المدخل يصلح أن يكون سندا لجواز التحيل فى شريعة الإسلام .

وأهل الورع من السلف الصالح فهموا من هذه الصور جواز التحيل ، وفى مقدمتهم محمد بن سيرين . فقد كان — رحمه الله — إذا جاءه بعض غرمائه يقتضيه دينا له عليه يقول له : أعطيك فى أحد اليومين إن شاء الله . وهو يريد بذلك يوما فى الدنيا أو يوما فى الآخرة .

فهذا كتاب الله ، وهذه سنة رسوله ، وهذا عمل الأبرار من أصحابه ، وهؤلاء هم أهل الورع من سلفنا الصالح ، وفى كل هذا آية بينة على جواز التحيل ، فماذا أنتم قائلون ؟

وانتهز الفرصة سانحة المبطلون للحيل فقالوا :

أما قوله تعالى لنبيه أيوب : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾(١) . فإن الجواب عن ذلك أنه ليس مما نحن فيه ، لأن من تأمل الآية الكريمة لا جرم أنه يعلم أن هذه الفتوى خاصة الحكم . ويدل على الاختصاص قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ . فيعلم المتدبرون أن الله

(١) ص ٤٤ (٢) ص ٤٤

سبحانه إنما أفتاه بهذا جزاء له على صبره وتخفيفا عن امرأته ورحمة بها ، وأيضا فإنه تعالى إنما أرشده إلى ذلك لألا يحنث فى اليمين .

وهذا يدل على أن كفارة الإيمان لم تكن مشروعة فيما أوحى الله على أيوب ، فإن تلك الشريعة لم يكن فيها حنث وكفارة عنه ، وإنما كان الحالف لا وسيلة له إلا البر فى يمينه .

وأما إخباره سبحانه عن يوسف عليه السلام أنه جعل صاعه فى رحل أخيه ، فالأمر فيها أهون مما تظنون ، وهو لا يدل على حيلة تحرم حلالا أو تحلل حراما ، وليس هذا مما نحن فيه .

وبتدبر هذه المعانى — على ما ينبغى لها أن يكون ما أثر عن الإمام كرّم الله وجهه من القضاء ببيع أمهات الأولاد مفترى عليه من مبغض له أو غال فى حبه . ونهج البلاغة الذى جمعه الشريف الرضى فيه من ذلك الباب الفاسد كثير ، وإلا فإن مما لا يقبله ذو عقل ولا ذو دين أن يوصف الإمام بأنه يبيع الأحرار ، وأم الولد قد حررها ولدها فلا يجوز بيعها فى حال .

نهج البلاغة فى موازين الناقدين

أما وقد بلغنا بك هذه المرحلة من القول فى أدب الإمام وتاريخه وما يتعلق بسيرته الشريفة — فقد آن لنا أن نتناول فى حديث غير مسهب الكتاب الذى دار حوله الحديث عن الإمام — كرّم الله وجهه — . وجملة القول فى ذلك أن الشريف الرضى قد جمع ما نسب إلى الإمام علىّ من حكم وخطب وكتب فى كتاب سماه نهج البلاغة . وقد تناول هذا الكتاب بالشرح والتفصيل العلامة أبو حامد بن أبى الحديد . ثم تناوله فى شرح موجز بأسلوب أديب لغوى عالم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضى الله عنه وأرضاه .

وأهل العلم والأدب يتشككون فى أمرين .

أولهما : هل الجامع لذلك الكتاب هو الشريف الرضى، أو أخوه العالم الشريف المرتضى ؟

وثانيهما : هل هذا الكتاب من كلام على أو هو من كلام أحد الشريفين ثم نسب إلى الإمام ؟

وهنا يقول العلامة ابن خلكان : إن الذى جمع نهج البلاغة ونسبه إلى الإمام هو الذى وضعه ، كما نص على ذلك العلامة الحافظ الذهبى فى كتابه ميزان الاعتدال . قال الذهبى : والكتاب مكذوب على أمير المؤمنين .

وقد بقيت بعد ذلك مسألة ، لعلها أولى بالاهتمام من كل ما عداها وهى ، ما أسباب الشك فى نسبة هذا الكلام إلى الإمام على ؟

ومرد ذلك فى مبلغ ما نعلم عن شيوخنا يرد إلى الأسباب التالية :

أولا : أن كتاب النهج لم تهتم بنقده ودراسته الكتب الأدبية والتاريخية التى

ظهرت قبل الشريف الرضى ، ولم تنقل شيئا مما احتواه النهج من كلمات الإمام .

ثانيا : أن ما ورد فى النهج من أفكار عويصة ونظرات دقيقة مما لا تصح نسبته إلى عصر الإمام .

ثالثا : إطالة الكلام إلى الحد الذى لم يؤلف إذ ذاك ، كما يشير إلى ذلك عهد الإمام إلى الأشتر النخعى .

رابعا : ما فى النهج من قول جارح وشتم صريح مما لا يصح تصوره عن سيد من سادات الصحابة ، تولى أدبه محمد رسول الله ﷺ .

خامسا : الأسلوب الصوفى والعبارات التى لم تعهد إلا فى أزمان متأخرة عن زمن الإمام قد جرت على ألسنة المتكلمين ، ومنها ما هو خطأ لغوى لا تصح نسبته إلى عهد الإمام ، ولا يتصور أن يتناوله سيد المتقين أفصح الفصحاء بعد رسول الله ﷺ ، وهو أبو الحسنين كرّم الله وجهه .

هذا ولم يستسلم الفريق الآخر لهذه الحجج بل فندّها واحدة فواحدة أولئك السادة الذين يؤمنون أوثق إيمان بأن كتاب النهج يشتمل على كلمات الإمام ، ثم يردون هذه الحجج فيقولون : أما الشبهة الأولى فنقول فى شأنها : إن جمع كلام بليغ من البلغاء فى كتاب واحد لم تجر به العادة قبل عصر الشريف الرضى إلا فى كلام رسول الله ﷺ ، أما من عداه فقد كان كلام الإمام مع ذلك مذكورا معروفا بالكثرة وقوة النسيج وصدق الاستيعاب ، فقد قال المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » : والذى حفظ الناس من خطبه فى سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة ، تداول الناس عنه ذلك قولا وعملا . ثم يقول الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » وقد أورد خطبة ذكر أنها لمعاوية فى نفر من قريش تباشروا بموته . وفى هذه الخطبة دروب من العجب منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب الذى من أجله

دعاهم معاوية ، ومنها أن هذا المذهب فى تصنيف الناس وفى الإخبار عنهم وعماهم فيه من القهر والذل ومن التقية والخوف ، إنما هو أشبه بكلام على وبمعانيه وحاله منه بحال معاوية ، وإنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم .

وهذه الخطبة ذكرها الشريف الرضى ومنها : « أيها الناس إنا قد أصبحنا فى دهر عنود ، وزمن كنود ، يعد فيه المحسن مسيئا ، ويزداد الظالم عتوا ، ولا ننتفع بما علمنا ، ولا نسأل عما جهلنا ، ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا ، فالناس أربعة أصناف : فمنهم من لا يمنعهم الفساد إلا مهانة نفسه ، وكلالة حده ، ونضيض وفره .

ومنهم المصلت بسيفه ، والمعلن بشره ، والمجلب بخيله ورجله ، قد أشرط نفسه وأوبق دينه ، لحطام ينتهزه أو مقنب يقوده أو منبر يفرعه ، ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا ، ومما لك عند الله عوضا .

وقد مضى الشريف الرضى فى استكمال الأصناف الأربعة ثم قال : وهذه الخطبة ربما نسبها من لا علم له إلى معاوية وهى من كلام أمير المؤمنين الذى لا يشك فيه ، وأين الذهب من الرخام ؟ وأين العذب من الأجاج ؟ وقد دل على ذلك الدليل ونقده الناقد البصير عمرو بن بحر الجاحظ .

وأما الشبهة الثانية التى هى استكثار هذه الحكمة والنظرة الدقيقة على الإمام ، فإنها مردودة أيضا إذا تمثلنا ما كان عليه — كرّم الله وجهه — من حصافة الرأى التى استمدها من عشرته لرسول الله وهو مشرق النور الإلٰهى ، وليس يستبعد ذلك من عرف عشرة الإمام لرسول الله منذ الصغر ، وملازمته له حتى أنه لم يتخلف عنه فى غزوة تبوك . وقد عرف على بين الصحابة بالذكاء ونفاذ البصيرة حتى كانوا يصدرون عن رأيه .

وإذا أضفنا إلى ذلك ما كان قد استفاده من التجارب أيام خلافته ،

وما درس من طبائع الناس وأحوالهم ، حكمنا بأنه جدير بأن يكون بالمثابة التى أضافوها إليه من بعد النظر وقوة الفراسة . ثم كيف نستبعد على الإمام علىّ أن يكون كما وصفنا ، وهذا عمر بن الخطاب قد دوخ الممالك بسياسته التى كانت موضع عجب المؤرخين ، ثم هو يقول : « لولا على لهلك عمر » . ويقول : لا يفتينَّ أحد فى المسجد وعلى حاضر » . وقبل ذلك وفوق ذلك قول رسول الله ﷺ فى على : (اللهم اهد قلبه وثبت لسانه) فكيف يستكثر المستكثرون عليه كرّم الله وجهه أن يكون من دقة الحس وبعد النظر وقوة الذكاء وصفاء الذهن ، بحيث يحوم فى أرفع الأجواء وأبعد الآفاق يتخير منها القول الصائب والمعنى الدقيق ، فى حكمة مسلمة ومثل سائر ؟ إن ذلك لغريب عجيب .

وأما الشبهة الثالثة الخاصة بالطول فى عهد الإمام للأشتر النخعى الذى بلغ خمسة وسبعين ومائتى سطر ، وفى خطبته المسماة بالقاصعة البالغة سبعة عشر ومائتى سطر ، وكذلك خطبة الأشباح البالغة سبعين ومائة سطر : نقول إن هذه الشبهة القائمة على الطول فليس الطول مستبعدا على فصاحة الإمام التى صارت مضرب الأمثال . والله إذا وهب المرء ملكة البيان سهل له طريق القول ، فإذا اتجهت نفسه إلى القول فبدأ به أفاض فيه . ثم إذا أضفنا — إلى ذلك — زهده وانصرافه عن زخارف الدنيا وعنايته بأمور الدين ، سهل علينا إدراك الداعى إلى هذه الكثرة فى كلامه والطول فيه . وأنت لا تجهل أن الإمام يعظ نفسه حين يعظ الناس ويحرك قلبه حين يحرك القلوب ، ثم هو يرى من العبادة لله أن يهدى الناس إلى الحق بعد ما بدأ الانصراف عن الدين . فهو يرى فى ذلك نوعا من الجهاد الذى وقف حياته عليه . وشبهة الناس هذه فى عهد على للأشتر أن الإمام عهد قبل ذلك إلى غير الأشتر فلم يطل ، ثم إنهم يضيفون إلى

ذلك أن الأشتر كان من الملازمين له ، فكأنه كان فى غنى عن هذه النصائح الطويلة .

ولكننا نقول إن العهد إلى الأشتر لا يقصد إليه وحده ، بل يتناول جميع من معه من عماله وأعوانه .

ثم إن الكتاب بعد ذلك دستور للعمل فى القضاء والجباية وغيرهما . ولسنا نستبعد مع ذلك أن يكون الغلاة فى حب على قد نسبوا له هذا العهد للدلالة على فضله ، وأن أحدا من الصحابة لا يدنو منه فى هذه الطريق .

وأما الشبهة الرابعة — القائمة على سب الإمام للصحابة فنقول فى شأنها : إنه قد انحصر ما ورد من سب عمر وعثمان وبعض الصحابة فى الخطبة المعروفة بالشقشقية ، كما ورد ذمه لمعاوية وعمرو فى كتب أرسل بها إليهما .

والكلام فى افتراء الشقشقية أو تحقيق نسبتها إليه — كرّم الله وجهه — قد تحدث به المتقدمون . وقد روى ابن أبى الحديد ما يؤيد نسبتها إليه فى كلام طويل يثبت أنها مروية فى كتب أخرى قبل أن يولد الرضى . ولكن نفيه اختراع الشريف لها لا ينفى أنها مدسوسة على الإمام قبل ذلك .

ومن حقك علينا أن نعرض عليك المقام الذى قيلت فيه هذه الخطبة ، وقد قالها الإمام بعد أن بايعه الناس فأقبلوا إليه مجتمعين حوله متزاحمين على بيعته حتى أرهقوا الحسنين وشقوا عطفه من شدة الزحام وكثرة المتزاحمين . فلما نهض بالأمر يريد لم الشعث وإصلاح الفاسد لم يجد من القلوب ثباتا معه على الحق . فبلغ منه اليأس كل مبلغ حتى هم بخلع نفسه لولا لزوم البيعة فى عنقه ، فذلك حيث يقول — كرّم الله وجهه — : « أما والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، لولا حضور الحاضر ، وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم ، لألقيت حبلها على غاربها » . فإن من الأخلق بك أن تعتبر هذه الخطبة نفثة مصدور ، وأنة

مكلوم ، طال عناؤه فيما يحاول من رد الكيد ، وخدع الحرب .

وليس يغيب عنك أن تلك الخطبة تبنى على معنى عام هو أن الخلافة فاتت عليا فى أول أمرها ، فلما صارت إليه كانت الأمور قد اضطربت والنفوس قد تدابرت ، فلم يتحقق غرضه من الإصلاح وحسن القيام على هذا التراث المستخلف عن رسول الله . وينبغى أن تؤمن يقينا أن طلب أولئك الصحابة للخلافة وحرصهم عليها لم يكن لغرض دنيوى وشهوة فى السلطان ، وإنما طلبوها لإقامة عمود الدين وتحقيق العدل بين الناس . وفى سيرتهم جميعا — رضى الله عنهم — ما يدل على أنهم بذلوا ثروتهم وأفنوا جهدهم ، وخالطوا الناس نهارهم وعسوا عليهم ليلهم ، التماسا لتحقيق العدالة وابتغاء لمرضاة الله عز وجل .

لذلك لا نستبعد أن يكون علىّ قد أسف على حرمانه من الخلافة أيام كان يستطيع أن ينفع ويثمر خيرا للإسلام والمسلمين . فإذا تصورت ذلك لم تجد بدا من أن تبيح له أن يقول فى أول هذه الخطبة : « أما والله لقد تقمصها فلان « أبا بكر » ، وإنه ليعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى ، ينحدر عنى السيل ولا يرقى إلى الطير » . وليس يخفى أن فى تأخره عن مبايعة أبى بكر ما يساعد على أنه — كرّم الله وجهه — يستجيز أن يقول هذه الكلمة .

ثم هو يقول فى الخطبة أيضا : « حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى فلان « عمر » بعده .

ومبلغ الظن بك فى حرصك على أن تؤتى كل ذى حق حقه ، تحملنا على أن نثق بأنك تشاركنا صادقا صريحا فى أن هذه الخطبة مفتراة على الإمام لأن مثلها لا يليق بمثله . وليس يتأبى على الذين نسبوا إليه خطبة تسلب عن الله تعالى صفات المعانى ، نقول ليس يتأبى على هؤلاء المغامرين أن ينسبوا إليه هذه الخطبة الشقشقية على ما فيها من تجريح للشيخين أبى بكر وعمر اللذين كانا

موضع حب رسول الله وتكريمه . فغير معقول ولا مقبول أن ينال على من رجلين كرمهما رسول الله ﷺ فى أحاديث لا تقبل التوهين ولا الإنكار .

وأما معاوية وعمرو وما كان من تعريض الإمام بهما فى خطبه ، فذلك أمر مقبول من الإمام — كرّم الله وجهه — نقبله منه ونقره عليه وليس عليه فى ذلك حرج ، من حيث كان اجتهاده قد أداه إلى اعتبارهما شاقين لطاعة المسلمين مريقين للدماء فى غير حق ، فكيف يستكثر منه شتم أو ذم أحدهما أو كليهما .

ومهما يكن من أمر فإن من الحقائق التى تبلغ منطقة اليقين أن الذين أبغضوا الإمام غلاة فى بغضه ، وأن الذين أحبوه غلاة فى حبه ، قد افتروا عليه ما لا يسوغ قبوله دون وقفات من التأمل تنفى ما اشتمل عليه مما لا يليق بالإمام وأمثاله من شرفاء الناس وقادة المسلمين .. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الشّعر فى النفس العربية فِطْرة

لا يرتاب أهل الذوق البيانى فى أن الشعر من الفنون الجميلة . ومهما اختلف العلماء فى تعريفه فإنهم متفقون جميعا على أنه لا يكون شعرا إلا إذا كان صادرا عن الطبع ومتصلا بذلك البهاء من جمال الفن ولطف التخيل ، وإلا فهو نظم لا صلة له بالشعر من قريب أو بعيد . وإذا كان المصور البارع يعرض عليك الصورة من نقشه فتستأسر لها عينك وتطمئن إليها نفسك بما انتظمته من لطف وأناقة وجمال ، فكذلك كان الشعر العربى الذى يتحدث عن الرياض فيكاد يسطع طيبها ، ويتعرض للغوانى فيساقط عليك اللؤلؤ من أحاديثهن . فإذا حكى طراد الفرسان كدت تمسك جنبيك حذارا من وقع رماحها ، فالشعر هو أغنية الزمان والحلية التى تضاعف من أثر البيان .

والعربى الذى وهبه الله الفطرة السوية والحس الدقيق والبيئة النظيفة من الأوبئة والأدران ، هو أشد الناس إعجابا بالجمال واستسلاما لسلطانه . ذلك أن العربى إنسان كغيره من أجناس البشر . سوى أن بين جنبيه عاطفة مشبوبة ، وقد طال إصغاؤها للأغانى الطبيعية المترددة فى أسجاع الطيور وحنين الإبل وتناوح الرياح ، فما هو إلا أن حكى صداها وشدا معها وصار وترا آخر من أوتارها دعته تكاليف العيش فى تلك البادية القاحلة إلى قطع المسافات البعيدة وهو على ظهر راحلته ، فى مثل أرجوحة الطفل ترقصه تلك الإيقاعات المتواليات التى أخذ يلقى على ضروبها من ألحانه الساذجة حداء لناقته ، إلى أن هدته تلك النفس الشاعرة إلى لون من الكلام المؤلف الموزون الذى هو عند التحقيق موسيقى ذات أنغام ، لا ينقصها إلا الوتر الذى يؤلف بين كلماتها ويخترع لها صورا تجعلها متعة للأنفس ومهفى للأرواح . فكل

عربيّ وكل عربية يستريح إلى الشعر إذا سمعه ، ويفرح به إذا قدر على نظمه فإذا هو بين يديه وسيلة إلى سعادة الدنيا بالحصول على المال ، أو بإرواء العواطف وما إلى ذلك مما لا يكون الإنسان إنسانا إلا به ، ولا يستطيع قهر شدائد الحياة إلا عن طريقه .

ولئن كانت تلك الخصائص للشعر قائمة فى نفس كل عربى وعربية ، إنها فى نفس الإمام علىّ أقوى قوة وأبين طريقا وأشبه بأن تردّ الأخلاف إلى الأسلاف . وقد رأيت أبا طالب نفسه كان شاعرا ، وأنه مدح رسول الله ﷺ بشعر لا بأس به . وقانون الوراثة حق لا تناله الشكوك ولا تغضّ من قدره الأوهام . فلأن يكون قد أخذ عن أبيه فى الحس المرهف الذى لا ندحة معه عن قول الشعر مهما قلّ أو كثر ، ثم هو بعد ذلك له خئولة فى بنى أسد ، وبنو أسد فيهم شعراء يرقى شعرهم بكل من يتناوله إلى آفاق عليا من مكارم الأخلاق .

وإذ كنا قد أعطيناك صورة من شعر والد الإمام فى شرف نفسه واعتزازه بآل بيته ، فإن من الحق أن نعطيك صورة من شعر بنى أسد الذين هم أخوال الإمام كرّم الله وجهه . وسوف ترى أن هذه الصورة الشعرية تصلح صورة لأخلاق الإمام كرّم الله وجهه ، فذلك حيث يقول العربى الجاهلى من بنى أسد :

وإنى لأستغنى فما أبطر الغنى ... وأبذل معروفى لمن يبتغى قرضى
وأعسر أحيانا فتشتد عسرتى ... وأدرك ميسور الغنى ومعى عرضى
وما نالها حتى تجلّت وأسفرت ... أخو ثقة منى بقرض ولا قرضى
واستنقذ المولى من الأمر بعدما ... يزلّ كما يزلّ البعير عن الدحض
ولست بذى وجهين فيمن عرفته
ولا البخلُ فاعلم من سمائى ولا أرضى

وأنت إذا تأملت هذا المعنى القائم على أن الإمام سليل رجل شاعر هو أبوه ، وأم أسدية ، فإنك لا تستبعد أن يكون الإمام كرّم الله وجهه شاعرا مهما يكن مقلّا فى هذا الباب من أبواب البيان العربى العظيم .

ولعلك تزداد يقينا بأن شاعرية الإمام مطاوعة لطبيعته الشريفة ، ومحلقة معها فى أرفع الآفاق ، وأنت تقرأ له هذين البيتين :

أخوك الذى إن أحوجتك مُلمة ... من الدهر لم يبرح لها الدهر واجما
وليس أخوك الحق من إن تشعّبت ... عليك أمور ظلّ يلحاك لائما

وقد تسأل إذا كان الإمام شاعراً ؟ فلمَ لم يقل شعرا يجعله خليقا بهذه الصفة ، إذا كان البيت والبيتان لا ينهضان دليلا على أن الرجل شاعر بنسبتهما إليه ؟

وجوابنا عن سؤالك هذا أن الشعر جاء عليه حين من الدهر كان مقترنا بالتكسّب ومدح الملوك وإشباع الغرائز الظامئة إلى متاع الحيوان ، والإمام كرّم الله وجهه بعيد كل البعد عن هذا السلوك المهين عند كبار الهمم والحراص على مكارم الأخلاق . ثم هو بعد لم تكن له قدوة فى جميع أطوار حياته إلا فى رسول الله ﷺ . وقد علم أهل العلم أن الله تعالى قد صان رسوله عن قول الشعر وانتظامه فى سلك الشعراء ، على ما تشير إلى ذلك الآية الكريمة من سورة ياسين: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ۝ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1] .

---

(١) يس ٦٩ ، ٧٠ .

المهدى الموعود ، رجاء وعزاء

إن هاتين الكلمتين : رجاء وعزاء ، تشيران فى هذا الفصل من الكتاب إلى المهدى الموعود فى حديث لرسول الله ﷺ ، ثم فى خطبة للإمام علىّ كرّم الله وجهه :

فأما الحديث فهو قوله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى يخرج من أهل بيتى رجل يواطئ اسمه اسمى ، يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا) .

فهذا الحديث يتضمن معنى الرجاء الذى يلوذ به المؤمن ليدفع عن نفسه حيرة اليأس من إصلاح المجتمع ، إصلاحا يقوم على منهاج الإسلام الحنيف بقيادة رجل من آل البيت النبوى الشريف .

ومهما اختلف علماء الحديث فى مبلغ الثقة بالسند الذى ينتسب به حديث المهدى إلى رسول الله ﷺ ، فإن من الحق علينا أن نلفتك أعزك الله — إلى أن تنشد الثقة به والاطمئنان إليه فى حديث رواه مجمع الزوائد عن أحمد ، والبزار عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصارى ، وفيه يقول رسول الله ﷺ : (إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب .. فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتند منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد .. فأنا أبعدكم منه)[1] .

فإذا اطمأنت — إلى حديث المهدى الموعود — نفسك وانشرح له صدرك ، فلا حرج عليك أن تأخذ به وترضى عنه وتعلن إلى الناس رأيك هذا فيه ، وسندك فى انتفاء الحرج عنك هذا الحديث الذى رواه مجمع الزوائد .

---

(١) هذا الحديث جاء فى كتاب « مشكل الحديث للعلامة الطحاوى ، وقد ذكره رحمه الله أن رجاله رجال الصحيح .

وربما زادك استمساكا به واطمئنانا إليه أن تتمثل سيد ولد آدم محمدا رسول الله وهو يقول ما يمهد لك السبيل إلى أن أهل البيت أمان من الفتنة ، وهداة من الضلالة ، ودعاة إلى صراط الله المستقيم ، فهم معقد الأمل ومناط الرجاء فى إحقاق الحق وتمكين العدل بين العالمين . إذ كان الله تبارك وتعالى قد أذهب الرجس عن آل البيت وطهرهم من الدنس وجعل وجودهم فى الأمة الإسلامية قرينا للكتاب العزيز فيها ، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ودعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فذلك ما يشير إليه الحديث الذى أخرجه جامع الأصول عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : (... ألا وإنى تارك فيكم ثقلين : **أحدهما** كتاب الله الذى من اتبعه كان على الهدى ومن تركه على الضلالة . **وثانيهما** : عترتى وأهل بيتى) .

ففى هذا الحديث الشريف سمى رسول الله ﷺ القرآن العزيز وأهل البيت النبوى .. ثقلين ، من حيث كان الثقل فى لغة العرب يعنى الشىء النفيس المصون ، ثم من حيث كانت النفاسة فيهما تقتضى القيام بما يجب لهما إعظاما لقدرهما وقضاء لحقهما ، مهما يكن ذلك ثقيلا شاقا على النفوس .

هذا ما يتصل بالرجاء فى عنوان هذا الفصل ، وأما ما يتصل بالعزاء فيه فليس يخفى عليك ما لقيه الإمام علىّ كرّم الله وجهه فى مختلف أطوار حياته من جحود لفضله ، وإسراف فى الغض من منزلته ، وإصرار على النيل منه بكل سلاح تناله يد صديق أحمق أو عدو كاشح ، حتى استشهد فى محرابه أزهد أهل الإيمان فى نعيم الدنيا وترف الجاه وعز السلطان . ولم يكن ليغيب عنه — فى فراسته القوية وتجربته الطويلة ونظرته السوية — أن آل أبى طالب سوف يمضون على الطريق نفسها التى مضى هو عليها ، وسوف يصيبهم ما أصابه من شدة البلاء التى تقضى بأهل العزائم إلى اقتحام الأخطار طلبا للظفر بإحدى الحسنيين : إقامة دولة الحق أو الشهادة فى سبيل الله . فلم يكن ليتأبى على

خاطره الشريف أن يتمثل له رجل من آل بيته يطلب الأمر ليتمكن به من الانتصار للمظلوم من الظالم ، ومن الثأر للمقتول من القاتل ، فى سلطان دولة تقوم مقام دولة الخلفاء الراشدين ، تحيا الرعايا فى سلطانها آمنة مطمئنة من غدر غادر وتسلط متسلط لا يؤنسه فى سلوكه حسب كريم ولا يزعه عن طغيانه دين قويم .

ولم يكن ليغيب عن الإمام كرَّم الله وجهه شيء من هدى رسول الله فى شأن من شئون الدنيا أو أمر من أمور الدين ، وقضية المهدى الموعود ليست بالمنزلة التى تتخطاها عناية رسول الله فى لمحة دالة أو إشارة مفهمة أو حديث صريح على مثال الحديث الذى ذكره ﷺ عن الثقلين من الكتاب والعترة . وذلك هو ما يحملنا على أن نفسح فى صدورنا مكانا لعقيدة المهدى الموعود عن طريق الخطبة التى نسبها الرضى إلى الإمام علىّ مشيرا فيها كرَّم الله وجهه إلى المهدى وأتباعه وصفاته ، فذلك حيث يقول كرَّم الله وجهه :

« أيها الناس إنه من استنصح الله وفقه ، ومن اتخذ قوله دليلا هداه للتى هى أقوم ، فإن جار الله آمن ، وعدوه خائف . وليس ينبغى لمن عرف عظمة ربه أن يتعظم ، فإن رفعة الذين يعلمون عظمة ربهم أن يتواضعوا له ، وإن سلامة الذين يعلمون قدرته أن يستسلموا له . فلا تنفروا من الحق أيها الناس نفار الصحيح مع الأجرب ، أو نفار البارئ من ذوى السقم . ثم اعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذى تركه ، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذى نقضه ، ولن تتمسكوا به حتى تعرفوا الذى نبذه ، فالتمسوا ذلك عند أهله فإنهم عيش العلم وموت الجهل . هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم ، وصمتهم عن نطقهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه ، فهو « بينهم » شاهد صادق ، وصامت ناطق » .

فهذه الخطبة تتضمن كلمات لا نجد حيالها منتدحا من وقفات توضح

الغامض وتفصل المجمل وتكمل ما يحتاج إلى تكميل . وأول هذه الوقفات حول ما يحبه الإمام لشيعته من التعلق بالله ومعرفة أوصاف الذين يعرفونه .

وجملة القول فى ذلك أن من استنصح الله بإطاعة أوامره عالما بأنه يهديه إلى مصالحه ، فإن الله تعالى لا يتخلى عنه بل يرشده إلى ما فيه الفلاح والنجاح ، ويصرفه عما فيه العطب والهلاك . وقد نهى — كرّم الله وجهه — عن التكبر والتعظم قائلا : إن رفعة الذين يعرفون عظمة ربهم منوطة بأن يتواضعوا لخلقه ، ابتغاء الثواب عنده وحده لا شريك له . وقد ورد فى ذم التعظم والتكبر على الناس فى أدب الإسلام وسلوك أهل الصلاح والتقوى من المسلمين ما لا سبيل إلى الإحاطة به . ورأس ذلك كله حديث عن رسول الله ﷺ يؤدب به أصحابه ، فيقول لهم ولكل من يؤثر القدوة بهم : (إن الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية وفخرها بالآباء . الناس كلهم أبناء آدم وآدم من تراب : مؤمن تقى ، وفاجر شقى ، ولينتهين أقوام يفخرون برجال إنما هم من فحم جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من حشرات الأرض) .

وثانيه الوقفات حول ما ينبغى للمؤمن أن يسلك السبيل إليه عالما به بصيرا بعواقبه وغاياته .

وجملة القول فى ذلك أن يعلم المرء أنه لن يعرف الرشد حتى يعرف الذى تركه فيتبرأ منه ، وليس له عذر فى الإصرار على ما كان عليه بعد أن استبان له وجه الحق فيه .

وثالثة الوقفات حول معرفة الطريق إلى النجاة من الآثام . وجملة القول فى ذلك أن على أهل الحق وأنصاره أن يلتمسوه عند أهله من آل بيت النبوة ، إذ كان حكمهم ينبئ عن علمهم ، لأن الامتحان يظهر خبيئة الإنسان ، وكذلك صمتهم ينبئ عن نطقهم لأن صمت العارف أبلغ من نطق غيره .

وهؤلاء الذين أمر الإمام باتباعهم هم « آل البيت وأنصارهم » ،

لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه ، فهو بينهم شاهد صادق ، وصامت ناطق .

وخليق بك أن تذكر أن الإمام كرّم الله وجهه كان شديد الأسف كلما تمثل مقامه بين الناكثين من أصحاب الجمل ، والقاسطين من أنصار معاوية ، والمارقين من غلاة الخوارج ، فكان مثله بينهم كمثل الذى قال :

تمنــــانى ليلقـــــانى أبـــــىٌّ   وددت وأينما منى ودادى
أريــدُ حياتــهُ ويريــدُ قتلى   عذيرك من خليلك من مراد

ذلك أن عاقلا يحتكم إلى مروءة أو دين، لا يمكن أن يرى الإمام عليًّا إلا آخذا بأوفر نصيب وأوفاه فى حياطة الإسلام بلسانه ويده ، ابتغاء أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى ، ثم ابتغاء أن يظهر الإسلام على الدين كله ولو كره المشركون .

ومن حق رجل هذا شأنه أن يعرف الناس قدره وأن يحوطوه بالتَّجِلّة والإكرام . فإن هم نازعوه جحودا لفضله وتجهما لسابقته ، فإنهم أهل للانصراف عنهم وتأليب أهل الرأى عليهم . وذلك هو مايسلكه الإمام خالصا مخلصا فى أكثر خطبه ومقالاته التى جمعها الرضى فى نهج البلاغة .

وإذا كان لكل ليل فجر ، ولكل ظالم نهاية ، فإن أولئك القاسطين زائلون مهما بدت دولتهم سابغة السلطان ، منيعة الأركان . ثم إن زوال دولتهم رهن بظهور صالح مصلح يضع الأمر فى نصابه ، ويرجع السيف إلى قرابه ، وذلك هو المهدى الموعود فى حديث رسول الله ﷺ . وإلى هذا الموعود يشير الإمام فى خطبته التى يومئ فيها إلى الملاحم فيقول كرّم الله وجهه :

« لقد أخذ أولئك الضالون يمينا وشمالا طعنا فى مسالك الغى ، وتركا لمذاهب الرشد ، فلا تستعجلوا ما هو كائن مرصد ، ولا تستبطئوا ما يجىء به الغد . فكم من مستعجل بما إن أدركه ود أن لم يدركه . وما أقرب اليوم من

تباشير الغد . يا قوم هذا إبان ورود الموعود ودنو طلعة ما لا تعرفون . ألا وإن من أدركها منا يسرى فيها بسراج منير ، ويحذو فيها على مثال الصالحين ، ليحل فيها ربقا[١] ، ويعتق فيها رقا ، ويصدع شعبا ، ويشعب صدعا ، فى سترة عن الناس لا يبصر القائف أثره ، ولو تابع نظره ، ثم ليشحذن فيها قوم شحذ القين النصل ، تجلى بالتنزيل أبصارهم ، ويرمى بالتفسير فى مسامعهم ، ويغبقون[٢] كأس الحكمة بعد الصبوح[٣] .

يقول الإمام كرّم الله وجهه فى خطبته هذه إن قوما من فرق الضلال ضلوا عن الطريق الوسطى التى هى منهاج الكتاب والسنة . ثم فسر قوله أخذوا يمينا وشمالا فقال إنهم طعنوا فى مسالك الغى وتركوا مذاهب الرشد . ثم نهى الإمام عن استعجال ما هو معد لا بد من كونه ووجوده ، وإنما سماه كائنا لقرب كونه . والعرب تجعل ما سيكون كائنا كما فى قوله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾[٤] . يعنى أنك ستموت يا محمد كما أن أعداءك سيموتون .

ثم نهى الإمام أهل الإيمان عن أن يستبطئوا ما يجىء فى الغد لقرب وقوعه ، كقول القائل « إن غدا للناظرين قريب » .

ثم قال الإمام : يا قوم لقد دنا وقت القيامة وظهور الفتن التى تظهر أمامها ، مشيرا إلى المهدى بقوله : « إنه هو الذى يسرى فى ظلمات تلك الفتن بسراج منير من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، تابعا مثال الصالحين ومقتفيا أثرهم ليحل فى تلك الفتن حبلا معقودا ، ويعتق رقا مضطهدا ، وينقذ

---

(١) الربق بكسر الراء : الحبل فيه عدة عرى يشد به إليهم وكل عروة ربقه .

(٢) الغبوق شرب آخر النهار .

(٣) الصبوح شرب أول النهار .

(٤) الزمر ٣٠

مظلومين من أيدى الظالمين ، ويصدع شعبا من جماعات الضلال ويجمع ما تفرق من كلمة أهل الهدى والإيمان . كل ذلك وهو فى سترة عن الناس ، إما لأنه لم يؤذن له بالظهور وإما لأنه لم يولد بعد فيكون مستترا مدة . وله دعاة يدعون إليه ويقررون أمره ، ثم يظهر هو بعد ذلك الاستتار فيملك الممالك ويقهر الدول ويمهد الأرض كما ورد فى قوله كرّم الله وجهه : « لا يبصر القائف الذى يعرف الآثار أثره ، ولو استقصى فى الطلب وتابع النظر والتأمل » .

ثم قال الإمام : « ليشحذن فيها قوم شحذ القين النصل » يعنى كرّم الله وجهه أن الناس سوف يحرضون فى هذه الملاحم على الحرب وقتل أهل الضلال فيشحذون عزائمهم كما يشحذ الصيقل السيف ويرقق حده . ثم وصف هؤلاء القوم الذين شحذت عزائمهم فقال : إن الله يكشف الغطاء عن قلوبهم بتلاوة القرآن عن طريق إلهامهم تأويله ومعرفة أسراره ، فيشربون كأس الحكمة كما يشرب الشارب فى الصباح وفى المساء وخليق بهؤلاء أن يكونوا أنصارا لولى الله الذى يجتبيه ويخلقه فى آخر أوقات الدنيا فيكون خاتمة الأولياء .

هذا وقد وصف الإمام أتباع المهدى بعد أن ذكر الفتن التى ستحدث فى آخر الزمان ، فقال فى وصفهم كلمات خليقه بالتأمل البصير لا يجهل منزلتها فى فصيح الكلام من له من الذوق العربى نصيب . فذلك حيث قال كرّم الله وجهه: « حتى إذا اخلولق الأجل، واستراح قوم إلى الفتن، واشتاكوا عن لقاح حربهم ، لم يمنوا على الله صبرهم على الأذى ، ولم يستعظموا بذل أنفسهم فى نصرة الحق ، فإذا وافق وارد القضاء انقطاع مدة البلاء ، حملوا بصائرهم على أسيافهم ، ودانوا لربهم بأمر واعظهم وقائدهم » .

يقول الإمام فى هذه الكلمات : إن أولئك الضالين لهم أجل ينتهى عنده أمرهم ، فإذا قارب أمرهم الانقضاء استراح قوم من شيعتنا وأوليائنا فرفعوا

أيديهم وسيوفهم عن أن يشب الحرب بينهم وبين هذه الفئة الضالة ، مهادنة ها وكراهية لقتالها ، فعند ذلك يكشف العارفون الذين اصطفاهم الله قلوبهم للناس، ويعالنونهم بعقائدهم مع تجريدهم سيوفهم من أجفانها إحقاقا للحق، وإقامة للعدل ، وإعلاء لألوية دولة المتقين التى يكون المهدى الموعود قائما بأمر الله فيها .. فيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا ، كما بشر بذلك رسول الله ﷺ بشارة من لا ينطق عن الهوى ، ومن ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق .

إن مما لا ريب فيه أن ثمة ما يصلح أن يكون تواترا معنويا يحمل على اليقين بالهدى ، الذى يرفع الله به خسيسة الإنسان فيرد الحقوق إلى أهل الحقوق ، فإذا الأرض من المشرق إلى المغرب راتعة فى مراتع العدل بعد أن كانت سائمة فى تيه من الظلم والجور . وسند هذا اليقين حديث رسول الله ﷺ الذى صدرنا به الحديث عن المهدى ، ثم خطبة الإمام على كرّم الله وجهه ، ثم ما استفاض على ألسنة الخاصة والعامة من حديث ذلك الإمام الغائب الذى تعلقت به أعظم الآمال فى صدور أهل الدنيا وأهل الدين .

وقد أسلفنا لك — حفظك الله — القول فى الحديث النبوى الشريف ، ثم أتبعناه خطبة للإمام على تجرى فى طريق الحديث تتغيا غايته الشريفة فى إحقاق الحق وإقرار العدل وإشاعة السلام بين العالمين .

وغير ذى حاجة إلى مزيد بيان ، أن المهدى الموعود فى حديث رسول الله ﷺ وفى خطبة الإمام كرّم الله وجهه ، كان معقد الأبصار ومهوى الأرواح ومفزع كل من ضاقت عليه سبل الحياة بظلم الظالمين وتسلط المتسلطين . ومن أجل هذا المعنى برزت فى مجتمع المسلمين فكرة المهدى المنتظر فى أثناء محنة آل البيت إبان عهد بنى أمية، ثم ازدادت وضوحا بازدياد هذه المحنة فى عهد بنى العباس الذين ظفروا بالخلافة عن طريق على وبنيه . وما زالت سنة الله ماضية

على أنه كلما اشتد البلاء ، قوى الأمل فى التخلص منه والقضاء على أسبابه ، مهما يكن هذا الأمل قائما فى صدور الناس على كواذب المنى ومراودات الأحلام .

وعلى غير هذه الطريق كانت تجرى الآمال فى مهدى آل البيت ، إذ كان الأمل فيه منبعثا عن الصدق الصادق فى الحديث النبوى الشريف الذى كان ينظر الناس إليه على أنه بشرى يسوقها رسول الله ﷺ ، تدفع عن المؤمن نار اليأس بأيديهم من الظلمات إلى النور . وكان مما يقوى هذه البشرى فى الحديث خطب الإمام التى كان يتحدث بها كرّم الله وجهه إلى أوليائه وشيعته ، فيجدون فيها أعظم معين على مصابرة الآلام والثقة بكشف الغمة وتفريج الكرب بعد زمن يقصر أو يطول .

وما إخالك إذا أسغت هذه الكلمات — إلا متطلعا إلى معرفة طليعة موكب المهدى فى التاريخ الموثوق .

فإذا كان أمرك كذلك ، فإنى محدثك بمبلغ علمى عن هذه الطليعة حديثا لا أركب فيه متن الخيال ، بل أستقيه من مصادر يتلقاها أهل العلم بالثقة والقبول ، فذلك حيث يقول من خبره عندنا كالعيان :

أول من ظفر بلقب المهدى فى موكب التاريخ هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب ويكنى « أبا عبد الله . وكان يقال له : « صريح قريش » لأنه لم تقم عنه أم ولد فى جميع آبائه وأمهاته وجيرانه ، وكان أهل بيته يسمونه المهدى ، ويقدرون أنه هو الذى جاءت فيه الرواية عن رسول الله ﷺ ، وكان علماء آل أبى طالب يرون فيه أنه هو النفس الزكية لنسكه وعلمه وزهده .

ومما يذكر فى تاريخه رحمه الله ما كان يحدث به أهل العلم من أن فاطمة بنت الحسين كانت تقوم من نساء بنيها مقام القابلة حين يضعن أولادهن . وذات

يوم قال لها بنوها : لقد خشينا أن نسمى بنى القابلة . ولكن السيدة أجابتهم فى حزم وإصرار فقالت : إن لى مطلبا لو ظفرت به لتركت ما ترون من قيامى مكان القابلة لنسائكم » . فلما كانت الليلة التى ولد فيها محمد بن عبد الله بن الحسن قالت : يا بَنِىّ إنى كنت أطلب أمرا وقد ظفرت به ، فلست بعائدة بعد اليوم إلى تقبيل نسائكم فى الولادة .

وفى حديث محمد هذا يقول سفيان بن عيينة : لقد رأيت عبد الله بن الحسن يأتى بمحمد بن عبد الله وبأخيه إبراهيم بن عبد الله إلى ابن طاووس فيقول له : حدثهما فلعل الله أن ينفعهما بحديثك . وقد كان ابن طاووس عالما زاهدا فقيها نصيرا لآل البيت النبوى الشريف .

فكان محمد بن عبد الله — بعد أن خالط طاووسا — يقول : إنى كنت أطلب العلم فى دور الأنصار فأتوسد عتبة أحدهم ، فيجيء إلى الرجل من المسلمين فيوقظنى قائلا : إن سيدك قد خرج إلى الصلاة فلا يرانى إلا عبدا ينام على أعتاب الدور .

ومن غرائب الأحاديث عن محمد بن عبد الله هذا ما يرويه المدائنى عن عيسى بن يزيد بن دأب من قوله : لقد رأيت أبا جعفر المنصور يوما وقد خرج محمد بن عبد الله بن الحسن من دار أبيه وله فرس واقف على الباب مع عبد له أسود ، وأبو جعفر ينتظره . فلما خرج وثب أبو جعفر يساعد محمدا حتى ركب ثم سوى ثيابه على السرج . فلما مضى محمد قلت لأبى جعفر : من هذا الذى أعظمته هذا الإعظام حتى أخذت بركابه وعنيت بتسوية ثيابه ؟ قال لى أبو جعفر : أو ما تعرفه ؟ هذا محمد بن عبد الله بن الحسن مهدينا أهل البيت . ثم لم يزل محمد بن عبد الله مهدى آل البيت فى رأى المنصور يتوارى عن الأعين ويراسل الناس بالدعوة إلى نفسه ويتسمى بالمهدى .

ولعلك رحمك الله لا ترتاب فى أن الملك عقيم ، وفى أن السياسة لا عقل لها ولا عاطفة . فإن أردت على ذلك دليلا فتمثل أبا جعفر المنصور وهو يأخذ

بركاب محمد بن عبد الله وينسوى عليه ثيابه ويدعوه مهدى آل البيت ، ثم تمثل أبا جعفر نفسه وقد أرسل أحد مواليه يتجسس على محمد بن عبد الله قائلا له : اجلس عند المنبر فاسمع ما يقوله محمد . فلما جاءه الغلام أنبأه أنه سمع محمدا يقول : إنكم لا تشكون أنى أنا المهدى . فما أن سمع أبو جعفر هذه الكلمات حتى فقد وقاره وتشيعه لآل البيت ، ثم قال : لقد كذب عدو الله ، وإنما المهدى هو ابنى أنا . ومازال أبو جعفر يطارد آل البيت ويحرض عليهم الناس حتى قتل منهم من شاء الله أن يقتل ، وفى طليعة أولئك الشهداء الأبرار محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب .

هذا وقد كنا تلقينا عن بعض شيوخنا وقرائنا عن بعض آخر منهم ، أحاديث عن المهدى المنتظر ، والثقة بأحاديثهم فى المجالس وبمقالاتهم فى الصحف والمجلات تدعونا إلى أن ندون هنا ما كنا كتبناه بعنوان : « المهدى المنتظر فى موكب التاريخ » فإليك — حفظك الله — هذا الذى كتبناه لا نقول فيه غير ما قلنا من قبل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل :

حق على البصراء بشئون الاجتماع البشرى أن يتطاولوا فى درس قضية المهدى المنتظر إلى أبعد مما ورد فى شأنه من حديث عن رسول الله ، وفيه يقول — ﷺ — : (لا تقوم الساعة حتى يخرج من أهل بيتى رجل يواطئ اسمه اسمى يملأ الأرض عدلا كما ملئت ظلما) .

ووجه هذا الحق ، أن هذا الحديث النبوى الشريف انتظم قضية ذات نتائج خطيرة فى حياة المتدينين . وهذه القضية تختلف عليها الآراء وتتصارع من حولها العصبيات بين متجهم لها ومرحب بها ، فإذا غبار المعارك بين الفريقين لا يكاد يأذن لذى نظر أن يستجلى الحق فيها أو يكشف عن وجه العبرة منها .

على أن من الحق علينا أن ندع النظر فى سند الحديث لمن هم أقدر عليه من رجال السنة النبوية الطهور ، وحسبنا نحن أن نحاول قضاء الحق لهذه العقيدة فى

كلمات نلم فيها بموكبه المرموق ، غير معتزين برأى نقع عليه ، ولا متجهمين حقا يلفتنا المخلصون إليه ممن هو أوثق علما وأبعد نظرا . وما أخطأ الطريق إلى مرضاة الله من أسلس للحق قياده ، وراض على الرضا به جماحه ، والمعصوم من عصم الله .

إن أول ما ينبغى البدء به فى الحديث عن المهدى المنتظر أن فيه حقا لسائر الديانات السماوية ، تهتف بنا إلى قضائه القرابة الدينية بين سائر المتدينين . ذلك أن كلا من اليهودية والمسيحية والإسلام يتطلع إلى مصلح يظهر فى آخر الزمان تشمخ فى ظله معالم العدل ، وتخفق بدعوته أعلام السلام الذى يرضاه الله ويسعد به المؤمنون .

فاليهود لا يزالون ينتظرون المسيح الذى يجدد لهم ملكهم قبل فناء الدنيا . والنصارى يرون فى المسيح عيسى بن مريم المسيح الذى بشرت به الأنبياء ، وهم يقولون برجوعه فى آخر الوقت لإبادة المسيخ الدجال . والمسلمون تعيش بينهم عقيدة المهدى الذى يظهر قبل قيام الساعة ، يعز الحق ويذل الباطل ويزيل الرجس ويعلى كلمات الله فى العالمين .

ومع أن ظهور مهدى منتظر أمر مسلم به بين أهل الديانات السماوية الثلاث ، إلا أن المسلمين يختلفون حول شخصه الشريف : فطائفة ترى أن ذلك المهدى هو المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، وطائفة ثانية ترى أنه علىّ ابن أبى طالب كرّم الله وجهه ، والشيعة الإمامية يرون أنه محمد بن الحسن العسكرى الذى ينتهى نسبه إلى زين العابدين بن الإمام الحسين من إحدى بنات كسرى الثلاث الذى زوجه بها الإمام كما أسلفنا ذلك من قبل .

ثم إن الثقات من أهل العلم يتناقلون الخبر الموثوق الذى يقول إن محمد بن الحسن العسكرى كان قد دخل صغيرا مع أمه سردابا بالحلّة من أرض العراق الشقيق ، جنبه الله تربص المتربصين ، ثم اختفى هنالك . فالشيعة ينتظرونه

عند باب السرداب كل يوم من غروب الشمس إلى مغيب الشفق وهم ينادون : « أيها الإمام لقد كثر الظلم وعم الجور وساءت الحال ، فاخرج إلينا لتنقذنا مما نحن فيه » .

وعلى مثل هذه الحال تتصرف الشيعة الإمامية فى « قاشان » من بلاد فارس ، فيركبون كل صباح إلى لقاء الإمام الغائب .

وما من شك فى أن تصرف الشيعة ومن على شاكلتهم حول قضية المهدى ، إنما مثله كمثل السالك سبيلا صحراوية فى يوم قائظ كاد يهلكه حر الظمأ ويشوى وجهه لفح الهجير ، ثم لاحت فى عينيه فى قلب الصحراء واحة ذات أشجار عالية وأثمار شهية ، فعلى قدر ما تستبينها عيناه وتسعى به إليها قدماه ، يغمر صدره برد الرِّى ، وتشيع فى جنباته مشاعر السكينة والسلام .

وما دام الحديث يقود إلى الحديث والأعاجيب تهتف بالأعاجيب فإن من الحق أن يتمثل الناس — فى هذا المعرض الكريم — سلوك متدينين من غير المسلمين جاوزت بهم العقيدة فى المهدى المنتظر مدارك العقول . وذلك أن الثقات من أهل المعرفة يذكرون — فى هذا الباب — رجلا مسيحيا إنجليزيا جاء إلى بيت المقدس ذات عام ، ثم أقام بواد هناك زعم أنه هو الوادى الذى تظهر فيه طلائع يوم القيامة من النشر والحشر بين يدى الحساب والجزاء على الأعمال . وقد كان هذا الإنجليزى المتدين مداوما على قرع الطبل كل صباح ، ينبه الناس من غفلتهم أو يوقظهم من غفوتهم حتى يكونوا على أهبة الاستعداد لمشاهدة الطلائع الأولى ليوم الدين .

وأعجب من ذلك أن يتناقل الثقات خبر سيدة بريطانية جاءت إلى القدس ، وكانت — كل يوم — تعد الشاى لأجل أن تقدمه للسيد المسيح ساعة وصوله .

وقد كان « لامارتين » الشاعر الفرنسى الشهير يحدث أنه زار — فى رحلته

بجبل لبنان ـــ السيدة « إستير ستانهوب » فى قرية « جوينا » فرأى عندها فرسا مسرجا على الدوام لكى يكون ركوبة للسيد المسيح عند وصوله .

وقد استعان بقضية المهدى المنتظر بعض الخاصة من المسلمين على إرضاء عواطفهم ، أو إنجاح دعواتهم الإصلاحية فى الزياد عن الحمى والدفاع عن المقدسات . فالدولة الفاطمية عندما ظهرت فى تونس أعلنت أن عبيد الله الذى أسسها هو المهدى المنتظر ، ومحمد بن تومرت ـــ عندما قام بمصمورة فى المغرب ـــ قام بالدعوة إلى المهدى وبها تأسست دولة الموحدين .

وفى أيام الدولة المرينية فى فاس قام رجل من تونس معلنا أنه المهدى معتصما برباط حصين ، وقد اجتمع من حوله رؤساء صنهاجة حتى قتله المصامدة ، وكذلك ظهر رجل آخر يدعى العباس وقال إنه المهدى . وفى السنغال ظهر رجل ادعى أنه المهدى وأحدث ثورة سنة ١٨٢٨ ثم أنكسر وذهبت ريحه .

ولما احتل الفرنسيون مصر أيام بونابرت اشترك مع المصريين فى الدفاع عن مصر رجل مغربى من ليبيا معلنا أنه هو المهدى المنتظر ، ومازال يقاتل حتى قتل .

ولما ثار أحمد عرابى لكرامة مصر والمصريين لم يكن صدره فارغا من الاعتزاز بالانتماء إلى البيت الكريم الذى يخرج منه المهدى المنتظر . وربما كان فيمن حوله من أهل العلم من يروى له الحديث الشريف : (إن الله ليبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة . من يجدد لها أمر دينها) ومقاومة ظلم الظلمة واستعمار المستعمرين أصل من أصول الدين ، وتجديد لدعوة سيد المرسلين . وما كانت ثورة أحمد عرابى إلا سالكة هذا النهج وماضية على هذه الطريق ، ولكن كيد الخيانة كان أكثر عددا وأقوى عُددا ، فاستسلم الرجل ثم نفى إلى سيلان بين شماتة عدو ورثاء صديق .

ولما كان شرف الثورات غاية الأحرار فى كل أفق ، لم يكن بد من قيام ثورة

فى السودان يقودها السيد محمد أحمد المهدى معلنا إلى الناس أنه هو المهدى المنتظر ، فاستجاب له فى ثورته ، مؤمنون مجاهدون ، لا يدرك صورة إقدامهم على الموت فى الدفاع عن حرماتهم إلا أولئك الذين تهيأت لهم السبيل إلى مشاهدة المعارك السودانية فى الأفلام التى تعرضها دور العرض وأجهزة التليفزيون فى مثل الفيلم العظيم الذى عرضه تليفزيون لندن فى أكتوبر سنة ١٩٧٩ تحت عنوان « عاصفة على النيّل » .

وربما ذكر مؤرخو ثورة السودان أن والد السيد المهدى كان يسمى « عبد الله » ، وأن المهدى كان له أخوان أسن منه وكان عملهما صناعة السفن فى النيل الأبيض وقد أرسلاه لتحصيل العلم فى نواحى الخرطوم ، فلما بلغ الخامسة والعشرين من سنه انقطع إلى العبادة والزهادة فى أحد الكهوف ، وقد استبان من ورعه وقوة دينه وشدة إعراضه عن الدنيا ما تحدث به الناس عنه وطار به فى الأفاق صيته ، فتبعته قبيلة « البقاره » وهى قبيلة عظيمة عريقة فى العروبة .

ويذكر ثقات المؤرخين هؤلاء أن والى السودان « رءوف باشا » كان قد أرسل لاعتقال المهدى مائتى جندى فقتلهم أنصاره ، وانحاز هو إلى جبل فى السودان وقد التف حوله السودانيون ، فجردت الحكومة المصرية المغلوبة على أمرها آنئاك جيشا تحت قيادة « جيفلر باشا البافارى » فهاجمه نحو خمسين ألفا من السودانيين الأبطال فأبادوه . ثم دخل المهدى « الأبيض » وجعل الأبيض كرسى حكمه .

وقد كان فى تلك الهزيمة المنكرة رادع لحكومة مصر عن معاودة سلوكها الخاضع لكيد الاستعمار وجشع السلطان ، ولكن المغلوب على أمره لا يكاد يفكر إلا فى استرضاء غالبيه والنزول على أوامر حاكميه ، ولذلك لم تلبث الحكومة المصرية أن جردت جيشا آخر تحت قيادة « هكس باشا » فأباده

السودانيون أيضا ، ثم أبادوا قوة غوردون باشا واستولوا على السودان كله .

ثم لما مات الإمام المهدى خلفه التعايشى أحد زعماء قبيلة « البقارة » واستفحل أمره فأمر الإنجليز مصر أن تتخلى عن السودان وتتركه وشأنه ، ثم مالبثوا أن جردوا جيشا من المصريين أيضا يقوده ضابط من الإنجليز على رأسهم الجنرال « كتشنر » ، فاستفتح هذا الجيش السودان بدم مصر ومال مصر ، ثم عاد الإنجليز يقولون للمصريين إن السودان مشترك بيننا وبينكم .

والحق الذى لا مرية فيه أن السودان كله لا مالك له إلا الله ، ثم الشعب الذى درج على أرضه واستظل بسمائه ، وأن مصر أولى به وأنه هو أولى بها ، نزولا على حكم الله تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١) .

وبالتأمل فى هذه الكلمات على ضوء التاريخ الواثق والأدب الإسلامى العريق ، لا يجد المنصف ندحة عن القول بأن الإمام عليًّا كرَّم الله وجهه كان ولا يزال وسوف يظل منارة يهتدى بها المجاهدون فى كل زمان ومكان ، لإحقاق الحق ودعم العدل وتأييد السلام الذى هو أخ الإسلام فى الاشتقاق اللغوى ، والأمن الاجتماعى ، والعمل الدائب على تكريم الإنسان الذى كرَّمه ربه فسخر له ما فى السماوات والأرض ، وسخره فى عبوديته رب السماوات والأرض ، وهى العبودية التى يتطاول إليها وينتهى عندها أقصى ما تبلغه حرية الأحرار .

---

(١) التوبة ٧١

هذا . ومن الحق علينا لله ثم لأبناء أمتنا العربية وأمتنا الأسلامية ، أن نجيب عن سؤال لا يكف عن الإلحاح فى طلب الجواب عنه : من آل البيت الذين ينتسب المهدى إليهم ، ويحمل فى دعوته الخيرة إلى الأمة شرف دعوتهم وسمو أخلاقهم ونبل سلوكهم ؟.

وجواب هذا السؤال ما أخرجه الترمذى وصححه من أحاديث .

أولها عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبونى لحب الله ، وأحبوا أهل بيتى لحبى) .

وثانيها : عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال ، دعا رسول لله ﷺ عليًّا وفاطمة وحسنا وحسينا وقال : (اللهم هؤلاء أهلى) .

وثالثها : عن أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها قالت : كنت جالسة على باب بيت النبى حين نزلت الآية : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾(١) . وقد كان فى البيت رسول الله ﷺ وعلىّ وفاطمة والحسن والحسين ، فجللهم رسول الله بكساء وقال : (اللهم إن هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) . فقلت : يا رسول الله : ألست من أهل البيت ؟ فقال ﷺ : (إنك إلى خير ، أنت من أزواج رسول الله) .

وقد أخرج الإمام مسلم عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : « خرج رسول الله ﷺ وعليه مرط مرجل أسود ، فجاء الحسن فأدخله ، ثم قال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾(٢) .

---

(١) (٢) الأحزاب ٣٣

وباستصحاب هذه الأحاديث التى لا شك فى صحتها ، يكون المهدى الموعود من سلالة البيت النبوى الشريف ومن أحفاد الإمام علىّ كرَّم الله وجهه . فمن زعم أنه المهدى وليس من أحفاد الإمام فهو دعى لا ثقة به ولا اعتبار لقوله ، فذلك هو قضاء رسول الله ﷺ . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

لكل بداية نهاية

ما أصدق ما قال الشاعر العربى :

لا بد من صنعا وإن طال السفر وإن تحنى كل ظهـــر ودبـــر

وقد طال بنا السرى وأرهقنا السير فى استجلاء سيرة الإمام كرَّم الله وجهه فى مظانها الموثوقة . وعلى الرغم من ذلك كله لم نجد ما نقوله فوق ما قلنا مهما لجأنا فى ذلك إلى الحقيقة أو المجاز ، إذ كان قدره ـــ كرَّم الله وجهه ـــ أجل وأعلى من أن تفيه حقه الكلمات بالغة ما بلغت من الإحاطة والشمول ، ولهذا لا نرى منتدحا ـــ وقد بلغنا هذه المرحلة من الحديث ـــ من أن نمسك عن الإملاء والله تعالى المسئول أن يجعل هذا الذى تفضل علينا به خالصا لوجهه الكريم ، وسبيلا لنا إلى القدوة بآل البيت وأحبائهم وذوى قرباهم . فذلك هو شرف الدنيا وشرف الدين ، والله سميع مجيب الدعاء ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، وبالإجابة جدير ، وصلى الله على محمد وآل محمد وعلى جميع صحابته الأكرمين ومن اهتدى بهديهم وتأدب بأدبهم إلى يوم الدين .

أحمد حسن الباقورى

مصر الجديدة ـــ القاهرة

فى يوم السبت السادس والعشرين من شهر رجب الفرد ١٤٠٤هـ

موافقا الثامن والعشرين من شهر نيسان (أبريل) سنة ١٩٨٤ م

المراجع

* القرآن الكريم
* السنة الشريفة
* تاريخ الطبرى
* إعلام الموقعين عن رب العالمين لشيخ الإسلام ابن القيم
* البداية والنهاية لابن كثير
* السيرة النبوية لابن إسحاق
* الروض الأنف للسهيلى
* نهج البلاغة لابن أبى الحديد
* شرح نهج البلاغة ــ للأستاذ الإمام محمد عبده
* عبقرية الإمام ــ للأستاذ العقاد
* عيون الأخبار ــ لابن قتيبة
* العقد الفريد لابن عبد ربه
* النجوم الزاهرة
* حياة الحيوان الكبرى ــ لكمال الدين الدميرى
* تاج العروس من جواهر القاموس للإمام الزبيدى
* لسان العرب لابن منظور المصرى
* المصباح المنير ــ للعلامة المقرى الفيومى
* أُسد الغابة فى معرفة الصحابة
* ديوان الشاعر الجُهنى عبد المطلب
* المعجم الوجيز ــ مجمع اللغة العربية المصرى
* تاريخ الأدب العربى ــ للأستاذ العلامة محمود مصطفى
* سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون

* حاضر العالم الإسلامي — للعالم الأمريكي لوثروب استودرد
* مقاتل الطالبيين — لأبي الفرج
* تاريخ الإمام زيد — للشيخ محمد أبو زهرة
* قصص الأنبياء — للأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار
* قضاء أمير المؤمنين — للشيخ التستري
* الكامل للمبرّد
* رغبة الآمل — للأستاذ العلامة المرصفي
* أبو طالب — للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل
* تاريخ الجمعيات السرية — للأستاذ محمد عبد الله عنان
* الإمام عليّ نبراس ومتراس — للأستاذ سليمان كتاني

رقم الإيداع : ٢٦٨٦ .
الترقيم الدولى : ٣ — ٠١٤٦ — ١١ — ٩٧٧